تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

297.207:D21hA v.2

الدريديرى، يحيى أحمد.

هداية القرآن لبني الانسان.

297.207
D21hA
v.2

JAFET LIB.
FEB 1978

JAFET LIB.
2 DEC 1976

297.207
D21hA
V.2
C.1

هداية القرآن
لبني الإنسان

موجز منتخب لتفسير القرآن

تأليف

يحيى أحمد الدرديري

دكتور في الحقوق وليسانسيه في العلوم السياسية

المجلد الثاني

يتضمن تفسير سورتى آل عمران والنساء
وهو بقية الجزء الثالث والأجزاء الرابع والخامس وبعض السادس من كتاب الله الحكيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٧٤ — ١٩٥٤

المطبعة السلفية - بمصر

موجز منتخب لتفسير القرآن

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ
كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝ (قرآن كريم)

بقلم الدكتور يحيى احمد الدردير

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين

سورة آل عمران

هذه السورة مدنية ، وعدد آياتها مائتان باتفاق العادّين ، نزلت بعد الأنفال . ووجه اتصالها بما قبلها أمور :

(١) أن كلا منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به ، فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبين بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ويقولون : كل من عند ربنا

(٢) أن فى الأولى تذكيراً بخلق آدم ، وفى الثانية تذكيراً بخلق عيسى ، وتشبيه الثانى بالأول فى أنه جرى على غير سنة سابقة فى الخلق

(٣) أن فى كل منهما محاجة لأهل الكتاب ، ولكن فى الأولى اسهاب فى محاجة اليهود ، واختصار فى محاجة النصارى . وفى الثانية عكس هذا . لأن النصارى متأخرون فى الوجود عن اليهود . فليكن الحديث معهم تالياً فى المرتبة للحديث الأول

(٤) أن فى آخر كل منهما دعاء . إلا أن الدعاء فى الأولى ينحو فى طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ، ورفع التكليف بما لا يطاق . وهذا مما يناسب بداءة الدين . والدعاء فى الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك فى الآخرة

(٥) أن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها . فبدئت الأولى باثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله : واتقوا الله لعلكم تفلحون .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) الله لا إله إلا هو الحى القيوم (٢) نزل عليك الكتب بالحق
مصدقا لما بين يديه وأنزل التورية والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس
وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيت الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو
انتقام (٤) إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء (٥) هو الذى
يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم (٦) هو الذى
أنزل عليك الكتب منه ءايت محكمت هن أم الكتب وأخر متشبهت ،
فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ،
وما يعلم تأويله إلا الله والرسخون فى العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا
وما يذكر إلا أولوا الألبب (٧) ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا
من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨) ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب
فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد (٩)

﴿ الم ﴾ اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور فقيل هى سر الله فى القرآن . ولله فى كل كتاب من كتبه سر فهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه ولا يجب أن يتكلم فيها ولكن نؤمن بها ونقرها كما جاءت . وقيل ذكر الله تعالى هذه الحروف احتجاجا على الكفار وذلك أن الرسول صلوات الله عليه لما تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا عنه ، أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها وعارفون بقوانين الفصاحة . فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن . فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر . وقيل إن الله تعالى أقسم بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث أنها أصول اللغات بها يتعارفون ويذكرون

الله ويوحدونه واقتصر على البعض والمراد الكل كما تقول قرأت الحمد وتريد السورة كلها . أقسم الله بها أن هذا الكتاب هو المثبت فى اللوح المحفوظ وقيل إنها أسماء السور وقيل غير ذلك . ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ تقرير لحقيقة التوحيد الذى هو أعظم قواعد الدين . والحى القيوم الذى قامت به السموات والأرض وتقدم تفسيره فى أول آية الكرسى وقد ذكر أن هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذى ابتدأ به من نفس الألوهية أن يكون لغيره ووصفه نفسه بالذى وصفها به فى ابتدائها احتجاجا منه بذلك على طائفة من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ من نجران لحاجوه فى عيسى صلوات الله عليه وألحدوا فى الله فأنزل الله عز وجل فى أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة نيفاً وثلاثين آية من أولها احتجاجاً عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيه محمد ﷺ . ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ أوحى اليك هذا القرآن المكتوب فيه ما يحقق أنه من عند الله تعالى فلا يحتاج إلى دليل من غيره على حقيقته أو معناه أن كل ما جاء به من العقائد والأخبار والأحكام والحكم حق ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أى مبيناً صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء أى كونها وحياً من الله ﴿ وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس ﴾ التوراة كلمة عبرانية معناها المراد الشريعة أو الناموس وأما لفظ الانجيل فهو يونانى الأصل ومعناه البشارة . قيل والتعليم الجديد . وانما المسيح مبشر بالنبى الخاتم الذى يكمل الشريعة للبشر . واما كونهما هدى للناس فهو ظاهر ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ والفرقان هنا ما يفصل به بين الحق والباطل قال بعضهم المراد به القرآن وقال غيرهم هو كل ما يفرق بين الحق والباطل فى كل أمر كالدلائل والبراهين . وقال آخر إن الفرقان هو العقل الذى به تكون التفرقة بين الحق والباطل وانزاله من قبيل إنزال الحديد لأن كل ما كان عن الحضرة العلية الالهية يسمى اعطاؤه إنزالا قال تعالى ﴿ وهو الذى نزل عليك الكتاب بالحق والميزان ﴾ والغزالى يفسر الميزان بالعقل الذى يؤلف الحجج ويميز بين الحق والباطل والعدل والجور وغير ذلك وفى الحديث « قوام المرء العقل ولا دين لمن لا عقل له » وفى حديث آخر « دين المرء عقله ومن

لا عقل له لا دين له ، ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله ﴾ التى أنزلها لهداية عباده وإرشادهم إلى طرق السعادة فى المعاش والمعاد ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ بما يُلقى الكفر فى عقولهم من الخرافات والأباطيل التى تطفىء نورها وما تجرهم اليه من المعاصى والمفاسد التى تدسى نفوسهم وتدنسها ، حتى تكون ظلمة عقولهم وفساد نفوسهم منشأ عذابهم الشديد فى تلك الدار الآخرة . ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ فهو بعزته ينفذ سننه فينتقم ممن خالفها بسلطانه الذى لا يعارض . والانتقام من النقمة وهى السطوة والسطة ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ لا يخفى عليه — لا يغيب عنه — أمر المؤمن الصادق والكافر والمنافق ولا حال من أسر الكفر واستبطن النفاق وأظهر الايمان والاصلاح ومن أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ الأرحام جمع رحم وهو مستودع الجنين من المرأة . والمعنى : هو الذى يجعلكم على صور مختلفة متغايرة وأنتم فى الأرحام . من النطف إلى العلق إلى المضغ ، ومن ذكورة وأنوثة ، ومن حسن وقبح ، إلى غير ذلك .

ومن عرف ما فى تصوير الأجنة فى الأرحام من الحكم والنظام علم أنه يستحيل أن يكون بالمصادفة والاتفاق ، وأذعن بأن ذلك فعل عالم خبير بالدقائق ، حكيم يستحيل عليه العبث ، عزيز لا يغلب على ما قضى به علمه وتعلقت به إرادته ، واحد لا شريك له فى إبداعه ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

روى ابن جرير وابن اسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا نحو ستين راكباً وخاصموه فى عيسى بن مريم وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان . فقال لهم النبى ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ؟ قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال ألستم تعلمون

أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم . . فعرفوا ثم أبوا إلا الجحود . فأنزل الله ﴿ الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر تلك الآيات

ووجه الرد عليهم : فهو بدأ بذكر توحيد الله لينفى عقيدتهم من أول الأمر ، ثم وصفه بما يؤكد هذا النفى كقوله الحى القيوم أى الذى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده . ثم قال إنه نزل الكتاب وأنزل التوراة لبيان أن الله تعالى قد أنزل الوحى وشرع الشريعة قبل وجود عيسى ، كما أنزل عليه وأنزل على من بعده فلم يكن هو المنزل للكتب على الأنبياء . وإنما كان نبياً مثلهم . وقوله ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ لبيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا بين الحق والباطل . وعيسى لم يكن واهباً للعقول . وفيه تعريض بأن السائلين تجاوزوا حدود العقل — وفى هذا وما قبله شىء آخر وهو الاشعار بأن ما أنزله الله تعالى من الكتب والفرقان يدل على اثبات الوحدانية لله تعالى وتنزيهه عن الولد والحلول أو الاتحاد بأحد أو بشىء من الحوادث — وقوله ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء ﴾ . رد لاستدلالهم على ألوهية عيسى باخباره عن بعض المغيبات ، فهو يثبت أن الإله لا يخفى عليه شىء مطلقاً سواء أكان فى هذا العالم أو غيره من العوالم السماوية . وعيسى لم يكن كذلك . وقوله ﴿ هو الذى يصوركم ﴾ الخ رد لشبهتهم فى ولادة عيسى من غير أب . أى أن الولادة من غير أب ليست دليلا على الألوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق . وإنما الإله هو الخالق الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء . وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه . ولذلك صرح بعد هـــذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعز والحكمة ، ولا يخفى ما فى ذكر الأرحام من التعريض بأن عيسى تكوّن وصوّر فى الرحم كغيره من الناس — « يصوركم » بمنحكم الصور كما يشاء . ويمنحكم الخصائص المميزة التى تجعل لكم صورة معينة بمحض إرادته وحده ﴿ لا إله إلا هو . العزيز ﴾ القادر على الصنع والتصوير لا يعجزه شىء

﴿الحكيم﴾ الذى يعرف فيما يصور ولمَ يصور . وماذا وراء الصور والأشكال ـ الحكيم فى تدبيره واعذاره ـ فهو المنفرد بالإيجاد والتصوير . العزيز الذى لايغلب على ما قضى به علمه وتعلقت به إرادته ـ الحكيم المنزه عن العبث فهو يوجد الأشياء على مقتضى الحكمة . ومن ثم خلقكم على هذا النمط البديع الذى لايتصور ما هو أدق منه وأحكم كما قيل : ليس فى الامكان أبدع مما كان

وهذا القول تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه أن يكون له فى ربوبيته ندّ أو مثل أو أن تجوز الألوهة لغيره ، وتكذيب منه للذين قالوا فى عيسى ما قالوا من وفد نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ وسائر من كان على مثل الذى كانوا عليه من قولهم فى عيسى ولجميع من ادعى مع الله معبوداً أو أقر بربوبية غيره ، ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته وعيداً منه لمن عبد غيره أو أشرك فى عبادته أحداً سواه فقال هو العزيز الذى لا ينصر من أراد الانتقام منه أحد ولا ينجيه منه وال ولا ملجأ ، وذلك لعزته التى يذل لها كل مخلوق ويخضع لها كل موجود . ثم أعلمهم أنه الحكيم فى تدبيره واعذاره إلى خلقه ومتابعة حججه عليهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حى عن بينة

ثم قال تعالى ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات ﴾ وهذا رد لاستدلالهم لبعض آيات القرآن على تميز عيسى على غيره من البشر ، إذ ورد فيه أنه روح الله وكلمته ، فهو يقول إن هذه الآيات من المتشابهات التى اشتبه عليكم معناها حتى حاولتم جعلها ناقضة للآيات المحكمة فى توحيد الله وتنزيهه

المحكمات من أحكم الشيء بمعنى وثقه وأتقنه . والمعنى بهذه المادة المنع ، فان كل محكم يمنع بأحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره . والمتشابه يطلق فى اللغة على ماله أفراد وأجزاء يشبه بعضه بعضاً ، وعلى ما يشتبه من الأمر أى يلتبس . وقد وصف القرآن بالأحكام على الاطلاق فى أول سورة هود بقوله ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ وهو من إحكام النظم وإتقانه ، أو من الحكمة التى اشتملت آياته عليها . ووصف كله بالمتشابه فى سوره الزمر ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾

أى يشبه بعضه بعضاً فى هدايته وبلاغاته وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف

ولا شك أن القرآن يصح أن يوصف كله بالمحكم وبالمتشابه من حيث هو متقن ويشبه بعضه بعضا فيما ذكر . والتقسيم فى هذه الآية مبنى على استعمال كل من المحكم والمتشابه فى معنى خاص ، ولذلك اختلف المفسرون :

قيل فى معنى المتشابهات : إن التشابه إنما يكون بين شيئين فأكثر . وهو لا يفيد عدم فهم المعنى مطلقاً كما قال بعض المفسرين . ووصف المتشابه فى هذه الآية هو للآيات باعتبار معانيها أى إنك إذا تأملت فى هذه الآيات تجد معانى متشابهة فى فهمها من اللفظ لا يجد الذهن مرجحاً لبعضها على بعض . وقالوا أيضاً : ان المتشابه ما كان إثبات المعنى فيه للفظ الدال عليه ونفيه عنه متساويين . فقد تشابه فيه النفى والإثبات ، أو مادل فيه اللفظ على شىء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح ، كالاستواء على العرش وكون عيسى روح الله وكلمته ، فهذا هو المتشابه الذى يقابله المحكم الذى لا ينفى العقل شيئاً من ظاهر معناه . أما كون المحكمات هن أم الكتاب فان معنى ذلك أنهن هن الأصل الذى دعى الناس اليه ، ويمكنهم أن يفهموها ويهتدوا بها ، وعنها يتفرع غيرها وإليها يرجع ، فأن اشتبه علينا شىء نرده اليها ، وليس المراد بالرد أن نؤوله بل أن نؤمن بأنه من عند الله وأنه لا ينافى الأصل المحكم الذى هو أم الكتاب وأساس الدين الذى أمرنا أن نأخذ به على ظاهره الذى لا يحتمل غيره إلا احتمالا مرجوحاً . مثال هذه المتشابهات قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وقوله ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ . هذا رأى جمهور المفسرين ، وذهب جمهور عظيم منهم إلى أنه لا متشابه فى القرآن إلا أخبار الغيب كصفة الآخرة وأحوالها من نعيم وعذاب

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾

أى أن الذين فى عقولهم زيغ عن الحق يتبعونه بظاهره أو بتأويل باطل ، أى أنهم يتبعونه بالانكار والتنفير استعانة بما فى أنفس الناس من إنكار مالم يصل اليه علمهم ولا يناله حسهم ، كاحياء بعد الموت وشئون تلك الحياة الأخرى

ابتغاء الفتنة . والتأويل هنا بمعنى الارجاع أى يرجعون إلى أهوائهم وتقاليدهم لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾

قال بعض السلف : ان قوله ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ كلام مستأنف ، وبعضهم أنه معطوف على لفظ الجلالة . واستدل الذين قالوا بالوقف عند لفظ الجلالة ويكون ما بعده استئنافاً بأدلة : (منها) أن الله تعالى ذم الذين يتبعون تأويله . (ومنها) قوله ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ فان ظاهر الآية التسليم المحض لله تعالى ومن عرف الشيء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض ، وهذا رأى كثير من الصحابة كأبيّ بن كعب وعائشة . وذهب ابن عباس وجمهور الصحابة إلى القول الثانى ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين فى العلم وأنا أعلم تأويله . وقالوا فى استدلال أولئك : ان الله تعالى إنما ذم الذين يتبعون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة ، والراسخون فى العلم ليسوا كذلك ، فهم أهل اليقين الثابت الذى لا زلزال فيه ولا اضطراب فهؤلاء يفيض الله تعالى عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع المحكم . وأما دلالة قولهم « آمنا به كل من عند ربنا » على التسليم المحض فهو لا ينافى العلم ، فانهم إنما سلموا بالمتشابه فى ظاهره أو بالنسبة إلى غيرهم لعلمهم باتفاقه مع المحكم ، فهم لرسوخهم فى العلم ووقوفهم على حق اليقين لا يضطربون ولا يتزعزعون بل يؤمنون على هذا وذاك على حد سواء لأن كلا منهما من عند الله ربنا

يعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحس والعقل فيقفون عند حدهم ولا يتطاولون إلى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل عن عالم الغيب ، لأنهم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه ، وانما سبيله التسليم ، فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ، فعلى هذا يكون الوقف على لفظ الجلالة لازماً وإنما خص الراسخين بما ذكر لأنهم هم الذين يفرقون بين المرتبتين ما يجول فيه علمهم وما لا يجول فيه . ومن المحال أن يخلو الكتاب من هذا النوع فيكون كله محكما بالمعنى الذى يقابل المتشابه . ومن الشواهد على أن التأويل هنا بمعنى ما يؤول اليه الشيء وينطبق عليه لا بمعنى

ما يفسر به قوله تعالى ﴿ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قدجاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فتبين مما قررناه أنه لا يقال على هذا لماذا كان القرآن منه محكم ومنه متشابه ، لأن المتشابه بهذا المعنى من مقاصد الدين فلا يلتمس له سبب لأنه جاء على أصله

﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا أرباب القلوب النيرة والعقول الكبيرة ، وإنما وصف الراسخون بذلك لأنهم لم يكونوا راسخين إلا بالتعقل والتدبر لجميع الآيات المحكمة التى هى الأصول والقواعد ، حتى إذا عرض المتشابه بعد ذلك يتسنى لهم أن يتذكروا تلك القواعد المحكمة وينظروا ما يناسب المتشابه منها فيردونه اليه . وهذا التخريج يصدق على أحد الوجهين ، وأما على القول بأن المتشابه ماكان نبأ عن عالم الغيب فهم الذين يعلمون أن قياس الشاهد على الغائب قياس بالفارق

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك انت الوهاب ﴾ . لما كان المتشابه مزلة الاقدام ومدرجة الزائغين إلى الفتنة وصل الراسخون الإقرار بالايمان به بالدعاء بالحفظ من الزيغ بعد الهداية . وليس للانسان بعد بذل جهده فى إحكام العلم فى مسائل الاعتقاد وإحكام العمل بحسن الاهتداء إلا اللجأ إلى الله تعالى بأن يحفظه من الزيغ العارض ويهبه الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة . فالرحمة فى هذا المقام الثبات والاستقامة . و ﴿ من لدنك ﴾ من عندك

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ جمع الناس وحشرهم واحد ، وجمعهم لذلك اليوم للجزاء فيه وهو يوم القيامة ، وكونه لا ريب فيه معناه أننا موقنون به لا نشك فيه لأنك أخبرت به ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه . قال أحد المفسرين : ان مناسبة هذا الدعاء للإيمان بالمتشابه ظاهرة على القول بأن المتشابه هو الإخبار عن الآخرة أى أنهم كما يؤمنون بالمتشابه يؤمنون بمضمونه والمراد منه وما يؤول اليه . وأما على القول بأنه لا يعلم تأويله

إلا الله والراسخون فى العلم فوجهه أنهم يذكرون يوم الجمع ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم فى ذلك اليوم ، فهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى من الزيغ . أعاذنا الله منه بمنه وكرمه

* * *

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَٰرِ (١٣)

يقال ان هذه الآية وما قبلها فى تقرير التوحيد ، سواء أكان ردا على نصارى نجران أو كان كلاماً مستقلا ، فان التوحيد لما كان أهم ركن للأسلام كان مما تعرف البلاغة أن يبدأ بتقدير الحق فى نفسه ، ثم يؤتى ببيان حال أهل المناكرة والجحود . ومناشىء اغترارهم بالباطل ، وأسباب استغنائهم عن ذلك الحق أو اشتغالهم عنه . وأهمها الأموال والأولاد . فهى تنبئهم هنا بأنها لا تغنى عنهم فى ذلك اليوم الذى لا ريب فيه ، إذ يجمع الله فيه الناس ويحاسبهم بما عملوا بل ولا فى أيام الدنيا لأن أهل الحق لا بد أن يغلبوهم على أمرهم ، وما أحوج الكافرين إلى هذا التذكير ـ ان الجحود إنما يقع من الناس للغرور بأنفسهم وتوهمهم الاستغناء عن الحق ، فان صاحب القوة والجاه إذا وعظ بالدين عند هضم حق من الحقوق لا يؤثر فيه الوعظ . ولكنه إذا رأى أن الحق له واحتاج إلى الاحتجاج عليه بالدين فإنه ينقلب واعظاً بعد أن كان جاحداً ، فهم لظلمة بصيرتهم وغرورهم بما أوتوا من مال وولد وجاه يتبعون الهوى فى الدين فى كل حال .

﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾ أى إن الذين جحدوا ما قد عرفوه من نبوة محمد ﷺ ـــ سواء

كانوا من بنى إسرائيل أم من كفار العرب — لن تنجيهم أموالهم التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار ، ولا أولادهم الذين يتناصرون بهم فى مهامّ أمورهم ويعولون عليهم فى الخطوب النازلة من عذاب الله شيئاً ، وقد كانوا يقولون نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾

وسيكونون يوم القيامة حطباً لجهنم التى تسعر بهم

الوقود ما توقد به النار من حطب ، أى أنهم سبب وجود نار الآخرة ، كما أن الوقود سبب وجود النار فى الدنيا ، أو أنهم مما توقد به . ولا نبحث عن كيفية ذلك فأنه من أمور الغيب التى تؤخذ بالتسليم

ثم ضرب لهم مثلا لينبههم إلى ما حل بمن قبلهم من الأمم التى كانت أقوى منهم جنداً وأكثر عدداً لعلهم يتعظون فقال :

﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ بأن أهلكهم ونصر موسى على آل فرعون ، ومن قبله من الرسل على أممهم المكذّبين . ذلك بأنهم كانوا بكفرهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فما أخذوا إلا بذنوبهم ، وما نصر الرسل ومن آمن معهم إلا بصلاحهم وإصلاحهم . فالله تعالى لا يحابى ولا يظلم ﴿ والله شديد العقاب ﴾ على مستحقه إذ مضت سنته بأن العقاب أثر طبيعى الذنوب وشرّها الكفر وما تفرع عنه ، فليعتبر المخذولون إن كانوا يعقلون

﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المغرورين بحولهم وقوتهم المعتزين بأموالهم وأولادهم : إنكم ستغلبون فى الدنيا وتعذبون فى الآخرة . قيل إن الخطاب لليهود ، وقد غلبهم المسلمون فقتلوا بنى قريظة الخائنين وأجلوا بنى النضير المنافقين وفتحوا خيبر . وقيل هو للشركين وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر ، وأتم الله نعمته بغلبهم يوم الفتح (مكة) . ولم تغن عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم ، وسينفذ وعيد الله فيهم فى الآخرة فيحشرون إلى جهنم ﴿ وبئس المهاد ﴾ ما مهدوا لأنفسهم ، او بئس المهاد جهنم :

المهاد الفراش ، يقال مهد الرجل المهاد إذا بسطه ، ويقال مهد الأمر إذا هيأه وأعده

﴿ قد كانت لكم آية فى فئتين التقتا — فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ — ان الاعتبار ببعض حوادث الزمان أوضح آية على بطلان هذا الحسبان ، فذكر الفئتين أو الطائفتين اللتين التقتا فى القتال هو من قبيل المثال ، والجمهور على أن الآية هى ماكان فى وقعة بدر ، وإنما كان الخطاب لمشركى العرب . وثبت أن نزول الآية كان بعد وقعة بدر وقد كانت الفئة الكافرة فى بدر ثلاثة أضعاف المسلمة ، ويصح أن يكونوا مع ذلك رأوهم مثليهم فقط لأن الله قللهم فى أعينهم كما ورد فى سورة الأنفال . على أن الكلام ليس نصاً فى وقعة بدر واليهود قد شهدوا مثل ذلك فى الماضى ، وقد علم أن القرآن يسند إلى الحاضرين من الأمه عمل الغابرين لإفادة معنى الوحدة والتكافل وظهور أثر الأوائل فى الأواخر ، ورأوا مثله فى زمن الخطاب فى حربهم للسلمين . وقوله تعالى ﴿ رأى العين ﴾ مصدر مؤكد ليرونهم ، وهو ظاهر إذا كانت الرؤية بصرية ، وأما إذا كانت علمية اعتقادية كما ذهب اليه بعضهم فى المعنى على التشبيه ، أى تعلمون أنهم مثليهم علماً مثل العلم برؤية العين . وجملة القول أن الآية ترشد إلى الاعتبار بمثال الوقعة المشار اليها التى غلبت فيها فئة قليلة فئة كثيرة بإذن الله ولذلك قال ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء ﴾ أى والله يقوى بمعونته من يشاء كما أيد أهل بدر بتكبيرهم فى عين العدو ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ أى لأصحاب الأبصار الصحيحة التى استعملت فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور بقصد الاستفادة منها ، أى إن فى هذا النصر مع قلة عددهم وكثرة عدوهم عظة لمن عقل وتدبر فعرف الحق وثلج قلبه ببرد اليقين

ووجه العبرة لذوى البصائر السليمة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة باذنه تعالى ، وقوله ﴿ تقاتل فى سبيل الله ﴾ يرشد إلى السر فى هذا الفوز ، لأنه متى كان القتال فى هذا السبيل أى لحماية الحق

والدفاع عن الدين وأهله فإن النفس تقبل عليه بكل ما أوتيت من قوة ، وما أمكنها من تدبير واستعداد ، علماً منها بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ فها أنت ترى أن الله أمر المؤمنين بالثبات وبكثرة ذكره لشد العزائم والنهوض بالهمم ، وبالطاعة لرسوله ، وكان هو القائد لتلك الواقعة — واقعة بدر — وطاعة القائد من أهم أسباب الظفر والنجاح فى ميدان القتال

وقد امتثل المؤمنون ما أوصاهم به ربهم بقدر طاقتهم . فوجد لديهم الاستعداد والعزيمة الصادقة فقاتلوا ثابتين واثقين بنصر الله ، فنصرهم وفاء بوعده ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾

وغزوات الرسول وأصحابه تفسر ما ورد فى هـــذه الآيات . ولما خالفوا ما أمروا به فى غزوة أحد نزل بهم ما نزل . وفى هذا أكبر عبرة لمن تذكر واعتبر

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنٰطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعٰمِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتٰعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَـَٔابِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا رَبِّهِمْ جَنّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهٰرُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوٰنٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَــــذَابَ النَّارِ (١٦) الصّٰبِرِينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالْقٰنِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)

بعد أن بين سبحانه قبل هذا اشتغال الكافرين بالأموال والأولاد ، وإعراضهم عن الحق وانهماكهم فى اللذات ذكر هنا وجه غرورهم بذلك تحذيراً لهم من جعلها مطية لشهواتهم ، وتذكيراً لهم بأنه لا ينبغى أن تجعل هى غاية الحياة فتشغلهم عن أعمال الآخرة التى جعلت الدنيا مزرعتها والوسيلة لكسب السعادة فيها

﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ الناس هم المكلفون ، لأن الكلام فى إرشادهم . والشهوات — وهى جمع شهوة — هى انفعال النفس بالشعور بالحاجة إلى ما تستلذه ، والمراد هنا المشتهيات على طريق المبالغة ، وهى شائعة الاستعمال يقال هذا الطعام شهوة فلان أى مشتهاه . ومعنى تزيين حبها لهم أى أن حبها مستحسن عندهم لا يرون فيه شيئاً (قبحاً) ولا غضاضة . والمراد أن الله تعالى أنشأ الناس على هذا وفطرهم عليه . ثم بين المشتهيات التى يحبها الناس ، وحبها مزين لهم وله مكانة فى نفوسهم بقوله ﴿ من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ﴾ فهذه ستة أنواع — أولها حب النساء ، وحبهن لا يعلوه حب لشىء آخر من متاع الحياة الدنيا ، فهن مطمح النظر وموضع الرغبة وسكن النفس ومنتهى الأنس ، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال فى كدهم وكدحهم . والمراد بحب النساء حب الزوجية الذى يكون بين المرأة والرجل . والسبب الطبيعى لهذا الحب هو داعية النسل لا قصده ، فذكر أقوى طرفيه لأن قصد التمتع فيه أظهر ، وأثره فى الانصراف عن الحق أو الاشتغال عن الآخرة أقوى

النوع الثانى حب ﴿ البنين ﴾ أى الأولاد ، فاكتفى بذكر ما كان حبه أقوى والفتنة به أعظم على طريق التغليب . وحب الأولاد يكاد يكون كحب النفس لا علة له غير ذاته — وحكمة الخالق فى حب الزوجية وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل وبقاء النوع ، وهى حكمة مطردة فى غير الناس من الأحياء

النوع الثالث ﴿ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ أى كثرة المال ، وهو مما أودع فى الغرائز ، وعلته أن المال وسيلة إلى الرغائب . وموصل إلى الشهوات واللذائذ . ورغائب الانسان غير محدودة ، وأفراد لذائذه غير معدودة ، والتعبير بالقناطير المقنطرة يشعر بأن الكثرة هى التى تكون مظنة الافتتان لأنها تشغل بالتمتع بها القلب وتستغرق فى تدبيرها الوقت حتى لا يكاد يبقى فى قلب صاحبها منفذ للشعور بالحاجة إلى غيرها من طلب الحق ونصرته فى الدنيا . وما

بعث الله رسولا فى أمة ولا مصلحاً فى قوم إلا وكان الأغنياء أول من كفر وعاند وأبى واستكبر ، وان مؤمنى الأغنياء أقلهم عملا وأكثرهم زللا . والقنطار معروف ، وزنه مائة رطل ويعبر عنه بالمال الكثير بعضه على بعض ، والمقنطرة المحكمة العقدة وقيل المضروبة من دنانير أو دراهم وقيل المكنوزة

النوع الرابع ﴿ الخيل المسومة ﴾ قال بعضهم ان الخيل المسومة هى الراعية ، وقيل هى المطهمة الحسان أو المعلمة بالألوان ، وقيل المرسلة على القوم . ومادة سام الدابة رعاها وأسامها أرعاها وأخرجها إلى المرعى

النوع الخامس ﴿ الأنعام ﴾ ، وهى الإبل والبقر عرابها وجواميسها ، والغنم ضأنها ومعزها . والأنعام مال أهل البادية بها ثروتهم وفيها تكاثرهم وتفاخرهم ومنها معايشهم ومرافقهم

النوع السادس ﴿ الحرث ﴾ أى الزرع والنبات نجمه وشجره على اختلاف أنواعه ، وهو قوام حياة الانسان والحيوان فى البدو والحضر . ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ أى ذلك الذى ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس فى حياتهم الدنيا أى الأولى ، والله عنده حسن المرجع فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موت الناس وبعثهم . فلا ينبغى لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل . فعلى المؤمن التقى أن لا يفتتن بهذه الشهوات ويجعلها أكبر همه والشاغل له عن آخرته ، فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد فى الدارين .

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالا - أمر رسوله بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والحث على فعل الخيرات .

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ أأخبركم بخير مما تقدم من الشهوات ، وكون ما سيأتى فى جواب الاستفهام خيراً من تلك الشهوات يشعر بأن تلك الشهوات خير فى نفسها أو ليست بشر ، والصواب أنها خير ومن أجل النعم إذا لم تشغل صاحبها

عن طاعة الله وأداء ما عليه من فروض وواجبات . أما الجواب عن الاستفهام فهو قوله ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ﴾ جعل ما أعده للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين : نوعاً جسمانياً نفسياً وهو الجنات وما فيها من الخيرات والأزواج المطهرات مما يعهد فى نساء الدنيا من الشوائب . ونوعاً روحانياً عقلياً وهو رضوان الله . والمعنى رضوان عظيم لا يشوبه ولا يعقبه سخط ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ فالمتق عند الله هو من يعلم الله منه التقوى قولا وعملا ، وفى هذا تنبيه للناس وإيقاظ لمحاسبة نفوسهم على التقوى لئلا يغشهم العجب بأنفسهم فيحسبوها متقية وما هى بمتقية .

﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا ﴾ وصف أهل التقوى بشأن من شئونهم ، وهو أنهم لتأثر قلوبهم بالتقوى التى هى ثمرة الايمـــان تفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الايمان فى مقام الابتهال والدعاء ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النـــار ﴾ إنهم رتبوا طلب المغفرة والوقاية من النار على الايمان ، والله يقول ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ . والمراد بالايمان فى الآية الايمان الصحيح الذى تصدر عنه آثاره من ترك المعاصى وعمل الصالحات لتتفق الآية مع سائر آيات القرآن الموافقة للعقل والعلم بطبيعة البشر ولإجماع السلف على أن الايمان قول ، واعتقاد ، وعمل

وصف الله المتقين بهذه الصفات التى استحقوا بها تلك الدرجات :

﴿ الصابرين ﴾ : « الصبر ملكة فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله ، والرضا بما يكره فى سبيل الحق . وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق . وما أتى الناس من شىء مثل ما أتوا من فقد الصبر أو ضعفه . كل أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها ضعف فيها كل شىء ، وذهبت منها كل قوة »

ويعلم مما تقدم أن تقديم ذكر الصابرين على ما بعده لأنه كالشرط ، إذ لا يتمّ

بدونه الصدق والقنوت والاستغفـــار فى الأسحار ، وهو الوقت الذى يطيب فيه النوم ويشق القيام

﴿ والصادقين ﴾ : والصدق يكون فى القول والعمل والوصف . يقال : فلان صادق فى عمله ، صادق فى جهاده ، وصادق فى حبه ، كما يقـال صـادق فى قوله . ويدخل فى ذلك الايمان والنية . والصدق منتهى الكمال فى كل شىء ، وحسبك فى بيان الصدق وجزائه قوله عز وجل ﴿ والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ فقد جعل الصدق ملاك الدين كله وجامع حقيقته

وقد فسروا ﴿ القانتين ﴾ بالمطيعين وبالمداومين على الطاعة والعبـــادة ، أى على روح العبادة ولبابها لا على صورها ورسومها

﴿ والمنفقين ﴾ : المنفقون معروفون ، ولم يعين النفقة ولا المنفق عليه ، فعلم أن المراد بهم المنفقون للمال فى جميع الطرق المشروعة : من واجبة ومستحبة ، لا يمنعون حقاً ، ولا يقبضون أيديهم عن شىء من اعمال البر

وفسروا ﴿ المستغفرين ﴾ بالمصلين . وروى فى تفسير الاستغفار هنا بالصلاة وقت السحر وبصلاة الصبح أى لأول وقتها ، لأن العبادة تكون حينئذ أشق على أهل البداية ، لأنه الوقت الذى يطيب فيه النوم ويعزب الرياء ، وأروح لأهل النهاية لأن النفس تكون اصفى والقلب افرغ من الشواغل

والاستغفار المطلوب ما يقرن بالتوبة النصوح ، والعمل وفق حدود الدين ، ولا يكفى الاستغفار باللسان مع الادمان على فعل المنكر . فان المستغفر من الذنب وهو مصرّ عليه كالمستهزىء بربه ، ولا يغتر بمثل هذا الاستغفار إلا جاهل بدينه أو غرّ فى معاملته لربه ، ومن ثم اثر عن بعض الصوفية قوله : استغفارنا يحتاج إلى استغفار

° ° °

شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ والمَلٰئِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إلهَ إلاّ هَوَ العَزِيزُ الحَكِيم (١٨) إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسْلٰمُ ، وما اختَلَفَ الذينَ أُوتُوا الكِتٰبَ إلاّ مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بينَهمْ ، ومَنْ يَكفُرْ بآيٰتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَريعُ الحساب (١٩) فإنْ حاجُّوكَ فقُلْ أسْلَمْتُ وَجْهِىَ للهِ ومَنِ اتَّبعَنِ ، وقُلْ للَّذينَ أُوتُوا الكِتٰبَ والأُمِّيِّينَ ءأسْلَمْتُمْ ، فإنْ أسْلَمُوا فقَدِ اهتَدَوا ، وإنْ تَوَلَّوْا فإنَّما عليكَ البَلٰغُ ، واللهُ بَصيرٌ بالعِباد (٢٠) إنَّ الذِينَ يَكْفُرُونَ بآيٰتِ اللهِ ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بغيرِ حَقٍّ ويَقْتُلونَ الَّذينَ يَأْمُرونَ بالقِسْطِ فَبَشِّرْهم بعَذابٍ أليم (٢١) أُولٰئِكَ الَّذينَ حَبِطَتْ أعمٰلُهُمْ فى الدُّنيا والآخِرَة وما لهُمْ من نٰصِرِين (٢٢)

بعد أن بين سبحانه جزاء المتقين وشرح أوصافهم التى استحقوا بها هذا الجزاء ، ذكر هنا أصول الإيمان وأسسه فقال :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ .

الشهادة بالشىء هى الإخبار به عن علم بالشهادة الحسية أو المعنوية . وهى الحجة والدليل . وهو المختار هنا ، ولكن يرد عليه أنه إثبات للتوحيد بالنقل ، وهو فرع عنه لأنه إذا لم يثبت توحيد الله لا يثبت الوحى . ويجاب عنه بأن شهادة الله فى كتابه مؤيدة بالبراهين التى قرنها بها وبالآيات على صدق الرسل . وشهادة الملائكة للأنبياء مقرونة بعلم ضرورى هو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات البديهية ، وبتلك الدلائل التى أمروا بأن يحتجوا بها على الناس . وشهادة أولى العلم تقرن عادة بالدلائل والحجج ، لأن العالم بالشىء لا تعوزه الحجة عليه . وأولو العلم هم أصحاب العلم البرهانى القادرون على الإقناع ، وهم معروفون فى هذه الأمة وفى الأمم السابقة

أما قوله تعالى ﴿ قائما بالقسط ﴾ فمعناه أنه تعالى شهد هذه الشهادة قائما بالقسط وهو العدل فى الدين والشريعة ، وفى الكون والطبيعة

ثم أكد كونه منفرداً بالألوهية وقائما بالعدل بقوله :

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ تفرد بالألوهية وكال العزة والحكمة ، فلا يغلبه أحد على ما قام به من سنن القسط ولا يخرج شيء منها عن مقتضى الحكمة البالغة . فان العزة إشارة إلى كال القدرة — والحكمة إيماء إلى كال العلم . والقدرة لا تتم الا بالتفرد والاستقلال . والعدالة لا تكمل إلا بالاطـلاع على المصالح والأحوال

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ : الدين فى اللغة الجزاء والطاعة والخضوع . أى سبب الجزاء . ويطلق على مجموع التكاليف التى يدين بها العباد لله ، فيكون بمعنى الملة والشرع . والاسلام مصدر أسلم وهو يأتى بمعنى خضع واستسلم ، وبمعنى أدى : يقال اسلمت الشيء إلى فلان إذا اديته اليه . وبمعنى دخل فى السلم . وبمعنى الصلح والسلامة . وتسمية دين الحق إسلاماً يناسب كل معنى من معانى الكلمة فى اللغة . وان الحصر فى قوله ﴿ ان الدين عند الله الإسلام ﴾ يتناول جميع الملل التى جاء بها الانبياء لأنه روحها الكلى الذى اتفقت فيه ، على اختلاف بعض التكاليف وصور الأعمال فيها ، وبه كانوا يوصون . وبذلك كله تعلم أن المسلم الحقيقى فى حكم القرآن من كان خالصاً من شوائب الشرك بالرحمن ، مخلصاً فى أعماله مع الإيمان ، من أى ملة كان ، وفى أى زمان وجد ومكان . وهذا هو المراد بقوله عز وجل ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾

وذلك ان الله شرع الدين لأمرين :

(١) تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات بها تستطيع التصرف فى الكائنات ، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها

(٢) اصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية لله وللنـاس . اخرج ابن جرير عن قتادة قالا : الإسلام شهادة ان لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله تعالى الذى شرع لنفسه وبعث به رسـله ، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى الا به

﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ .
قيل إن المراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة ، وقيل النصارى خاصة ، والصواب أنها عامة لا تخص فريقا دون فريق . والذى يراد من هذه الآية : فلولا بغى رؤساء الدين والدنيا ، ونصر مذهب على مذهب ، لما تعصب لكل مذهب يشتق من الدين شيعة تنصره وتؤيده فى كل مسألة وتقاوم كل من يقاومه وتضللهم متوكئة على علم الدين ومستندة إلى نصوصه بتفسير بعضها بالرأى والهوى ، وتأويل بعضها وتحريفه أو يوافق المذهب المنتحل

والعبرة من هذا القصص أن نبتعد عن الخلاف فى الدين والتفرق فيه إلى شيع ومذاهب كما فعل من قبلنا ، ولكن واأسفاه وقعنا فيما وقع فيه السالفون ، وتفرقنا طرائق قدداً . وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نزال نئن منه . ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته ، ويمدنا بروح من عنده . فيسعى أهل الإيمان الصادق فى نبذ الاختلاف والشقاق ، والعودة إلى الوحدة والاتفاق حتى يعود المسلمون إلى سيرتهم الأولى فى عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين ومن تبعهم بإحسان

﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ الدالة على وحدة الدين ووجوب الاعتصام به وحرمة الاختلاف والتفرق فيه ، وهى المراد بالعلم فى قوله ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾

﴿ فان الله سريع الحساب ﴾ يحاسب من كفر فيجازيه بما يستحق . أما الكفر فهو عبارة عن ترك الإذعان لهذه الآيات والامتثال لها ، ومن لوازمه تأويلها بما يصرفها عن معناها لتوافق مذاهب أهل التأويل

﴿ فإن حاجُّوك ﴾ يعنى أهل الكتاب أو عام ، أى فإن جادلوك بعد أن جئتهم بالحق اليقين ، وأقمت عليه البينات والبراهين ، ودفعت الباطل ، بالآيات والدلائل ﴿ فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ أى أقبلت عليه بعبادتى على ربى

مخلصاً له معرضاً عما ســـواه أنا ومن اتبعني من المؤمنين . ﴿ وقل للذين أوتوا الـكتاب والأميين ﴾ أى لليهود والنصارى ومشركى العرب — وكانوا ينسبون إلى الأمم لجهلهم — وخص هؤلاء بالذكر والبعثة عامة لأنهم هم الذين خاطبهم الرسول بالدعوة بلا واسطة . ﴿ أأسلمتم ﴾ كما أسلمتُ لما وضحت لـكم الحجة ؟ والاستفهام للتقريع . والمراد بالاسلام روح الدين الذى نزل به الـكتاب ومقصده ، يعنى أنه ليس لهم إلا الرسوم منه . ﴿ فان أسلموا ﴾ هذا الاسلام ﴿ فقد اهتدوا ﴾ لأن هذا روح الدين ، فمن أصابه فهو على هداية من هذا الوجه ، ولذلك كان إسلامهم هذا لا بد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به ، ﴿ وإن تولوا ﴾ معرضـــين عن الاعتراف بما سالت عنه ، لعلمهم أنهم ليسوا على شيء منه ، ﴿ فانما عليك البلاغ ﴾ لحقيقة الاسلام ، وما أمرت به من الأحكام ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ فهو أعلم بمن طمس قلبه فارتـكس فى شقائه ، ووقع اليـأس من اهتـدائه ، ومن يرجى له — بتوفيق الله — من بعـــد ما لا يرجى له اليوم . وهذه الآية نص قاطع فى حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله ، وأنه ليس مسيطراً على الناس ولا جباراً ولا مكرهاً لهم على الاسلام . وقد صرحت آيات أخرى بمفهوم الحصر فى التبليغ يعرف مواقعها حفاظ القرآن والمـكثرون من تلاوته

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ . المراد مجموع الـكافرين الذين يقتلون بعض النبيين وبعضهم الذين يأمرون بالقسط . فالآية وما بعدها انتقال إلى خطاب اليهود خاصة ، فاليهود هم الذين جروا على الـكفر بآيات الله من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما الســـلام ، وبذلك تشهد عليهم كتبهم قبل القرآن ، وعلى قتل النبيين كزكريا ويحيى عليهما السـلام . والقول هنا عام يدخل فيه مشركو العرب الذين حاولوا قتل نبى واحد على حد كون قتل النفس الواحـدة كقتل جميع الناس . وقوله ﴿ بغير حق ﴾ بيان للواقع بما يقرر بشاعته وانقطاع عرق العذر دونه

﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ أى الحكماء الذين يرشدون إلى العدالة العامة فى كل شىء ويجعلونها روح الفضائل وقوامها . ومرتبتهم فى الهداية والارشاد تلى مرتبة الأنبياء ، وأثرهم فى ذلك يلى أثرهم

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ يحملون مثله على التهكم . وعدّوه من المجاز بالاستعارة لأن التبشير من البشارة والبشرى وهى الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه . وقد يقال انه ما ظهر اثره فى البشرة بانبساط أو انقباض وكآبة ، ولكنه غلب فى الأول . وهذا العذاب يصيب من كان منهم فى زمن البعثة فى الدنيا ، ثم يشاركون من سبقهم بمثل ذنوبهم فى عذاب الآخرة . وأىّ الناس أحق بالعذاب الأليم من هؤلاء القساة الطغاة المسرفين فى الشرّ

﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ أى أولئك الذين فعلوا تلك القبائح يبطل الله أعمالهم فى الدنيا والآخرة فلا ينتفعون بشىء منها لأن العمل الصالح إنما ينفع بحسن أثره فى النفس ، ونفوس هؤلاء قد أوغل فيها الفساد كما تقدم ففقدت الاستعداد والقبول لكل خير

﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من الله وقد أبسلتهم ذنوبهم بما لها من التأثير فى افساد نفوسهم ، فأى ناصر يدفع عنهم العذاب ، وهو مما اقتضته طبيعتهم

° ° °

أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتَٰبِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنهمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فى دِينِهِم ما كانوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمُونَ (٢٥)

كان سابق الكلام فى تقرير التوحيد وإقامة الدلائل عليه وعلى الحشر وبيان ثواب العاملين وقيام الحجة على المعاندين . لأن البلاغ قد أوضح المحجة للناس فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فحسابهم على الله تعالى . ثم ذكر أشد ما كان من

من أهل الكتاب الذين تولوا عن الدعوة من قبل إذ كانوا يقتلون الأنبياء والآمرين بالقسط . وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ وكان يحزنه إعراضهم ، ولذلك التفت إلى خطابه بأعجب شأنهم فى الدين لذلك العهد فقال ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم الى الله تعالى ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال « على ملة ابراهيم ودينه » قالا : فان ابراهيم كان يهودياً . فقال لهما رسول الله ﷺ « فهلما الى التوراة فهى بيننا وبينكم » فأنزل الله ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ الى قوله ﴿ يفترون ﴾ . فكتاب الله الذى يدعون اليه هو التوراة على هذا الوجه . قال ابن جرير : وقيل بل ذلك كتاب الله الذى أنزله على محمد ، وإنما دعيت طائفة منهم الى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم بالحق فأبت — روى ذلك عن قتادة وابن جريج ، ورجح الاول ومعناه : الم تر يا محمد الى هؤلاء الذين تعجب لعدم إيمانهم بك وعلى وضوح ما جئت به كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم . أما قوله ﴿ أوتوا نصيباً ﴾ فهو مبين لقوله تعالى ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ وهو بمعنى ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ ﴾ فالنصيب عبارة عن تمسكهم بالألفاظ بتعظيمها وتعظيم ما تكتب فيه مع عدم العناية بالمعانى بفقهها والعمل بها . وقال ﴿ فريق منهم ﴾ لأن هذا الوصف ليس عاماً لكل فرد منهم . بل كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الذين آمنوا بالنبى ﷺ

﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ والجملة عبارة عن استسهال العقوبة والاستخفاف بها ، اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء ، واعتماداً على مجرد الانتساب إلى الدين . وقال أحد المفسرين : لعل المراد بعبارة الآية أنهم كانوا يعتقدون أن الاسرائيلى إذا عوقب فان عقوبته لا تكون إلا قليلة ، كما هو اعتقاد أكثر المسلمين اليوم إذ يقولون : ان المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش إما أن تدركه الشفاعات ، وإما أن تنجيه الكفارات ، وإما أن يمنح

العفو والمغفرة بمحض الفضل والاحسان . فان فاته كل ذلك عذّب على قدر خطيئته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالدون فى النار كيفما كانت حالهم ومهما كانت أعمالهم . والقرآن لا يقيم للانتساب إلى دين ما وزناً ، وإنما ينوط أمر النجاة من النار والفوز بالنعيم الدائم فى دار القرار بالإيمان الذى وصفه وذكر علامات أهله وصفاتهم ، وبالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة مع التقوى وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وأما المغفرة فهى خاصة — فى حكم القرآن — بمن لم تحط به خطيئته . وأما من أحاطت به حتى استغرقت شعوره ورانت على قلبه فصار همه محصوراً فى إرضاء شهواته ولم يبق للدين سلطان على نفسه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . لهذا يحكم هذا الكتاب الحكيم بأن من يجعل الدين جنسية وينوط النجاة من النار بالانتساب اليه أو الاتكال على من أقامه من السلف فهو مغترّ بالوهم مفتر يقول على الله بغير علم ، كما قال تعالى هنا :

﴿ وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أى بما زعموا من تحديد مدة العقوبة للأمة فى مجموعها ، وهذا من الافتراء الذى كان منشأ غرورهم فى دينهم ، ومثله لا يعرف بالرأى ولا بالفكر وإنما بوحى من الله ، وليس فى الوحى ما يؤيده . وعهد من الله ، وعهد الله هو ما سبق فى سورة البقرة ﴿ قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله مالا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

ثم توعدهم تعالى على هذا الافتراء بقوله ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ أى فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب فى مجيئه وهو يوم الدين ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ بأن رأت ما عملته محضراً موفى لا نقص فيه ، فكان منشأ الجزاء ومناط السعادة أو الشقاء ، دون الالتجاء إلى دين كذا ومذهب كذا أو الانتساب الى فلان وفلان من النبيين والصالحين . ألا انهم يرون

يومئذ أن الجزاء يكون بشىء داخل نفوسهم ، لا من شىء خارج عنها يكون بما أحدثته أعمالهم فيها من الصفات الحسنة أو القبيحة ومقدّرة بقدر ذلك ، ويرون أن الناس سواء فى هذا الجزاء لا امتياز فيه بين الشعوب وإن سمى بعضها بشعب الله . ولا بين الأفراد وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله ، بل يرون هنالك العدل الأكمل ، ولذلك قال ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى الناس المشار اليهم بلفظ «كل نفس» أى لا ينقص من جزاء أحد بما كسب شىء وإن كان مثقال ذرّة

* * *

قُلِ اللَّهُمَّ مٰلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فى النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فى اللَّيلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢٧)

روى عن قتادة أن النبى ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزل قوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ — إن الكلام متصل بما قبله صح ما قيل فى سبب النزول أم لم يصح . والكلام فى حال النبى ﷺ مع من خوطبوا بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب . فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق كما أنكر أمثالهم على الأنبياء من قبله . وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبى من غير آل اسرائيل . وقد عهد فى غير موضع من القرآن تسلية النبى ﷺ فى مقام بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين وتذكيره بقدرته تعالى على نصره وإعلاء كلمة دينه ، فهذه الآية من هذا القبيل كأنه يقول : إذا تولى هؤلاء الجاحدون عن بيانك ، ولم ينظروا فى برهانك ، وظل المشركون منهم على جهلهم ، وأهل الكتاب فى غرورهم ، فعليك أن تلجأ إلى الله تعالى ، وترجع اليه بالدعاء والثناء وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل ما يشاء . وهذا ما يناسب ما تقدم فى الرد على نصارى نجران

من أمره بالالتجاء اليه سبحانه بقوله ﴿ فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ﴾

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ المراد بالملك السلطة والتصرف فى الأمور ، والله سبحانه وتعالى صاحب السلطان الأعلى والتصرف المطلق فى تدبير الأمر وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، فهو يؤتى الملك فى بعض البلاد من يشاء من عباده ، إما بالتبع بما يختصهم به من النبوّة كما وقع لآل ابراهيم ، قال تعالى ﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ وإما بسيرهم على سننه الحكيمة الموصلة الى ذلك بأسبابه الاجتماعية كتكوين العصبيات كما وقع لكثير من الناس . وينزعه ممن يشاء من الأفراد ومن العشائر والفصائل والشعوب بتنكبهم سننه الحافظة للملك كالعدل وحسن السياسة وإعداد المستطاع من القوة ، كما نزعه من بنى اسرائيل ومن غيرهم بالظلم والفساد : ذلك لأننا لا نعرف ما قضت به مشيئته عز وجل إلا من الواقع ، لأنه لا يقع فى الوجود إلا ما يشاء . وقد نظرنا فيما وقع للغابرين والحاضرين ، ومحصنا أسبابه ، فألفيناها ترجع الى سنن مطردة كما قال فى هذه السورة ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض وانظروا ﴾

﴿ وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء ﴾ العز والذل معروفان ، ومن آثار الأول حماية الحقيقة ونفاذ الكلمة ، ومن أسبابه كثرة الأعوان وملك القلوب بالجاه والعلم النافع للناس وسعة الرزق مع التوفيق للاحسان . ومن آثار الثانى الضعف عن الحماية والرضا بالضيم والمهانة . وقد يكون الضعف سبباً وعلة للذل لا أثراً معلولا ، وهو الغالب ، ولا تلازم بين العز والملك ، فقد يكون الملك ذليلا إذا ضعف استقلاله بسوء السياسة وفساد التدبير حتى صارت الدول الأخرى تفتات عليه كما هو مشاهد . هذا ولا عزّ أعلى من عزّ الاجتماع والتعاون على نشر دعوة الحق ومقاومة الباطل إذا اتبع المجتمعون سنة الله تعالى فأعدوا لكل أمر عدته

﴿ بيدك الخير ﴾ أى الخير كله بيده ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ أى فى إثبات أن كل شىء بيده لا يعجزه شىء

ولما كان الخير كله بيده فلا يعجزه أن يؤتى نبيه والمؤمنين من السيادة والسلطان ما وعدهم، وأن يعزهم ويعطيهم من الخير مالا يخطر ببال الذين يستضعفونهم، قال تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ على هذا الأصل أمر الله نبيه بأن يدعوه — والمؤمنون تبع له — بهذه الكلمات ويلجأوا اليه بهذه الرغبة فكان المناسب ذكر الخير الذى وعدوا به فقط وأنه بيده وحده

وهو إنابة إلى الله الذى بيده ملكوت كل شىء مالك الملك المطلق وحده دون سواه . وهو يعطى ملك هذه الدنيا لمن يشاء وينزعه ممن يشاء — وقد سن سنته ليكون من يعطى له الملك مستحقا لما أعطى ، ومن ينزع منه الملك مستحقاً للحرمان بعد الوجدان . مستحقاً لهذا وذاك بفعله وعمله وسلوكه ونيته وضميره حسب سنة الوجدان والحرمان — وعلى هذه السنة يعز من يشاء ويذل من يشاء . . والخير دائماً فى جريان السنة مجراها فللخير المطلق كانت هذه السنة التى لا تتبدل . فمن سلك سبيل الوجدان وجد . ومن سلك سبيل الحرمان حرم ، والأمر فى ذلك كله إلى سنة الله ومشيئة الله ، وهى تحقق الخير الكلى سواء فى هذا أو ذاك ومن وراء ما يصيب الأفراد من سراء ومن ضراء

أما القسم الثانى من ذلك الابتهال الخاشع فيلتفت إلى دورة الفلك ، ودورة الحياة التفاتة يرتعش لها الوجدان :

﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ أى تدخل طائفة من الليل فى النهار فيقصر الليل من حيث يطول النهار ، وتدخل طائفة من النهار فى الليل فيطول هذا من حيث يقصر ذاك . أى أنك بحكمتك فى تدبير الأرض وتكويرها وجعل الشمس بحسبان تزيد فى أحد الجديدين ما يكون سبباً لنقص الآخر . فلا ينكر على قدرتك وحكمتك أن تؤتى النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته ، وتنزعهما ممن تشاء كبنى إسرائيل ، فانك تتصرّف فى شئون الناس كما تتصرف فى الليل والنهـــار

﴿ وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ﴾ خروج النبـــات —

وهو حى — من التراب وهو ميت ، فاذا خرج النبات وانفصل من الأرض فقد مات . فاذا أكله الحيوان والانسان فيحييان به . فاذا خرج منهمـــا عن طريق الفضلات الزائدة فهذه تصبح سمـــاداً للزرع فيحيا وينمو بها . وهكذا دواليك . وقد جاء القرآن بتسمية ما يقابل الحى ميتاً سواء كانت الحيـــاة حسية أو معنوية

وخروج الحىّ من الميت من الناحية المعنوية كالعالم من الجاهل والصالح من الطالح والمؤمن من الكافر ، ويخرج الميت من الحى كالكافر من المؤمن والجاهل من العالم والشرير من الخير . وقد أخرج من العرب الأميين خاتم النبيين والمرسلين كما أخرج من سلائل الأنبياء والصدّيقين أولئك الأشرار المفسدين . فما أعطى سبحانه ما أعطى ونزع ما نزع إلا بإقامة السنن التى هى قوام النظـــام ومناط الإبداع والإحكام

إنها الحركة الخفية المتداخلة التى لا يملك أحد وقفها ولا ضبطها ولا تقسيمها وتحديدها . . .

إن دخول الليل فى النهار أو دخول النهار فى الليل إنما يتم فى تدرج وتداخل لا يمكن فيه فرز اللحظات وفصل التغيرات . شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار . وشيئاً فشيئا يتنفس الصبح فى غيابة الظلام ! وكلاهما مشهد مكرر . ولكن التعبير يعرضه هنا كأنما هو جديد لم تلحظه عين ، ولم يشهده حس . وكم فى هذا الكون العجيب من مشهد ارتجفت له المشاعر كلها أول مرة ثم خفت الرجفة على المنظر المعتاد ؟ !

كذلك الحياة والموت . يدب أحدهما فى الآخر ، قبل أن يقال هذا قد حي ، وهذا قد مات . إن الحياة رحلة طويلة وكذلك الموت — رحلة تتداخل فى رحلة تداخل النور والظلام . . كل لحظة تمر على الحى يدب فيه الموت إلى جانب الحياة وتبلى منه خلايا فتذهب ميتة لتدخل فى مرحلة حياة جديدة فى جسم آخر ، وتدخل اليه خلايا لتحيا جاءته من موات ، بلى وتجدد ، وتجدد وبلى فى كل لحظة بل فى كل ثانية من ثوانى الليل والنهار . أما نهاية المرحلة : مرحلة الموت أو مرحلة الحياة فليست سوى الاعلان الأخير لنهاية ملايين الملايين ، من الميتات والحيوات !

﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ يطلب منه ، لأن الأمر كله بيده ، وليس فوقه أحد يحاسبه ، أو بغير تضييق ولا تقتير ، أو بغير حساب من هذا المرزوق ولا تقدير ، ولكنه بقدر وحساب ممن وضع السنن والأسباب — فهو القادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ، ويؤتيه العرب ويعزهم ، وذلك أهون شيء عليه

• • •

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِياءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شَيْءٍ إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنهمْ تُقَاةً ، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ، وإلى اللهِ الْمَصِير (٢٨) قُلْ إنْ تُخْفُوا ما فى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعلَمُ ما فى السَّمٰوٰتِ وما فى الأَرْضِ ، واللهُ علىٰ كلِّ شَيْءٍ قَدِير (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيدا ، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ، واللهُ رَءوفٌ بالْعِباد (٣٠) قُلْ إنْ كُنتم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رحيم (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ ، فانْ تَوَلَّوْا فانَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكٰفِرِين (٣٢)

بعد تلك الآيات التى نبه الله فيها النبي والمؤمنين إلى الالتجاء اليه معترفين أن بيده الملك والعز ومجامع الخير والسلطان المطلق فى تصريف الكون يعطى من يشاء ويمنع من يشاء فإذا كانت العزة والقوة له عز شأنه فمن الجهل والغرور أن يعتز بغيره من دونه وأن يلتجأ إلى غير جنابه أو يذل المؤمن من غير بابه ، وقد نطقت السير بأن بعض الذين كانوا يدخلون فى الاسلام كان يقع منهم قبل الاطمئنان بالايمان اغترار بعزة الكافرين وقوتهم وشوكتهم فيوالونهم ويركنون اليهم وهذا أمر طبيعى فى البشر . وقد نهاهم الاسلام عن ذلك .

روى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس

ابن زيد من اليهود يباطنون نفراً من الأنصار يفتنونهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر اجتنبوا هؤلاء اليهود فأبى أولئك النفر الا مباطنتهم (ملازمتهم) فأنزل الله الآية : —

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوليـــاء من دون المؤمنين ﴾ . الأولياء الأنصار . والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين . وقوله ﴿ من دون المؤمنين ﴾ قيد فى الاتخاذ ، أى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً فى شىء تقدم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، لأن فى هذا اختياراً لهم وتفضيلا على المؤمنين ، بل فيه إعانة للكفر على الإيمان ولو بطريق اللزوم ، ومن شأن هذا أن لا يصدر من مؤمن ولو كان فيه مصلحة خاصة له

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ فيتخذ الكافرين أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين فيما يخالف مصلحتهم من حيث هم مؤمنون ﴿ فليس من الله فى شىء ﴾ أى فليس من ولاية الله فى شىء ، ومعنى العبارة أن يكون بينه وبين الله غاية البعد ، أى تنقطع صلة الإيمان بينه وبين الله تعالى ، أى فيكون من الكافرين ، أو معناه فيكون عدوا لله . قال تعالى فى آية أخرى ﴿ ومن يتولهم منكم فانه منهم ﴾

﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ استثناء من أعم الأحوال ، أى ان ترك موالاة الكافرين على المؤمنين حتم فى كل الأحوال ، الا فى حال الخوف من شىء تتقونه منهم ، فلكم حينئذ أن توالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشىء . لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . والمعنى : ليس لكم أن توالوهم على المؤمنين ، ولكن لكم أن تتقوا ضررهم بموالاتهم . وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فجوازها لأجل منفعة المسلمين تكون أولى ، وعلى هذا يجوز لحكام المسلمين أن يحالفوا الدول غير المسلمة لأجل فائدة المؤمنين بدفع الضرر أو جلب المنفعة . وليس لهم أن يوالوهم فى شىء يضر المسلمين وإن لم يكونوا من رعيتهم . وهذه الموالاة لا تختص بوقت الضعف ، بل هى جائزة فى كل وقت

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ معناه عقاب نفسه . وذكر النفس ليعلم أن الوعيد صادر منه ، وهو القادر على إنفاذه إذ لا يعجزه شيء . والمعنى : ويخوفكم الله من نفسه أن تركبوا معاصيه أو توالوا أعداءه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ فلا مهرب منه . وقالوا : فيه تهديد عظيم يشعر بتناهي المنهى عنه من الموالاة فى القبح . أى متى صرتم اليه وقد خالفتم ما أمركم به وأتيتم ما نهاكم عنه من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين نالكم من عقاب ربكم ما لا قبل لكم به

ثم قال ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السماوات والأرض ﴾ يعنى أنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم وما تختلج به قلوبكم إذ توالون الكافرين أو توادّونهم ، وإذ تتقون منهم ما تتقون ، فان كان ذلك بميل إلى الكفر جازاكم عليه . وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ولم يؤاخذكم على عمل لا جناية فيه على دينكم ولا إيذاء لأهله ، فهو يجازيكم على حسب علمه المحيط بما فى السماوات والأرض ، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فلا يمكن أن يتفلت من قدرته أحد ولا أن يعجزه شيء

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ . والمعنى اتقوا واحذروا — أو ليحذروا — يوم تجد كل نفس عملها من الخير مهما قل محضراً ، أى أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لديه . وأما عمل السوء فتود كل نفس اقترفته لو بعد عنها ولم تره وتؤخذ بجزائه ، وتود لو كان بينها وبينه بعد المشرقين . وهذه الأعمال مرسومة فى صحائف هذه الأنفس وهي صفات لها ، وعن هذه الصفات صدرت تلك الحركات ، فزادت الصفات رسوخاً والنقوش فى النفس تمكناً حتى ارتقت بالمحسن إلى عليين حيث كتاب الأبرار ، وهبطت بالمسيء إلى سجين حيث كتاب الفجار . ﴿ ويحذّركم الله نفسه ﴾ فانه من ورائكم محيط ، وسنته فى تفسير الأعمال فى النفوس ، وجعل آثار أعمالها مصدراً لجزائها حاكمة عليكم ، أفلا يجب عليكم — والأمر كذلك — أن

تحذروه بما أوتيتم من القدرة على الخير والميل اليه بترجيحه على ما يعرض على الفطرة من تزيين عمل السوء والتوبة اليه سبحانه بما غلبتم عليه فى الماضى . ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ ومن رأفته أن جعل الفطرة سليمة ميالة بطبعها إلى الخير ، وتتألم مما يعرض لها من الشر ، وان جعل للانسان أنواعا من الهدايات يرجح بها الخير على الشر كالعقل والدين

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ فان ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأوامره ونواهيه . والمحب حريص على معرفة المحبوب ومعرفة ما يأمر به وينهى عنه ليتقرب اليه بمعرفة قدره وامتثال أمره مع اجتناب نهيه ، ويكون بذلك أهلا لمحبته سبحانه ومستحقاً لأن يغفر ذنوبه . فمحبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك ، ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فعله - روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله ﷺ كعب بن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان فقالوا ، نحن أبناء الله وأحباؤه ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إنى رسول الله اليكم أدعوكم اليه ، فان كنتم تحبونه فاتبعونى وامتثلوا أمرى يحببكم الله ويرضى عنكم

﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ السابقة من الاعتقاد الباطل والأعمال السيئة ، لأن هذا الاتباع هو الاعتقاد الحق والعمل الصالح ، وهما يمحوان من النفس ظلمة الباطل ، ويزيلان منها آثار المعاصى والرذائل ، وهذا هو عين المغفرة ، فالمغفرة أثر فطرى للإيمان والعمل الصالح بعد ترك الذنوب ، كما أن العقاب أثر طبيعى للكفر والمعاصى . ﴿ والله غفور رحيم ﴾ جعل للمغفرة سنة عادلة ، وبينها برحمته وإحسانه لعباده ، وهى تزكية النفس بالاتباع الذى أكده الأمر به ، وبين أن عاقبة الإعراض عنه الحرمان من حب الله تعالى . أى إن من رأفته بعباده تحذيره إياهم نفسه ، وتخويفهم عقوبته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه

روى أنه لما نزل قوله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله . . ﴾ قال عبد الله بن أبىّ : إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى . فنزل قوله :

﴿ قل أطيعوا الله ﴾ باتباع كتابه ﴿ والرسول ﴾ باتباع سنته والاهتداء بهديه ﴿ فإن تولوا ﴾ وأعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غروراً منهم بدعواهم أنهم محبون لله ، وأنهم أبناؤه وأحباؤه ، ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح فى آيات الله وما أنزله على رسوله وترك الشرك والضلال الذى نهيت عنه واتباع الحق فى الاعتقاد الذى بينته والعمل الصالح الذى أرشدت اليه ، هؤلاء هم الكافرون أى الجاحدون للحق بإنكار نبوتك ومخالفة هدايتك وإن ادعوا أنهم مؤمنون وأنهم يحبون الله والله يحبهم

* * *

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرٰنَ عَلَى الْعٰلَمِينَ (٣٣)
ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰنَ رَبِّ
إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)
فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنثَىٰ ، وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطٰنِ
الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا
كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ، قَالَ يٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هٰذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

لما بين سبحانه وتعالى أن محبته منوطة باتباع الرسل ، فمن اتبعه كان صادقاً فى دعوى حبه لله ، وجديراً بأن يكون محبوباً منه جل علاه ، أتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته وهى الايمان به مع طاعته فقال :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ أى

اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم بجعل النبوة والرسالة فيهم ، فآدم أول البشر ارتقاء إلى هذه المرتبة ، فانه بعد ما تنقل فى الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه الله واجتباه قال تعالى ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ فكان هادياً مهدياً ، وكان فى ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله تعالى . وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده الطوفان العظيم ، فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله فى الفلك فكان بذلك أباً ثانياً للجم الغفير من البشر ، وكان هو نبياً مرسلا ، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت وفشت فيهم الوثنية حتى ظهر فيهم ابراهيم عليه الصلاة السلام نبياً مرسلا وخليلا مصطفى ، وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته ، وكان أرفعهم قدراً وأنبههم ذكراً آل عمران قبل أن تختم النبوة بولد اسماعيل عليه السلام

﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ ان لفظ « الذرية » يطلق على الوالدين والأولاد ، والمشهور ما جرى عليه الفقهاء وهو أن الذرية الأولاد فقط ، فقوله ﴿ بعضها من بعض ﴾ ظاهر على الأول . ويخص على الثانى بآل إبراهيم وآل عمران ، ويصح أن يكون بمعنى أنهم أشباه وأمثال فى الخيرية والفضيلة التى هى أصل اصطفائهم ، أى ذرية دين بعضها دين بعض ، وكلمتهم واحدة ، وملتهم واحدة فى توحيد الله وطاعته

﴿ والله سميع عليم ٭ إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى كان سميعا لقول امرأة عمران عليما بنيتها فى وقت مناجاتها إياه وهى حامل بنذر ما فى بطنها له حال كونه محرراً أى معتقاً من رق الأغيار لعبادته سبحانه وخدمة بيته أو مخلصاً لهذه العبادة والخدمة لا يشتغل بشىء آخر وثنائها عليه تعالى عند هذه المناجاة بأنه السميع الدعاء العليم بما فى أنفس الداعين والداعيات

﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ قالوا إن هذا خبر لا يقصد به الإخبار بل التحسر والتحزّن والاعتذار فهو بمعنى الانشاء . وذلك أنها نذرت

تحرير ما فى بطنها لخدمة بيت الله والانقطاع لعبادته فيه ، والأنثى لا تصلح لذلك عادة ، لا سيما فى أيام الحيض ، قال تعالى ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ أى بمكانة الأنثى التى وضعتها ، وأنها خير من كثير من الذكور ، ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسة المولودة وانحطاطها عن مرتبة الذكور ، وقد بين ذلك بقوله ﴿ وليس الذكر ﴾ الذى طلبت أو تمنت ﴿ كالأنثى ﴾ التى وضعت ، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر . وقيل إن ﴿ وضعت ﴾ على أنه من كلامها ، وعليه يكون المعنى : وليس الذكر كالأنثى فيما يصلح له كل منهما

﴿ وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ معنى « أعوذ بالله من الشيطان » ألجأ اليه وأعتصم به منه . والإعاذة بالله تكون بالدعاء والرجاء . و « الرجيم » المطرود عن الخير ، وأصل المعاذ : الموئل والملجأ والمعقل — والمعنى وإنى غير راجعة عما انتويته من خدمة مريم بيت المقدس وإن كانت أنثى — فإن لم تكن جديرة بسدانته فلتكن من العابدات القانتات — وإنى أجيرها وذريتها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ﴾ أى تقبل مريم من أمها ورضى أن تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته ، وهو أبلغ من قبلها ، وزاده مبالغة وتأكيداً وصفه بالحسن ، كأنه قال : فقبلها ربها أبلغ قبول حسن

﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ أى رباها ونماها فى خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه تربية حسنة شاملة للروح والجسد كما تربى الشجرة فى الأرض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة لا يفسد طبيعتها شىء ، ولعله عبر عن التربية بالإنبات لبيان أن التربية فطرية لا شائبة فيها

﴿ وكفلها زكريا ﴾ : وضمها الله اليه ، اى جعل زكريا كافلا لها ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ المحراب هنا ما يعبر عنه اهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة

فى مقدم المعبد لها باب يصعد اليها بسلم ذى درجات قليلة ويكون من فيه محجوباً عمن فى المعبد ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ روى ان بنى إسرائيل أصابتهم أزمة حتى ضعف زكريا عن حملها ، وأنهم اقترعوا على حملها ، فخرج السهم على نجـار منهم فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فينميه الله ويكثره ، فيدخل عليها زكريا فيجد عندها فضلا من الرزق ، فإذا وجد ذلك ﴿ قال يامريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط ﴿ قالت هو من عند الله ﴾ رازق الناس بتسخير بعضهم لبعض ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ولا توقع من المرزوق ، أو رزقا واسعا

والبحث عن ذلك الرزق ما هو ومن أين جاء فضول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة . ولو علم الله أن فى بيانه خيراً لنا لبينه

أما ما سيقت القصة لأجله — وهو الذى يجب أن نبحث فيه ، ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه — فهو تقرير نبوّة النبى ﷺ ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصاً بشعب إسرائيل ، وشبهة المشركين ، فهذه قصة مريم ، فان أمها إذا كانت قد ولدتها وهى عاقر على خلاف المعهود كما نقل أو يقال ، وإذا كان قبول الأنثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله ، فلماذا لا يجوز أن يرسل الله محمداً ﷺ من غير بنى اسرائيل على خلاف المعهود عندهم ؟ ومثل هذا يقال فى قصة زكريا عليه السلام الآتية ، ومن ذلك كله يعلم أن أعمال الله تعالى لا تأتى دائماً على ما يعهد الناس ويألفون

* * *

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيّا رَبَّه ، قالَ رَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاء (٣٨) فنادَتْهُ الْمَلٰئِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلّى فى المِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصّٰلِحِينَ (٣٩) قال

رَبِّ أَنَّىٰ يكونُ لى غُلَٰمٌ وقد بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وامرأتى عاقِرٌ ، قالَ كَذَٰلِكَ اللهُ يَفعَلُ ما يشاء (٤٠) قالَ ربِّ اجْعَلْ لى ءايَةً ، قال ءايَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلَٰثَةَ أيّامٍ إلاَّ رَمْزاً ، واذْكُرْ رَبَّكَ كثيرا وسَبِّحْ بالعَشِىِّ والإبْكَٰرِ (٤١)

قوله تعالى ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ معناه انه عند ما رأى زكريا حسن حال مريم ومعرفتها بالله واضافتها الأشياء اليه دعا ربه متمنياً لو يكون له ولد صالح مثلها هبة من لدنه تعالى ومن محض فضله ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ان الله جل ثناؤه أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أن جماعة الملائكة دون الواحد ﴿ وهو قائم يصلى فى المحراب ﴾ فالظاهر من معناه أنه نودى وهو قائم يدعو بذلك الدعاء الذى ذكر هنا مختصراً وذكر فى سورة مريم بأطول مما هنا ، فالصلاة دعاء والدعاء صلاة.. ﴿ ان الله يبشرك بيحيى ﴾ وفيه أن البشارة محكية بالمعنى لا باللفظ ، ويحيى تعريب لكلمة يوحنا فى لغة بنى اسرائيل ، وهى من مادة الحياة ، فالاسم يشعر بأنه يحيا حياة طيبة بأن يكون وارثاً لوالده من آل يعقوب ما كان فيهم من النبوة والفضل ، وقد وصف تعالى هذا المبشر به بعدّة صفات وردت حالا منه وهى قوله ﴿ مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ أما تصديقه بكلمة من الله فهو تصديقه بعيسى الذى يبشر الله به بكلمة منه أو الذى يولد بكلمة الله « كن » فيكون بغير السّنة العامة فى توالد البشر وهى أن يولد الولد بين أب وأم ، وقيل أن المراد بالكلمة هنا الكتاب أو الوحى ، لأن الكلمة تطلق على الكلام وان كان كثيراً ، وقيل غير ذلك . أما « السيد » فهو من يسود فى قومه بالعلم أو الكرم أو الصلاح وعمل الخير . و « الحصور » وصف مبالغة من مادة الحصر ، ومعناها الحبس ، فهو من يحبس نفسه ويمنعها مما ينافى الفضل والكمال اللائق بها . ويطلق على الكتوم الأسرار ، وعلى من يمتنع عن النساء للعنة أو للعفة . وأكثر المفسرين على أن هذا الأخير هو المراد هنا ومعنى كونه نبياً فانه يعنى رسولا لربه إلى قومه

ينبئهم عنه بأمره ونهيه وحلاله وحرامه ويبلغهم عنه ما أرسله به اليهم . وأما كونه من الصالحين فمعناه أنه من الأنبياء الصالحين أو من القوم الصالحين وهم أهل بيته

﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ﴾ الاستفهام على ظاهره يكون قد قاله تشوقا إلى معرفة الكيفية التى يكون بها الانتاج مع عدم توفر الأسباب العادية له بكبر سنه وعقر زوجته ﴿ قال ﴾ تعالى والظاهر أنه بواسطة الملائكة ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ فانه متى شاء أمراً أوجد له سببه، أو خلقه بغير الأسباب المعروفة ، لا يحول دون مشيئته شيء ، فعليك أن تفوض اليه الأمر فى هذه الكيفية

﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تتقدم هذه العناية وتؤذن بها أعرف بها صحة الحمل ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ قيل معناه أن تعجز عن خطاب الناس بحصر يعترى لسانك إذا أردته ، ويرجحه أن الآية تكون بغير المعتاد . وقيل معناه أن تترك ذلك مختاراً لتفرغ لعبادة الله . ويؤيد قوله ﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار ﴾ . قال أحد المفسرين إنه وردت روايات كثيرة للمفسرين فى هذه المسألة ، والصواب أن زكريا أحب — بمقتضى الطبيعة البشرية — أن يتعين لديه الزمن الذى ينال به تلك المنحة الإلهية ليطمئن قلبه ، ويبشر أهله ، فسأل عن الكيفية . ولما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعبادة يتعجل بها شكره ويكون إتمامه إياها آية وعلامة على حصول المقصود ، فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام، بل ينقطع للذكر والتسبيح مساء صباح مدة ثلاثة أيام ، فاذا احتيج إلى خطاب الناس أومأ اليهم إيماء ، وعلى هذا تكون بشارته لأهله بعد مضى الثلاثة الليالى . واختلفوا فى الرمز هل كان بالقول الخفى وتحريك الشفتين أم بغيرهما من الأعضاء كالعينين والحاجبين والرأس واليدين ، لأن الرمز والإيماء يكون بكل ذلك . والعشى من الزوال الى الغروب ، وقيل من الغروب الى ذهاب صدر من الليل . وقيل من زوال الشمس الى الصباح . والابكار من الصباح الى الضحى

* * *

وإذ قالتِ الملٰئكةُ يٰمريمُ إنَّ اللهَ اصطفٰكِ وطهَّركِ واصطفٰكِ على نساء
العٰلمين (٤٢) يٰمريمُ اقنُتي لربِّكِ واسجُدي واركعي مع الرّٰكعين (٤٣)
ذٰلكَ مِنْ أنباء الغيبِ نوحِيهِ إليكَ ، وما كُنتَ لديهِم إذْ يُلقونَ أقلامَهم أيُّهم يكفُلُ مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصِمون (٤٤) إذْ
قالتِ الملٰئكةُ يٰمريمُ إنَّ اللهَ يُبشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ
وَجيهاً في الدُّنيا والآخرةِ ومِنَ المقرَّبين (٤٥) ويُكلِّمُ الناسَ في المهدِ وكهلاً
ومِنَ الصّٰلحين (٤٦) قالتْ ربِّ أنّى يكونُ لي وَلدٌ ولم يمسَسني بشرٌ ، قال
كذٰلكِ اللهُ يخلُقُ ما يشاء ، إذا قضىٰ أمراً فإنَّما يقولُ لهُ كُنْ فيكون (٤٧)
ويُعلِّمهُ الكتٰبَ والحكمةَ والتورٰىةَ والإنجيلَ (٤٨) ورسولاً إلى بني إسرٰءيل
أنّي قد جئتُكم بآيةٍ من ربِّكم ، أنّي أخلقُ لكم مِنَ الطِّينِ كهيئةِ الطيرِ فأنفُخُ
فيه فيكون طيراً بإذنِ اللهِ ، وأُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ وأُحيي الموتىٰ بإذنِ اللهِ
وأُنبِّئُكم بما تأكلونَ وما تدَّخِرونَ في بيوتكم ، إن في ذٰلكَ لآيةً لكُمْ إنْ
كنتم مؤمنين (٤٩) ومُصدِّقاً لِما بينَ يديَّ من التورٰىةِ ولِأُحِلَّ لكُمْ بعضَ
الذي حُرِّمَ عليكم ، وجئتُكم بآيةٍ من ربِّكم فاتَّقوا اللهَ وأطيعون (٥٠) إنَّ اللهَ
ربِّي وربُّكم فاعبدُوه هٰذا صِرٰطٌ مُستقيم (٥١)

هذا عود على بدء فيما يتعلق باصطفاء آل عمران ، إثر ذكر طرف من فضائل بعض أقاربهم أعني زكريا ويحيي اقتضى المقام ذكره كما علمت ذلك مما سلف

قوله تعالى ﴿ وإذ قالت الملائكة ﴾ معطوف على قوله ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ متعلق بقوله قبله ﴿ والله سميع عليم ﴾ . وهذا الخطاب ليس بشرع خصت به ، وإنما هو إلهام بمكانتها عند الله وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والصلاة ، ومن اعتقد أنه مكرم اجتهد في المحافظة على كرامته وتباعد أشد

التباعد عن كل ما ينقص منها ، فتقول الملائكة لها ﴿ يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ قد زادها - بمقتضى سنة الفطرة - تعلقاً بالكمال ، كما زادها روحانية بتأثير تلك الأرواح الطيبة التى أمدت روحها الطاهرة . والاصطفاء الأول هو قبولها محررة لخدمة الله فى بيته ، وكان ذلك خاصاً بالرجال . والتطهير قد فسر بعدم الحيض ، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد . وقيل ان التطهير من مسيس الرجال . وهناك قول أعم من هذا وذاك : أى طهرك مما يستقبح كسفساف الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك . والاصطفاء الثانى ما اختصت به من خطاب الملائكة وكمال الهداية . وقيل هو جعلها تلد نبياً من غير ان يمسها رجل ، فهو على هذا اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل بالإعداد والتهيئة . وبحثوا هنا فى قوله ﴿ على نساء العالمين ﴾ هل المراد به عالمو زمانها أم جميع العالمين ، وفى الأحاديث ان أفضل النساء مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضى عنهن . وبعد ان بين اختصاصها بهذه المزايا والفضائل اوجب عليها طاعته شكراً لهذه النعم فقال :

﴿ يامريم اقنتى لربك ﴾ اى الزمى طاعته مع الخضوع له ﴿ واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ السجود التطامن والتذلل ، والركوع الانحناء ، ويستعمل فى لازمه وسببه وهو التواضع والخشوع فى العبادة او غيرها . وركوعها مع الراكعين عبارة عن صلاتها مع المصلين فى المعبد ، وقد كانت ملازمة لمحرابه كما تقدم

﴿ ذلك ﴾ الذى قصصناه عليك يا محمد من أخبار مريم وزكريا ﴿ من أنباء الغيب ﴾ لم تشهده أنت ولا احد من قومك ولم تطلع على شىء منه فى الكتاب . إنما نحن ﴿ نوحيه إليك ﴾ بإنزال الروح الأمين الذى خاطب مريم وزكريا بما خاطبهما به على قلبك والقائه فى روعك خبرَ ما وقع بين بنى اسرائيل فى ذلك وغير ذلك . فضمير « نوحيه » راجع الى الغيب ﴿ وماكنت لديهم إذ يلقون اقلامهم ﴾ اى قداحهم المبرية ، فالسهام والأزلام التى يضربون بها القرعة ويقامرون تسمى

أقلاماً ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ أى يستهمون بهذه الأقلام ويقترعون على كفالة مريم ، حتى قرعهم زكريا فكان كافلها ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ فى ذلك ولم يتفقوا على كفالتها إلا بعد القرعة

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بقصص عيسى عليه السلام . وجاء بقصص زكريا بينهما اعتراضاً وتقديراً لقصص مريم وتنبيهاً إلى أنه وحده كاف فى الدلالة على صدق من أنزل عليه

﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾ والمعنى أن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها وتطهيره لها وأمرتها بمزيد عبادته والاستغراق فى شكره . و المراد بالملائكة هنا الروح جبريل . وفى لفظ « كلمة » معان متعددة : (١) كلمة « التكوين » ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . (٢) أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الانبياء به ، فهو قد عرف بكلمة الله أى بوحيه لأنبيائه . والكلمة تطلق على الكلام كقوله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ . وقيل إن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه ، فقوله ﴿ بكلمة منه ﴾ معناه بخبر من عنده . أما لفظ « المسيح » فمعرَّب ، وأصله العبرانى « مشيحا » بالمعجمة ، ومعناه الممسوح ، وهو لقب الملك عندهم لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس . وهم يعبرون عن تولية الملك بالمسح ، وعن الملك بالمسيح . ومعنى صدق لفظ المسيح على عيسى عليه السلام بحسب عرفهم أن الناس انما يولون الملك عليهم لأجل تقرير العدل ورفع أثقال الظلم عنهم ، وقد فعل المسيح ذلك بارجاعهم إلى مقاصد الدين وحملهم على الاخوة الرافعة للظلم

وأما لفظ « عيسى » فهو معرب « يشوع » ، وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها إعلاماً لها بأنه ينسب إليها لا أنه ليس له أب ، ولذلك قالت بعد البشارة ﴿ ربّ أنى يكون لى ولد ﴾ . وقال تعالى فى وصفه ﴿ وجيهاً فى الدنيا والآخرة ﴾ معناه أن يكون ذا وجاهة وكرامة فى الدارين . والوجيه فى الحقيقة من كانت له مكانة فى القلوب واحترام ثابت فى النفوس ، ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له

أثر حقيق ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمناً طويلا أو غير طويل . ولا ينكر أحد أن منزلة المسيح فى نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جداً ، وان ما جاء به من الإصلاح هو الحق الثابت ، وقد بق أثره بعده . فهذه الوجاهة أعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك . وحقيقة الوجاهة فى الآخرة هى أن يكون الوجيه فى مكان علىّ ومنزلة رفيعة يراه الناس فيجلونه ويعلمون أنه مقرب من الله تعالى

﴿ ومن المقربين ﴾ أى هو مع ذلك من عباد الله المقربين اليه عز وجل ، فما ينعكس على أنظار الناظرين اليه هناك إلى مرايا قلوبهم حقيق فى نفسه

﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾ . والكهل الرجل التام السوىّ من غير تقييد بسن معينة . والكلام فى المهد يصدق بما يكون فى سن الكلام وهى سنة فأكثر وما يكون قبل ذلك فهو آية على كل تقدير ، لأن تعديته إلى الناس تفيد أنه يكلمهم كلام التفاهم . وكلام الأطفال فى المهد لا يكون ذلك عادة . وفى قوله ﴿ كهلا ﴾ بشارة بأن يعيش إلى أن يكون رجلا سوياً كاملا . ﴿ ومن الصالحين ﴾ الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم وهم الانبياء الذين تعرف مريم سيرتهم

﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ﴾ أى كيف يكون لى ولد والحال أنى لم اتزوج ، فالمسّ كناية ظاهرة . والاستفهام عن حقيقته فى وجه ، ومعناه : هل يكون ذلك بزواج يطرأ ، أم بمحض القدرة ، وفى وجه آخر للتعجب من قدرة الله ، والاستعظام لشأنه

﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ أى كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء ، ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ أى إذا أراد شيئاً كما عبر فى آية أخرى ، فالقضاء بمعنى الإرادة ، أى إذا أراد أمراً من الأمور ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ قالوا : ان هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ، والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به

حالا بطاعة المأمور القادر على العمل المطاع . ويسمون الأمر بكن أمر التكوين

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ والكتاب هنا الكتابة بالخط ، والحكمة العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة إلى العمل النافع ، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل . والتوراة كتاب موسى فقد كان المسيح عالماً به يبين أسراره لقومه ويقيم عليهم الحجج بنصوصه . والإنجيل هو ما أوحى اليه نفسه

﴿ ورسولا الى بنى اسرائيل ﴾ أى يرسله أو يجعله رسولا الى بنى اسرائيل ، وتخصيص بنى اسرائيل لخصوص بعثه اليهم وللرد على من زعم أنه مبعوث لغيرهم . والرسول هنا بمعنى الرسالة . والتقدير ويعلمه الرسالة الى بنى اسرائيل ﴿ أنى قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ والمعنى على التقدير الأول أنه يرسله محتجاً على صدق رسالته بأنى قد جئتكم بآية متلبساً بعلامة كائنة من ربكم . وفسر الآية بقوله ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ الخلق التقدير والترتيب ، لا الانشاء والاختراع . ويقرب أن يكون هذا إجماعاً من المفسرين . وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير . وغاية ما يفهم من الآية أن الله تعالى جعل فيه هذا السر ، ولكن لم يقل إنه خلق بالفعل ، ولم يرد على المعصوم أن شيئاً من ذلك وقع . وقد جرت سنة الله تعالى أن تجرى الآيات على أيدى الأنبياء عند طلب قومهم لها ، وجعل الإيمان موقوفاً عليها ، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد جاء به . وكذلك يقال فى قوله ﴿ وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم ﴾ أى أخبركم بالذى تأكلونه وبالذى تدخرونه أى بما لم أعاينه وما تخبئونه . وان قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر أن يحتج به والحكمة فى إخبار النبى ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكرى نبوته كما تقدم ، وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به فى مثل ذلك . ويقول بعض المفسرين إن الأكمه من لا يبصر

بالليل ويبصر بالنهار ، والمشهور أنه من ولد أعمى . والبرص معروف وهو بياض يظهر فى الجلد . وكرر « بإذن الله » دفعاً لتوهم الألوهية ، لأن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية ﴿ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى أن فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتى إن كنتم مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة . ومن مباحث اللفظ أن قوله « فأنفخ فيه » يعود الى الطير أو إلى ما ذكر

﴿ ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ﴾ أى أنه لم يأت ناسخاً للتوراة بل مصدقاً لها عاملا بها ، ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال ﴿ ولأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم ﴾ فقد كان حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكثرة سؤالهم فأحلها عيسى عليه السلام ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ أعاد ذكر الآية لتفرقة بين ما قبلها وما بعدها ﴿ فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ أمرهم بتقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه أى لازموا طاعته التى هى الاتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهى . وختم ذلك بالتوحيد والاعتراف بالعبودية وقال فى ذلك ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أى أقرب طريق موصل الى الله . والمستقيم هو المشهود له بالاستقامة والاعتدال . روى الإمام أحمد وغيره أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل « آمنت بالله » ثم استقم

* * *

فلمّا أحسّ عِيسىٰ منهمُ الكُفرَ قال من أنصارِى إلى اللهِ ، قال الحَوارِيُّونَ نحنُ أنصارُ اللهِ ءامنّا باللهِ واشهدْ بأنّا مُسلمون (٥٢) ربّنا ءامنّا بما أنزلتَ واتّبعنا الرّسولَ فاكتُبنا معَ الشّٰهدِين (٥٣) ومكرُوا ومكرَ اللهُ واللهُ خيرُ المٰكرِين (٥٤) إذ قال اللهُ يٰعيسىٰ إنّى مُتوفّيكَ ورافِعُكَ إلىّ ومُطهّرُكَ مِنَ الّذين كفرُوا وجاعِلُ الّذينَ اتّبعوكَ فوقَ الّذينَ كفروا إلى يومِ القِيٰمةِ ، ثُمّ إلىّ مرجِعُكم فأحكُمُ بينكُم فِيما كنتم فيه تختلفون (٥٥) فأمّا الّذين كفروا

فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من نصرين (٥٦) وأما الذين امنوا وعملوا الصلحت فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظلمين (٥٧) ذلك نتلوه عليك من الآيت والذكر الحكيم (٥٨)

كان الكلام قبل هذا فى بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام وكلامه الناس فى المهد ، وإيتائه الكتاب والحكمة والنبوة ، وإرساله رسولا إلى بنى إسرائيل ، وذكر براءة أمه التى تقدم ذكرها . وهنا ذكر خبره مع قومه وما لاقاه منهم من الصد والاعراض ومقاساة الأهوال وهمهم بقتله وإنجاء الله إياه . ووعيد الكافرين به وعذابهم فى الدنيا والآخرة

وفى هذا من العبرة والتسلية للنبى ﷺ ما فيه

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس ، أى فلما شعر من قومه بنى إسرائيل بالاصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء ، فقد صح أنه لقى من اليهود شدائد كثيرة فقد كانوا يجتمعون عليه ويستهزئون به ، ويقولون له ياعيسى ، ماأكل فلان البارحة ، وما ادخر فى بيته لغد ؟ فيخبرهم ، فيسخرون منه ، حتى طال ذلك به وبهم فهموا بقتله ، فخافهم واختفى عنهم وخرج هو وأمه يسيحان فى الأرض .

وفى هذا عبرة وتسلية للنبى ﷺ ، وبيان لأن الآيات الكونية مهما كثرت لا تفضى إلى الإيمان إلا إذا كان للمدعو استعداد للقبول ، ومن الداعى حسن بيان . وحين رأى منهم ذلك :

﴿ قال من انصارى إلى الله ﴾ أى توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه فى دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها منخلعين عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره على خاذليه والكافرين بما جاء به ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ الحوارى مأخوذ من الحوارى وهو لباب الدقيق وخالصه ، لأنهم من خيار القوم وصفوتهم ، أو من الحور وهو

البياض . وهم أنصار دينه . وهذا القول يفيد الانخلاع والانفصال من التقاليد السابقة والأخذ بالتعليم الجديد وبذل منتهى الاستطاعة فى تأييده ، فان نصر الله لايكون إلا بذلك . والنصر لا يستلزم القتال ، فالعمل بالدين والدعوة إليه نصر له ﴿ آمنا به ﴾ هذا جار مجرى السبب فى نصره ، فان الإيمان بالله موجب لنصرة دينه والذبّ عن أوليائه ومحاربة أعدائه

﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ مخلصون له منقادون لأمره ، وهذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبي وان اختلفوا فى بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله انما طلبوا شهادته لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم القيامة ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ أى صدقنا بما أنزلت من الإنجيل ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ عيسى بن مريم وامتثلنا ما أتى به منك ، ذكر الاتباع بعد الايمان لأن العلم الصحيح يستلزم العمل ، والعلم الذى لا أثر له فى العمل يشبه أن يكون مجملا وناقصاً لايقيناً وإيماناً ، ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ للرسول بتبليغ الدعوة ، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود . ويقال : الشاهدين على هذه الحالة ، أى حالة الرسول مع قومه . ولا تصح الشهادة إلا من العارف بالمشهود به معرفة صحيحة . وقد كان الحواريون كذلك كما علم من إقرارهم بالايمان والاتباع

﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ أى ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به ، فحاولوا قتله ، وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه . وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة ، كذا قال الجمهور . والمكر فى الأصل التدبير الخفى المفضى بالممكور به إلى مالا يحتسب . وغلب استعمال المكر فى التدبير السيء ، وان كان يجوز أنه فى الحسن . ﴿ والله خير الماكرين ﴾ بناء على أن المكر فى نفسه شر : أى إن كان فى الخير مكر فمكرُه سبحانه وتعالى موجه إلى الخير ، ومكرهم هو الموجه إلى الشر

﴿ إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أى مكر الله بهم إذ قال لنبيه إنى متوفيك الخ ، فإن هذه بشارة بإنجائه من مكرهم

وجعل كيدهم فى نحرهم قد تحققت ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة . والتوفى باللغة أخذ الشىء وافياً تاماً ، ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة ، والمتبادر فى الآية انى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى ، كما قال فى إدريس عليه السلام ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ . وأما تطهيره من الذين كفروا فهو انجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر . هذا ما يفهمه القارىء الخالى الذهن من الروايات والأقوال ، لأنه هو المتبادر من العبارة ﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ بالأخذ بما جئت من الهدى ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ بك ولم يهتدوا بهديك فوقية روحانية دينية ، وهى كونهم أحسن أخلاقاً ، وأكمل أدباً ، وأقرب إلى الحق والفضل ، وأبعد عن الباطل والاعتداء . وفوقية دنيوية وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم . ولكن هذا الوجه لم يتحقق فى زمن المسيح لأشد الناس اتباعاً له ، بل كانوا مغلوبين لليهود ، فتعين أن يكون الوجه الأول هو المراد . ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ فإن فوقية الفضائل والآداب هى التى كانت وستبقى كذلك ما دامت السماوات والأرض . ﴿ ثم إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ هذا الخطاب يشمل المسيح والمختلفين معه ، ويشمل الاختلاف بين اتباعه والكافرين به ، والله هو الذى يبين لهم جميعاً يوم الحساب الحق فى كل ما اختلفوا فيه بما يزيل شبه المشتبهين ورياء الجاحدين . ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ وكذلك عذب اليهود الذين كفروا بتسليط الامم عليهم وتحكمها فيهم ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون هناك كما لم ينصروا هنا

﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ أى أجور أعمالهم . إما فى الدارين وهو الغالب فى الأمم ، وإما فى الآخرة ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ لأنفسهم بالخروج عن سنن الفطرة ، والكفر بالأنبياء الذين يطالبون النفوس بتقويمها . والمعنى أنه سبحانه لا يرحم الكافرين ولا يثنى عليهم بالجميل .

﴿ ذلك ﴾ الذى تقدم من خبر عيسى ﴿ نتلوه عليك من الآيات ﴾ الدالة على نبوتك ﴿ والذكر الحكيم ﴾ أى القرآن الذى يبين وجوه العبر فى الأخبار والحكم فى الأحكام فيهدى المؤمنين إلى لباب الدين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشرى ليتعظ المتعظون ، ويصل إلى مقام الحكمة العارفون

* * *

إنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادمَ خَلَقَهُ من تُرابٍ ثمَّ قال له كُنْ فيكون (٥٩) الحقُّ من ربِّكَ فلا تكنْ من المُمْتَرِين (٦٠) فمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِنْ بعدِ ما جاءكَ مِنَ العِلْمِ فقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفُسَنا وأنفُسَكم ثمَّ نَبْتَهِلْ فنجعلْ لَعْنَةَ اللهِ على الكاذِبين (٦١) إنَّ هٰذا لَهُوَ القَصَصُ الحقُّ ، وما مِنْ إلٰهٍ إلاَّ اللهُ ، وإنَّ اللهَ لَهُوَ العزيزُ الحكيم (٦٢) فانْ تَوَلَّوْا فانَّ اللهَ عليمٌ بالمفسدين (٦٣)

بعد أن بين سبحانه خلق عيسى ومجيئه بالآيات وما كان من أمر قومه فى الايمان والكفر به كشف شبهة المفتونين بخلقه على غير السنة المعتادة والمحاجين فيه بغير علم ورد على المنكرين لذلك فقال : —

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ . نزل لما قال وفد نجران : هل رأيت ولداً بلا أب ؟ أى ان شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليهما السلام . والمعنى أن شبه عيسى وصفته فى خلق الله إياه على غير مثال سبق كشأن آدم فى ذلك . ثم فسر هذا المثل بقوله ﴿ خلقه من تراب ﴾ أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثم أب ولا أم وقدر أوضاعه وكون جسمه من تراب ميت أصابه الماء فكان طيناً لازباً ذا لزوجة ﴿ ثم قال له كن ﴾ أى أنشأه بشراً بأن كونه تكويناً آخر بنفخ الروح فيه . والمعنى ثم قال له كلمة التكوين التى هى عبارة عن توجه الإرادة إلى الشىء

ووجوده بها حالا ﴿ فيكون ﴾ أى فكان بشراً . فكذلك حال عيسى قال له كن من غير أب فكان . فالمكونات المادية لآدم هى من نوع ذلك التراب ، والتربة الأرضية تحتوى على جميع العناصر التى يتألف منها جسد الانسان عند تحليله . وعند خلوه من الحياة التى تجعل منه هذا الجسم الحى المعروف . ولا يزيد عليها إلا ذاك الجوهر اللطيف الذى لا يدرك أحد كنهه حتى اللحظة الحاضرة ، جوهر الحياة المجهولة الكنه والمنشأ والمصير . وبها تتم كينونة الجسم الحى . وبدونها هو من تراب . لأن تركيبها من تركيبه وفيه كل عناصرها المادية التى يعرفها التحليل

وآدم أبو البشر خلقه الله من تراب فجسده لا يحتوى عنصراً زائدا لا تحتويه تربة الأرض التى منها خلق . أما الحياة الزائدة على هذا التراب والتى تتم كينونته وتعلن عن وجوده الحى فقد جاءته من الكلمة ، جاءته من توجه الإرادة إلى إحيائه وإيجاده على هذه الهيئة الانسانية الخاصة . هذه الإرادة التى يعبر عنها بكلمة « كن » لتقريبها إلى تصور البشر المحدود

فماذا فى خلق عيسى من غرابة ، وماذا فى مولده من شذوذ حين يقاس إلى خلق آدم ومنحه الحياة ابتداء فى هذا الوجود ؟

﴿ الحق من ربك ﴾ الذى خلق عيسى وغيره وبيده ملكوت كل شىء ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ أى الشاكين فى أمره القائلين فيه بغير علم ، فقد جاءك علم اليقين . ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل ﴾ أى فمن جادلك من النصارى فى عيسى بعد هذه البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله فقل لهم قولا يظهر علمك الحق وارتيابهم الباطل ﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل ﴾ يقال ابتهل الرجل : دعا وتضرع . والقوم تلاعنوا . وفسر الابتهال هنا بقوله ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ وتسمى هذه الآية « آية المباهلة » . وكل ما يفهم من الآية أمر النبى ﷺ أنه يدعو المحاجين والمجادلين فى عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع

رجالا ونساء وأطفالا ويجمع هو المؤمنين رجالا ونساء وأطفالا ويبتهلون إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى. وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب - سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم - على امترائهم فى حججهم ومماراتهم فيما يقولون وزلزالهم فيما يعتقدون وكونهم على غير بينة ولا يقين. وأنى لمن يؤمن بالله أن يرضى بأن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين والمبطلين فى صعيد واحد متوجهين إلى الله فى طلب لعنه وإبعاده من رحمته. وأى جراءة على الله واستهزاء بقدرته وعظمته أقوى من هذا؟

أما كون النبى ﷺ والمؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون فى عيسى عليه السلام فحسبنا فى بيانه قوله تعالى ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾، والعلم فى هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلا اليقين

روى أنهم لما دعاهم الرسول صلوات الله عليه إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر. فلما تخالوا قالوا للعاقب — وكان ذا رأيهم — : يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم. والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن. فان أبيتم إلا إلف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتى رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا. فقال أسقف نجران: يامعشر النصارى، إنى لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة. فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا. قال: فاذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم. فأبوا. قال: فإنى أناجزكم. فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن دينا، على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة: ألف فى صفر، وألف فى رجب. وثلاثين درعاً عادية من حديد. فصالحهم على ذلك

وفى الآية ما نرى من الحكم بمشاركة النساء للرجال فى الاجتماع للمباراة القومية والمناضلة الدينية ، وهو مبنى على اعتبار المرأة كالرجل حتى فى الأمور العامة ، إلا ما استثنى منها ككونها لا تباشر الحرب بنفسها بل يكون حظها من الجهاد خدمة المحاربين كمداواة الجرحى

وقد علمنا مما تقدم أن الحكمة فى الدعوة إلى المباهلة هى إظهار الثقة بالاعتقاد واليقين فيه ، فلو لم يعلم الله أن المؤمنات على يقين فى اعتقادهن كالمؤمنين لما أشركهن معهم فى هذا الحكم . فأين هذا من حال نسائنا اليوم ومن اعتقاد جمهورنا فيما ينبغى أن يكنّ عليه

﴿ إن هذا لهو القصصُ الحق ﴾ أى الذى قص عليك فى شأن المسيح هو الخبر الحق الذى لا شك فيه . وما عداه من قول القالين له أنه ولد زنا ، وقول الغالين فيه أنه الله أو ابن الله فباطل ﴿ وما من اله إلا الله ﴾ الذى خلق كل شىء وليس كمثله شىء ، فأى معنى تتصورون من معانى الألوهية فهو له وحده ، والمراد الرد على النصارى فى تثليثهم . ﴿ وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾ لا يساويه أحد فى عزته فى ملكه ، ولا يساميه مسام فى حكمته فى خلقه فيكون شريكا له فى ألوهيته ، أو ندّا فى ربوبيته . وما الولد إلا نسخة من الوالد يساويه فى جنسه ونوعه ، وهو تعالى فوق الأجناس والأنواع ، وفوق التصورات والأوضاع

﴿ فإن تولوا ﴾ أى أعرضوا ولم يجيبوا الدعوة إلى المباهلة ولم يقبلوا عقيدة التوحيد الخالص ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ لعقائد الناس بإصرارهم على الباطل تقليداً محضاً لا برهان يؤيده ولا بصيرة تعضده . وإفساد العقائد إفساد للعقل ، وهو رأس كل إفساد

* * *

قُلْ يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعالَوْا إِلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا

فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٦٤) يأهل الكتب لم تحاجون فى إبرهيم وما
أنزلت التورىة والإنجيل إلا من بعده ، أفلا تعقلون (٦٥) ، هأنتم هؤلاء
حججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم
لا تعلمون (٦٦) ما كان إبرهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا
مسلما وما كان من المشركين (٦٧) إن أولى الناس بإبرهيم للذين اتبعوه وهذا
النبي والذين ءامنوا ، والله ولي المؤمنين (٦٨)

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام ومايعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر دعوته ﷺ الناس إلى التوحيد والإسلام ، وظهور عناد أهل الكتاب حتى اضطر إلى دعوتهم إلى المباهلة فأعرضوا وبذلك انقطعت حجتهم . ودل ذلك على أنهم ليسوا على يقين من اعتقاد ألوهية المسيح ، ومن يفقد اليقين يتزلزل حينما يدعى إلى شيء مما يخاف عاقبته

دعاهم هنا إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعاً ، وهو سواء وعدل بين الفريقين لا يرجح فيه طرف على طارف وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر بأن يقول لهم : اشهدوا بأنا مسلمون

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ . بعد أن نكل المشركون والجاحدون من أهل الكتاب عن الدعوة إلى المباهلة دعاهم إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الانبياء ، وهو سواء بين الفريقين أى عدل ووسط لا يرجح فيه طرف على آخر ، وقد فسره بقوله ﴿ أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ والمراد من ذلك تقرير وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ، وكلاهما متفق عليه بين الأنبياء . فاما وحدانية الألوهية فهى قوله ﴿ أن لا نعبد إلا الله ﴾ أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها ، وأكده بقوله ﴿ ولا نشرك به

شيئاً ﴾ أى ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ، ولا نراه أهلا لأن يعبد . والإله هو المعبود الذى توله العقول فى معرفته وتدعوه وتصمد اليه لاعتقادها أن السلطة الغيبية له وحده . وأما وحدانية الربوبية فهو قوله ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ أى ولا نقول عزيز ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحليل والتحريم ، فالرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى . والمراد هنا من له حق التشريع والتحليل والتحريم ، كما ورد فى حديث عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ وفى عنق صليب من ذهب ، فقال : « ياعدى ، اطرح عنك هذا الوثن » وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم ، فقال : « أليس يحرّمون ما أحل الله فيحرمونه ، ويحلون ما حرّم الله فيستحلون » فقلت : بلى . فقال عليه السلام : هو ذاك . وسئل حذيفة رضى الله عنه عن الآية فأجاب بمثل ذلك

﴿ فان تولوا ﴾ وأعرضوا عن هذه الدعوة وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله باتخاذ الشركاء الذين يسمونهم وسطاء وشفعاء واتخاذ الأرباب الذين يحلون لهم ويحرمون ﴿ فقولوا ﴾ أنتم لهم ﴿ اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ . إنها دعوة منصفة من غير شك ، انها دعوة إلى مجرد التوحيد . وهو القدر المشترك بين الأديان جميعا وبين الرسالات جميعاً . وهو القدر الذى لا يتحقق الأيمان بدونه فى أى دين من أديان الله . فهى كلمة منصفة تسوى بين المؤمنين بالأديان جميعاً ، ولا يأباها أحد وهو مؤمن . وهى كفيلة بتنقية عقيدة الجميع من الخرافة والضلالة ، فلا عبادة إلا لله وحده بلا شريك ، ولا ربوبية لغير الله دون أحد من خلقه ، ملكا كان أم رسولا

لقد أمر الله رسوله — ﷺ — أن يجهر بهذه الدعوة ليلتقى المؤمنون بالأديان جميعها على تلك الكلمة السواء ، ويفيئوا إلى عقيدة التوحيد الخالصة المجردة التى لا تجعل الناس بعضهم أرباباً لبعض وكلهم من خلق الله . فإن استجابوا فهم قريبون إذن من الإسلام ، إسلام الوجه والضمير لله وحده دون سواه . وإن تولوا وأبوا — « فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » أى موحدون دونكم نعبد الله

وحده مخلصين له الدين لا ندعو سواه ولا نتوجه إلى غيره فى طلب نفع ولا دفع ضر ، ولا نحل إلا ما أحله الله ولا نحرم إلا ما حرمه . والآية حجة على أنه لايجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد فى مسائل الدين البحته : العبادات والحلال والحرام ، ما لم يسنده إلى المعصوم . أما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فهى مفوضة بأمر الله إلى أولى الأمر وهم رجال الشورى من أهل الحل والعقد ، فما يقررونه يجب على حكام المسلمين أن ينفذوه ، وعلى الرعية أن يقبلوه

إن هذه الآية أساس الدين المتين وأصله الأصيل ، فالله تعالى قد حد الحدود وبين الحلال والحرام وسكت عن أشياء رحمة بنا غير نسيان منه عز وجل ، ونهانا نبيه أن نبحث عما سكت عنه وأن نزيد فى الدين برأينا واجتهادنا ، وانما أباح لنا الاجتهاد لاستنباط ما تقوم به مصالحنا فى الدنيا ، فهذا هو هدى الآية ، وما يعقلها إلا العالمون

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم ﴾ جاءت هذه الآية والآيتان بعدها فى سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وبيان أنه دين جميع أنبيائهم الذين يدينون بأجلالهم ، وكان ابراهيم عليه وعلى آله السلام موضع إجلال الفريقين منهم ، لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق والعهد الجديد ، كما كانت قريش تجله وتدعى أنها على دينه ، فأراد تعالى أن يبين لهم أن هذا النبى الكريم الذى كانوا يجلونه لم يكن على شىء من تقاليدهم وإنما كان على الأسلام الذى يدعوهم هو اليه على لسان نبيه محمد ﷺ ، فبدأ بالاحتجاج على أهل الكتاب بقوله ﴿ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ أى بزمن طويل ، فاذا كان الدين الحق لا يعدو التوراة كما تقولون أيها اليهود ، أو لا يتجاوز الإنجيل كما تقولون أيها النصارى ، فكيف كان ابراهيم على الحق واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعاً له . فان خطر فى بالك أيها القارىء أن هذا يرد على القرآن فاصبر نفسك معى إلى تفسير الآية التالية .

﴿ ها أنتم ﴾ يا هؤلاء ﴿ حاججتم ﴾ أى جادلتم ﴿ فيما لكم به علم ﴾ مما

وهو خبر عيسى ، فقامت عليكم الحجة بأن منكم من غلا فى الافراط إذ قال انه دعىّ كذاب ، ولم يكن علمكم القليل به عاصما لكم من الخطأ فى الحكم عليه ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ وهو كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً ، أليس الواجب عليكم أن تتبعوا فيه ما يوحيه الله إلى عبده محمد ﷺ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ والله يعلم ما حاججتم فيه وأنتم لا تعلمون ، أي أنتم جاهلون به ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً ﴾ أى مائلا عن كل ما كان عليه أهل عصره من الشرك والضلال ﴿ مسلماً ﴾ أى موحداً منقاداً إلى الله تعالى ، وجهه إلى الله سبحانه وحده ، مخلصاً له الدين والطاعة ﴿ وما كان من المشركين ﴾ الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب ، وهذا من الاحتراس ، فقد كان أهل الكتاب يدعون العرب بالحنفاء حتى صار الحنيف عندهم بمعنى الوثنى المشرك ، فلما وافقهم القرآن على إطلاق لفظ الحنيف على ابراهيم مستعملا له بالمعنى اللغوى احترس عما يوهمه الاطلاق من إرادة المعنى الاصطلاحى عندهم فصار معنى الآية : إن ابراهيم المتفق على إجلاله وادعاء دينه عند أهل الملل الثلاث لم يكن على ملة أحد منهم ، بل كان مائلا عن مثل ما هم عليه من الوثنية والتقاليد ، مسلماً خالصاً لله تعالى . والمراد بالاسلام هنا هو الذى يدل عليه لفظه ، وهو التوحيد والإخلاص لله فى عمل الخير ، كما بينا فى تفسير ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ ، وهذا المعنى لا يستطيع أهل الكتاب إنكاره ، فان ما فى كتبهم عن إبراهيم لا يعدوه . وما كان النبي ﷺ يدعوهم إلا اليه . وقد نسى أكثر المسلمين اليوم معنى (الاسلام) الذى يقرره القرآن وجمدوا على المعنى الاصطلاحى له فجعلوه جنسية ، غافلين عن كونه هداية روحية ، وما كان سلفهم الصالح كذلك

﴿ إن أولى الناس بابراهيم ﴾ أى أجدر بولايته وأحراهم بموافقته ﴿ الذين اتبعوه ﴾ فى عصره وأجابوا دعوته فاهتدوا بهديه ﴿ وهذا النبي والذين

آمنوا ﴾ معه فانهم أهل التوحيد المحض الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالوسطاء والشفعاء وأهل الإخلاص فى الأعمال الذى لا يبطله شرك ولا رياء، وهذا روح الاسلام والمقصود من الايمان ، فمن فاته فقد فاته الدين كله لا تغنى عنه التقاليد والرسوم ولا تنفعه الوسطاء والأولياء ﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ الذين لا يتوجهون إلى غيره فى كشف ضر ولا طلب نفع ، فهو يتولى أمورهم ويصلح شئونهم ويتولى إثابتهم على حسب تأثير الاسلام فى قلوبهم ويزيدهم من فضله

* * *

وَدَّتْ طائفةٌ مِنْ أهلِ الكِتٰبِ لو يُضِلُّونَكم وما يُضِلُّونَ إلاّ أنفسَهُمْ وما يَشْعُرون (٦٩) يٰأَهْلَ الكِتٰبِ لِمَ تَكفُرونَ بآيٰتِ اللهِ وأنتم تَشْهَدُون (٧٠) يٰأَهْلَ الكِتٰبِ لِمَ تَلْبِسونَ الحقَّ بالبٰطِلِ وتَكْتُمون الحقَّ وأنتم تعلمون (٧١) وقالتْ طائفة مِن أهل الكِتٰبِ ءامِنوا بالَّذى أُنزِلَ على الَّذينَ ءامَنُوا وَجْهَ النَّهارِ واكفُروا ءاخِرَهُ لعلَّهم يَرْجِعون (٧٢) ولا تُؤْمِنوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكم قلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أن يُؤْتَى أحَدٌ مِثلَ ما أُوتيتُم أو يُحاجُّوكم عند ربِّكم ، قل إنَّ الفضلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عليم (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذو الفَضلِ العظيم (٧٤)

جاءت هذه الآيات بعد دعوة أهل الكتاب إلى الاسلام الذى كان عليه إبراهيم والأنبياء ، لبيان حالهم فى ذلك . وقد قال المفسرون إن اليهود دعوا معاذاً وحذيفة وعماراً إلى دينهم ، فأنزل الله ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ الآية . ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على إضلال المؤمنين ، سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا ، وليس الإضلال خاصاً بالدعوة بل كانوا يلقون ضروباً من الشك فى النفوس ليصدوها عن الإسلام . وكان النزاع بين الفريقين مستمراً ، وهو ما لا بد منه فى وقت الدعوة . قد قال تعالى فى بيان هذه الطائفة

المضلة : ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ أى أمثالهم إذ أن إثم إضلالهم عليهم . ومعنى هذا أنهم بتوجههم إلى الاضلال واشتغالهم به ينصرفون عن النظر فى طرق الهداية وما أوتيه النبي ﷺ من الآيات البينات على كونه نبياً هادياً فهم يعبثون بعقولهم ويفسدون فطرتهم باختيارهم ﴿ وما يشعرون ﴾ ولكنهم لانهماكهم فيه لم يشعروا بأنه كان صارفاً لهم عن معرفة الحق والهدى لأن المنهمك فى الشيء لا يكاد يفطن لعواقبه وآثاره

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ . الخطاب هنا موجه الى جميع أهل الكتاب ، والآيات عامة فى كل ما يدل على نبوة النبي ﷺ وحقيقة ما جاء به من القرآن وغيره ، وقد كانوا يشهدون هذه الآيات معنى وحسا . وفى الاستفهام من التوبيخ لهم والنعى عليهم ما يليق بمن يكابر الوجود ويجحد المشهود .

﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ أى تخلطون الحق الذى جاء به الانبياء ونزلت به الكتب ، وهو عبادة الله وحده وعمل البر والخير ، والبشارة بنبي من بنى اسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة — لم تخلطون هذا بالباطل الذى ألحقه به أحباركم ورهبانكم من التأويلات والآراء وتجعلون كل ذلك دينا يجب اتباعه ويحسب أنه من عند الله كما قال تعالى فى آية أخرى تأتى ﴿ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ فلبس الحق بالباطل عام يشمل كل ما ذكر وقيل هو خاص بالعقائد والأحكام . وقوله ﴿ وتكتمون الحق ﴾ أى نعت محمد ﷺ ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنه حق ، وهذا خاص بالبشارة به ﷺ ، والصواب أنه عام أيضاً ، فانهم كانوا يكتمون بعض الأحكام اتباعاً للهوى ، فيجعلون الكتاب قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ويأكلون بذلك السحت . وقد بين الله لهم على لسان رسوله كثيراً من مما كانوا يخفون من الكتاب كما سيأتى فى سورة المائدة وغيرها إن شاء الله تعالى

والآية حجة على الحشوية المقلدين من هـذه الأمة الذين يخلطون الحق بآراء الناس ويجعلون كل ذلك ديناً سماوياً وشرعاً إلهياً

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾ أى اليهود ، قالوا لجماعة منهم ﴿ آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا ﴾ أى القرآن ، أى أظهروا الإيمان به ﴿ وجه النهار ﴾ أى أوله ، وإنما سمى وجهاً لأنه أحسنه ، ولأنه أول ما يرى بعد الليل ، ﴿ واكفروا ﴾ به ﴿ آخره لعلهم ﴾ أى المؤمنون ﴿ يرجعون ﴾ عن دينهم إذا رأوكم رجعتم

هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه ، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الاسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه واطلعوا على باطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الانسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه — بعد الرغبة فيه — بغير سبب

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أى ولا تقروا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم . هذا من قول الكائدين من أهل الكتاب . وآمن له صدقه وسلم له ما يقول به . وذلك أن اليهود حصروا الثقة بأنفسهم لزعمهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم ، بل غلوا فى التعصب والغرور حتى حقروا جميع الناس فجعلوا كل ما يكون من أنفسهم حسناً وما يكون من غيرهم قبيحاً . ورد الله على أهل الكتاب إذ قال لنبيه ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إن الهدى هدى الله ﴾ الذى هو الإسلام ، لا هدى شعب معين هو لازم من لوازم ذاته . فهو سبحانه يبين هداه على لسان من شاء من عباده لا تتقيد مشيئته بأحد ولا بشعب . أما قوله ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ المعنى ولا تصدقوا غير من تبع دينكم بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم أو يقيموا عليكم الحجة عند ربكم ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من

يشاء ﴾ من عباده . فالكلام رد عليهم من الله تعالى وإبطال لما زعموا بالحجة الواضحة ﴿ والله واسع عليم ﴾ أى كثير الفضل ، وهذا بيان لسعة فضله وإحاطة علمه بالمستحق له ، وللاشعار بأن اليهود ضيقوا بزعمهم حصر النبوة فيهم هذا الفضل الواسع وجهلوا كنه هذا العلم المحيط

﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ فهو يجعل من يشاء نبياً ويبعثه رسولا . ومن يختصه بذلك فانما يختصه بمحض فضله العظيم لا بعمل قدمه ولا لنسب شرفه ، وإن جهل ذلك الذين يظنون أنه تعالى يحابى الأفراد والشعوب بذلك وتنزه تعالى عن ذلك

° ° °

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

هذا بيان حال أخرى من أحوال أهل الكتاب تمثلها طائفة أخرى تخون الأمانة وتستحل أكل أموال من ليس من الإسرائيليين بالباطل غروراً فى الدين وتأويلا للكتاب . وهى قد جاءت فى مقابل الطائفة التى تكيد للمسلمين ليرجعوا عن دينهم

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ﴾ الخ . هذه الآية جاءت ببعض التفصيل لما أجمل فى الآيات

السابقة من غرور أهل الكتاب وزعمهم أنهم شعب الله الخاص ، فكأنه قال منهم طائفة تكيد للمسلمين ومنهم من يستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم ، والكلام فيهم للاشعار بأنهم فعلوا ذلك باسم الكتاب الذى حرّفوا نهيه عن أكل أموال الناس بالباطل ، فزعموا أنه لم ينههم إلا عن خيانة إخوتهم الاسرائيليين . وقد تقدم تفسير القنطار . وقوله ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ معناه إلا مدة دوامك أيها المؤتمن له قائماً على رأسه تلح بالمطالبة أو تلجأ إلى التقاضى والمحاكمة ﴿ ذلك

بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ أى ذلك الترك للأداء بسبب قولهم ليس علينا فى أكل أموال الأميين — أى العرب — إثم ولا تبعة ولا ذنب ، كأنهم يقولون إن كل من ليس من شعب الله الخاص وليس من أهل دينه فهو ساقط من نظر الله ومبغوض عنده فلا حقوق له ولا حرمة لماله فيحل أكله متى أمكن .

وقد رد الله عليهم هذه المزاعم بقوله ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أن ذلك كذب عليه ، لأن ما كان منه فهو ما جاء فى كتابه ، وليس فى التوراة التى عندهم إباحة خيانة الأميين وأكل أموالهم بالباطل ، وهم يعلمون أن ذلك ليس فيها ، ولكن لا يأخذون الدين من الكتاب ، وإنما لجأوا إلى التقليد فعدوا كلام أحبارهم ديناً ينسبونه إلى الله . وانظر كيف أنصفهم الكتاب فبين أن منهم الوفى والخائن ولا يكون أفراد جميع الأمة خائنين ، وناهيك بأمة منها السموأل

ثم قال تعالى فى بيان الحق فى المعاملة ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين ﴾ . العهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك . فاذا اتفق اثنان على أن يقوم كل منهما للآخر بشيء مقابلة ومجازاة يقال انهما تعاهدا ، ويقال عاهد فلان فلاناً عهداً ، فيدخل فيه العقود المؤجلة والأمانات ، فمن ائتمنك على شيء أو أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل وجب عليك الوفاء بالعهد وأداء حقه اليه فى وقته من غير أن تلجئه إلى التقاضى والإلحاح فى الطلب ، بذلك تقضى الفطرة وتحتمه الشريعة . وهذا مثال العهد مع الناس ، وهو المراد هنا أولا وبالذات للرد على أولئك اليهود الذين لم يجعلوا العهد مما يجب الوفاء به لذاته ، وإنما العبرة عندهم

بالمعاهد ، فان كان إسرائيلياً وجب الوفاء له لأنه إسرائيلى ، ومن كان غير إسرائيلى فلا عهد له ولا حق يجب الوفاء به . ويدخل فى الإطلاق عهدالله تعالى وهو ما يلتزم المؤمن الوفاء له من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله وعهد للناس العمل به ، وهو حجة على اليهود أيضاً . ولفظ « بلى » جاء لإثبات ما نفوه فى قولهم ﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ أى إثم ، لاستحلالهم ظلم من خالفهم ، ونسبوا ذلك إلى الله تعالى ، فهو يقول : بلى عليكم سبيل — أى إثم — وأى سبيل ، إذ فرض عليكم الوفاء بالعهد والتقوى . ثم ذكر أهل الوفاء والتقوى فقال : من أوفى بعهده الذى عاهد به الله أو الناس واتقى الاخلاف والغدر والاعتداء فان الله يحبه فيعامله معاملة المحبوب بأن يجعله محل عنايته ورحمته فى الدنيا والآخرة

إن ورود الجواب بهذه العبارة أفادنا قاعدة عامة من قواعد الدين وهى أن الوفاء بالعهود واتقاء الاخلاف وسائر المعاصى والخطايا هو الذى يقرب العبد من ربه ويجعله أهلا لمحبته ، لا كونه من شعب كذا أو أمة كذا

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾

والأيمان فيها جمع يمين ، وهو فى الأصل اسم لليد التى تقابل الشمال ، ثم سمى الحلف والقسم يميناً لأن الحالف فى العهد يضع يمينه فى يمين من يعاهده عند الحلف لتأكيد العهد وتوثيقه ، حتى أن اللفظ يطلق على العهد نفسه وقد أضاف العهد هنا إلى الله لأنه تعالى عهد إلى الناس فى كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه . ولما كان الناكث للعهد لا ينكث إلا لمنفعة يجعلها بدلا منه عبر عن ذلك بالشراء الذى هو معاوضة ومبادلة ، وسمى العوض ثمناً قليلا لأجل أن يبين للناس أن كل ما يؤخذ بدلا من عهد الله فهو قليل وإن كثر ، ولا سيما إذا أكد باليمين لأن العهود إذا خزيت اختل أمر الدين ، إذ الوفاء آيته البينة ، بل محوره الذى عليه مداره ، وفسدت مصالح الدنيا إذ تبطل ثقة الناس بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وسلك النظام وأساس العمران . لأجل هذا كان الوعيد على نكث العهد — ولو لأجل المنفعة — أشد مانطق به الكتاب وأغلظه

وأى عقاب أشد من عقاب من لا خلاق له فى الآخرة ، أى لا نصيب له من النعيم فيها ، ولا يكلمه الله كلام إعتاب ، ولا ينظر اليه نظر عطف ورحمة ، ولا يزكيه بالثناء على عمل له صالح ، أو لا يطهره من ذنوبه بالعفو والمغفرة ، وله عذاب أليم أى مؤلم . قال الرسول ﷺ « آية المنافق ثلاث — وفى رواية لمسلم : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم — : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » رواه الشيخان وغيرهما . وفى رواية « وإذا عاهد غدر » . وروى عن أنس رضى الله عنه أنه قال ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا وقال « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »

° ° °

وإنَّ منهم لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهم بالكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوه منَ الكِتَٰبِ وما هو من الكِتَٰبِ ويقولونَ هو مِنْ عندِ اللهِ وما هو من عندِ الله ويقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وهم يَعلمون (٧٨) ما كانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَٰبَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثمَّ يقول للناس كونوا عِباداً لى مِن دُون اللهِ ولٰكنْ كونوا رَبَّٰنِيِّينَ بما كنتم تُعَلِّمونَ الكِتَٰبَ وبما كنتم تَدْرُسون (٧٩) ولا يَأْمُرَكُم أنْ تَتَّخِذوا المَلَٰئكَةَ والنَّبِيِّينَ أرْباباً ، أَيَأْمُرُكم بالكُفْرِ بعدَ إذْ أنتم مسلمون (٨٠)

هذا بيان حال طائفة أخرى من أهل الكتاب ، والجمهور على أن المراد بهذا الفريق بعض علماء اليهود الذين كانوا حول المدينة . ومن لفّ لفّهم وصار على طريقهم ، افتعلوا نوعاً آخر من الخيانة فى الدين بالافتراء على الله مالم يقله

روى عن ابن عباس أن هذا الفريق هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف - وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ، كثير الإيذاء له والإغراء به - غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة النبى ﷺ ، فأخذت قُرَيظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذى عندهم وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون الناس أنه من التوراة

﴿ وإن منهم لفريقاً ﴾ أى من أهل الكتاب طائفة ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ أما لىُّ اللسان بالكتاب فهو فتله للكلام وتحريفه له بصرفه عن معناه إلى معنى آخر . هذا اللى هو أن يعطى الناطق للفظ معنى آخر غير المعنى الذى يظهر منه . مثال ذلك الألفاظ التى جاءت على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ككلمة ابن الله وتسمية الله أباً له وأباً للناس فقد كان ذلك استعمالا مجازياً ، ولواه بعضهم فنقله إلى الحقيقة بالنسبة إلى المسيح وحده . أى فهم يفسرون لفظاً بغير معناه المراد فى الكتاب ويوهمون الناس أن الكتاب جاء بذلك كما قال ﴿ لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون . أكد الخبر بتعمدهم التحريف وبجعل الكذب الصريح عليهم كأنه يقول : إنهم لا يعرّضون ولا يورّون وإنما يصرحون بالكذب تصريحاً لفرط جراءتهم وعدم خوفهم من الله تعالى لأن الدين عندهم رسم ظاهر ، وجنسية هى مصدر الغرور إذ يعتقدون أنهم يغفر لهم جميع ما يجترمون لأنهم أهل هذا الدين ، ومن سلالة النبيين . وهكذا حال الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين ، يقولون إن المسلم من أهل الجنة حتما مهما كانت سيرته سيئة وعمله قبيحاً ، فإن لم تدركه الشفاعات أدركته المغفرة . ويعنون بالمسلم من اتخذ الإسلام جنساً له وإن لم يصدق عليه ما جاء فى الكتاب والأحاديث من صفات المؤمنين الصادقين ، بل صدق عليه ما جاء من وصف الكافرين والمنافقين

° ° °

أخرج ابن إسحق والبيهقى عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ فقال « معاذ الله » فأنزل الله فى ذلك ﴿ ما كان لبشر ﴾ إلى قوله ﴿ مسلمون ﴾

وأخرج عبد الرزاق فى تفسيره عن الحسن قال : بلغنى أن رجلا قال يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال : « لا ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله »

فأنزل الله ﴿ ماكان لبشر ﴾ الآيتين ذكر ذلك السيوطى فى لباب المنقول — وان ما روى من أن بعض الصحابة طلب أن يسجدوا للرسول هو من الروايات التى لم يق الله المسلمين شرها ولا حاجة اليها فى القرآن . فإن الآية متصلة بما قبلها فهى فى سياق الرد على أهل الكتاب إبطال لما ادعاه بعضهم من أن لله تعالى ابناً أو أبناء حقيقة وأن بعض الأنبياء أثبت ذلك لنفسه . وصرح بأن هذه الدعوى مما يدخل فى لىّ اللسان بالكتاب وتحريفه بالتأويل . ويصح أن تكون رداً على أصحاب هذه الدعوى ابتداء مستأنفاً استئنافاً بيانياً كأن النفس تتشوف بعد بيان حال فرق اليهود إلى بيان حال النصارى وما يدعون فى المسيح

فقوله ﴿ ماكان لبشر ﴾ نفى للشأن ، وهو أبلغ من نفى الوقوع خاصة ، لأنه نفى للوقوع مع بيان السبب والدليل وهو أن هذا غير ممكن ، أى ما ينبغى لبشر ﴿ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم ﴾ به والعمل بأرشاده . والحكم : الحكمة التى هى السنة . ان عبارات الكتاب ربما تذهب النفس فيها مذاهب التأويل ، فالعمل هو الذى يقرر الحق فيها . وقد تقدم عنه تفسير الحكمة بفقه الكتاب ومعرفة أسراره وأن ذلك يستلزم العمل . ثم قال ﴿ والنبوة ﴾ أى المنزلة الرفيعة بالأنباء . بعد قوله ﴿ يؤتيه الله الكتاب ﴾ لأن المرسل اليهم يقال انهم أوتوا الكتاب ﴿ ثم يقول للناس كونوا عباداً لى ﴾ أى بأن تتخذونى إلهاً أو رباً لكم ﴿ من دون الله ﴾ أى كائنين لى من دون الله ، أو كونوا عابدين لى من دونه . وقيل معناه حال كونكم متجاوزين الله تعالى ، أى متجاوزين ما يجب من إفراده بالعبادة وتخصيصه بالعبودية ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أى ولكن يأمرهم النبى الذى أوتى الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو ولا التوسل بشخصه ، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك وهى تعليم الكتاب ودراسته ، فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الانسان ربانياً مرضياً عند الله تعالى . فالكتاب هو واسطة القرب من الله تعالى ، والرسول هو الواسطة المبلغة للكتاب ، كما قال ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾

﴿ ولا يأمركم ﴾ أى ما كان لبشر أن يثبته الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة ثم يترك الأنداد ثم يأمر الناس أن يكونوا عباداً له ويأمرهم ﴿ أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ تنقل عبادة الملائكة عن مشركى العرب وعن بعض أهل الكتاب ، واتخذ بعض اليهود عزيزاً والنصارى المسيح أبناء الله ، فجاء الاسلام يبين أن كل ذلك مخالف لما جاء به الأنبياء من الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له والنهى عن عبادة غيره ، ولذلك قال ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ بمقتضى الفطرة ومعناه أنه ما كان للمسيح أن يأمر أهل الكتاب الذين بعث فيهم بعبادته بعد إذ كانوا موحدين بمقتضى ما جاء به موسى — وقيل أى أيأمرهم بعبادة الملائكة والسجود للأنبياء بعد توحيدهم لله والإخلاص له ، إذ لو فعل ذلك لكفر ونزعت منه النبوة والإيمان ، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله . فإن الله لا يؤتى وحيه إلا نفوساً طاهرة ، وأرواحاً طيبة فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله

قال رسول الله ﷺ « نعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع »

* * *

وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَٰبٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ قالَ ءأقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذَٰلِكُمْ إصْرِى ، قالوا أقْرَرْنا ، قالَ فاشْهَدُوا وأنا مَعَكُمْ مِنَ الشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَٰسِقُون (٨٢) أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وله أسْلَمَ مَنْ فى السَّمَٰوَٰتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإلَيْهِ يُرْجَعُون (٨٣)

هذا رجوع إلى أصل الموضوع الذى افتتحت السورة بتقريره ، وهو التنزيل ، وكون الدين عند الله واحداً ، وهو ما كان عليه ابراهيم وسائر النبيين . وكون الله تعالى مختاراً فيما يختص به بعض خلقه من مزية أو نبوة . وقد سيقت تلك المسائل لإثبات نبوة محمد ﷺ وإزالة شبهات من أنكر من أهل الكتاب بعثة نبى من

العرب ، واستتبع ذلك محاجتهم وبيان خطأهم فى ذلك وفى غيره من أمر دينهم . وهذه المسألة التى تقررها هذه الآية من الحجج الموجهة اليهم لدحض مزاعمهم وهى أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع النبيين وعلى أتباعهم بالتبع لهم بأن ما يعطونه من كتاب وحكمة وإن عظم أمره فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يرسل من بعدهم مصدقاً لما معهم منه وأن ينصروه . أى فالآية متصلة بما قبلها بالنظر إلى أصل الموضوع

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ قال الإمام الرازى عند تفسير هذه الآية : اعلم ان المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ قطعاً لعذرهم واظهارا لعنادهم ، ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية وهو أن الله تعالى أخذ الميثاق – وهو العهد الموثق المؤكد – من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين ، فهذا هو المقصود من الآية ، والواجب على الأمم التى أوتيت الكتاب إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم أن يؤمنوا به وينصروه وجب ذلك عليهم بميثاق الله على أنبيائهم أو ميثاقه عليهم أنفسهم على لسان أنبيائهم

﴿ لما آتيتكم ﴾ المعنى : مهما آتيتكم ﴿ من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ والمعنى أن الميثاق أخذ على الأنبياء ، فهو أنه لما كان القصد من إرسالهم واحداً وجب أن يكونوا متكافلين متناصرين إذا جاء واحد منهم فى زمن آخر آمن به ونصره بما استطاع ، ولا يلزم من ذلك أن يكون متبعاً لشريعته ، كما آمن لوط لإبراهيم وأيد دعوته إذ كان فى زمنه

أما إذا بعث الله النبيين فى أمة واحده فإنهما يكونان متفقين فى كل شىء كما حدث لموسى وهرون عليهما السلام ، وبهذا نفهم تصديق النبى ﷺ بالكتب السابقة وبمن جاء بها من الرسل . وليس المعنى أن تفاصيل شريعته توافق تفاصيل شرائعهم

وفى الآية إيماء إلى أنه لا ينبغى أن يكون الدين مصدر العداوة والبغضاء كما فعل

أهل الكتاب حين عادَوْا النبي ﷺ وكادوا له بعد أن دعاهم إلى كلمة سواء ، ولم يكن منهم إلا الصدود والإعراض والكيد والجحود

وصفوه القول — إنكم يا أهل الكتاب ملزمون باتباع محمد ﷺ والتصديق بشريعته بمقتضى الميثاق الذى أخذ على كل من موسى وعيسى — أنه إذا جاء نبي بعده وصدق بما معه يؤمن به وينصره ، وإيمانكم بموسى أو عيسى يقتضى التصديق بكل ما يؤمن به كل منهما

قال ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ ﴾ أى قال الله تعالى للنبيين : أأقررتم بالذى ذكر من الإيمان والنصر له وقبلتم العهد على ذلك

أقررتم — من قرّ الشيء إذا ثبت ولزم قرارة مكانه — وأخذتم أى قبلتم — والإصر — العهد المؤكد الذى يمنع صاحبه من التهاون فيما التزمه وعاهد عليه

﴿ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض ، وأنا معكم شاهد عليكم جميعاً لا يغيب عن علمى شيء . والمعنى أن الله تعالى أمر الأنبياء بأن يشهدوا على أممهم بذلك وهو معهم شهيد . وهو توكيد وتحذير عظيم من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض

وهذا الحوار لتثبيت المعنى وتوكيده على طريق التمثيل . وليست الآية نصاً فى أن هذه المحاورة وقعت وهذه الأقوال قيلت . وله نظائر كثيرة فى الأساليب العربية

إن هذا الميثاق لقائم . ولكنه قائم فى طبيعة الرسالات : فى تضامنها جميعاً . وفى توحد أساسها جميعاً ، وفى تسلسلها جميعاً ، وفى تمهيد كل رسالة للرسالة التى تليها ، هذا التمهيد الذى يعد تعميقاً لها وتوثيقاً ، ولكن الأسلوب التصويرى هو الذى يرسم هذا المشهد ويجعله فى صورة حوار ، وفى صورة قبول وإيجاب تعميقاً للمعنى الذهنى المجرد المستفاد من طبيعة الرسالات

وإذن فما دام الرسل جميعاً متضامنين ، متعاونين ، متعاهدين — بحكم طبيعة الرسالة عن الله أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن ينصر بعضهم بعضاً . مادام ذلك كذلك

« فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون . وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً واليه يرجعون »

﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أى أن من مقتضى ذلك الميثاق أن الله واحد ، وأن دعاته متفقون متحدون ، فمن تولى وأعرض بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه ولم ينصره كأولئك الذين كانوا يجحدون نبوّة محمد ﷺ ويؤذونه فأولئك هم الفاسقون أى الخارجون عن ميثاق الله الناقضون لعهده وليسوا من دينه الحق فى شىء وهذا يؤكد أن الميثاق مأخوذ على الأمم

روى أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين ابراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال رسول الله ﷺ : كلا الفريقين برىء من دين ابراهيم . فقالوا ما نرضى بقضائك ولا نأخذ دينك ، فنزل قوله تعالى ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ والمعنى : أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان فيبغون غير دين الله الذى هو الاسلام . وقيل : هذه الجملة معطوفة على الجملة المتقدمة ﴿ وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً ﴾ أى والحال أن جميع من فى السماوات والأرض من العقلاء قد خضعوا لله تعالى وانقادوا لأمره طائعين أى بالنظر فى الأدلة واتباع الحجة والانصاف من نفسهم ﴿ وكرهاً ﴾ بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الاسلام كنتق الجبل على بنى اسرائيل وإدراك الغرق فرعون وكذلك الاشراف على الموت كقوله تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا ﴾

وقيل إن الاسلام هنا متعلق بالتكوين والايجاد والاعدام لا بالتكليف أى أنه تعالى هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون المنقادون لتصرفه . وقال الرازى إن هذا هو الأصح عنده ولم يذكر فيه معنى الطوع والكره وكأنه يعنى أن ما يحل بالعقلاء من تصاريف الأقدار منه ما يصحبه اختيارهم عن رضى واغتباط فيكونون خاضعين له طوعاً ومنه ما ليس كذلك فيحل بهم وهم كارهون ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾

إن دين الله واحد تعاقدت عليه الرسل جميعاً وعهد الله واحد أخذه على الرسل جميعاً . والايمان بالدين الجديد هو الوفاء بهذا العهد . والاسلام هو هذا الدين الأخير ، فمن تولى عنه فقد تولى عن دين الله الذى يتحتم على المؤمنين بالله جميعاً أن يستجيبوا له إنه الاسلام . — والاسلام هو ناموس الوجود . الذى يشترك فى الإجابة له كل موجود . لا الناس وحدهم ولكن السموات كذلك والأرضون — وهذا الوجود كله محكوم بذلك الناموس . فهو مسلم لا يخرج على إرادة الله ومشيئته ، سواء رضيت نفسه بهذا الناموس فلباه أم كرهته وبقيت مسيرة به لا تتخطاه . . وإليه المرجع فى النهايه وإليه المصير

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام . صورة كونية تأخذ بالمشاعر ، وترتجف لها الضمائر . صورة ذلك الناموس الأزلى الذى يحكم الكائنات جميعها حية أو جامده . ويردها إلى سنن واحد وشرعة واحدة وإرادة واحدة ﴿ وإليه يرجعون ﴾ فى نهاية المطاف فيجزيهم بما كانوا يعملون

إن هذه الحرية الواسعة للكائنات ، وهذا المجال الفسيح الذى تزاول فيه نشاطها وتسبح منه فى أفلاكها . . . إن وراء هذا كله ذلك الناموس الذى يسلم له الجميع . والذى يكمن وراء الجميع

° ° °

قُلْ ءامَنَّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ عَلَيْنا وما أُنْزِلَ على إبْرٰهِيمَ وإسْمٰعِيلَ وإسْحٰقَ ويَعْقُوبَ والأَسْباطِ وما أُوتِيَ مُوسىٰ وعِيسىٰ والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أَحَدٍ منهمْ ونحنُ لهُ مُسْلِمونَ (٨٤) ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ منه وهُوَ فى الآخِرَةِ مِنَ الخٰسِرِينَ (٨٥)

لما كانت الأمة المسلمة هى الأمة المدركة لذلك الناموس ، الذى يسلم له الجميع ، والذى يكمن وراء الجميع ، العارفة بوحدة الرسل والرسالات ، فإن الله يأمر نبيها ﷺ أن يعلن فى تفصيل وتحديد إيمان أمته بجميع الرسالات قبل الإسلام ، وبجميع الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، ليبين بذلك حدود الإسلام كما تعنيه

رسالته ــ الإسلام الذى لا يقبل الله من الناس سواه . . وكما ختم تعالى آية دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بقوله ﴿ فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ جاء هنا بعد ذكر توليهم عن الاسلام يأمرنا بالاقرار به فقال مخاطباً لنبيه ﷺ :

﴿ قل آمنا بالله ﴾ ، أى قل لهم يا محمد آمنت أنا ومن معى بوجود الله ووحدانيته وكماله ﴿ وما أنزل علينا ﴾ من كتابه بالتفصيل ، وقدم الإيمان بالله على الإيمان بإنزال الوحى لأنه الأصل الأول المقصود بالذات ، والوحى فرع له إذ هو وحيه تعالى إلى رسله

﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ أى وآمنا بما أنزل على هؤلاء بالإجمال ، أى صدقنا بأن الله تعالى أنزل عليهم وحياً بهداية أقوامهم وأنه موافق لما أنزل علينا فى أصله وجوهره . والقصد منه كما أخبرنا الله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ الخ السورة . وقوله ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف إبراهيم وموسى ﴾ الخ . وقوله ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ الخ . وأما عين ما أوحى اليهم فلم يبق منه فى أيدى الأمم شىء يعتمد على نقله ﴿ وما أوتى موسى وعيسى ﴾ من التوراة للأول والإنجيل للثانى ﴿ و ﴾ ما أوتى ﴿ النبيون من ربهم ﴾ كداود وسليمان وأيوب ، وغيرهم ممن لم يقص الله علينا خبرهم ، فإن منهم من قصه علينا ومنهم من لم يقصصه ، فإذا ثبت عندنا أن نبياً ظهر فى الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به ، وقد قدم الايمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا مع كونه أنزل قبله فى الزمن لأن ما أنزل علينا هو الأصل فى معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له ولاطريق لإثباته سواه لانقطاع سند تلك وفقد بعضها ووقوع الشك فيما بقى منها فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالا فيما اجمل وتفصيلا فيما فصل ، وما أثبته لهم من الكتب كذلك ، ونؤمن بأن أصول ما جاءوا به واحدة وهى الإيمان بالله وإسلام القلوب له . والإيمان بالآخرة والعمل الصالح مع الإخلاص ، فكما أن الايمان بالله أصل للإيمان بما أنزل علينا كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم فقدم

عليه ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كما يفرق أهل الكتاب فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ولا نفرق بينهم فى الدين فنقول بعضهم على حق وبعضهم على باطل ، بل نقول كلهم على الحق ، لا خلاف بينهم فى الأصول والمقاصد ، فمثلهم كمثل الولاة الصادقين يرسلهم الملك العادل متعاقبين لعمارة الولاية وإصلاح أهلها وما يكون من التغيير فى بعض قوانينهم إنما يكون بحسب حال الولاية وأهلها والمقصد واحد وهو العمران والإصلاح

﴿ ونحن له مسلمون ﴾ منقادون بالرضا والاخلاص ، منصرفون عن أهوائنا وشهواتنا فى الدين ، لا نتخذه جنسية لأجل حظوظ الدنيا ، وإنما نبتغى به التقرب اليه تعالى بإصلاح النفوس وإخلاص القلوب والعروج بالأرواح إلى سماء الكرامة والفلاح . افتتح الآية بذلك الإيمان وختمها بالإسلام الذى هو كماله وغايته ، وهذا هو الاسلام الدينى الذى كان عليه جميع الأنبياء ، ولذلك قفى عليه بقوله :

﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ أى ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه ، لأن الدين إذا لم يكن هو الاسلام الذى بينا معناه آنفاً فما هو إلا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية وآلة للعصبية ووسيلة للمنافع الدنيوية . وذلك مما يزيد القلوب فساداً والأرواح إظلاماً ، فلا يزيد الناس فى الدنيا إلا عدواناً وفى الآخرة إلا خسراناً ، ولذلك قال ﴿ وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ أى أنه يكون هنالك خاسراً للنعيم المقيم فى جوار الرب الرحيم ، لأنه خسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله وإخلاص السريرة له جل علاه

هذا هو الاسلام فى سعته وشموله لكل الرسالات قبله ، وفى احترامه لكافة الرسل قبل رسوله ، وفى توحيده لدين الله كله ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى ذلك الأصل الواحد ، والإيمان بها جملة كما أرادها الله للعباد

فأما الذين أدركوا هذه الوحدة وعلموا أن رسالة محمد ﷺ حق بحكم تصديقها لما بين أيديهم وهو النبى الأمى وهم أهل الكتاب العارفون بطبيعة الديانات ،

ولكنهم مع هذا كفروا بعد هذا الادراك وارتدوا عن الحق وقد شهدوه . . هؤلاء لا يهديهم الله لأنهم رأوا الهدى فتنكبوه ، وكانوا يملكون أن يتبعوه . وظلموا الحق وظلموا أنفسهم بهذا التنكب فاستحقوا جزاء الظالمين

° ° °

كَيفَ يَهدِى اللهُ قوماً كفرُوا بعدَ إيمٰنِهِمْ وشَهِدوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجاءهُمُ البَيِّنٰتُ ، واللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّٰلِمِين (٨٦) أُولٰئِكَ جَزاؤُهُمْ أنَّ عَلَيهِمْ لَعنَةَ اللهِ والمَلٰئِكَةِ والنَّاسِ أجمعين (٨٧) خٰلِدِينَ فيها لا يُخَفَّفُ عنهمُ العذابُ ولا هُمْ يُنظَرون (٨٨) إلّا الَّذينَ تابوا مِن بَعْدِ ذٰلكَ وأصْلَحوا فانَّ اللهَ غَفورٌ رَحيم (٨٩)

بعد أن بين سبحانه حقيقة الاسلام وأنه الدين الذى بعث الله به جميع الأنبياء ولا يقبل من أحد غيره ، أردف ذلك بذكر حال الكافرين به وجزائهم عند ربهم

أخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن : أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد ﷺ فى كتابهم ، وأقروا وشهدوا أنه حق . فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم

وقال عكرمة : هم أبو عامر الراهب والحرث بن سويد فى اثنى عشر رجلا رجعوا عن الاسلام ولحقوا بقريش . ثم كتبوا إلى أهلهم : هل لنا من توبة ؟ فنزلت الآية فيهم . وأكثر الروايات على هذا

وأظهر الروايات وأشدها التئاماً مع السياق من يقول إنها نزلت فى أهل الكتاب ، وهو الذى اختاره ابن جرير والأستاذ الامام وقال إن الكلام من أول السورة معهم

أما قوله تعالى ﴿ كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ فهو استبعاد لهداية هؤلاء كما قال البيضاوى وإيآس للنبى ﷺ منهم ، أى كيف يرشد الله للصواب ويوفق

للإيمان قوماً جحدوا نبوءة محمد ﷺ بعد إيمانهم أى بعد تصديقهم إياه ، المعنى استبعاد هدايتهم بحسب سنن الله تعالى فى البشر وإيآس النبى ﷺ من إيمانهم . ووجه الاستبعاد أن سنة الله تعالى فى هداية البشر إلى الحق هى أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع عدم الموانع من النظر فيها على الوجه الذى يؤدى إلى المطلوب . وكل ذلك قد كان لهؤلاء . ولذلك آمنوا من قبل ﴿ وشهدوا أن الرسول حق ﴾ ثم كفروا مكابرة لأنفسهم ومعاندة للرسول حسداً له وبغياً عليه . والمعنى : بأى كيفية تكون هداية من كفروا بعد إيمانهم ، والحال أنهم قد شهدوا أن الرسول حق ﴿ وجاءهم البينات ﴾ أى الحجج والأدله الظاهرة التى تبين بها الحق من الباطل والرشد من الغى ، ولم يغن عنهم ذلك شيئاً لغلبة العناد والاستكبار على نفوسهم والحسد والبغى على قلوبهم ، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم باستحباب العمى على الهدى ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظالمة وهم الذين بدلوا الحق إلى الباطل فاختاروا الكفر على الإيمان . أى مضت سنته تعالى بأن الظالم لا يكون مهتدياً

لتفسير الآية طريقتان إحداهما شهادتهم بأن الرسول حق هى أنهم كانوا يعرفون بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ وكانوا عازمين على اتباعه إذا جاء فى زمنهم وانطبقت عليه العلامات وظهرت فيه البشارات ، ثم إنهم كفروا به وعاندوه بعد مجيئه بالبينات لهم وظهور الآيات على يده ، والله لا يهدى أمثال هؤلاء الظالمين لأنفسهم والجانين عنها . ووضع الوصف « الظالمين » مكان الضمير لتبيان سبب الحرمان من الهداية ، فان الظلم هو العدول عن الطريق الذى يجب سلوكه لأجل الوصول إلى الحق فى كل شىء بحسبه ، فذكره من قبيل ذكر الدليل على الشىء بعد ادعائه ، وما كان من تنكب هؤلاء — باختيارهم — لطريق الحق وهو العقل وهدى النبوة بعد ما عرفوه بالبينات هو نهاية الظلم . والهداية هنا هى التى أمرنا بطلبها فى سورة الفاتحة وهى الإيصال إلى الحق ، لأن سائر معانى الهداية عام لهم ولغيرهم . والطريقة الثانية هى أنهم كفروا بعد ما سبق لهم من الإيمان بالرسل — فالرسول على هذا القول للجنس — وجاءهم البينات على ألسنتهم وذلك بتركهم ما اتفق عليه أولئك الرسل

من التوحيد الخالص وإسلام الوجه لله ، وإخلاصه له بالبراءة من حظوظ النفس وأهوائها فى الدين واستبدالهم بهذه الهداية ما وضعوا لأنفسهم من التقاليد والبدع . وحاصل المعنى على هذه الطريقة ، كيف ترجو يا محمد هداية هؤلاء المعاندين لك ظناً أن معرفتهم بالكتاب والإيمان جعلتهم أقرب الناس إلى معرفة حقيقة ما جئت به بعد ما علمت من كفرهم بحقيقة ما كانوا عليه من الاسلام بنقضهم الميثاق وتحريفهم الكلم . والكلام على هذه الطريقة مبنى على اعتبار الأمة كالشخص لتكافلها . فالمراد بكفرهم بعد إيمانهم كفر مجموع الحاضرين وأمثالهم بعد إيمان مجموع سلفهم ، لا أن كل واحد من الكافرين كان مؤمناً ثم كفر

﴿ أولئك جزاؤهم ﴾ يعنى هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم جزاؤهم - ثوابهم - عن عملهم الذى عملوه ﴿ أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ الجمهور يفسرون لعن الله لمن يلعنه بطرده من جنته أو من رحمته أى الخاصة ، إذ الرحمة العامة مبذولة لكل مخلوق . ويفسرون السخط والغضب منه بنحو ذلك ، لأن ما أطلق عليه تعالى من الأوصاف التى تدل فى البشر على الانفعالات تفسر بآثارها التى هى أفعال . وقيل فى تفسير « عليه اللعنة » بعليه السخط أقرب من تفسيره بعليه الطرد ﴿ والناس أجمعين ﴾ وان كل الناس يلعنونهم متى عرفوا حقيقة حالهم ، فالمعنى أن هذه الحالة التى هم عليها مجلبة للعنة بطبعها من كل من عرفها

﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى اللعنة ، أى يكونون مطرودين أو مسخوطاً عليهم إلى الأبد أو فى أثرها وهو عذاب جهنم ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ الذى هو من لوازمها . لأن علته ما تكيفت به نفوسهم الظالمة وهى معهم لا تفارقهم ، والشىء يدوم بدوام علته ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ من الإنظار وهو التأخير والإمهال ، أى لا يمهلون ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ من ذنبهم وثابوا إلى ربهم ﴿ من بعد ذلك ﴾ الظلم الذى دنسوا به أنفسهم فتركوه مستقبحين له نادمين على ما أصابوا منه ﴿ وأصلحوا ﴾ أعمالهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان على نفوسهم

والتصريف لإرادتهم وأصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التى تمدّ الإيمان وتغذيه وتمحو من لوح القلب تلك الصفات الذميمة وتثبت فيه أضدادها ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فينالهم من مغفرته ما يزكى نفوسهم بمقتضى سننه ، ويصيبهم من رحمته ما يؤهلهم لدخول جنته ـ عطف الإصلاح على التوبة لأن التوبة التى لا أثر لها فى العمل لا شأن لها ولا قيمة فى نظر الدين ، ولذلك جرى القرآن على عطف العمل الصالح عليها عند ذكرها أو وصفها بالنصوح

فالإسلام يفتح باب التوبة فلا يغلقه فى وجه ضال يريد أن يتوب ، ولا يتطلب منه إلا أن يطرق الباب ، بل يدلف اليه بدون استئذان ، وإلا أن يفىء إلى حمى ربه ويعمل صالحاً فيدل على أن التوبة صادرة من قلبه

° ° °

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَٰصِرِينَ (٩١)

هذا بيان عن الذين لا يتوبون ولا يثوبون . الذين يصرون على الكفر ، ويزدادون كفراً . هؤلاء قد أفلتت منهم الفرصة وأغلقت دونهم الأبواب . فإذا ماتوا كفاراً فلن تقبل منهم فدية ولو كانت ملء الأرض ذهباً ، وهو أقصى ما يتخيل المرء أن يقدمه من فداء ، ولن يجدوا ناصراً ولا معيناً بعد أن ضيعوا الفرصة وأهملوا المتاب — قال سبحانه :

﴿ إن الذين كفرو بعد إيمانهم ﴾ وشهادتهم أن الرسول حق ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله بالكيد والتشكيك وبالحرب والكفاح ، والكلام على عمومه لا يختص بأولئك الذين سبق ذكرهم . فازدياد الكفر عبارة عما ينميه ويقويه من الأعمال التى يقاوم بها الإيمان ، فالكفر يزداد قوة واستقراراً وتمكناً بالعمل بمقتضاه ، كما أن الإيمان كذلك . وقوله ﴿ لن

تقبل توبتهم ﴾ انه تعالى لما قدم ذكر من كفر وبين أنه أهل للعنة إلا أن يتوب ذكر فى هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فان التوبة الأولى تصير غير مقبولة حتى كأنها لم تكن . ويكون التقدير فى الآية وما قبلها ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ : فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم . اه . من التفسير الكبير بتصرف . وفيه أن هذا الوجه أليق بالآية . ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ المتمكنون من الضلال حتى كان محصوراً فيهم ، وحسبك بضال لا ترجى هدايته ولا تقبل توبته ، لأنهم ضلوا سبيل الحق فأخطأوا منهجه وتركوا هدى الله الذى أخبرهم عنه فعموا عنه

﴿ إن الذين ماتو وهم كفار ﴾ وهم الذين يقيمون على الكفر وأعماله حتى يدركهم الموت على ذلك ، أى جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يصدّقوا بما جاء به من عند الله وماتوا على ذلك من جحود نبوّته وجحود ما جاء به ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ﴾ إذا كان قد تصدق به فى الدنيا لأن الكفر يحبط كل عمل ، قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا فجعلناه هباء منثوراً ﴾ فهو لا يفيد فى نجاتهم من العذاب . و « ملء الأرض » أى بمقدار ما يملأ الأرض شرقها إلى غربها ذهباً ، ﴿ ولو افتدى به ﴾ فى الآخرة على فرض أن يملكه بأن أراد أن يجعله جزاء نجاته والعفو عنه كما يفعل الناس مع الحكام الظالمين فإنه لا يقبل منه أيضاً ، ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم بدفع العذاب عنهم أو إيصال الخير إليهم ، أى لا يجدون لهم نصيراً ما ولا صديقاً ينصرهم فيستنقذهم من الله وعذابه المؤلم

* * *

لَنْ تَنَالوا البِرَّ حتى تُنْفِقوا مِمَّا تُحِبُّون ، وما تُنْفِقوا مِنْ شىء فانَّ اللهَ بِهِ عليم (٩٢)

وفى معرض الكفر والإيمان ، وعند ما يفترق طريقهما وينفرجان ، هنا يقرن

القرآن بهذه القضية الكبرى من قضاياه ، قضية أخرى يحفل بها الإسلام كثيراً ويقرنها بأصل العقيدة فيه فى مواضع كثيرة دليلا على الصلة بينهاوبين مكمن العقيدة إنها قضية البر والإنفاق . فالبر ثمرة الإيمان الظاهرة . فهى تذكر كثيراً كلما ذكر الإيمان

بعد أن حاج الله تعالى أهل الكتاب فيما ادعوه من الإيمان ، وأنهم شعب الله المختار وأن النبوة محصورة فيهم لا تعدوهم إلى غيرهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات

خاطبهم هنا بأن آية الإيمان وميزانه هو الإنفاق فى سبيل الله من المحبوبات مع الإخلاص وحسن النية ، ولكنكم أيها المدّعون لتلك الدعاوى آثرتم شهوة المال على مرضاة الله . ولو أنفق أحدكم شيئاً من ماله فانه ينفق من أردأ ما يملك وأبغضه اليه ، لأن محبة المال فى قلبه تفوق محبة الله تعالى ، والرغبة فى ادخاره تعلو الرغبة فيما عند ربه من الرضا والثواب ـ فكيف ترجون أن تكونوا من المؤمنين الصادقين وأنتم لا تنفقون ما تحبون ؟ ! !

﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ أى لن تبلغوا البر الذى هو كمال الخير ، ولن تنالوا بر الله تعالى الذى هو الرحمة والرضا والجنة فتعدوا من الأبرار الأخيار الذين هم المؤمنون الصادقون حتى تنفقوا مما تحبون ، لحذف ذكر الإيمان استغناء بذكر أكبر آياته وأوضح دلالاته وهى إنفاق المحبوبات وبذل المشتهيات . ان المتبادر من الانفاق هنا هو انفاق المال ، لأن شأنه عند النفوس عظيم ، حتى ان الانسان كثيراً ما يخاطر بنفسه ويستسهل بذل روحه لأجل الدفاع عن ماله أو المحافظة عليه . ويؤيده قوله ﴿ ليس البر أن تولوا وجهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية . وفيها ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى ﴾ . على أن المال يعم النقدين وغيرهما مما يتموله الناس . وشرط البر بذل بعض مايحبه الانسان من كل شيء حتى الطعام ، وهو أحد الوجهين فى تفسير قوله تعالى ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ﴾ أى

على حبهم إياه . والوجه الثانى أن الضمير عائد إلى الله تعالى ، أى لأجل حبه تعالى ، والمال يجمع جميع المحبوبات ويوصل اليه

واختلفوا فى البر هنا الذى لا يناله المرء — أى يصيبه ويدركه — إلا إذا أنفق مما يحب ، فقيل هو بر الله وإحسانه مطلقاً ، وقيل الجنة ، وقيل ما يكون به الانسان باراً . ومن فضل الله علينا أن اكتفى منا فى نيل البر بأن ننفق مما نحب ولم يشترط علينا أن ننفق جميع ما نحب

﴿ وما تنفقوا من شىء ﴾ أى من أى شىء تحبونه وغيره ﴿ فإن الله به عليم ﴾ لا يخفى عليه هل هو محبوب لديكم أو مزهود فيه ، وهل أنتم مخلصون فى إنفاقه أم أنتم مراءون طالبون للشهرة والجاه ، فهو عز وجل يجازيكم على ما تنفقون بحسب ما يعلم من نيتكم ومن موقع ذلك من قلوبكم وقدر ما ترقى بذلك أرواحكم ، فرب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء ، ورب فقير لا يجد ما يحب فينفق منه ، ولكن قلبه يفيض بالبر ، ولو وجد ما أحب لأوشك أن ينفقه كله

ويذكر المفسرون فى تفسير الآية ما كان عليه السلف الصالح من جعل ما يحبون لله تعالى . ذكر ابن جرير الشواهد على ذلك فى روايته ، ونقل غيره من كتب الحديث بعض الوقائع ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى عن أنس قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا بالمدينة وكان أحب أمواله اليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد . وكان النبى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . فلما نزلت ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله إن أحب أموالى إلىّ بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ : « بخ بخ . ذلك مال رابح . وقد سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقال أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة بين أقاربه وبنى عمه

ومما رواه ابن جرير فى ذلك عن مجاهد قال كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فى قتال سعد بن أبى وقاص، فدعا بها عمر فقال إن الله يقول « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فأعتقها

وآثار السلف فى الإيثار وبذل المحبوبات فى سبيل الله كثيرة . نزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار ـ هو أبو طلحة زيد بن سهل ـ فذهب به إلى أهله فوضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، فقامت كأنها تصلحه فأطفأته وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام وبقى هو وعياله مجهودين . فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ : « لقد عجب الله عز وجل من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » ، ونزلت ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة

وفى هذه الآثار وأمثالها ما يجب أن يكون فيه أسوة حسنة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر . والأمة التى ينتشر بين أفرادها البذل والإيثار يسود فيها الخير والحب والعز والرفعة والاستقلال

(تم الجزء الثالث — بعون الله وفضله)

الجزء الرابع — من سورة آل عمران

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِى إسْرٰئيلَ إلاَّ ما حرَّمَ إسْرٰئيلُ على نَفسِه مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰىٰةُ ، قُلْ فَأْتُوا بالتَّوْرٰىٰةِ فَاتْلُوها إنْ كنتمْ صٰدِقين (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلكَ فَأُولٰئكَ هُمُ الظّٰلِمُون (٩٤) قلْ صَدَقَ اللهُ ، فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبْرٰهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المُشْرِكين (٩٥) إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدًى لِلْعٰلَمِين (٩٦) فيهِ ءايٰتٌ بَيِّنٰتٌ مَقامُ إبْرٰهيمَ ومَنْ دَخَلَهُ كانَ ءامِناً ، وللهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إليه سَبِيلاً ، ومَنْ كَفَرَ فانَّ اللهَ غَنِيٌّ عن العٰلَمِين (٩٧)

كانت الآيات من أول السورة إلى هنا فى تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ مع إثبات وحدانية الله تعالى . وتبع ذلك محاجة أهل الكتاب ودحض شبههم وتفنيد ما استحدثوه فى دينهم من بدع وتقاليد لا نص عليها فى كتابهم

أما هذه الآيات فقد جاءت لدفع شبهتين من شبهات اليهود :

(١) أنهم قالوا للنبى ﷺ : إنك تدعى أنك على ملة ابراهيم . فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً فى دين ابراهيم ؟ فأنت قد استحللت ما كان محرماً عليه . فلست بمصدق له ، ولا بموافق له فى الدين . وليس لك أن تقول إنك أولى الناس به . فرد الله عليهم بأن كل الطعام كان حلالا لبنى إسرائيل ولإبراهيم من قبله ، ثم حرم عليهم بعض الطيبات عقوبة لهم

(٢) أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعنوا فى نبوته ، وقالوا إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، فهو قد وضع قبلها وهو أرض المحشر ، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويصلون اليه . فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا ، ولما تحولت عن بيت المقدس وعظمت مكاناً آخر وخالفت من تقدمك من الأنبياء . فرد الله سبحانه شبهتهم بأن أول بيت بنى للعبادة هو البيت الحرام ، بناه ابراهيم وولده إسماعيل للعبادة

وقد أجاب الله سبحانه عن أولى الشبهتين بقوله :

﴿ كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أى ان كل الطعام كان حلالا لبنى اسرائيل ولابراهيم من قبل بالأولى . ثم حرم الله عليهم بعض الطيبات فى التوراة عقوبة لهم وتأديباً كما قال ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ فالمراد باسرائيل شعب إسرائيل كما هو مستعمل عندهم لا يعقوب نفسه . فكأنه يقول : إذا كان الأصل فى الأطعمة الحل ، وكان تحريم ما حرم على إسرائيل تأديباً على جرائم أصابوها ، وكان النبي وأمته لم يجترحوا تلك السيئات فلم تحرم عليهم الطيبات . ثم قال تعالى مبيناً تقرير الدفع وسنده ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فى قولكم لا تخافون أن تكذبكم نصوصها . كأنه يقول : أما إنكم لو جئتم بما عندكم منها لما كان إلا مؤيداً للقرآن فيما جاء به من أنها هى حرمت عليكم ما حرمت ، وعللت جملة التكاليف بأنكم شعب غليظ الرقبة متمرد يقاوم الرب

والمراد بما حرمه اسرائيل على نفسه ما امتنعوا عن أكله وحرموه على أنفسهم بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله ، كما يعهد مثل ذلك فى جميع الأمم ، ومنه تحريم العرب للبحائر والسوائب وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم فى سورة المائدة والأنعام

وإسرائيل لقب نبى الله يعقوب عليه السلام ومعناه (الأمير المجاهد مع الله) ثم أطلق على جميع ذريته كما هو شائع فى كتب القوم من الأسفار المنسوبة إلى موسى فما دونها

﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ البيان وإلزام الكاذبين على ابراهيم والأنبياء بالتوراة ودعوتهم إلى الاتيان بها وتلاوتها على الملأ وامتناعهم عن ذلك لئلا يظهر أن الله لم يحرم عليهم شيئاً من الطعام قبل التوراة — والأصل فى الأشياء الحل حتى يرد النص بالتحريم — ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ بتحويلهم الحق فى المسألة عن وجهه ووضع حكم الله بتحريم بعض الطيبات عليهم فى غير موضعه ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ صدق الله ﴾ فيما أنبأنى به من عدم تحريم شىء على اسرائيل

قبل التوراة وقامت الحجة عليكم بذلك فثبت أننى مبلغ عنه إذ ما كان لى لولا وحيه أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون به عن أنبيائكم وإذا كان الأمر كذلك ﴿ فاتبعوا ملة ابراهيم ﴾ التى أدعوكم اليها حال كونه ﴿ حنيفاً ﴾ لا غلو فيما كان عليه ولا تقصير ولا إفراط ولا تفريط بل هو الفطرة القويمة والحنيفية السمحة المبنية على الاخلاص لله وإسلام الوجه له وحده ﴿ وما كان من المشركين ﴾ الذين يبتغون الخير من غيره تعالى أو يخافون الضر من غير أسبابه التى مضت بها سنته . أو يعبدون سواه كما فعله العرب من عبادة الأوثان ، وفعله اليهود من ادعائهم أن عزيراً ابن الله ، وفعله النصارى من اعتقادهم أن المسيح ابن الله .

وخلاصة هذا ـ أن محمداً ﷺ على دين ابراهيم فى جزئيات الأحكام وكلياتها ، فأحل ما أحله هو من أكل لحوم الإبل وألبانها ، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله . وما كان ابراهيم صلوات الله عليه إلا على هذا الدين

ثم أجاب عن الشبهة الثانية فقال :

﴿ ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ هذا شروع فى بيان شىء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل ، وذلك أنهم قالوا إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهد الأنبياء وفى الأرض المقدسة ، فرد الله ذلك عليهم فى هذه الآية أن البيت الحرام الذى نستقبله فى صلاتنا هو أول بيت لله وضع معبداً للناس بناه إبراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصة ، ثم بنى المسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون بناه سليمان عليه السلام سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد فكان جعله قبلة أولى . وبذا يكون النبى ﷺ على ملة إبراهيم ، ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهما

والخلاصة أن أول بيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء هو البيت الحرام . فليس فى الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يؤثر من تواريخهم ، ويتبع هذا أولوية الشرف والتعظيم

أما قوله تعالى فى البيت ﴿ مباركا وهدى للعالمين ﴾ فهو بيان لحاله الحسنة الحسية

وحاله الشريفة المعنوية — أما الأولى فهى ما أفيض عليـــه من بركات الأرض وثمرات كل شىء على كونه بواد غير ذى زرع — وأما الثانية فهى هوىّ أفئدة الناس اليه وإتيانه للحج والعمرة مشاة وركباناً من كل فج وتولية وجوههم شطره فى الصلاة ، ولعله لا تمر ساعة ولا دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام يصلون — فأى هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية

وبكة اسم لمكة وعليه الأكثرون — وقيل بكة اسم المسجد نفسه أو حيث الطواف ، من التباكّ أى الازدحام . وقيل هو اسم بطن مكة حيث الحرم

﴿ فيه آيات بينات مقام ابراهيم ﴾ أى فيه دلائل أو علامات ظاهرة لا تخفى على أحد ، أحدها أو منها مقام ابراهيم أى موضع قيامه فيه للصلاة والعبادة ، تعرف ذلك العرب بالنقل المتواتر . وابراهيم أبو الأنبياء الذين بقى فى الأرض أثرهم بجعل النبوة والملك فيهم لا يعرف لنبى قبله أثر ولا يحفظ له نسب

﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ آية ثانية بينة لا يمترى فيها أحد وهو اتفاق قبائل العرب كلها على احترام هذا البيت وتعظيمه لنسبته إلى الله حتى من دخله يأمن على نفسه لا من الاعتداء عليه وإيذائه فقط بل يأمن أن يثأر منه من سفك هو دماءهم واستباح حرماتهم ما دام فيه . مضى على هذا عمل الجاهلية على اختلافها فى المنازع والأهواء والمعبودات وكثرة ما بينها من الأحقاد والأضغان وأقره الإسلام .

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ فهو بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت جاءت بصيغة الإيجاب والفرضية فى معرض ذكر مزاياه . ودلائل كون أنه أول بيوت العبادة المعروفة للمعترضين من اليهود على استقباله فى الصلاة ، فهو يفيد بمقتضى السياق معنى خبرياً وبمقتضى الصيغة معنى انشائيـاً وهو وجوب الحج على المستطيع من هذه الأمة . وفى هذا تعظيم للبيت أيما تعظيم

وما زال الناس من عهد ابراهيم إلى عهد محمد صلوات الله عليهما يحجون البيت عملا بسنة إبراهيم جروا على ذلك جيلا بعد جيل لم يمنعهم من ذلك شركهم ولا عبادتهم للأوثان والأصنام ، فهى آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى ابراهيم

والحج معناه فى أصل اللغة القصد — وقد تقدم تفصيل أعماله فى تفسير آيات سورة البقرة — أما استطاعة السبيل فهى عبارة عن القدرة على الوصول اليه وهى تختلف باختلاف الناس فى أنفسهم وفى بعدهم عن البيت وقربهم منه . وكل مكلف أعلم بنفسه وإن كان عامياً من غيره وان كان عالما نحريراً . وما زاد الناس اختلاف العلماء فى تفسير الاستطاعة إلا بعداً عن حقيقتها الواضحة من الآية أتم الوضوح

﴿ ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ المراد بالكفر جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة الصحيحة بعد إقامة الحجج على ذلك وعدم الاذعان لما فرض الله من حجه والتوجه اليه بالعبادة ﴿ والله غنى عن العالمين ﴾ إنذار ووعيد فهو لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم وإنما هى أعمالهم ترد عليهم ولكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا يظلم ربك أحداً

ولعمرى أن بيت الله غنى عن اختراع الآيات وإلصاقها به مع براءته منها فحسبه شرفاً كونه حرماً آمناً ومثابة للناس وامناً ومباركا وهدى للعالمين وما فيه من الآيات التى ذكرها الله وإقسامه تعالى به وما ورد عن رسوله فى حرمته وتحريمه ككونه لا يسفك فيه دم ولا يعضد شجره ولا يختلى خلاه (أى لا يقطع نباته) ولا ينفر صيده ولا تملك لقطته وكون قصده مكفراً للذنوب ما حيا للخطايا وكون العبادة التى تؤدى فيه لا تؤدى فى غيره . وكون استلام الحجر الأسود فيه رمزاً إلى مبايعة الله تعالى على إقامة دينه والاخلاص له فيه ، وكون الصلاة فيه بمائة الف ضعف فى غيره . والأحاديث الواردة فى ذلك تطلب من الصحيحين وكتب السنن

* * *

قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ على ما تَعْمَلُونَ (٨٩) قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وانتم شُهَدَاءُ ، وما اللهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَـٰأَيُّهَا الذين ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ

كٰفِرِينَ (١٠٠) وكيفَ تَكفُرون وأنتمْ تُتلَىٰ عليكم ءايٰتُ اللهِ وفيكمْ رَسوله ، ومَن يَعْتَصِمْ باللهِ فقدْ هُدِيَ إلى صِرٰطٍ مُسْتَقِيم (١٠١)

لما أقام سبحانه الحجة على أهل الكتاب وبين بطلان شبهاتهم على نبوة محمد ﷺ وكونه على ملة إبراهيم عليه السلام أمره أن يبكتهم على كفرهم وصدهم عن سبيل الإيمان وابتغائه عوجاً وضلالهم بذلك على علم فقال : ـ

﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿ لم تكفرون بآيات الله ﴾ فى بيته الدالة على كونه أول بيت وضع لعبادته وعلى بناء ابراهيم له وتعبده فيه قبل وجود بنى إسرائيل وبيت المقدس ، أو بآياته على صحة نبوة محمد وإحيائه لملة ابراهيم الذى تعترفون بنبوته وفضله ، ومنها ما ذكر عن البيت والاستفهام للانكار والتوبيخ بقوله ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ أى والحال أن الله تعالى مطلع على عملكم هذا وسائر أعمالكم محيط به أفلا تخافون أن يأخذكم به ويجازيكم عليه أشد الجزاء

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ أى لأى شىء تصرفون من آمن بمحمد ﷺ واتبعه عن الإيمان وهو سبيل الله الموصلة إلى رضوانه ورحمته بما ترق من عقل المؤمن بالعقائد الصحيحة ومن نفسه بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة وتصدون عنها بالتكذيب كبراً وحسداً وإلقاء الشبهات الباطلة مكابرة وبغياً والكيد للنبي والمؤمنين بغياً وعدواناً ﴿ تبغونها عوجا ﴾ أى لم تصدون عنها قاصدين بصدكم أن تكون معوجة فى نظر من يؤمن لكم ويغتر بكيدكم ﴿ وأنتم شهداء ﴾ بأنها سبيل الله المستقيمة لا ترون فيها عوجاً ولا أمتاً ـ وقيل الشهداء فى قومكم توصفون فيهم بالعدل وتستشهدون فى القضايا ، ومن كان كذلك كان أقدر على الصبر ـ وقيل وأنتم شهداء على بقايا الكتاب وما يؤثر عن النبيين فكان من حقكم أن تكونوا أقرب الناس إلى معرفة هذه السبيل سبيل الحق والسبق اليها بالايمان بمحمد ﷺ ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من هذا الصد وغيره

فهو يجازيكم عليه . فالتذييل تهديد لهم ووعيد . وختم هذه الآية بنفي الغفلة لأن صدهم عن الاسلام كان بضرب من المكر والكيد ووجوه الحيل . وختم الآية السابقة بقوله « والله شهيد » لأن العمل الذى فيها وهو الكفر ظاهر مشهود

ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذراً لهم من أغوائهم وإضلالهم ، مبيناً لهم أن مثل هؤلاء لا ينبغى أن يطاعوا ولا أن يسمع لقولهم ، فهم دعاة الفتنة وحمالو حطبها . ثم أمرهم بعد ذلك بتقواه والتمسك بحبله المتين قال سبحانه : —

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ هو العداوة والبغضاء التى كان الكفر سببها ، ويجوز أن يراد بالكفر على الوجه الأول حقيقة كأنه يقول إنكم إذا أصغيتم إلى ما يلقيه هؤلاء من مثيرات الفتن واستجبتم لما يدعونكم اليه فكنتم طائعين لهم فانهم لا يقنعون منكم بالعود إلى ما كنتم عليه من العداوة والبغضاء بل يتجاوزون إلى ما وراء ذلك وهو أن يردوكم إلى الكفر . ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ . ﴿ وكيف تكفرون ﴾ بطاعتهم واتباع أهوائهم ﴿ وأنتم تتلى عليكم آيات الله ﴾ وهى روح الهداية وحفاظ الإيمان ﴿ وفيكم رسوله ﴾ يبين لكم ما نزل إليكم ، ولكم فى سنته وإخلاصه خير أسوة تغذى إيمانكم وتنير برهانكم . ﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ وبكتابه يكن الاعتصام إذن هو حبله الممدود . ورسوله هو الوسيلة اليه وهو ورده المورود ﴿ فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ لا يضل فيه السالك ولا يخشى عليه من المهالك — وقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضى المحقق للاشعار بأن من يلتجىء اليه تعالى ويعتصم بحبله فقد تحققت هدايته وثبتت استقامته — هدى إلى الناموس الذى لا يخنى ولا يتخلف — وهدى إلى الطريق الواحد الذى ينتهى إلى الحق الخالد . وهدى إلى الصواب لأنه يسير فى طريقه الذى لاعوج فيه . وإذا كان أهل الكتاب يبغونها عوجاً فهذا هو الصراط المستقيم فى متناول المؤمنين لا يتركه ويلجأ إلى مشورة مخالفيه فى الدين ، وإلى طريقتهم فى الحياة وطريقتهم

فى التفكير إلا من لم يستشعر فى ضميره حقيقة دينه ، ومن لا يرتبط قلبه بإلهه .

° ° °

يـٰأَيُّها الَّذينَ ءامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُمْ مُسْلِمون(١٠٢)
واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعـاً ولا تفرَّقوا ، واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عليكُمْ إذْ
كنتمْ أعْداءً فألَّفَ بينَ قلوبِكم فأصْبَحْتُمُ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا وكنتمْ علىٰ شفا حُفْرَةٍ
منَ النار فأنقَذَكُمْ منها ، كذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكمْ ءايٰتِهِ لَعَلَّكم تهْتَدُون (١٠٣)
ولْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عنِ
الْمُنكَرِ وأولـٰئِكَ همُ الْمُفْلِحون (١٠٤) ولا تَكونوا كالَّذين تفرَّقوا واخْتَلفوا من
بعدِ ما جاءَهُمُ البَيِّنٰتُ وأولـٰئِكَ لهمْ عَذابٌ عظيم (١٠٥) يومَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ
وتَسْوَدُّ وُجوه ، فأمَّا الَّذين اسْوَدَّتْ وُجوهُهمْ أكفرْتم بعدَ إيمٰنِكمْ فذُوقوا
العذابَ بما كنتمْ تكفرُون (١٠٦) وأمّا الذين ابْيَضَّتْ وُجوهُهم ففى رَحْمةِ اللهِ
همْ فيها خٰلِدُون (١٠٧) تلكَ ءايٰتُ اللهِ نَتْلُوها عليكَ بالحقِّ ، وما اللهُ يُرِيدُ
ظُلْمـاً لِلعٰلَمِين (١٠٨) وللهِ ما فى السَّمٰوٰتِ وما فى الأضِ وإلىٰ اللهِ تُرْجَعُ
الأُمُور (١٠٩)

أمر سبحانه المؤمنين بتقواه والتمسك بحبله المتين والمحافظة على إخلاص الوجه له حتى الممات . والاعتصام بحبل الله المتين يكون باتباع كتابه والجرى على سنة رسوله إذا اختلفت الأهواء وتضاربت الآراء . ثم أمرهم بتكميل غيرهم من أفراد الأمة وحثهم على اتباع أوامر الشريعة وترك نواهيها ، تثبيتاً لهم جميعاً على مراعاة ما فيها من الأحكام والمحافظة على ما فيها من الشرائع والنواميس ، وأن يكون فى نفوس أفرادها من حب الخير والحدب على ما فيه المصلحة لمجموعها ما يكون لحب الفرد لمصلحته . وبذا تكون بينهم رابطة تجمعهم فى طلاب الخير لهم جميعاً حتى تكون الأمة كأنها جسد واحـد كما ورد فى الحديث « مثل المؤمنين فى توادّهم

وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، رواه مسلم

وروى البخارى وغيره حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

والحافظ لوحدة الأمة ومناط بقاء جامعتها — أمر بعض أفرادها بعضاً بالاستمساك بالخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لما نهى الله عن قبول أقوال الكافرين بين فى هذه الآية ما يجب قوله فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ أى واجب تقواه وما يحق منها . ومثله قوله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أى بالغوا فى التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً ـ ومعنى العبارتين واحد أى اتقوا عذاب الله أى احترسوا وامتنعوا بالطاعة من عذاب الله كما يحق فكما يجب أن يتقى ينبغى أن يحترس منه . وقال ابن مسعود : يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى .

إنها لفتة إلى الصلة بالله وتقواه . التقوى ذلك الشعور الوجدانى العميق اللطيف ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ . . اتقوا الله كما يجب أن يتقى . ويدعها كذلك مبهمة . . يدعها لكل قلب يحسها كما يطيق . ويتصورها كما يملك . ويجتهد فيها ما استطاع . وكلما أوغل القلب البشرى فى هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له أشواق . وكلما اقترب من الله بتقواه تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، ومرتبة وراء ما ارتقى . وتطلع إلى المقام الذى يفنى عنده فلا يحس بالآماد

﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ فمعناه استمروا على الإسلام وحافظوا على أعماله حتى الموت . وهذا النهى مبنى على قاعدة أن المرء يموت غالباً على ما عاش عليه ، فاذا عاش على اليقين والتقوى حق التقوى والاحتراس مما ينافى الإسلام مات على ذلك بفضل الله الذى كانت تلك القاعدة من سننه فى خلقه .

والموت غيب لا يدرى إنسان متى يدركه ، فن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً ، وأن يكون فى كل لحظة مسلماً ، فانه لا يدرى إن كان

الموت قابعاً خلف النفس الذى يتردد ، والذى قد يخرج فلا يدخل . أو يدخل فلا يخرج

ثم بين لنا عز وجل ما به يتحقق ذلك الأمر والنهى فقال ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ حبل الله هو القرآن كما ورد فى الحديث الصحيح « كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض » ، ومن اعتصم به كان آخذاً بالإسلام ، فهو يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه وعليه نجتمع وبه نتحد ، ثم نهانا عن التفرق والانفصام بعد هذا الاجتماع والاعتصام لما فى التفرق من زوال الوحدة التى هى معقد العزة والقوة وبالعزة يعتز الحق فيعلو على العالمين ، وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات الواثبين وكيد الكائدين

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ يشير إلى ما كان عليه المؤمنون فى عصر التنزيل من أخوة الايمان التى بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم ، وبها كانوا يؤثر بعضهم بعضاً بالشىء على نفسه وهو فى خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشىء بعد ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف فى جملته للجماهير وفى تفاصيله الغريبة للمطلعين على أخبارهم المروية

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ أى كنتم بوثنيتكم وشرككم بالله تعالى وما يتبعه من الخرافات والمفاسد التى أطفأت نور الفطرة وهبطت بالأرواح إلى درك سافل حتى كانت كأنها على طرف حفرة يوشك أن تنهار بها فى النار ، فشفا الحفرة أو البئر طرفها ، ويضرب به المثل فى القرب من الهلاك ، وليس بين المشرك وبين الهلاك فى النار إلا الموت ، والموت أقرب غائب ينتظر

انظر آية الله ، قوم متخالفون بين العداوات والاحن يتربص كل واحد بالآخر الهلكة على يده ، فيأتى الله بهذه الهداية فيجمعهم ، ويزيل كل ما فى نفوسهم من التنافر ، ويجعلهم إخواناً ترجع أهواؤهم كلها إلى شىء واحد لا يختلفون فيه وهو

حكم الله ، ولذلك قال ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ أى بمثل هذا البيان الذى تلى عليكم يبين الله لكم الآيات أى الدلالات والحجج فيما أمركم به ونهاكم عنه . ليعدكم ويؤهلكم بها للاهتداء الدائم المستمر ، فلا تعودون إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان — « وكذلك تجىء الدعوة إلى الوحدة بعد الدعوة إلى الاسلام . فالوحدة فى الله هى جوهر العقيدة الاسلامية والارتباط بحبل الله هو وسيلة الوحدة . والتعبير يسميه اعتصاماً فيرسم صورة الالتجاء من خطر الفرقة إلى عصمة الوحدة . إنها عملية احتماء والتجاء واعتصام ، والحياة الدنيا متاهة : متاهة شهوات ، ومتاهة عداوات . والاعتصام بحبل الله فيها عصمة ، والالتجاء اليه فيها نجوة . هذا الحبل هو شريعة الله وتقوى الله . والتحابُّ فى الله ، والاتجاه إلى الله . فكلها تؤدى الى التماسك حول محور واحد ، والتجاذب بجاذبية واحدة ، والاتجاه إلى قبلة واحدة ، والتجمع حول هدف واحد تسعى له الأمة كلها وتتوخاه » .

ويذكر الله المسلمين بنعمته عليهم : نعمة تأليف القلوب ، ورأب الصدوع ، والارتفاع على حزازات الصدور ، والتفانى فى غاية أسمى من الشخصيات الزائلة ، والأمجاد الفارغة ، والفخر والعصبيات والأنساب . . . وإنها لمعجزة تلك التى تحول شتات العرب فى جاهليتهم وحدة ، وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذى لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيراً

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾

إن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض حتم على كل مسلم ، كما تدل عليه الآية فى ظاهرها المتبادر وغيرها من الآيات كقوله تعالى ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ وكذلك عمل الرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، وكون هذا حفاظاً للأمة وحرزاً ظاهراً ، فإن الناس إذا تركوا دعوة الخير وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة وكانوا

أفذاذاً متفرقين لا جامعة لهم ، ولهذا ضرب الرسول ﷺ للمداهن مثل راكب فى سفينة يطوف على جماعة معه بماء وكل يطلب مما معه فقال لهم : إنى فى حاجة اليه وذهب ينقر فى السفينه فان أخذوا على يده نجوا ونجا معهم ، وإلا هلك وهلكوا جميعاً ، ففشو المنكرات مهلكة للأمة قال تعالى ﴿ واتقوا فتنــة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فلا بد للمرء فى حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش ، فهذا ليس من فروض الكفاية التى يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة ، ولكنه إذا رأى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره

ولقد روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعذابه »

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ إن القائمين بما ذكر هم الفائزون بما أعده الله من السعادة لأهل الحق دون سواهم والفلاح فى الدنيا فالأمة التى تترك ذلك تكون من الخاسرين لا المفلحين . سئل رسول الله ﷺ : من خير الناس ؟ قال « آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم » . وقال أيضاً من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »

إنها تكاليف الأمة المسلمة ، تأتى الدعوة اليها بعد الإعراض عن خطاب أهل الكتاب ، وبعد دعوة المؤمنين أن يحذروا فتنتهم إياهم عن دينهم القويم ، والهتاف بهم للاعتصام بحبل الله ، والاتجاه على هداه . وما كان ذلك كله إلا استعداداً لأداء الأمانة والنهوض بعبئها فى الجماعة :

إن الدعوة إلى الخير والأمر والنهى لها مراتب . فالمرتبة الأولى هى : دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وهو الذى يتجه فيه قول المفسر إن المراد بالخير الاسلام ، وقد فسرنا الإسلام من

قبل بأنه دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الأمم وهو الاخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى إلى حكمه، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطاً وشهداء على الناس كما تقدم فى سورة البقرة . وخير أمة أخرجت للناس كما سيأتى بعد آيات مقيداً بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . وبحكم قوله فى وصف المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فالواجب دعوة الناس إلى الاسلام أولا - فان أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر - وإذا اجتمعت الأمة على هذا المقصد العالى الشريف وهو أن تكون مسيطرة على الأمم كلها ومربية لها ومهذبة لنفوسها ، فلا شك أن جميع الأهواء الشخصية تتلاشى من بينهم ، فاذا عرض الحسد والبغى لأحد من أفرادهم تذكروا وظيفتهم العالية الشريفة التى لا تتم إلا بالتعاون والاجتماع ، فأزالت الذكرى ما عرض ، وشفت النفوس قبل تمكن المرض

والمرتبة الثانية فى الدعوة والأمر والنهى ، هى دعوة المسلمين بعضهم بعضاً :

الدعوة إلى الخير . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنتدب له طائفة يدعوها القرآن « أمة » تعظيما لها وتكثيراً . . . وإنها لفريضة على الأمة المسلمة كلها ، ولكنها فريضة لا تملك الأمة كلها أن تنهض بها لأنها تحتاج إلى استعداد خاص ، وإلى إعداد خاص ، فواجب الأمة إذاً أن تندب لها من ينهض بها وتعينه كذلك عليها ، وعندئذ فقط تسقط الفريضة عن الجماعة الاسلامية متى نهض بها القادرون عليها المهيأون لها . . ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المفلحون فى دعوتهم لأنهم يدعون إلى الخير ، المفلحون فى حياتهم لأنهم ينفقونها فى أداء فريضة جامعة مكتوبة على الأمة المسلمة ، المفلحون فى أخراهم بما قدموا بين أيديهم من حسنات

الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، وفيهم الجبار المتكبر ، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذى يكره الصعود . ولكنه مع ذلك تكليف محبب إلى النفس المؤمنة بالله ، التى لا تعتز إلا بالله ، ولا تخشى

إلا إياه ، إنه يشعر هذه النفس بأن لها فى الحياة وظيفة ، وبأنها لا تعيش لذاتها المحدودة إنما تعيش لوظيفة أكبر ولمحيط أوسع . ولأفق أعلى من واقع الأرض وحدود الحياة . . على أن هذا التكليف هو سبيل لضمان وحدة الأمة وتماسكها وتكافلها ، وتوحيد مفاهيمها للدين ، ومناهيها للحياة ، فقد تضل الجموع إذا لم تجد بينها هؤلاء الهداة

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ وهم أهل الكتاب تفرقوا فى الدين وكانوا شيعاً كل شيعة تذهب مذهباً يخالف مذهب الأخرى . وصار كل ينصر مذهبه ويدعو اليه ويخطىء ما سواه حتى تعادوا واقتتلوا على ذلك ، وقوله تعالى ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ يفيد أن الانسان لا يؤاخذ على ترك الحق أو اتباع الباطل إلا إذا بين له ذلك حتى تبين أو صار حيث تبين له لو نظر فيه ، والجهل ليس بعذر بعد البيان كما هو مقرر عند العقلاء والحكام فى كل مكان .

﴿ وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ والعذاب فى هذا الوعيد يشمل خسران الدنيا والآخرة ـ أما عذاب الدنيا فهو أن المتفرقين المختلفين الذين اتبعوا أهواءهم وحكموا فى دينهم آراءهم يكون بأسهم بينهم شديداً ، فيشقى بعضهم ببعض ، ثم يبتلون بالأمم الطامعة فى الضعفاء فتذيقهم الخزى والنكال وتسلبهم عزة الاستقلال . وأما عذاب الآخرة فقد بين الله فى كتابه أنه أشد من عذاب الدنيا وأبقى .

﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قيل إن بياض الوجوه وسوادها هنا من باب الحقيقة ، وأن ذلك يكون يوم القيامة خاصة قال تعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ وقيل إنه من باب الكناية فابياض الوجوه عبارة عن المسرة ، واسودادها عن الغم . قال تعالى ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ وعلى نحو الابيضاض قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ضاحكة مستبشرة ﴾ أما البياض والسواد فى الدنيا فذلك أن المتفقين الذين جمعوا عزائمهم على العمل بما فيه مصلحة أمتهم وملتهم واعتصموا واتفقوا على الأعمال

النافعة التى فيها عزتهم وشرفهم وأصبح كل واحد منهم عوناً للآخر ووليا له فأولئك تبيض وجوههم — أى تنبسط وتتلألأ بهجة وسروراً — عند ظهور الاتفاق والاعتصام ونتائجهما من السلطة والعزة والشرف وارتفاع المكانة وسعة السلطان، أولئك الأقوام ترى على وجوههم لألاء العزة وتألق البشر بالشرف والرفعة وهو ما يعبر عنه ببياض الوجه. وأما المختلفون لافتراقهم فى المقاصد وتباينهم فى المذاهب والمشارب الذين لا يتناصرون ولا يتعاضدون ولا يهتم أفرادهم بالمصلحة العامة التى فيها شرف الملة وعزة الأمة فهم الذين تسود وجوههم بالذلة والكآبة يوم تظهر عاقبة تفرقهم واختلافهم بقهر الأجنبي لهم ونزعه السلطة من أيديهم — والتاريخ شاهد على صدق هذا الجزاء فى الماضين. والمشاهدة أصدق وأقوى حجة فى الحاضرين

﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ فيقال لهم ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ يقال لهم هذا القول فى الدنيا وفى الآخرة، أما فى الدنيا فلا بد أن يوجد فى الناس من يقول للأمة التى وقع لها ذلك مثل هذا القول تغليظاً عليها، لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين. وأما فى الآخرة فيوبخهم الله بمثل هذا السؤال

والقرآن يعد الخروج من مقاصد الدين الحقيقية بالعمل من الكفر، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وله شعب كثيرة من أعظمها تحرى العدل واجتناب الظلم (مثلا) فن استرسل فى الظلم حتى صار صفة له كان كافراً كما قال تعالى ٢ : ٢٥٤ ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ فاذا كان الظالمون كافرين فى عرفه فكيف لا يكون المتفرقون المختلفون كافرين. وقد قال الله تعالى لنبيه ٦ : ١٥٩ ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ﴾ فالاعتصام بالوحدة وترك التفرق والاختلاف من أعظم شعبه بل ذلك هو أساسه الذى لا يثبت بناؤه إلا عليه ولذلك وردت هذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها عقب قوله ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ فان ما قررته من وجوب الاعتصام

والنهى عن التفرقة أولا وآخراً وإناطة الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأمة قوية متحدة ـ هو بيان السبيل التى يجب علينا سلوكها لنموت مسلمين

﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾

المراد برحمة الله تعالى أثرها من نعمته وإحسانه . ولا شك أن من ابيضت وجوههم بما تقدم شرحه يكونون خالدين فى النعمة بالدنيا ما داموا على تلك الحالة والأعمال التى بها ابيضت وجوههم ، لإن الله تعالى لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فيترتب عليه تغير فى الأعمال ـ وترتيب الخلود هنا على قوله ﴿ ابيضت وجوههم ﴾ يؤذن بأن الابيضاض وماكان سبباً فيه علة له والمعلول يدوم بدوام علته ـ وأما أمر الخلود فى الآخرة فهو أظهر

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ أى تلك التى قد جرى ذكرها حجج الله وعلاماته وبيناته نقرأها عليك بالحق يا محمد ، أى بالأمر الثابت المحقق الذى لا مجال فيه للشكوك والشبهات ، ولا للاحتمالات والتأويلات ، فلا عذر إذا اتبعت أمتك سنن من قبلها فتفرقت فى الدين وذهبت فيه مذاهب وصارت شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . وبخلاف الآخرين مستمسكون . فما أمروا فى هذه الآيات بما أمروا به من الاعتصام ووعدوا عليه بالفلاح العظيم ، ولا نهوا عما نهوا عنه من التفرق والاختلاف وأوعدوا عليه بالعذاب الأليم ، إلا ليكونوا أمة واحدة متحدة فى الدين متفقة فى المقاصد ، يعذر بعضهم بعضاً إذا فهم غير ما فهم مع المحافظة على ما لا تختلف فيه الأفهام كوجوب الاتحاد والاعتصام ، وتوحيد الله وتقواه ، واجتناب الفواحش والمنكرات . ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه . وإنما يريد به هدايتهم إلى ما تكمل به فطرتهم ويتم به نظام اجتماعهم ، فاذا هم فسقوا عن أمره وحل بهم البلاء فإنما يكونون هم الظالمين لأنفسهم بتفرقهم واختلافهم ، وكذا بغير ذلك من الذنوب الاجتماعية . فالكلام فى الأمم وعقوبتها ـ ولا يمكن أن يحل بها بلاء إلا بذنب فشا فيها فزحزحها عن صراط الله الذى بينه فى هذه الآيات وغيرها ﴿ وكذلك أخذ ربك

إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفى الظلم عنه تعالى فقال :

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ فهو مالك العباد والمتصرف فى شئونهم ، وإلى سننه الحكيمة ترجع أمورهم ، ولكل سنة منها غاية تنتهى اليها لا تبديل لها ولا تحويل ، فلا يطمع أهل التفرق والخلاف بالوصول إلى غاية أهل الوحدة والاتفاق

وليس من أسباب ملكه شىء ناقص يحتاج إلى تمام فيتممه بظلم غيره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

ولأن الظلم ينافى الحكمة والكمال فى النظام والتشريع

ومن حمل عبيده أو دوابه مالا تطيق يقال إنه ظلمها . ومن نقص امرءاً حقه فقد ظلمه ، قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾

وعلى الجملة — فالظلم الذى ينفيه تعالى عن نفسه هو ما ينافى مصلحة العباد وهدايتهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وبعبارة أخرى هو مايخالف النظام والأحكام

° ° °

كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ تَأْمُرونَ بالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عنِ الْمُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ ، ولَوْ ءامَنَ أهلُ الكِتٰبِ لَكانَ خَيراً لهُمْ ، منهمُ الْمُؤْمِنونَ وأكثَرُهمُ الفٰسِقون (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إلّاَ أذىً ، وإن يُقٰتِلوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنصَرون (١١١) ضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ أَينَ ما ثُقِفُوا إلّاَ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النّاسِ وباءو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عليهمُ الْمَسْكَنَةُ ذٰلكَ بِأَنَّهمْ كانوا يَكفُرونَ بآيٰتِ اللهِ ويَقْتُلونَ الأنبياء بغيرِ حقٍّ ، ذٰلكَ بما عَصَوْا وكانوا يَعتَدُون (١١٢)

بعد ما أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله وذكر بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب وأخوة الاسلام ـ وبعد ما نهى عن التفرق فى الأهواء والاختلاف فى الدين وتوعد على ذلك بالعذاب العظيم ـ بين فضل المعتصمين بحبله المتآخين فى دينه ، المتحابين فيه ، ووصفهم بهذا الوصف الشريف

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ فعلم منه أن خيرية الأمة وفضلها على غيرها تكون بهذه الأمور : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله تعالى

وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولا ، وهم النبى ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه (عليهم الرضوان) ، فهم الذين كانو أعداء فألف الله بين قلوبهم فكانوا بنعمته إخواناً ، وهم الذين اعتصموا بحبل الله ولم يتفرقوا فى الدين فيذهبوا فيه مذاهب تتعصب لكل مذهب شيعة منهم . وهم الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يخاف فى ذلك ضعيف قوياً ، وهم المؤمنون بالله ذلك الإيمان الذى استولى على عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم . وملك أزمة اهوائهم حتى كان المسير لهم فى عامة أحوالهم ـ ذلك الإيمان الذى بين سبحانه خواصه وصفاته فى آيات كثيرة ، وظهرت فوائده وآثاره فى تغيير هيئة الأرض على أيديهم ـ ذلك الإيمان الذى قال تعالى فى أهله ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ الى آخر الآيات التى تحقق معناها ومعنى أمثالها فى أولئك الأصحاب الذين كانوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام

وان هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وهذه الخيرية لا يستحقها من ليس لهم من الإسلام واتباع النبى ﷺ إلا الدعوى وجعل الدين جنسية لهم . بل لا يستحقها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت الحرام والتزم الحلال واجتنب الحرام مع الإخلاص الذى

هو روح الإسلام إلا بعد القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبالاعتصام بحبل الله مع اتقاء التفرق والخلاف فى الدين

إن ما نحن فيه الآن من سوء الحال أثر تفريط كبير تمادى فى زمن طويل بعد ما عظم التساهل فى ترك الناصح ، وبطل رد ما يتنازع فيه المسلمون إلى الله ورسوله ، أى إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وخوت القلوب من احترام الدين حتى لم يعد له سلطان على الإرادة ، بل صار كل شخص أسير هواه . ومتى أمسى الناس هكذا ـ لا دين ولا مروءة ولا أدب ـ فأى فرق بين طائفة منهم والقطيع من المعز أو البقر

رب سائل يسأل عن قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فالجواب أن هذا بعد القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أى أن الإنسان لا يضره ضلال غيره إذا هو أمره ونهاه ، فانه لا يكون مهتدياً مع تركه لهذه الفريضة

وقد بين الفخر الرازى فى تفسيره نحو ما تقدم من كون وصف الأمة هنا بالأمر والنهى والإيمان علة لكونها خير أمة أخرجت للناس فقال : واعلم أن هذا الكلام مستأنف ، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم . وتحقيق الكلام أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف . فها هنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات أعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان ـ فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات »

« إنه النهوض بتكاليف الأمة الخيرة . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل ما فيهما من مشقة وبكل ما حولهما من متاعب . وبكل ما فى طريقهما من أشواك . إنه التعرض للشر والتحريض على الخير : وكلاهما متعب شاق ، ولكن كلاهما ضرورى لإقامة مجتمع صالح وتحقيق حياة تستحق أن تعاش . . ثم هو الإيمان بالله . . وقد تأخر فى النص لأنه يجىء هنا كالباعث للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فما يصبر على تكاليفهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله ويرتكن فى كفاحه

لله . فهذا الإيمان هو السند الباقى للدعاة ، وهم يواجهون طاغوت الشر فى عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة فى عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح وكلل العزائم وثقلة المطامع . وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هى الايمان ، وكل زاد سواه ينفد ، وكل عدة سواه تنهار »

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ أى لو آمنوا الإيمان الصحيح - الذى يستولى على النفوس ويملك أزمة الأهواء فيكون مصدراً لأحاسن الأعمال كما تؤمنون أنتم لكان خيراً لهم مما يدّعون من الإيمان التقليدى الذى لا يزع عن الشرور ، ولا يرفع صاحبه إلى معالى الأمور . والواقع أنه كان فى أهل الكتاب مؤمنون مخلصون ، ولذلك قال تعالى ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ فعلم أن الحكم الأول على الأمة إنما هو حكم على أكثر أفرادها فهم الذين فسقوا (خرجوا) عن حقيقة الدين ، ولم يبق عندهم إلا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة ، فالكلام استئناف بيانى ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ أى إنهم لا يقدرون على إيقاع الضرر بكم ، ولكن يؤذونكم بنحو الكلام القبيح كالخوض فى النبى ﷺ وإلا ضرراً خفيفاً ليس له كبير تأثير - ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ تولية الأدبار كناية عن الانهزام ، لأن المهزوم يحول ظهره إلى جهة مقاتله ويستدبره فى هربه منه فيكون دبره أى قفاه إلى جهة وجه من انهزم منه .

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ عليكم بعد ذلك أو ثم إنهم لا ينتصرون عليكم قط ما داموا على فسقهم ودمتم على خيريتكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله

ففى هذه الآية دلالة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ لوقوع مخبره على وفق خبره ، لأن يهود المدينة من بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر الذين حاربوا النبى ﷺ والمسلمين لم يثبتوا لهم قط ، وانهزموا ولم ينالوا من المسلمين إلا بالسب والطعن .

﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ ضرب الذلة عليهم - أى اليهود - عبارة عن إلصاقها بهم وظهور أثرها فيهم . وثقفوا أى

وجدوا - الحبل يطلق على العهد - ويسمى السبب فى اللغة حبلا - والحبل سبب ، والمعنى أن حالهم معكم أن يكونوا أذلاء مهضومى الحقوق رغم أنوفهم إلا بحبل من الله وهو ما قررته شريعته لهم إذا دخلوا فى حكمكم من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم إيذائهم وهضم شىء من حقوقهم ﴿ وحبل من الناس ﴾ وهو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة من احتياجكم اليهم واحتياجهم إليكم فى بعض الأمور . أى فهذا القدر المستثنى من عموم الذلة لم يأتهم من أنفسهم وإنما جاءهم من غيرهم فهم لا عزة لهم فى أنفسهم لأن السلطان والملك قد فقدا منهم

﴿ وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾ وباءوا بالغضب كانوا أحقاء به من البواء وهو المساواة ، أو قاموا فيه من المباءة أى حلوا مبوءاً أو بيئة من الغضب . والمسكنة حالة للشخص منشؤها استصغاره لنفسه حتى لا يدعى لها حقاً . والذلة حالة تعترى الشخص من سلب غيره لحقه وهو يتمناه ، فنشؤها وسببها غيره لا نفسه كالمسكنة . قال أحد المفسرين « فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف الجزية عليهم ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أى ذلك الذى ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم وخلاقتهم بالغضب الإلهى بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم . وفى التنصيص على قول ذلك بغير حق مع العلم به تغليظ عليهم وتشنيع على تحريهم الباطل وكون ذلك عن عمد لا عن خطأ . ثم بين سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أى جرأهم على ذلك سبق المعاصى والاستمرار على الاعتداء فتدرجوا من الصغائر إلى الكبائر إلى أكبر الموبقات وهو الكفر وقتل الأنبياء المرشدين والهداة الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فصار هذا العصيان والاعتداء خلقاً للأمة وطبعاً لها يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير . ولهذا نسب إلى متأخريهم عمل متقدميهم ، والأمم متضافرة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيهم وإن ظهر بعض آثاره فى زمن دون زمن

ه ه ه

لَيْسُوا سَوَاءً ، من أهلِ الكِتَٰبِ أُمَّةٌ قائمةٌ يَتلون آيَٰتِ اللهِ ءاناء الَّيلِ وهم يَسْجُدون (١١٣) يُؤْمِنُونَ باللهِ واليوم الآخِرِ ويَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عنِ المُنكَرِ ويُسَٰرِعُونَ فى الخَيْرَٰتِ ، وأولَٰئكَ منَ الصَّٰلِحِين (١١٤) وما يَفْعَلوا مِن خَيرٍ فلنْ يُكْفَرُوه ، واللهُ عَليمٌ بالمتَّقِين (١١٥)

بعد أن وصف سبحانه أهل الكتاب فيما تقدم بذميم الصفات ، وقبيح الأعمال وذكر الجزاء الذى استحقوه بسوء عملهم ، أعقبه ببيان أنهم ليسوا جميعاً على تلك الشاكلة ، بل فيهم من هو متصف بحميد الخلال وجميل الصفات . فقال :

﴿ ليسوا سواء ﴾ كلام تام ، أى ليس أهل الكتاب متساوين فى هذه الأوصاف والأعمال القبيحة التى ذكرت آنفاً ، بل منهم المؤمنون – وهم الأقلون – ومنهم الفاسقون – وهم الأكثرون – ولذلك قال ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أى ليس كل القوم هلكى ، قد كان لله فيهم بقية . وروى عن ابن عباس أنه قال : فى الأمة القائمة أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . ويتلون آيات الله بالليل فى صلاتهم . وخص السجود بالذكر من بين أركان الصلاة لدلالته على كمال الخضوع والخشوع ، ثم قال فيهم ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أى يؤمنون إيماناً إذعانياً وهو ما يثمر الخشية لله والاستعداد لذلك اليوم ، لا إيماناً جنسياً لا حظّ لصاحبه منه إلا الغرور والدعوى كما هو شأن الأكثرين من أبناء جنسهم ﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أى أنهم بعد أن كملوا أنفسهم علماً وعملا كما تقدم يسعون فى تكميل غيرهم إما بإرشادهم إلى ما ينبغى بأمرهم بالمعروف أو بمنعهم عما لا ينبغى بالنهى عن المنكر ، وذلك فيما بينهم ، وإن لم يكن لهم صوت فى جمهور أمتهم لغلبة الفسق والفساد عليها كما هو مدون فى التاريخ ﴿ ويسارعون فى الخيرات ﴾ كما هو شأن المؤمن المخلص ، لا يتباطأ عما

يعنُّ له من الخير ، وإنما يتباطا الذين فى قلوبهم مرض - وهذه الصفة جماع الفضائل الدينية والخلقية ، وفى ذلك تعريض باليهود الذين يتثاقلون عن ذلك

﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ الذين صلحت نفوسهم ، فاستقامت أحوالهم وحسنت أعمالهم والوصف بالصلاح هو غاية المدح ونهاية الشرف فقد مدح الله به أكابر الأنبياء كإسماعيل وإدريس وذا الكفل فقال ﴿ وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ - ﴿ وما يفعلوه من خير فلن يكفروه ﴾ أى فلن يضيع ثوابه كما يكفر الشىء أى يستر حتى كأنه غير موجود ، وهذه الجملة جاءت ردا على اليهود الذين قالوا لمن أسلم منهم : أنتم خسرتم بسبب هذا الإيمان ، وإشارة إلى أنهم فازوا بالسعادة العظمى والدرجات العليا . ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ وإنما يجزى العاملين بحسب ما يعلم من أمرهم ، وما تنطوى عليه نفوسهم من نياتهم وسرائرهم ، فمن آمن إيماناً صحيحاً واتقى ما يفسد عليه ثمرات إيمانه فأولئك هم الفائزون ، فلا عبرة بجنسيات الأديان ، وإنما العبرة بالتقوى مع الإيمان

هذه الآيات من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع وإزالة الإيهام السابق وهى دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء ، وأن كل من أخذه بإذعان وعمل فيه بإخلاص فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو من الصالحين ، وفى هذا العدل قطع لاحتجاج أهل الكتاب الذين يعرفون من أنفسهم الإيمان والاخلاص فى العمل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أى لولا مثل هذا النص لكان لهم أن يقولوا : لو كان هذا القرآن من عند الله لما ساوانا بغيرنا من الفاسقين ونحن مؤمنون به مخلصون له . وفيه استمالة لهم وثناء عن التفرقة بين الأمم والملل التى لم يكن يعترف فيها أحد الفريقين بفضيلة ولا مزيَّة للآخر ، كأنه بمجرد مخالفته له فى بعض الأشياء - وإن كان معذوراً - تتبدل حسناته سيئات . وظاهر أن هذا كالذى قبله فى أهل الكتاب على كونهم على دينهم خلافاً لمفسرنا « الجلال » وغيره الذين حملوا المدح على من أسلم منهم ، فإن المسلمين لا يمدحون بوصف أنهم أهل الكتاب ، وإنما يمدحون بعنوان المؤمنين

° ° °

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنهم أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

قال الرازى فى وجه الاتصال بين هذه الآيات وما قبلها : اعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه الآيات مرة أحوال الكافرين فى كيفية العقاب ، وأخرى أحوال المؤمنين فى الثواب ، جامعاً بين الزجر والترغيب والوعد والوعيد . فلما وصف من آمن من الكافرين بما تقدم من الصفات الحسنة أتبعه تعالى بوعيد الكفار فقال :

﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾
أى إن الكفار لا تغنى عنهم أموالهم وأولادهم نوعاً من أنواع الغناء ، أو لا تغنى غناء ما . وذكر الأموال والأولاد لإن المغرور إنما يصده عن اتباع الحق أو النظر فى دليله الاستغناء بما هو فيه من النعم وأعظمها الأموال والأولاد . فالذى يرى نفسه مستغنياً بمثل ذلك قلما يوجه نظره إلى طلب الحق ، أو لا يصغى اليه . أى ومن لايوجه نظره إلى الحق لا يبصره ، ومن لايبصره يتخبط فى دياجير الضلال عمره حتى يتردى فيها فيهلك الهلاك الأبدى ، ولا ينفعه فى الآخرة ماله فيفتدى به أو ينتفع بما كان أنفقه منه ، ولذلك قال ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . أى أولئك الملازمون للنار لا ينفكون عنها لأن طبيعة أرواحهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم اقتضت أن يكونوا فى تلك الهاوية المظلمة المستعرة التى وقودها الناس والحجارة قد أعدت لكل من جحد بآيات ربه . وأعرض عن دعوة أنبيائه ورسله . ولم يصغ إلا لداعى الهوى والشهوات

﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ ـ الصرّ هنا هو البرد الشديد . والمعنى أن الريح المهلكة

مثال للمال الذى ينفقونه فى لذاتهم وجاههم ونشر سمعتهم وتأييد كلمتهم ، فيصدهم عن سبيل الله . وان العقول والأخلاق الحسنه التى هى أصل جميع المنافع هى مثال الحرث . أى إن المال الذى ينفقونه فيما ذكر هو الذى أفسد أخلاقهم وأهلك عقولهم بما صرفها عن النظر الصحيح ولفتها عن التفكر فى عواقب الأمور . ووجه التشبيه فى المثل أن حالهم فيما ينفقونه وإن كان فى الخير كحال الريح ذات الصر المهلكة للزرع ، فهم لا يستفيدون من نفقتهم شيئاً . ﴿ وما ظلمناهم ﴾ يعنى أولئك الذين أهلكت الريح ذات الصر حرثهم ، وذلك أنهم هم الذين كانوا ظلموا أنفسهم كما تقدم ، فكان هلاك زرعهم عقوبة لهم لا إيذاء أنفاً . وعلى هذا يكون قوله ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ تأكيداً ذاهباً بكل شبهة ، والمعنى ما ظلمهم الله بأن لم ينفعهم بنفقاتهم ، بل هم هم الذين ظلموا أنفسهم وحدها دون غيرها باتفاق تلك الأموال فى الطرق التى تؤدى إلى الخيبة والخسران ، بحسب سنة الله فى أعمال الإنسان .

والآية نزلت فيما كان ينفقه أهل مكة أو ينفقه اليهود فى عداوة النبى ﷺ ومقاومته . لأنهم هم الذين اختاروا ذلك لأنفسهم ، ولم يضروا النبى ﷺ ومن معه . بل كان ذلك سبب سيادته عليهم وتمكنه منهم — وقيل انها نزلت فيما كان ينفقه المنافقون فى بعض طرق البر رياء وسمعة أو تقية . وقيل ان المثل ينطبق على الكافرين الذين ينفقون أموالهم فى طرق البر رغبة فى الخير ، لأن شرط الثواب على تلك الأعمال الإيمان . وقد ظلموا أنفسهم بترك النظر فى الدلائل بعد ما ظهرت أو بالجحود بعد النظر وإقامة الحجة

٭ ٭ ٭

يٰأَيُّها الَّذين ءامنُوا لا تَتَّخِذوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قد بَدَتِ البَغْضاءُ من أفْوٰهِهِمْ وما تُخْفِى صُدُورُهُم أكْبرُ ، قد بَيَّنَّا لَكُمُ الآيٰتِ إن كنتم تعقِلون (١١٨) هٰأنتمْ أولاءِ تُحِبُّونَهم ولا يُحِبُّونَكم وتُؤْمِنُونَ بالْكِتٰبِ كلِّه وإذا لَقُوكُمْ قالوا ءامَنَّا وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكُمُ الأنامِلَ مِنَ

الغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم ، إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور (١١٩) إن تَمْسَسْكُمْ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحوا بها ، وإنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا لا يَضُرُّكُمْ
كَيْدُهُمْ شيئاً ، إنَّ اللهَ بما يعملونَ محيط (١٢٠)

إن الآيات السابقة من أول السورة كانت فى الحجاج مع أهل الكتاب ، وكذا مع المشركين بالتبع والمناسبة . وإن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة فى بيان أحوال المؤمنين ومعاملة بعضهم لبعض وإرشادهم فى أمرهم ، أي ان أكثر الآيات السابقة واللاحقة فى ذلك

وبيان اتصال هذه الآيات بما قبلها ثلاث مقدمات : (١) إنه كان بين المؤمنين وغيرهم صلات كانت مدعاة إلى الثقة بهم والإفضاء اليهم بالسر واطلاعهم على كل أمر ، منها المحالفة والعهد ، ومنها النسب والمصاهرة ، ومنها الرضاعة

(٢) إن الغرة من طبع المؤمن فانه يبنى أمره على اليسر والأمانة والصدق ، ولا يبحث عن العيوب . ولذلك يظهر لغيره من العيوب وإن كان بليداً مالا يظهر له هو وإن كان ذكياً

(٣) إن المناصبين للمؤمنين من أهل الكتاب والمشركين كان همهم الأكبر إطفاء نور الدعوة ، وإبطال ما جاء به الإسلام . وكان هم المؤمنين الأكبر نشر الدعوة وتأييد الحق ، فكان الهمَّان متباينين ، والقصدان متناقضين . فإذا كانت حالة الفريقين على ما ذكر فهى لا شك مقتضية لأن يفضى النسيب من المؤمنين إلى نسيبه من أهل الكتاب والمشركين والحالف منهم لمحالفه من غيرهم بشيء مما فى نفسه وإن كان من أسرار الملة التى هى موضوع التباين والخلاف بينهم ، وفى ذلك تعريض مصلحة الملة للخبال ، لذلك جعل الله تعالى للصلات بين المؤمنين وغيرهم حداً لا يتعدونه فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ . بطانة الرجل

وليجته وخاصته الذين يستبطنون أمره ويتولون سره . « من دونكم » معناه من غيركم و « يالونكم » من الإلاء وهو التقصير والضعف ـ والخبال : الشر والفساد . أى لا يقصرون ولا ينون فى إفساد أمركم ، لا يألونكم أن يمنعوكم . عنتم : العنت وهو المشقة الشديدة ـ والبغضاء : شدة البغض

والمعنى هو نهى المؤمنين أن يتخذوا لأنفسهم بطانة من الكافرين الموصوفين بتلك الأوصاف على القول بأن قوله « لا يالونكم » الخ نعوت للبطانة هى قيود للنهى . وهذا النص خاص بمن كانوا فى عداوة المؤمنين على ما ذكر وهو أنهم لا يألونهم خبالا وإفساداً لأمرهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فهذا هو القيد الأول . والثانى قوله عز وجل « ودوا ما عنتم » أى تمنوا عنتكم أى وقوعكم فى الضرر الشديد والمشقة . والثالث والرابع قوله ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ أى قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم . فهى لشدتها مما يعوزهم كتمانها ويعز عليهم خفاؤها ، على أن ما تخفى صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها

وهذا النوع من البغضاء والعداوة مما يلقاه القائمون بكل دعوة جديدة فى الاصلاح مما يدعونهم اليه ، وماكان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر فى ذلك ، إذ لم يكونوا على علم بطبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ حتى أعلمهم

الله . ولذلك قال ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ يعنى بالآيات هنا العلامات الفارقة بين من يصح أن يتخذ بطانة ومن لا يصح أن يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته ، أى إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الأعداء والأولياء فاعتبروا بها ، ولا تتخذوا أولئك بطانة

ثم ذكر نوعاً آخر من التحذير عن مخالفة الكافرين واتخاذهم بطانة وفيه تنبيه لهم على خطئهم فى ذلك ، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعى الكف عن مخالطتهم :

(١) ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ القرآن ينطق بأفصح عبارة

وأصرحها واصفاً المسلمين بهذا الوصف الذى هو من أثر الإسلام ، وهو أنهم يحبون أشد الناس عداوة لهم الذين لا يقصرون فى إفساد أمرهم وتمنى عنتهم ، على أن بغضاءهم لهم ظاهرة ، وما خفى منها أكبر مما ظهر ، أولئك المبغضون هم الذين قال الله فيهم أو فى طائفة منهم ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾ ، يعنى أولئك اليهود المجاورين لهم فى الحجاز . أليس حب المؤمنين لأولئك اليهود الغادرين الكائدين وإقرار القرآن إياهم على ذلك لأنه أثر من آثار الاسلام فى نفوسهم هو أقوى البراهين على أن هذا الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح لا يمكن أن يصوب العقل نظره إلى أعلى منه فى ذلك ، بلى ولكن وجد فى الناس من ينكر عليه ذلك ويصفه بضده زوراً وبهتاناً ، بل تعصباً خروا عليه صما وعمياناً

---

(٢) أما قوله تعالى ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ فمعناه أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ، فأنتم أحق ببغضهم ، أى ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم — قال ابن جريج : « المؤمن خير للنافق من المنافق للمؤمن ، يرحمه ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه »

---

(٣) ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ كان بعض اليهود يظهرون الإيمان للنبى والمؤمنين وإذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا ما فى نفوسهم من الغيظ والحقد الذى لا يستطيعون معه إلى التشفى سبيلا . وعض الأنامل كناية عن شدة الغيظ ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ فإن الإسلام الذى هو سبب غيظكم لا يزداد باعتصام أهله به إلا عزة وقوة وانتشاراً ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فهو يعلم ما تضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد ، فكيف يخفى عليه ما تقولون فى خلواتكم ، وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك ، ويعلم كذلك ما تنطوى عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم . ثم قال مبيناً حسدهم وسوء طويتهم ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم

سيئة يفرحوا بها ﴾ قال قتادة كما رواه عنه ابن جرير « فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وحماية وظهوراً على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم . وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا ، فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته وأوطأ محله وأبطل حجته وأظهر عورته ، فذلك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقى منهم إلى يوم القيامة .

﴿ وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ إنه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين وباتقاء شرهم ، ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله . وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير والاحسان ودفع السيئة بالحسنة ، فإن لم يمكن تحويل العدو إلى محب يدفع سيئاته بما هو أحسن منها فإنه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغى ولا اعتداء . ويصح أن يراد بالتقوى الأخذ بوصاياه وامتثال أمره تعالى فى البطانة وغيرها ﴿ ان الله بما يعملون محيط ﴾ والمعنى : ان الله قد دلكم يا معشر المؤمنين على ما ينجيكم من كيد عدوكم ، فعليكم بعد الامتثال أن تعلموا أنه محيط بأعمالهم إحاطة قدرة تمنعهم مما يريدون منكم ، معونة منه لكم

* * *

وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ واللهُ سَمِيعٌ عليم (١٢١) إذ هَمَّتْ طائفتانِ منكمْ أنْ تَفْشَلا واللهُ وليُّهما وعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون (١٢٢) ولقدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأنتمْ أذِلَّةٌ ، فاتَّقُوا اللهَ لعلَّكم تَشْكُرُون (١٢٣) إذْ تقولُ للمؤمنينَ ألَنْ يَكْفِيَكُمْ أنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِين (١٢٤) بَلَى إنْ تَصْبِرُوا وتتقوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ من المَلائِكَةِ مُسَوِّمِين (١٢٥) وما

جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرَى لكُمْ ولِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكم بِهِ وما النصرُ إلاّ مِنْ عندِ اللهِ العَزِيزِ الحكيم (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ويَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبوا خائبين (١٢٧) لَيْسَ لكَ مِنَ الأمرِ شىء أوْ يَتُوبَ عليهِمْ أو يُعَذِّبَهُمْ فإنهم ظَٰلِمُون (١٢٨) ولله مافى السَّمَٰوَٰت وما فى الأرض ، يَغْفِرُ لمن يَشاء ويُعَذِّب مَنْ يَشاء واللهُ غَفُورٌ رَحِيم (١٢٩)

بيان لا بد منه

من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها نزلت فى غزوة أحد ، فوجب ذكر طرف من أخبار هذه الواقعة ليستعين بها القارىء على فهمها ، ويعرف مواقع أخبارها ، ويستيقن من حكمها وأحكامها . ولكن عليك أن تعرف قبل هذا أن قريشاً اغتاظت من هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وحقدوا على أهلها إيواءهم للمسلمين وتهددوهم ، فكان لا بد من الاستعداد للدفاع ، وقد صار النبى ﷺ داعية للدين ، ورئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها

هذا ، وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد فى التاريخ . وقد اشترك النبى ﷺ فى تسع منها ، أشهرها :

واقعـــة بدر

كانت قريش ترى أن محمداً ﷺ وأصحابه شرذمة من الثوار يجب أن تقتل ، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة فى المدينة ـ وهى على طريق التجاره إلى الشام ـ لجد المسلمون فى مهاجمة قوافل مكة ونالوا أول انتصار لهم فى السنة الثانية من الهجرة فى غزوة بدر ـ بئر بين مكة والمدينـــة كانت لرجل يسمى بدراً فسميت باسمه ـ وكانت هذه الواقعه نصراً مؤزراً للمسلمين . وكارثة كبرى على المشركين ، وكان لها دوى عظيم فى أرجاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها

واقعة أحـــد

أحد : جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال

ولما خذل المشركون فى واقعة بدر ورجع فلهم إلى مكة مقهورين ، أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ ، اذكان هو الرئيس بعد مقتل من قتل من صناديد قريش ، فاجتمعوا للحرب وكانوا نحو ثلاثة آلاف ، فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس ، قائدهم أبو سفيان بن حرب ومعه زوجه هند بنت عقبة ، وكان جملة النساء خمس عشرة امرأة ومعهن الدفوف يضربن بها ويبكين على قتلى بدر ، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين . وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة فى شوال سنة ثلاث من الهجرة . وكان رأى رسول الله ﷺ المقام فى المدينة وقتالهم بها ، ورأى باقى الصحابة الخروج لمقاتلتهم . فخرج فى ألف من الصحابة إلى أن صار بين المدينة وأحد ، فانخذل عنه عبد الله بن أبىّ ابن سلول فى ثلث الناس . ونزل رسول الله ﷺ الشعب من أحد وجعل ظهره إلى الجبل ، وكان عدة أصحاب رسول الله ﷺ سبعمائة فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين . وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، ولواؤهم مع بنى عبد الدار

ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبى سفيان ومعها النسوة يضربن بالدفوف وهى تقول :

ويها بنى عبد الدار . ويها حماة الأدبار . ضرباً بكل بتار

وقاتل حمزة قتالا شديداً . ولما قتل مصعب بن عمير أعطى النبى ﷺ الراية إلى على بن أبى طالب ، ولما انهزم المشركون طمعت الرماة فى الغنيمة وفارقوا المكان الذى أمرهم النبى ﷺ بملازمته . فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين ووقع الصراخ : ان محمداً قد قتل . وانكشف المسلمون وأصاب العدو منهم ، وكان يوم بلاء على المسلمين . وكان عدة الشهداء من المسلمين سبعين رجلا ، وعدة قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلا . ووصل العـــدو إلى رسول الله ﷺ

وأصابته حجارتهم حتى وقع وأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفته وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول :

كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟ وجعل يدعوهم إلى ربهم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ﴾

ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجه رسول الله ﷺ فى الشجة . ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنية من ثناياه ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنية أخرى ، وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ، وطمع فيه المشركون وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منهم كما قال ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ . وأصابت طلحة يومئذ ضربة شديدة شلت يده وهو يدافع عن رسول الله ﷺ . ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الأنوف ويصلمن الآذان ، واتخذن منها قلائد . وبقرت هند عن كبد حمزة ولاكتها ولم تستسغها . وضرب أبو سفيان شدق حمزة بزج الرمح ، وصعد الجبل وصرخ بأعلى صوته : الحرب سجال ، يوم بيوم بدر . اعْلُ هُبَل (صنم بالكعبة) أى ظهر دينك

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال النبى ﷺ : قولوا له هو بيننا وبينكم . ثم سار المشركون إلى مكة ، وبحث رسول الله ﷺ عن عمه حمزة فوجده مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الآذان فقال : لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم . ثم أمر أن يسجى عمه ببردة ، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحداً بعد واحد حتى صلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة . ثم أمر بحمزة فدفن ، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : ادفنوهم حيث صرعوا

إذا علمت ما تقدم سهل عليك فهم هذه الآيات وما بعدها مما له صلة بهذه الواقعة الهامة فى تاريخ الاسلام وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين ، فقد كانت نبراساً لهم فى كل حروبهم وأعمالهم فى حياة النبى ﷺ وبعده - إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم

لها أسوأ الآثار ، وأن كل ما حدث فيها إنما جر اليه الطمع فى الغنيمة وجمع حطام الدنيا ، وهو ظل زائل وعرض مفارق

والقرآن الكريم هنا يرد المسلمين إلى سنن الله فى الأرض فهم ليسوا بدعاً فيها . وهذه الحياة متصلة الأواصر والنواميس التى تحكمها واحدة لا تتخلف . والأمور لا تمضى جزافاً ، إنما تتبع تلك النواميس الثابتة ، فاذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تبينت لهم الأهداف ، وتكشفت لهم المصاير ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث ، واستشرفوا ما يخبئه لهم المستقبل على ضوء ما كان فى الماضى ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون أسباب النصر وقوانينه كما يفعل اليوم كثيرون

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوهم بالعداوة ، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم ثم أمرهم بالصبر والتقوى وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً — ذكرهم فى هذه الآيات بواقعة أحد . وما كان فيها من كيد المنافقين إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا . ثم خرجوا معهم وانشقوا عنهم فى الطريق ، ورجعوا بثلث الجيش ليوقعوا الفشل بين صفوفهم ويخذلوهم أمام عدوهم . وما كان من كيد المشركين وتألبهم عليهم . ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر حتى عن الغنيمة التى طمع فيها الرماة فتركوا مواقعهم ، وإلا تقوى الله ، ومن أهم دعائمها طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى ، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قلتهم إذ جعلوا الصبر جُنتهم وتقوى الله عُدتهم ، فأصابوا من عدوهم ما أصابوا . وكان لهم الفلج عليهم مما لا يزال مكتوباً فى صحيفة الدهر مثلا خالداً لصدق العزيمة والبعد عن مطامع هذه الحياة

﴿ وإذ غدوت من أهلك ﴾ أى واذكر بعد هذا يا محمد إذ خرجت من بيت أهلك غدوة . وذلك سحر يوم السبت سابع شوال من سنة ثلاث للهجرة

﴿ تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أى توطنهم وتنزلهم أماكن ومواضع فى الشعب من أحـــد (جبل قرب المدينة) لأجل القتال فيها ، فنها موضع للرماة

وموضع للفرسان ، وموضع لسائر المؤمنين . فالمقاعد جمع مقعد . وهو فى الأصل مكان القعود ، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى المكان توسعاً . وقيل : تبوئة المقاعد تسويتها وتهيئتها . ﴿ والله سميع عليم ﴾ لم يخف عليه شيء مما قيل فى مشاورتك لمن معك فى أمر الخروج إلى لقاء المشركين فى أحد ، أو انتظارهم فى المدينة . فهو قد سمع أقوال المشيرين ، وعلم نية كل قائل منهم

﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ قال ابن جرير يعنى بذلك جل ثناؤه : والله سميع عليم حين همت طائفتان منكم أن تفشلا - والهم : حديث النفس وتوجهها إلى الشيء . والفشل : ضعف مع جبن . وقيل متعلق بتبوىء ، أى كان النبى ﷺ يتخذ المعسكر للمؤمنين ، وينزل كل طائفة منهم منزلا ، فى وقت همت فيه طائفتان منهم بالفشل افتتاناً بكيد المنافقين الذين رجعوا من المعسكر - والطائفتان هما بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار . ﴿ والله وليهما ﴾ أى متولى أمورهما لصدق إيمانهما ، لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما ، فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع ثلث المعسكر ، بل تذكرا ولاية الله للمؤمنين فوثقا به وتوكلا عليه .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أمثالهم ، لا على حولهم وقوتهم ، ولا على أعوانهم وأنصارهم ، وإنما يبذلون حولهم وقوتهم ويأخذون أهبتهم وعدتهم إقامة لسنن الله تعالى فى خلقه إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات ، وهو الفاعل المسخر للسبب والمسبب والموفق بينهما ، فينصر الفئة القليلة على الكثيرة إن شاء كما نصر المؤمنين يوم بدر ، ولذلك قال ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ وهو ماء أو بئر بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر فسمى باسمه ، ثم اطلق اللفظ على المكان الذى هو فيه ، وقد كانت فيه أول غزوة قاتل فيها النبى ﷺ المشركين فى ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة فنصرهم الله عليهم نصراً مؤزراً ﴿ وأنتم أذلة ﴾ أى نصركم فى حالة ذلة كنتم فيها على قلتكم - كما يفيد لفظ أذلة - إذ هو جمع قلة - وقد كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا - والمراد بكونهم أذلة أنهم لا منعة لهم إذ كانوا قليلى العدد من السلاح والزاد والظهر (أى ما يركب) وكانت قوتهم فى أوائل تكونها ﴿ فاتقوا الله

لعلكم تشكرون ﴾ فان التقوى هى التى تعدكم للقيام فى مقام الشكر على النعم التى يسديكم إياها ، فمن لم يروض نفسه بالتقوى غلب عليه اتباع الهوى فلا يرجى له أن يكون شاكراً بصرف النعمة إلى ما وهبت لأجله من الحكم والمنافع . والمعنى : فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه لعلكم تشكرون ، يقول لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ وفى الوقت الذى كنت تقول فيه للمؤمنين ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ روى عن ابن زيد قال قالوا لرسول الله ﷺ وهم ينظرون المشركين : أليس الله يمدنا كما أمدنا يوم بدر ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، وإنما أمدكم يوم بدر بألف . قال فجاءت الزيادة ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾

معنى الامداد بالملائكة هو من قبيل إمداد العسكر بما يزيد عددهم أو عدتهم وقوتهم ولو النفسية ، وهذا هو الظاهر ، وان الملائكة أرواح تلابس النفوس فتمـــدها بالالهامات الصالحة التى تثبتها وتقوى عزيمتها ، ولذلك قال عز وجل ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ إن الآيتين السابقتين ليستا وعداً من عند الله بالامداد بالملائكة ، وإنما هما إخبار عما قاله الرسول ﷺ ، فقد أخبر تعالى فى تينك الآيتين أن رسوله قال لأصحابه ذلك القول ؟ وبين فى هذه الآية فائدة ذلك القول ومنفعته ، مع بيان الحقيقة وهى أن النصر بيد الله العزيز أى القوى الذى لا يمتنع عليه شيء ، الحكيم الذى يدبر الأمر على خير سنن ويقيمه بأحسن سنن ، فيهدى لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء ، ويصرف عنهما من يشاء ، فان حصل الامداد بالملائكة فعلا فما يكون إلا جزءا من أجزاء سبب النصر أو فرداً من أفراده ، ومنه إلقاء الرعب والخوف فى قلوب الأعداء ، ومنه سائر الأسباب المعروفة من الصبر والثبات وحسن التدبير ومعرفة المواقع ، وغير ذلك ، فان النبى ﷺ سلك الى أحد أقرب

الطرق وأخفاها عن العدو ، وعسكر فى أحسن موضع وهو الشعب (الوادى) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل ، وجعل الرماة من ورائهم ، فلما اختل بعض هذه التدبيرات لم ينتصروا .

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ ويعنى بذلك جل ثناؤه ولقد نصركم الله ببدر ليهلك فريقاً من الذين كفروا ، أى أنه فعل مافعل ليقطع طرفاً . أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع طرفا . ومعنى قطع الطرف منهم إهلاك طائفة منهم . وعبر عن الطائفة بالطرف لأنهم أقرب إلى المسلمين من الوسط ، أما قوله « أو يكبتهم » فقد فسروه بأقوال : منها أن معناه يخزيهم ، ومنها أن معناه يصرعهم لوجوههم . والكبت شدة الغيظ ، أو وهن يقع فى القلب . وفسرت أيضاً بقوله : ليخزيهم ويغيظهم بالهزيمة .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها لبيان أن الأمر كله بيد الله فقال :

﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ﴾ هذه نزلت فى شأن واقعة أحد . . روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت هذه الآية .

وتأويل ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ ليس إليك يا محمد من أمر خلق إلا أن تنفذ فيهم أمرى وتنتهى فيهم إلى طاعتى ، وإنما أمرهم إلىّ ، والقضاء فيهم بيدى دون غيرى ، أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة على من كفر وعصانى وخالف أمرى ، أو العذاب إما فى عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيدة وإما فى آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بى .

إن تبرم الرسول من الكافرين ودعاءه على رؤسائهم كان ذلك فرصة لإعلام المؤمنين بحقيقة من حقائق دين الفطرة ، وهى أن الرسول بشر ليس له من أمر العباد ولا من أمر الكون شىء ، وانما هو معلم وأسوة حسنة فيما يعلمه ، والأمر كله

لله يدبره بمقتضى سننه . فالعمل العمل ، الاستعداد الاستعداد ، الأهبة الأهبة ، ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ولا قوة إلا بالعلم والمال . ولا مال إلا بالعدل ، ولا عدل مع حكم الاستبداد ، ثم بعد كمال الاستعداد يكون الذكر والاستمداد ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا ﴾ . ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ . هذا هو هدى الإسلام ، وقد تمثل لهم صدقه فى النبى وصالحى المؤمنين ، ثم أكد تعالى هذه الحقيقة وأيدها بقوله ﴿ ولله ما فى السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ يعنى بذلك تعالى ذكره ليس لك يا محمد من الأمر شىء ، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ، ويقضى فيهم بما أحب فيتوب على من أحب من خلقه العاصين أمره ونهيه ثم يغفر له ، ويعاقب من شاء منهم على جرمه فينتقم منه ﴿ الغفور ﴾ الذى يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح و ﴿ الرحيم ﴾ لهم فى تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم . وإن مشيئة المغفرة أو التعذيب جارية على سنن حكيمة مطردة كما تقدم غير مرة .

* * *

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَفًا مُضَعَفَةً واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) واتَّقُوا النارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَفِرِينَ (١٣١) وأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وسارِعوا إلى مَغْفِرَةٍ من رَبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوٰتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والْكَظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عنِ الناسِ ، واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ (١٣٤) والَّذِينَ إذا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ — ولَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا وهم يَعْلَمُونَ (١٣٥)

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ (١٣٦)

بعد أن نهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ البطانة من اليهود وأمثالهم من المشركين بشروط ذكرها هى مثار الضرر، ثم بين لهم أن كيدهم لا يضرهم ما اعتصموا بتقوى الله وطاعته، وطاعة رسوله، وذكرهم بما يدل على صدق ذلك بما حدث لهم حين صدقوا الله ورسوله من الفوز والفلاح فى وقعة بدر، وبما حدث لهم حين عصوا الله وخالفوا أمر القائد — وهو الرسول ﷺ — فى واقعة أحد، وكيف حل بهم البلاء، ونزلت بهم المصائب بما لم يكونوا ينتظرون القليل منها

نهاهم هنا عن شر عمل من أعمال اليهود ومن اقتدى بهم من المشركين وهو الربا مع بيان أن الربح المتوقع منه ليس هو السبب فى السعادة، بل السعادة إنما تكون فى تقوى الله وامتثال أوامره، وفى ذلك حث على بذل المال فى سبيل الله كالدفاع عن الملة والوطن وتنفير من البخل والشح والكلب على جمع المال بكل وسيلة مستطاعة. وشر تلك الوسائل أكل الربا أضعافاً مضاعفة.

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) أى لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافاً مضاعفة بتأخير أجل الدين الذى هو رأس المال وزيادة المال إلى ضعف ما كان كما كنتم تفعلون فى الجاهلية، فان الاسلام لا يبيح لكم ذلك لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته

قال ابن جرير: لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة فى إسلامكم بعد إذ هداكم الله كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم. وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم أن الرجل منهم يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طالبه من صاحبه فيقول له الذى عليه المال: أخر دينك عنى وأزيدك على مالك. فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه. ا هـ

وقال الرازى: كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مئة درهم إلى أجل فاذا جاء الأجل ولم يكن المدين واجداً لذلك المال قال الدائن: زد فى المال حتى

أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين . ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المئة أضعافها . فهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾

وربا الجاهلية هو ما يسمى فى عصرنا هذا بالربا الفاحش . وهو ربح مركب . وهذه الزيادة الفاحشة بعد حلول الأجل . ولا شىء منها فى العقد الأول كأن يعطيه المئة بمئة وعشرة أو أكثر أو أقل ، وكأنهم كانوا يكتفون فى العقد الأول بالقليل من الربح فاذا حل الأجل ولم يقض الدين وهو فى قبضتهم اضطروه إلى قبول التضعيف فى مقابلة الإنساء . وهذا هو ربا النسيئه . قال ابن عباس : إن نص القرآن الحكيم منصرف إلى ربا النسيئة الذى كان معروفاً عندهم

وانقف قليلا عند الأضعاف المضاعفة . فان قوماً يريدون فى هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ويتداروا به ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة ، أما التسعة فى المئة فليست أضعافاً مضاعفة ، وليست داخلة فى نطاق التحريم

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع لا شرط يتعلق به التحريم . والنص الذى سبق فى سورة البقرة قاطع فى حرمة أصل الربا بلا تحديد ﴿ وذروا ما بقى من الربا ﴾ أياً كان

فاذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف لنقول : إنه فى الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة والتى قصد اليها النهى هنا بالذات ، إنما هو وصف ملازم للنظام الربوى أياً كان سعر الفائدة

إن النظام الربوى معناه إقامة الاقتصاد كله على هذه القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهى عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى ، فهى تنشىء مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال . والبديهيات الرياضية تثبت هذا الذى نقول

إن النظام الربوى يحقق باستمرار هذا الوصف ، فليس هو قاصراً على العمليات التى كانت متبعـــة فى جزيرة العرب ، إنما هو وصف ملازم لنظام الفائدة فى كل زمان

والنص هنا يقرن ترك هذا النظام الآثم بتقوى الله . ويقرنه كذلك بالفلاح . ويلوح بالنار التي أعدت للكافرين

فأما تقوى الله فالأمر فيها ظاهر ، فما يأكل الربا إنسان يخشى الله ويستشعر عدله ويقيم صلاته بالناس ومعاملاته على هذا الأساس — ان النظام الربوى نظام مادى فاجر لا يعترف بالعنصر الأخلاق الذى يقيم الاسلام نظامه كله عليه . ولا يعترف بآصرة إنسانية تربط أفراد هذا المجتمع . ولا يعترف بمعنى من معانى الرفق والرحمة بالعباد .

﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى اتقوا الله فيما نهيتم عنه من الأمور التى من جملتها الربا ولا تكن قلوبكم قاسية على عباده من ذوى الحاجة والبؤس فتحملوهم من الدين ما لا تحتمله طاقتهم . وتستغلوا عوزهم وحاجتهم فتشطوا فى الربا حتى تخربوا بيوتهم وتجعلوهم من ذوى الفاقة والمتربة — لعل ذلك يكون سبب فلاحكم فى دنياكم . فإن الرحمة وحسن المعونة يوجدان المحبة فى القلوب ، والمحبة أساس السعادة فى الدنيا والآخرة

﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ الذين قست قلوبهم واستحوذ عليهم الطمع والبخل فكانوا فتنة للفقراء والمساكين وأعداء البائسين والمعوزين — فالتعريض بالكفر هنا والتلويح بالنار على أثر النهى عن أكل الربا وتفظيعه بأنه أضعاف مضاعفة - وهو وصف لازم كما أسلفنا - يشير إلى أن فى الربا روح الكفر وظلمه - وأن اتقاء النار التى أعدت للكافرين يقتضى اتقاء هذا الأكل الجارم الآثم للأضعاف المضاعفة فى الربا ، وهو أكل متحقق دائم .

﴿ وأطيعوا الله والرسول ﴾ فيما نهيا عنه من أكل الربا ، وما أمرا به من الصدقة ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ فى الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح حال مجتمعكم ، وفى الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم ، فان الراحمين يرحمهم الرحمن كما ورد فى الحديث

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾

المسارعة إلى المغفرة والجنة هى المبادرة إلى أسبابها وما يعد الإنسان لنيلها ، من التوبة عن الإثم كالربا ، والاقبال على البر كالصدقة ـ والمراد بكون عرض الجنة كعرض السموات والأرض المبالغة فى وصفها بالسعة والبسطة تشبيهاً لها بأوسع ما علمه الناس ، وخص العرض بالذكر لأنه يكون عادة أقل من الطول . وقال أبو مسلم : إن العرض هنا ما يعرض من الثمن فى مقابلة المبيع ، أى ثمنها لو بيعت كثمن السموات والأرض . والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة خطرها وأنه لا يساويها شىء وإن عظم

﴿ أعدت للمتقين ﴾ هيئت لهم . ثم وصف المتقين بالصفات الخمس الآتية :

(١) ﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء ﴾ أى فى حالة الرخاء والسعة وحالة الضيق والميسرة كل حالة بحسبها . والسراء من السرور ، أى الحالة التى تسر . والضراء من الضرر ، أى الحالة الضارة ، وروى عن ابن عباس تفسيرهما باليسر والعسر ، وقد بدأ وصف المتقين بالانفاق لوجهين : (أحدهما) مقابلته بالربا الذى نهى عنه فى الآية السابقة ، فان الربا هو استغلال الغنىّ حاجة المعوز ، وأكل ماله بلا مقابل . والصدقة إعانة له وإطعامه مالا يستحقه . فهى ضد الربا . ولم يرد فى القرآن ذكر الربا إلا قبح ومدحت معه الزكاة والصدقة . (ثانيهما) أن الانفاق فى السراء والضراء أدل على التقوى وأشق على النفوس وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال .

إذا كان الله تعالى قد جعل الانفاق فى سبيله علامة على التقوى . أو أثراً من آثارها ، حتى فى حال الضراء ، وكان انتفاؤه علامة على عدم التقوى التى هى سبب دخول الجنة ، فكيف يكون حال أهل السراء الذين يقبضون أيديهم ، وهل يغنى عن هؤلاء من شىء أداء الرسوم الدينية الظاهرة التى يتمرنون عليها عادة مع الناس

(٢) ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قيل إن الغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال ، أو المعنوية كالشرف ، فيزعجها إلى التشفى والانتقام . ومن أجاب داعى الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ، ولا يكتفى بالحق ، بل

يتجاوزه إلى البغى . فلذلك كان من التقوى كظمه . وكظم الغيظ هو أن يمسك على ما فى نفسه منه بالصبر ، ولا يظهر له أثراً .

(٣) ﴿ والعافين عن الناس ﴾ العفو عن الناس هو التجافى عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها ، وتلك مرتبة فى ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قلَّ من يتبوأها . فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة . — أخرج الطبرانى عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات ، فليعف عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه »

(٤) وهناك مرتبة أعلى منهما ، وهى ما أفاده قوله عز وجل ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فالاحسان وصف من أوصاف المتقين ، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات ، بل صاغه بهذه الصيغة تمييزاً له بكونه محبوباً عند الله تعالى ، لا لمزيد من ذكر من المتقين المتصفين بالصفات السابقة ، ولا لمجرد مدح المحسنين الذى يدخل فى عمومه أولئك المتقون كما قيل . والذى يظهر من أنه وصف رابع للمتقين كما يتضح من الواقعة الآتية : يروى أن بعض السلف الصالح غاظه غلام له فجأة غيظاً شديداً ، فهم بالانتقام منه ، فقال الغلام ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ فقال كظمت غيظى . قال الغلام : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال عفوت عنك . قال ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال : اذهب فأنت حر لوجه الله . فهذه الواقعة تبين لك ترتيب المراتب الثلاث

(٥) ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ الفاحشة الفعلة الشديدة القبح . وظلم النفس يطلق على كل ذنب . وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده أو عقابه ، أو تذكر عظمته وجلاله ، فاذاهم تذكروا انصرف عنهم طائف الشيطان ، ووجدوا نفس الرحمن ، فرجعوا اليه طالبين مغفرته ، راجين رحمته ، ملتزمين سنته ، واردين شرعته ، عالمين أنه لا يغفر الذنوب سواه ، وأنه لا يضل من لا يدعون عند الحاجة

إلا إياه ، لأن الكل منه واليه ، وهو المتصرف بسننه فيه ، والحاكم لسلطانه عليه
﴿ ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ الآية هادية إلى أن المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يصرّون على ذنب يرتكبونه صغيراً أو كبيراً ، لأن ذكره عز وجل يمنع المؤمن بطبيعته أن يقيم على الذنب . ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ يعنى بقوله ﴿ أولئك ﴾ المتقين الموصوفين بما تقدم من الصفات الخمس ، وفيه تأكيد للوصف وتفصيل مّما للموعودين به . ﴿ جزاؤهم ﴾ يعنى ثوابهم من أعمالهم التى وصفهم تعالى ذكره أنهم عملوها ﴿ مغفرة من ربهم ﴾ يقول عفو من الله عن عقوبتهم على ما سلف من ذنوبهم ، ولهم على ما أطاعوا الله فيه من أعمالهم بالحسن منها جنات وهى البساتين تجرى من تحتها الأنهار ، يقول تجرى خلال أشجارها الأنهار ، جزاء لهم على صالح أعمالهم ، ﴿ خالدين فيها ﴾ يعنى دائمى المقام فى هـذه الجنات التى وصفها . ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ فهو نص فى ان هذا الجزاء إنما هو على تلك الأعمال التى فيها ما هو إصلاح لحال الأمة كإنفاق المال ، ومنها ماهو إصلاح لنفس العامل ، وكلها مما يرقى النفس البشرية حتى تكون أهلا لتلك المراتب العلية ، أى ونعم ذلك الجزاء الذى ذكر من المغفرة والجنات أجراً للعاملين ، تلك الأعمال البدنية كالانفاق والنفسية كعدم الاضرار ، وان كانوا يتفاوتون فيه لتفاوتهم فى التقوى والأعمال

وضع الاسلام المتقين فى أعلى مرتبة من مراتب المؤمنين : ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالإنسان تسلك فى عداد المتقين « وهم من هم » تسلك فى عدادهم « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » . والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها ، ولكن سماحة هذا الدين لا تترك من يهوون اليها من رحمة الله ، ولا تجعلهم فى ذيل القافلة — قافلة المؤمنين : إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة ، مرتبة المتقين على شرط واحد : شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وأن لا يصروا على ما فعلوا ويتبجحوا بالمعصية فى غير حياء

وهكذا يأخذ الاسلام ذلك المخلوق البشرى الضعيف فى لحظات ضعفه فانه يعلم

أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب ثقلة الجسد رفرفة الروح ، وبجانب النزوات الحيوانية أشواقاً ربانية : فهو يعطف عليه فى لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقى الصعود ، ويربت عليه فى لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد . ما دام هذا المخلوق لا ينسى الله ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ، والرسول ﷺ يقول : « ما أصر من استغفر ، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » رواه أبو داود والترمذى والبزار فى مسنده من حديث عثمان بن واقد . والاسلام بهذا لا يدعو إلى الترخص وإنما يقيل عثرة الضعف ويستثير فى النفس البشرية الرجاء كما يستثير فيها الحياء ـ فالمغفرة من الله ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ تخجل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار ـ فأما الذين يستهترون ويصرون فهم هنالك خارج الأسوار ـ موصدة فى وجوههم الأسوار

وهكذا يجمع الاسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العليا ، والرحمة بهذه البشرية أن تكلف ما لا تستطيع ، ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ، ويأخذ بيدها إلى أقصى ما تستطيع .

° ° °

قد خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فى الأرضِ فانظُرُوا كيفَ كانَ عاقِبةُ المُكذِّبين (١٣٧) هٰذا بَيانٌ للناسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ للمتَّقين (١٣٨) ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنوا وأنتمُ الأعْلَوْنَ إنْ كُنتمْ مُؤْمنين (١٣٩) إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه . وتلكَ الأيَّام نُداوِلُها بينَ النَّاسِ وليَعْلَمَ اللهُ الَّذينَ ءامَنُوا ويَتَّخِذَ منكمْ شُهَداء واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمين (١٤٠) وليُمَحِّصَ اللهُ الَّذينَ ءامَنوا ويَمْحَقَ الكَافِرين (١٤١)

ذكرت الآيات السابقة خبر واقعة « أحد » وأهم ما وقع فيها مع التذكير بواقعة بدر . وما بشروا به فى ذلك . وفى هذه الآيات وما بعدها يذكر السنن والحكم فى ذلك ، ويعلم المؤمنين من علم الاجتماع ما لم يكونوا يعلمون

والقرآن الكريم هنا يرد المسلمين إلى سنن الله فى الأرض فهم ليسوا بدعاً فيها ، وهذه الحياة متصلة الأواصر ، والنواميس التى تحكمها واحدة لا تتخلف . والأمور لا تمضى جزافاً ، إنما تتبع تلك النواميس الثابتة . فاذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تبينت لهم الأهداف ، وتكشفت لهم المصاير ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث ، واستشرفوا ما يجيئهم به المستقبل على ضوء ماكان فى الماضى ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون أسباب النصر وقوانينه كما يفعل اليوم كثيرون

والسنن التى يشير اليها السياق هنا ويوجه أبصارهم وبصائرهم اليها هى :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . . ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال . . والابتلاء لتمحيص السرائر وامتحان مدى الصبر على الشدائد . واستحقاق النصر للصابرين الذين أعدوا العدة وتوسلوا بجميع الأسباب التى تتطلبها الغلبة والظفر . . والمحق للكافرين

وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة فى الشدة ، والتأسى على القرح الذى لا يصيبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم هدفاً واعتقاداً ، وأهدى منهم طريقاً ونهجاً . والعاقبة بعد لهم ، والدائرة على الكافرين . قال تعالى : —

﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ السنن جمع سنة ، وهى الطريقة المعبّدة ، والسيرة المتبعة ، أو المثال المتبع . ومعنى خلت مضت وسلفت . أى إن أمر البشر فى اجتماعهم ، وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل ، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال ، والملك والسيادة وغير ذلك ، قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام ، وليس الأمر أنفاً كما يزعم القدرية ، ولا تحكما واستبداداً كما يتوهم الحشوية

جاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى فى خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة ، فمن سار على سننه فى الحرب (مثلا) ظفر بمشيئة الله وان كان ملحداً أو وثنياً ، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً أو نبياً . وعلى هذا يتخرج

انهزام المسلمين فى واقعة أحد حتى وصل المشركون إلى النبى ﷺ فشجوا رأسه وكسروا سنه وردوه فى تلك الحفرة كما هو مبين فى السير ، ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى فى الأمم ، وأحق الناس بالسير على طريقها ، لذلك لم يلبث أصحاب النبى ﷺ أن ثابوا يومئذ إلى رشدهم ، وتراجعوا إلى الدفاع عن نبيهم ، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون ، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون

صرح القرآن فى كثير من الآيات أن له سنناً عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل ، وأن ما وقع لهم مما يقضى حكمته عليهم ، هو مطابق لتلك السنن التى لا تتحول ولا تتبدل

ولما كان التعليم وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به نبههم على هذا التطبيق فى أنفسهم ، وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى

فقال : ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . إن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية ، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل وينصرون عليهم بالصبر والتقوى (أى اتقاء ما يجب اتقاؤه فى الحرب بحسب الزمان والمكان ودرجة استعداد الأعداء) وكان ذلك يجرى بأسباب مطردة على طرائق مستقيمة يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ويرث الأرض ، وأن من ينحرف عنه ويعيث فى الأرض فساداً يخذل وتكون عاقبته الدمار ، فسيروا فى الأرض واستقروا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلى بذلك ، وهو الذى يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل

والسير فى الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذى يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار كما ينبغى

﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ . ما ذكر من أن لله تعالى سنناً فى الأمم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه ، واضطراره إلى قبول الحجة المؤلفة منه ، إلا أن يترك النظر أو يكابر ويعاند . وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة ، ويتعظون بما ينطبق

عليها من الوقائع ، فيستقيمون على الطريقة ، وهم الذين تكمل لهم الفائدة والموعظة ، لأنهم يتجنبون ويتقون نتائج الاعمال التي يظهر لهم أن عاقبتها ضارة

فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم وإسلامهم بهذه الآيات ، ولينظروا أين مكانهم من هدايتها ، وما هو حظهم من موعظتها

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ . الوهن : الضعف في العمل والأمر . والحزن إنما يكون على ما فات الإنسان وخسره مما يحبه . وسببه أنه يشعر أنه قد فاته بفوته شيء من قوته . وفقد بفقده شيئاً من عزيمته أو أعضائه . وقد يقال هنا : لماذا نهاهم عن الوهن مما عرض لهم والحزن على مافقدوا في « أحد » ، وكل من الوهن والحزن قد وقع ، وهو أمر طبيعي في مثل الحال التي كانوا عليها . والجواب أن المراد بالنهي ما يمكن أن يتعلق به الكسب من معالجة وجدان النفس بالعمل ولو تكلفا ، كأن يقول : انظروا في سنن من قبلكم ، تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم وأعدوا لكل أمر عدته ، ولم يظلموا أنفسهم في العمل لنصرته ، إلا ظفروا بما طلبوا أو عوضوا مما خسروا . فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم وولوها جهة ما يستقبلكم وانهضوا به بالعزيمة والحزم مع التوكل على الله عز وجل . والحزن إنما يكون على فقد مالا عوض منه ، وإن لكم خير عوض مما فقدتم ، وأنتم الأعلون برجحانكم عليهم في مجموع الوقعتين — بدر وأحد — أن الذين قتلوا منهم أكثر من الذين قتلوا منكم على كثرتهم وقلتكم . أو جملة معترضة يراد بها التبشير بما يكون في المستقبل من النصر . وهما قولان للمفسرين . وسواء كانت للتسلية أو للبشارة فهي مرتبطة بالإيمان الصحيح الذي لا شائبة فيه ، فان من اخترق هذا الإيمان فؤاده وتمكن من سويدائه يكون على يقين من العاقبة بعد الثقة من مراعاة السنن العامة والأسباب المطردة ، ولذلك قال ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ومثل هذا الشرط كثير في القرآن . وهو ليس للشك وإنما يراد به تنبيه المؤمن إلى حاله ومحاسبة نفسه على أعماله . أي إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسنته في نظام الاجتماع حتى صار الإيمان وصفاً ثابتاً لكم حاكما على نفوسكم وأعمالكم

﴿ ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ . يمسسكم من المس معناه : يصبكم . والقرح معناه القتل والجراح ، والمعنى : أن المشركين قد أصيبوا بمثل ما أصيب به المؤمنون يوم أحد ولم يكونوا غالبين

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ الأيام جمع يوم وهو بمعنى الزمن والوقت ، فالمراد بالأيام هنا الظفر والفوز . ونداولها بينهم نصرّفها فنديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ، أى تكون الدولة فيه لهؤلاء مرة وهؤلاء مرة . ودالت الأيام : دارت . والمعنى : ان مداولة الأيام سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى ، فلا غرو أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق ، وإنما المضمون لصاحب الحق أن تكون العاقبة له ، وإنما الأعمال بالخواتيم . وهذه قاعدة كقاعدة ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ أى هذه سنة من تلك السنن وهى ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين . والمداولة فى الواقع تكون مبنية على أعمال الناس ، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافاً ، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها ، أى إذا علمتم أن ذلك سنة فعليكم أن لا تهنوا أو تضعفوا بما أصابكم ، لأنكم تعلمون أن الدولة تدول . والعبارة تومىء إلى شيء مطوى كان معلوماً لهم ، وهو أن لكل دولة سبباً ، فكأنه قال : إذا كانت المداولة منوطة بالأعمال التى تفضى اليها — كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة — فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الإحكام . ثم قال عز وجل

﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ ومعنى هذا ليثبت ويتحقق بالفعل إيمان الذين آمنوا أو صدقهم فى إيمانهم ، فانه متى ثبت وتحقق كان الله عالماً به على أنه حقيقة ثابتة .

وأما قوله ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ ففيه وجهان : أحدهما أنه من الشهادة فى القتال . وهى أن يقتل المؤمن فى سبيل الله ، أى مدافعاً عن الحق ، قاصداً إعلاء كلمته . والثانى أنه من الشهادة على الناس بالمعنى الذى تقدم فى قوله عز وجل ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ والأول هو الذى يسبق إلى الذهن فى هذا المقام .

﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ جملة مسوقة لبيان أن الشهداء يكونون ممن خلصوا لله

وأخلصوا فى إيمانهم وأعمالهم ، فلم يظلموا أنفسهم بمخالفة الأمر أو النهى ، ولا بالخروج عن سنن الله فى الخلق . وانه تعالى لا يصطفى للشهادة الظالمين ما داموا على ظلمهم . وفى ذلك بشارة للمتقين وإنذار للمقصرين .

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ محص الشىء تمحيصاً : خلصه من كل عيب . ومحق الشىء : محاه وذهب به . وكثيراً ما يلتبس على الإنسان أمر نفسه فلا يتجلى كمال التجلى إلا بالتجارب الكثيرة والامتحان بالشدائد العظيمة . فالتجارب والشدائد كتمحيص الذهب يظهر به زيفه ونضاره . ثم إنها أيضاً تنفى خبثه وزغله . كذلك كان الأمر فى أحد : تميز المؤمنون الصادقون من المنافقين ، وتطهرت نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها فصارت نقيه وتبرأ خالصاً . وهؤلاء هم الذين خالفوا أمر النبى ﷺ وطمعوا فى الغنيمة والذين انهزموا وولوهم مدبرين ، محص الجميع بتلك الشدائد ، فعلموا أن المسلم ما خلق ليلهو ويلعب ، ولا ليكسل ويتواكل ، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات وتبديل سنن الله فى المخلوقات . بل خلق ليكون أكثر الناس جداً فى العمل ، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن : وقد تجلى أثر هذا التمحيص كل التجلى فى غزوة (حمراء الأسد) إذ أمر النبى ﷺ أن لا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد . فامتثلوا الأمر بقلوب مطمئنة وعزائم شديدة ، وهم على ما هم عليه من تبريح الجراح بهم . فليعتبر بهذا مسلمو هذا الزمان ، وليعلموا ما هو مقدار حظهم من الإسلام والإيمان

وأما محق الكافرين بالشدائد فليس معناه فناؤهم وهلاكهم ، وإنما هو اليأس يسطو عليهم ، وفقد الرجاء يذهب بعزائمهم ، فلا تبقى لهم شجاعة ولا بأس ولا شىء من عزة النفس ، ويكون وجوده كالعدم لأنه لا أثر له ولا فائدة فيه ، فذلك محقه إذا غلب على أمره . وإذا هو انتصر طغى وتجبر وبغى وظلم ، وذلك محق معنوى تكون عاقبته المحق الصورى ، كذلك لا يثبت للكافرين المبطلين وجود مع المؤمنين الصادقين ، وانما يبقون ظاهرين إذا لم يظهر من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم

والتمحيص درجة تجىء بعد العلم . فانها عملية فرز للمؤمنين وتمييز ليكونوا

ظاهرين بارزين معزولين عن الكافرين الذين كانوا ينافقون ويخفون حقيقتهم ، فالآن يتميز الناس إلى فريقين اثنين ظاهرين : المؤمنين وقد خلصت قلوبهم لله ، والكافرين وهؤلاء يمحقهم الله تحقيقاً لسنته فى المكذبين . حتى اذا تحققت هذه السنة كان واضحاً أن الذين حل بهم المحق والهلاك هم الكافرون بلا شك فى حقيقتهم . والذين كتب لهم النصر والبقاء هم المؤمنون بلا شبهة فيهم ، وسجلت الأرض أن سنة الله جارية كما عهدها الناس فى جميع القرون . ثم تأتى خاتمة هذا الاستعراض للسنن الباقية . تجىء فى صورة استفهام مفصح عن السنة الأخيرة أن لا بد لحملة كل دعوة من الجهاد ، ومن الصبر على تكاليف هذا الجهاد وتضحياته . وأن لا بد من تمحيص دعواهم فى الاستعـــداد للتضحية بتعريضهم للتضحية . فالنصر لا يأتى رخيصاً ولا هيناً ، والجهاد ليس دعاوى ولا كلاماً . وما يستحق النصر إلا الذين يؤدون ثمنه فيبرهنون على أنهم أهل له ، وأهل للدعوة التى يحملونها

ولقد كان الله قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدينه منذ أول لحظة ، ولكن الذين يتلقون النصر رخيصاً يبيعونه كذلك رخيصاً ، والذين لا يصمدون للابتلاء ولا يصبرون للشدة لا يصلحون حملة للدعوة ولا حماة لها حين تتعرض بعد ذلك للاضطهاد .

وكل دعوة جديدة لا بد أن تجد معارضين ومضادين ، فاذا لم يكن أصحابها مؤمنين بها إلى الحد الذى يضحون فيه بأنفسهم ولا يضحون بها لم يكونوا أهلا للنصر ، لأنهم ليسوا أهلا للثبات عليها والاستمرار

فاذا داهمتهم الشدة فصبروا وأوذوا فى أعز شىء لديهم فصمدوا وبذلوا كل ما فى طوقهم من جهد جاء النصر من عند الله عن استحقاق ، وجاءهم الجزاء على إيمانهم وصبرهم وجهادهم كذلك عن استحقاق

* * *

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جٰهَدُوا منكم ويَعلَمَ الصّٰبِرِينَ (١٤٢) ولَقد كنتمْ تَمَنَّوْنَ الموتَ مِنْ قبلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فقدْ رَأَيتموه وأَنتمْ

تَنظُرون (١٤٣) وما محمدٌ إلاّ رَسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبلِه الرُّسُلُ ، أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقَلَبتُمْ على أعْقٰبِكُمْ ومَنْ يَنقلبْ على عَقِبَيه فلَن يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسَيَجْزِى اللهُ الشّٰكِرِين (١٤٤) وما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تموتَ إلاّ بإذْنِ اللهِ كِتٰباً مُؤجَّلاً ، ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الدُّنْيا نؤْتِه منها ومَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نؤتِه منها ، وسَنَجْزِى الشّٰكِرين (١٤٥) وكَأَيِّنْ مِنْ نبيٍّ قٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فما وَهَنوا لِما أصابَهُمْ فى سَبيلِ اللهِ وما ضَعُفوا وما استَكانوا ، واللهُ يُحِبُّ الصّٰبِرِين (١٤٦) وما كانَ قَولَهُمْ إلاّ أنْ قالوا رَبَّنا اغفِرْ لنا ذُنوبَنا وإسْرافَنا فى أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنا وانصُرْنا على القَوْمِ الكٰفِرين (١٤٧) فآتاهُمْ ثَوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ المحسنين (١٤٨)

لا يزال الحديث مع من شهد أحداً من المؤمنين . فقد أرشدهم الله فى الآيات السالفة إلى أنه لا ينبغى لهم أن يحزنوا أو يضعفوا وأن ما أصابهم من المحنة والبلاء جار على سنن الله فى خليقته من مداولة الأيام بين الناس ، وفيه تمحيص لأهل الحق فان الشدائد محك الأخلاق ، وفيه هدى ورشاد وتسلية للمؤمنين حتى يتربوا على الصفات التى ينالون بها الفوز والظفر فى جميع أعمالهم

وهنا أبان لهم أن سبيل السعادة فى الآخرة منوط بالصبر والجهاد فى سبيل الله كما أن طريق السعادة فى الدنيا يكون بإقامة الحق وسلوك طريق الانصاف والعدل بين الناس ، فسنة الله هنا كسنته هناك

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ المعنى أم حسبتم كما يحسب أهل الغرور أن تدخلوا الجنة وأنتم الآن لم تقوموا بالجهاد فى سبيله حق القيام ، ولم تتمكن صفة الصبر من نفوسكم تمام التمكن ، والجنة إنما تنال بهما ، ولا سبيل إلى دخولها بدونهما . ولو قمتم بذلك لعلمه تعالى منكم ،

وجازاكم عليه بالنصر والظفر فى غزوتكم هذه ، وكان ذلك آية على أنه سيجازيكم بالجنة فى الآخرة .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ هذا الخطاب لمن شهد من المسلمين وقعة أحد — ومعنى تمنى الموت تمنى الشهادة فى سبيل الله والقتال لنصرة الحق ولو ذهبت نفسه دونه

والمعنى أن تمنى الشهادة الذى وقع ليس تمنياً مطلقاً ، وإنما هو تمنى من يقاتل لنصرة الحق أن تذهب نفسه دونه ، فاذا هو وصل إلى ماينبغى لنصرة الحق وإعزازه بانهزام أهل الباطل وخذلانهم فبها ونعمت ، وإلا فضّل الموت فى سبيل إعزاز الحق ، ورآه خيراً من البقاء مع إذلاله وغلبة الباطل عليه

إن الخطاب لمن سبق لهم تمنى الموت بعد أن فاتهم حضور وقعة بدر أو الشهادة فيها لبعض من حضرها ، ثم جاءت وقعة أحد فكان منهم من انكسرت نفسه فى أثناء الواقعة ووهن عزمه ، ومنهم من وهن وضعف بعدها عندما ندبهم النبي ﷺ إلى اتباع المشركين معه فى حمراء الأسد ، كأنه يقول : — يا سبحان الله ، لقد كنتم تتمنون الموت قبل أن تلاقوا القوم فى الحرب ، فها أنتم أولاء قد رأيتم ماكنتم تتمنونه وأنتم تنظرون اليه لا تغفلون عنه ، فما بالكم دهشتم عندماوقع الموت فيكم ، وما بالكم تحزنون وتضعفون عند لقاء ما كنتم تحبون وتتمنون ، ومن تمنى الشيء

وسعى اليه لا ينبغى أن يحزنه لقاؤه ويسوءه . فقوله ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ للتأكيد لأن الإنسان يرى الشيء أحياناً ولكنه لانشغاله عنه ربما لا يتبينه ، فأراد أن يقول إنكم رأيتموه رؤية كان لها الأثر الثابت فى نفوسكم ، لا رؤية من قبيل لمح الشيء مع الغفلة عنه وعدم المبالاة به .

بعد هذا بين الله حكمة أخرى من أعظم الحكم المتعلقة بغزوة أحد ، وهى إشاعة قتل النبي ﷺ وماكان تأثيرها فى المسلمين وماكان يجب أن يكون . فقال

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ وحاصل المعنى أن محمداً ليس إلا بشراً رسولا قد خلت ومضت الرسل من قبله فماتوا ،

وقد قتل بعض النبيين كزكريا ويحيى ، فلم يكن لأحد منهم الخلد ، وهو لا بد أن تحكم عليه سنة الله بالموت فيخلو كما خلوا من قبله ، إذ لا بقاء إلا لله وحده ، ولا ينبغي للمؤمن الموحد أن يعتقده بغيره ، أفإن مات كما مات موسى وعيسى أو قتل كما قتل زكريا ويحيى تنقلبون على أعقابكم أي تولون الدبر راجعين عما كان عليه — يهديهم الله بهذا إلى أن الرسول ليس مقصوداً لذاته فيبقى للناس ، وإنما المقصود من إرساله ما أرسل به من الهداية ، فيجب العمل بها من بعده كما وجب في عهده .

ان كلمة ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ من قبيل المثل يضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه ، والأحسن أن تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة اليه بعض المنافقين ، والارتداد عن العمل كالجهاد ومكافحة الأعداء وتأييد الحق ، وهذا هو الصواب . قال تعالى ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ لأنه وعد بأن ينصر من ينصره ويعز دينه ويجعل كلمته هي العليا ، وهو منجز وعده ، ولا يحول دون انجازه ارتداد بعض المنافقين على أعقابهم ، فانه يثبت المؤمنين ويمحصهم حتى يكونوا كالتبر الخالص ، وبهم يقيم دينه ، ولذلك قال ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ له نعمه عليهم بالقوى العقلية والجسدية ، وبالإيمان والهداية ، القائمين بحقوقها في حياة رسوله وبعد موته على حد سواء ، ويأتون في كل وقت ما يمكن الاتيان به ، لا يألون جهداً ولا يقصرون في شيء عمداً ، إذ لم يكن عملهم لوجه الرسـول فيبطل إذا غيبه الموت عنهم ، وإنما هو لوجه الله ذي الجلال والاكرام وهو لايموت ولا يزول ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتاباً مؤجلا ﴾ والمعنى ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها أن تموت بغير إذنه ومشيئته التي يجري بها نظام الحياة وارتباط الاسباب فيها بالمسببات . وأما قوله ﴿ كتاباً مؤجلا ﴾ فهو مؤكد لمضمون ما قبله ، أي كتبه الله كتاباً مؤجلا أي أثبته مقروناً بأجل معين لا يتغير ، ومؤقت بوقت معلوم لايتقدم ولايتأخر ، فالمؤجل ذو الأجل ، والأجل المدة المضروبة للشيء

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ : والمعنى إن لنيل ثواب الدنيا سنناً ولنيل ثواب الآخرة سنناً ، فمن سار على سنة واحدة منها وصل اليها ، فمن قصد بعمله حظ الدنيا أعطاه الله شيئاًمن ثوابها ، ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظاً من ثوابها . وصرح الرازى بأنها فى معنى حديث « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » الخ الحديث المشهور

﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ أى الذين يعرفون نعمة الله عليهم بقوة الإرادة ، ويستعملونها فيما يعرج بهم إلى مستوى الكمال ، فتكون أعمالهم صالحة رافعة لنفوسهم ونافعة لغيرهم . وأبهم هذا الجزاء لتعظيم شأنه

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل فى أنفسهم بأنهم كانوا قبل الواقعة يتحرقون شوقاً إلى لقاء العدو ثم أصابهم ما أصابهم — ضرب لهم المثل بغيرهم من أتباع الأنبياء والمرسلين وربّيهم الذين لم يلحقهم وهن ولا ضعف بعد قتل أنبيائهم . بل صبروا واحتملوا الإيذاء حتى تغلب الحق على الباطل

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ . كأين : بمعنى كم الخبرية ، ومعناها ان ما دخلت عليه كثير ﴿ ربيون ﴾ وهو جمع ربانى نسبة إلى الرب . وقيل أصله من الربة وهى الجماعة ، وقيل الأئمة والولاة . والربيون الرعية وهم المنتسبون إلى الرب — وتقدم معنى الوهن والضعف . والاستكانه ضرب من الخضوع ، وهو عبارة عن سكون الإنسان لخصمه فيفعل به ما يريد

والمعنى أن كثيراً من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم المنتسبين إلى الرب تعالى فى وجهة قلوبهم وفى أعمالهم ، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون لا أرباب معبودون ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، أى ماضعف بمجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح وبعضهم من القتل ، وإن كان المقتول هو النبى نفسه ، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو ربهم ، لافى سبيل شخص نبيهم ،

وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربهم وبيانه لهدايته وأحكامه ، وما ضعفوا عن جهادهم ولا استكانوا ولا ولوا بالانقلاب على أعقابهم ، بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه فى حياته ، لأن علة الثبات فى الحالين واحدة ، وهى كون الجهاد فى سبيل الله ، أى فى الطريق التى يرضاها الله ، لحفظ الحق وحمايته ، وتقرير العدل وإقامته ، وما يتبع ذلك وما يلزمه . وذلك لا يأتى إلا من طريق الثبات والنصر

﴿ والله يحب الصابرين ﴾ أى والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعته وطاعة رسوله فى جهاد عدوه لا من فشل ففرّ عن عدوه ، ولا من انقلب على عقبيه فذل لعدوه ، لأنه قتل نبيه أو مات ، ولا من دخله وهن عن عدوه وضعف لفقد نبيه . وإذا كان الله يحب الصابرين أمثالهم فعليكم أن تعتبروا بحالهم ، واقتدوا بعمل الصادقين الصابرين

والخلاصة — عليكم أن تعتبروا بحال أولئك الربيين وتصبروا كما صبروا ، فإن دين الله واحد وسنته فى خلقه واحدة . ومن ثم طلب اليكم أن تعرفوا عاقبة من سبقكم من الأمم ، وتقتدوا بعمل الصادقين الصابرين ، وتقولوا مثل قول أولئك الرّبيين

وبعد أن بين سبحانه مفاخر أفعالهم أردفها بمحاسن أقوالهم فقال :

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى وما كان قول الربيين — فى تلك الحال التى اعتصموا فيها بالصبر والثبات وعزة النفس وشدة البأس — إلا ذلك القول المنبىء عن قوة إيمانهم وصدق إرادتهم ، وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم بجهادهم ما كانوا ألموا به من الذنوب والتقصير فى إقامة السنن أو الوقوف عند ما حددته الشرائع ﴿ وإسرافنا فى أمرنا ﴾ بالغلو فيه وتجاوز الحدود التى حددتها السنن ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ على الصراط المستقيم الذى هديتنا اليه حتى لا تزحزحنا عنه الفتن ، وفى موقف القتال حتى لا يعرونا الفشل ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بك ، الجاحدين لآياتك ، المعتدين على أهل دينك ، فلا يشكرون

لك نعمك بالتوحيد والتنزيه ، ولا بفعل المعروف وترك المنكر ، ولا يمكنون أهل الحق من إقامة ميزان القسط ، فان النصر بيدك تؤتيه من تشاء بمقتضى سننك . وفى هذا إيماء إلى أن الذنوب والاسراف فى الأمور من عوامل الخذلان . والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح . ومن ثم سألوا ربهم أن يمحو من نفوسهم أثر الذنوب وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزل الأقدام — وقد قدموا طلب المغفرة من الذنوب على طلب النصر ليكون الدعاء فى حيز القبول ، فان الدعاء المقرون بالخضوع والطاعة الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة

وفى طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التى دل عليها قوله : (ربيون كثير) اعلام بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحانى من الله بثبات الأقدام والتمسك بأهداب الحق

كما أن فى ذكر قولهم هذا ـ دون ذكر ما فيه جزع وخور ـ تعريضاً بأولئك المنهزمين من المسلمين يوم أحد

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ بالنصر والظفر بالعدو والسيادة فى الأرض ، وما يتبع ذلك من الكرامة والعزة وحسن الأحدوثة وشرف الذكر . وقد سمى ذلك ثواباً لأنه جزاء على الطاعة وامتثال أوامر الله

﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ بنيل رضوان الله وقربه والنعيم بدار كرامته ، وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وكما قال تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وما آتاهم ذلك إلا بحسن إرادتهم ، وما كان لها من حسن الأثر فى نفوسهم وأعمالهم ، إذ أتوا البيوت من أبوابها ، وطلبوا المقاصد بأسبابها . وانما جمع لهم بين الثوابين لأنهم أرادوا بعملهم هاتين السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة كما هو شأن المؤمن ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ﴾ وهذه الآية وأشباهها حجة على المغالين فى الزهد الذين يتحرجون عن الاستمتاع بشىء من لذات الحياة ويعدون ذلك منافياً للتقوى ومبعداً عن رضوان الله

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ لأنهم خلفاؤه فى الأرض يقيمون سنته ويظهرون بأنفسهم وأعمالهم حكمته ، فيكون عملهم لله وبالله ، كما ورد فى صفة العبد الذى يحبه الله ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، أى إن مشاعره وأعماله لا تكون مشغولة إلا بما يرضى الله ويقيم سنته ويظهر حكمه فى خلقه ، وهم الذين يفعلون مثل الذى وصف عنهم تعالى ذكره أنهم فعلوه حين قتل نبيهم

* * *

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّـٰصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّـٰلِمِينَ (١٥١)

لقد كانت هزيمة المسلمين الجزئية فى أحد مجالا لدسائس الكفار والمنافقين فى المدينة ممن انتهزوا هذه الفرصة ليثبطوا من عزائم المسلمين ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ﷺ ، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد : لذلك حذر الله الذين آمنوا هذه الفتنة وخوفهم عاقبة الاستماع للدسيسة . وصور لهم النهاية البائسة لهذا الاستماع وهى الكفر والخسران ، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لا يخذل أولياءه

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ معناه إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة محمد ولم يقبلوا دعوته إلى التوحيد والخير ، أو الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بأفواههم ، الذين خذلوكم قبل الشروع فى الحرب ، ثم دعوكم بعدها إلى

الرجوع إلى دينهم وقالوا لو كان محمداً نبيـاً لما أصابه ما أصابه ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر ابتداء واستدراجاً ، أى إن طلبتم الأمان

منهم وكانت حالكم كحال المغلوب مع الغالب يتولوا عليكم وتكونوا معهم أذلاء مقهورين حتى يردوكم عن دينكم ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ للدنيا والآخرة . أما الأولى فبخضوعكم لسلطانهم ، وامتهانكم بينهم ، وحرمانكم مما وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات من استخلافهم فى الأرض بالسيادة والملك ، ومن تمكين دينهم ، وتبديلهم بعد خوفهم أمناً . وأما الآخرة فبما يمسكم فى الآخرة من عذاب المرتدين ، مع الحرمان مما وعد الله المتقين

﴿ بل الله مولاكم ﴾ فلا ينبغى أن تفكروا فى ولاية أحد من كبار الكفار ، أو من أصحاب السلطان وحزبه ، كأنه تعالى يذكر المؤمنين بقوله هذا المنىء عن سننه وبتذكير الرسول لهم به . وإذا كان هو مولاكم وناصركم - إذا قمتم بما شرطه عليكم فى ذلك من الإيمان والصلاح ونصر الحق - فهل تحتاجون إلى أحد من بعده ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ ، فان من يطلق عليهم لفظ « الناصر » من الناس إنما ينصر بعضهم بعضاً بما أوتوا من القوى وما تيسر لهم من الأسباب ، وانما الله هو الذى آتاهم القوى وسخر لهم الأسباب ، وهو القادر بذاته على نصر من شاء من عباده بإيتائهم أفضل ما يؤتى غيرهم من الصبر والثبات والعزيمة وإحكام الرأى وإقامة السنن والتوفيق للأسباب - وهى قاعدة لا تختص بزمانها ولا مناسبتها بل تمتد فى الزمان والمكان ما دام الإنسان . إن صاحب العقيدة الذى لا تعصمه عقيدته من طاعة الكافرين ، والاستماع إلى مشورتهم والثقة فيهم ليتنازل عن عقيدتهم منذ الخطوة الأولى ، إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيـــدة إلى أعداء عقيدته ، الهزيمة بادىء ذى بدء فلا عاصم له من الهزيمة فى النهاية . والارتداد على عقبيه دون أن يحس أنه فى طريقه إلى هذا المصير

إن المؤمن الحق يجد فى عقيدته غناء عن رأى أعدائه ، وفى هديها غنى عن مشورتهم . والمسلم على وجه خاص يجد فى عقيدته من السعة والدقة والشمول مالا يحوجه إلى رأى أعدائه . وما يغنيه عن مشورتهم فى كل شئون الحياة . والدرس الذى ألقاه القرآن الكريم على أوائل المسلمين لا يزال قائماً للتابعين وتابع التابعين الى يوم الدين

ومن يطلب العزة والنصر على هدى من عقيدته وعلى ثقة بإلهه فالله مولاه والله ناصره «وهو خير الناصرين»

ثم يمضى السياق يثبت قلوب المسلمين ويبشرهم بخذلان أعدائهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ويصرح بسبب الخذلان: فهو إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً، واعتمادهم على آلهة لم يمنحها الله قوة ولم يهبها سلطة، ولم يضع فى فكرتها ما يستحق التمكين

والتعبير «ما لم ينزل به سلطاناً» ذو معنى عميق. وهو يصادفنا مكرراً فى القرآن الكريم. فلنقل عنه كلمة هنا تفيد فى كل موضوع على وجه الإجمال

إن أى فكرة أو عقيدة أو اتجاه أو عمل: إنما تحيا وتتحقق وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة. هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من الحق، أى بمقدار ما فيها من التقاء مع سنن الكون التى أرادها الله لهذا الكون. ومن ثم فالله — خالق هذه السنن. وهو الذى يمنح الفكرة أو العقيدة أو الاتجاه أو العمل تلك القوة ويمنحها ذلك السلطان الذى تنفذ به وتتحقق وتؤثر فى محيط الحياة. يمنحها القوة والسلطان بمقدار ما فيها من اتفاق مع السنن الكونية التى قررها الله.

هنا فى هذا المثال نجد تلك الآلهة التى يشركون بها: ماذا تحمل فكرتها من قوة؟ أو بتعبير آخر ما مقدار اتفاقها مع سنن الله الكونية؟

إن الله الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى الله الواحد، وليخضع لمشيئته الواحدة. فكل فكرة تخرج على هذه السنة سنة التوحيد هى فكرة زائفة مناقضة لسنة الله فى الكون، ومن ثم فهى لا تحمل قوة ولا يصاحبها سلطان، أى لا تملك أن تؤثر فى مجرى الحياة، بل لا تملك حق الحياة

وما دام أولئك الكفار يعتمدون على هذه الآلهة التى لم ينزل الله بها سلطاناً ولم يمنحها قوة، فبهذا السبب سيلقى الله فى قلوبهم الرعب ويخذلهم أمام المؤمنين، لأن لهؤلاء عقيدة ذات سلطان، وذات قوة، لاتفاقها مع سنة الله واتساقها مع مشيئته.

﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ﴾ هذه الآية بيان لسنة إلهية عامة ، وهو الحق ، وبيانه يتوقف على فهم المعنى المراد من لفظ « المؤمنين » ولفظ « الكافرين » وهو ما كان عليه المؤمنون والكافرون فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات ، فأما أولئك المؤمنون فهم الذين كانوا فى مرتبة من اليقين والإذعان ، قد صدقها العمل الذى كان منه بذل الأنفس والأموال فى سبيل الايمان ، الذين عاتبهم الله ووبخهم على تلك الهفوة التى وقعت من بعضهم بما تقدم وما سيأتى فى هذا السياق من الآيات . وأما أولئك الكافرون الذين دعوا إلى الإيمان وأقيم لهم على الدعوة الدليل والبرهان ، فجاحدوا وعاندوا وكابروا الحق ، وآثروا مقارعة الداعى ومن استجاب له بالسيف ، وقعدوا له ولهم كل مرصد . فاذا نظرنا فى شرك هؤلاء الكافرين وفى حالهم مع أولئك المؤمنين نجد أن شأنهم معهم كشأن من يرى نور الحق مع خصمه فيحمله البغى والعدوان على مجاحدته من غير حجة ولا دليل ، يرتاب فيما هو فيه ويتزلزل ، فاذا شاهد الذين دعوه ثابتين مطمئنين يعظم ارتيابه ويهاب خصمه حتى يمتلىء قلبه رعباً منهم . هذا هو شأن الكافرين المعاندين مع المؤمنين الصادقين ، كأنه تعالى يقول : هذه الطبيعة فى المشركين إذا قاوموا المؤمنين . فلا تخافوهم ، ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى موالاتهم والالتجاء اليهم .

وعلى هذا يكون الاشراك سبباً للرعب كسائر الأسباب العادية التى ربط الله بها المسببات ، كالشرب للرى والأكل للشبع ، فمن وصل اليه الحق تزلزل الباطل فى نفسه لا محالة . ومن تمام التشبيه أن تكون بعض الوقائع التى لا يقع فيها الرعب فى قلوب المشركين ، كالوقائع التى يشرب فيها المرء ولا يروى لعارض مرضى ، فسنن الاجتماع كسنن الأجسام الطبيعيـــة لها عوارض وشروط وموانع .

﴿ ومأواهم النار ﴾ أى هى مكانهم الذى يأوون اليه فى الآخرة بعد ما يصيبهم من الخذلان فى الدنيا ﴿ وبئس مثوى الظالمين ﴾ أى والنار التى يأوون اليها بئس المثوى والمقام لهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة

أهله وظلم النفس بسوء المعاملة . — والمثوى المكان الذى يكون مقر الانسان ومأواه من قولهم ثوى يثوى ثوياً إذا أقام

وقيل : وفى التعبير بالمثوى المنبىء عن المكث الطويل دليل على الخلود فيها .

* * *

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إذا تَحُسُّونَهُمْ بِإذْنِهِ حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فى الأَمرِ وعَصَيْتُمْ مِنْ بَعدِ ما أرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ ، مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ومِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عنهم لِيَبْتَلِيَكُمْ ، ولَقَدْ عَفا عَنكُمْ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنين (١٥٢) إذْ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فى أُخْرَاكُمْ فأثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنوا عَلَى ما فاتَكُمْ ولا ما أصَابَكُمْ ، واللهُ خَبيرٌ بما تعملون (١٥٣) ثُمَّ أنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِن بَعدِ الغَمِّ أمَنَةً نُعاساً يَغْشَى طائِفَةً مِنكُمْ ، وطائِفَةٌ قد أهَمَّتْهُمْ أنفُسُهم يَظُنُّونَ بالله غيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ، يَقولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الأمرِ مِنْ شَىْء ، قُلْ إنَّ الأمْرَ كُلَّهُ لله ، يُخْفُونَ فى أنفُسِهِمْ مالا يُبْدُونَ لك ، يَقُولونَ لَو كانَ لَنا مِنَ الأمرِ شَىْءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا ، قُلْ لَو كُنتُمْ فى بُيوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عليهِمُ القَتْلُ إلى مَضاجِعِهِم ولِيَبْتَلِيَ اللهُ مافى صُدُورِكُمْ ولِيُمَحِّصَ مافى قُلُوبِكُمْ ، واللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور (١٥٤) إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعانِ إنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطٰنُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا ، ولَقَدْ عَفا اللهُ عَنهُمْ ، إنَّ اللهَ غَفُورٌ حَليم (١٥٥)

الوعد المشار اليه فى الآية يحتمل أن يكون المراد به ما تكرر كثيراً فى القرآن من نصر الله المؤمنين ونصر من ينصره . وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به ما دل عليه قوله تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم

ربكم ﴾ الآية . وقال بعضهم : إن المراد به وعد النبي ﷺ لهم عند تعبئتهم ، واختاره ابن جرير وروى فيه عن السدى أنه قال :

« لما برز رسول الله ﷺ إلى المشركين بأحد (جبل فى حدود المدينة) أمر الرماة فأقاموا بأصل الجبل فى وجوه المشركين وقال : لا تبرحوا مكانكم ، إن رأيتمونا قد هزمنا فانا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم . وأمر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوات بن جبير ، وكان طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين ، وشد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم ، وحمل النبي ﷺ وأصحابه على خيل المشركين فهزموا أباسفيان . فلما رأى ذلك خالد بن الوليد ـ وهو على خيل المشركين ـ حمل ، فرمته الرماة فانقمع . فلما نظر الرماة إلى رسول الله ﷺ ، وأصحابه فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه بادروا الغنيمة ، فقال بعضهم : لا نترك أمر رسول الله ﷺ . فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر . فلما رأى خالد قلة الرماة صاح فى خيله ، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ. فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تنادوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم . أى قتلوا منهم سبعين كما هو فى الروايات المفصلة » .

وذكرنا هنا رواية السدى بطولها لما فيها من التصريح بأن النبي ﷺ قال للرماة « فانا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم » والتفصيل الذى يعين على فهم الآية وغيرها ، ومنها أن الرماة لم يعصوا كلهم وإنما أولئك بعض عامتهم وأما الخاصة الراسخون فى الإيمان العارفون بالواجب فقد ثبتوا . والمختار أن المراد بوعد الله هنا ما تكرر فى القرآن ، وإنما قال النبي ما قال للرماة عملا بالقرآن وتأولا له ، فانه تعالى قرن الوعد فيه بشروط لا تتم إلا بالطاعة والثبات .

فلخص تفسير الآية هكذا ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ إياكم بالنصر حتى فى هذه الواقعة ﴿ إذ تحسونهم ﴾ أى المشركين أى تقتلونهم قتلا ذريعاً . يقال منه : حسه يحسه حسا إذا قتله ﴿ باذنه ﴾ تعالى ، أى بعنايته وتأييده لكم ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ ضعفتم فى الرأى والعمل فلم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة ﴿ وتنازعتم فى الأمر ﴾ فقال بعضكم ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون . وقال الآخرون

لا تخالف أمر رسول الله ﴿ وعصيتم ﴾ رسولكم وقائدكم بترك أكثر الرماة المكان الذى أقامهم فيه يحمون ظهوركم بنضح المشركين بالنبل ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ من النصر والظفر، فصبرتم على الضراء ولم تصبروا فى السراء و ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ كالذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ كالذين ثبتوا من الرماة مع أميرهم عبد الله بن جبير، وهم نحو عشرة وكان الرماة خمسين رجلا، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ ثلاثون رجلا. أى صدقكم وعده ونصركم على قلتكم وكثرة المشركين، واستمر هذا النصر إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم، فعند ما وصلتم إلى هذه الغاية لم تعودوا مستحقين لهذه الغاية لمخالفتكم لسنته فى استحقاق النصر الذى وعد به أهل الثبات والصبر، فعلى هذا «حتى» تكون للغاية و «إذا» فى قوله ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ ليست للشرط، وإنما هى بمعنى الحين والوقت، ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ وحاصل المعنى أنه بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك أى ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر، أو لأجل أن يكون ذلك ابتلاء واختباراً لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين ويزيل بين الأقوياء والضعفاء. وقد أسند الله تعالى صرف المؤمنين عن المشركين إلى نفسه هنا باعتبار غايته الحميدة فى تربيتهم وتمحيصهم الذى يعدهم للنصر الكامل والظفر الشامل فى المستقبل. قال تعالى ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ بذلك التمحيص الذى محا أثر الذنب من نفوسكم فصرتم كأنكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا ولم تعصوا، وقد ظهر أثر هذا العفو فى واقعة حمراء الأسد كما علم مما مر وما يأتى. ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ فلا يذرهم على ما هم عليه من ضعف يلم ببعضهم أو تقصير يهبط بنفوس غير الراسخين منهم، حتى يبتلى ما فى قلوبهم ويمحص ما فى صدورهم فيكونوا من المخلصين.

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم فى ذلك الوقت الذى أصعدتم فيه - أي ذهبتم وأبعدتم فى الأرض منهزمين - وهو غير الصعود الذى هو الذهاب فى المرتفعات كالجبال ، لا تلوون ، أي لا تعطفون على أحد بنجدة ولا مدافعة ، ولا تلتفتون إلى من وراءكم لشده الدهشة التى عرتكم والذعر الذى فاجأكم .

﴿ والرسول يدعوكم فى أخراكم ﴾ أى تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم اليه فيمن تأخر معه منكم فكانوا ساقة الجيش . روى أنه كان يقول فى دعوته « إلىّ عباد الله إلىّ عباد الله . أنا رسول الله ، من يكر فله الجنة » وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون ، وكان يجب أن يكون لكم أسوة حسنة بالرسول فتقتدوا به فى صبره وثباته ولكن أكثركم لم يفعل ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ أى فجازاكم الله غماً بسبب الغم الذى أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم ، أو غماً متصلا بغم ، فنال العدو منكم ونلتم من أنفسكم إذ صرتم من الدهشة يضرب بعضكم بعضاً . وفاتتكم الغنيمة التى طمعتم فيها ، والغم هو الألم الذى يفاجىء الإنسان عند نزول المصيبة .

﴿ لكى لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أى لأجل أن لا تحزنوا بعد هذا التأديب والتمرين على ما فاتكم من غنيمة ومنفعة ﴿ ولا على ما أصابكم ﴾ من قرح ومصيبة فان التربية إنما تكون بالعمل والتمرين ، به يكمل الإيمان وترسخ الأخلاق ، ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ لا يخفى عليه شىء من دقائقه وأسبابه ، ولا من نيتكم فيه وعاقبته فيكم . فلا تعتذروا عن أنفسكم ولا تخادعوها ، فإن الخبير بأعمالكم المحيط بنفوسكم لا يخفى عليه من أمركم خافية وإنما المعول عليه علمه وخبره لا على أعذاركم وتأويلكم لأنفسكم . ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ الأمنة الأمن وهو ضد الخوف . والنعاس معروف وهو فتور يتقدم النوم ويظهر أثره فى العينين . والمعنى أنزل الله عليهم النعاس أمنة أو الأمنة نعاساً حتى يستردوا ما فقدوه من القوة بما أصابهم من القرح وما عرض لهم من

الضعف . والنوم للمصاب بمثل تلك المصائب نعمة كبيرة وعناية من الله عظيمة ، وقد كان من أثر هذا الاطمئنان فى القلوب والراحة للأجسام والتسليم للقضاء أن سهل على هؤلاء المؤمنين اقتفاء أثر المشركين بعد انصرافهم ، وعزموا على قتالهم فى حمراء الأسد عند ما دعاهم الرسول إلى ذلك فاستجابوا مذعنين ، واتفق الرواة أيضاً على أن كثيراً منهم كانوا مثقلين بالجراح فلم يقدروا على اقتفاء أثر المشركين

وذلك قوله تعالى ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ، وما من أمة إلا وفيها من الضعفاء والأقوياء

فى الإيمان وغيره . وقد بين ظنهم بقوله ﴿ يقولون هل لنا من الأمر شىء ﴾ فنلام إن ولينا وغلبنا ، يعنون أنه ليس لهم من أمر النصر وعدمه شىء ، فانهم فهموا مما وقع يوم بدر أن النصر وحقيقة الدين متلازمان ، وعجبوا مما وقع فى أحد كأنه مناف لحقيقة الدين ، وهذا خطأ عظيم ، أى فان نصر الله لرسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالا والعاقبة للمتقين .

﴿ قل ان الأمر كله لله ﴾ لا أمر النصر وحده ، أى إن كل أمر يجرى بحسب سنته تعالى ونظامه الذى ربط فيه الأسباب بالمسببات ، ومنه نصر من ينصره من

المؤمنين ﴿ يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء

ما قتلنا ها هنا ﴾ أى لو كان أمر النصر والظفر فى أيدينا لما وقع القتل فينا ههنا . يقررون رأيهم ويستدلون عليه بما وقع لهم ، غافلين عن تحديد الآجال ، ولذلك أمر

الله نبيه أن يجيبهم بقوله ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذى كتب عليه القتل

إلى مضاجعهم ﴾ أى لو كنتم وادعين فى بيوتكم فى سلم وأمان لخرج من بينكم من انتهت آجالهم وثبت فى علم الله أنهم يقتلون كما يثبت المكتوب فى الألواح والأوراق إلى حيث يقتلون ويسقطون من البراز (الأرض المستوية) فتكون مصارعهم ومضاجع الموت لهم ، فقتل من قتل لم يكن لأن الأمر ليس كله بيد الله ، بل لأن آجالهم قد جاءت كما سبق فى علم الله .

والخلاصة أن الحذر لا يدفع القدر . والتدبير لا يقاوم التقدير : فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال

﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ﴾ أى يقع ذلك لأجل أن يكون القتل عاقبة من جاء أجلهم منكم ولأجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما انطوت عليه من ضعف وقوة فى الإيمان ويطهرها حتى تصل إلى الدرجات العلى من الإيقان . وقد تقدم تفسير الابتلاء والتمحيص فى هذا السياق . ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أى بالسرائر والوجدانات الملازمة للصدور حيث القلوب المنفعلة لها والمنبسطة أو المنقبضة بتأثيرها ، وقد يخفى ذلك على أصحابها فينخدعون للشعور العارض لها الذى لم يرسخ بالتجارب والابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه .

﴿ ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ والمعنى أن الذين تولوا منكم مدبرين عن القتال إنما استزلهم الشيطان - أى أوقعهم فى الزلل ، أى زلوا وانحرفوا - لسبب ما كسبت طائفة منهم وهم بعض الرماة ، فانه لولا ذلك لما كر المشركون بعد هزيمتهم وجاءوا من ورائهم حتى أدهشوهم .

﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ ، فالعفو هنا عفو خاص ، ذلك عفو يراد به أن من سنة الله فى فطرة البشر أن تكون بعض هفواتهم وذنوبهم غير مفضية إلى العقوبة بالمصائب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . وهذا العفو خاص بالمؤمنين يراد به أن ذنبهم يوم أحد الذى كان من شأنه أن يعاقب عليه فى الدنيا والآخرة قد كانت عقوبته الدنيوية تربية وتمحيصاً ، وعفا لكم عن العقوبة عليه فى الآخرة ، ولذلك قال :

﴿ ان الله غفور حليم ﴾ غفور للذنوب حليم لا يعاجل بعقوبة الذنب كما يتوب على من تاب وأناب فهو لا يعجل بتحتيم العقاب ، ومن آيات مغفرته لهم وحلمه لهم توفيقهم .

* * *

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا
فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ
حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ
فِى سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ
مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ
كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ
(١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

لما بين سبحانه وتعالى للمؤمنين أن هزيمة من تولى منهم يوم أحد كانت بوسواس من الشيطان استزلهم به فزلوا أراد أن يحذرهم من مثل تلك الوسوسة التى أفسد الشيطان بها قلوب الكافرين الذين لا يدركون سنن الله ولا يعرفون أن الموت والحياة محكومان بالأجل المكتوب فيقولون لإخوانهم إذا خرجوا للكسب أو الغزو لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ويتحسرون على أن تركوهم يخرجون: ويعد الذين يستشهدون فى سبيل الله مغفرة ورحمة . والجميع محشورون إلى الله على كل حال . ثم يوجه القول إلى الرسول ﷺ يدعوه إلى العفو عنهم فيما كان منهم، وإلى استغفار الله لهم ، كما يدعوه إلى مشاورتهم فى الأمر حتى بعد ما بدر منهم من اختلاف فى الرأى وضعف عن احتمال تبعاته . ويذكره أن رحمته بهم هى التى جمعت قلوبهم حوله ، فلو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله . ثم يرتد الخطاب إلى المؤمنين ليقرر لهم أن النصر والخذلان بيد الله دون سواه ، فليتوكلوا عليه وحده ، فالمؤمنون يتوكلون على الله بحكم إيمانهم واليه يتوجهون

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا

فى الأرض أو كانوا غزّىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أى لا تكونوا مثل هذا الفريق من الناس وهم الذين كفروا وقالوا لأجل إخوانهم أو فى شأن إخوانهم فى النسب أو المودة والمذهب إذا هم ضربوا فى الأرض — أى سافروا فيها للتجارة والكسب — فماتوا وكانوا غزى أى غزاة (وهو جمع لغاز) سواء كان غزوهم فى وطنهم أو فى بلاد أخرى فقتلوا : لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، أى ما مات أولئك المسافرون وما قتل أولئك الغازون . وقرن هذا القول بالكفر مشعر بأن مثله لا ينبغى أن يصدر عن مؤمن ، لأنه إنما يصدر من الكافرين . إن هذا القول يدل على جهل قائله بالدين وجحوده ، فان الدين يرشد إلى تحديد الآجال وكونها بإذن الله كما تقدم بيانه . ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ﴾ أى لا تكونوا يا معشر المؤمنين مثل أولئك الكافرين فى اعتقادهم ، ولا تقولوا مثل قولهم الناشىء عن ذلك الاعتقاد ، ليكون ذلك منكم سبباً لتحسرهم وغمهم بحسب سنة الله ، فإنهم إذا رأوكم أشداء أقوياء لا يضعفكم فقد ما فقد منكم ، ولا يقعد بكم عن القتال خوف أن يصيبكم ما أصاب أولئك الذين قتلوا فانهم يتحسرون ويحزنون .

﴿ والله يحي ويميت ﴾ أى الحقيقة أن الله تعالى يحي من يشاء بمقتضى سننه فى بقاء أسباب الحياة وان طوى بالأسفار كل بر ونشر شراع كل بحر ، وخاض معامع الحروب ، وصارع الأهوال والخطوب . ويميت من يشاء بمقتضى سننه فى أسباب الموت وان اعتصم فى الحصون المشيدة ، وحرس بالجنود المجندة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه ما تكنون فى أنفسكم من الاعتقاد وما يؤثر فى قلوبكم من الأقوال والأحوال ، فاحرصوا على أن يكون تركـكم لأقوال الكفار ناشئاً عن طهارة نفوسكم من وساوسهم .

وفى هذا تهديد شديد للمؤمنين حتى لا يماثلوا الكفار فى أقوالهم وأفعالهم .

﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾

وبيان ذلك أن حظ الحي من هذه الحياة هو ما يجمعه من المال والمتاع الذى تتحقق به شهواته وحظوظه ، وما يلاقيه من يقتل أو يموت فى سبيل الله من مغفرته تعالى ورحمته فهو خير له من جميع ما يتمتع به فى هذه الدار الفانية

والموت فى سبيل الله هو الموت بأى عمل من الأعمال التى يعملها الإنسان لله ، أى سبيل البر والخير التى هدى الله الإنسان اليها ويرضاها منه . وقد يموت الإنسان فى أثناء الحرب من التعب أو غير ذلك من الأسباب التى يأتيها المحارب فى أثنائها ، فيكون ذلك الموت فى سبيل الله عز وجل ، وهذا هو المقصود هنا أولا وبالذات ، لأن السياق فى الحرب ، ولذلك قدم ذكر القتل على الموت

وحاصل معنى الآية أن رب العزة يخبرنا مؤكداً خبره بالقسم بأن من يقتل فى سبيله أو يموت فان ما ينتظره من مغفرة تمحو ما كان من ذنوبه وسيئاته ، ورحمة ترفع درجاته ، خير له مما يجمع الذين يحرصون على الحياة ليتمتعوا بالشهوات واللذات . إذ لا يليق بالمؤمنين الذين يؤثرون مغفرة الله ورحمته الدائمة على الحظوظ الفانية أن يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت فى سبيل الله ، ويودوا لو لم يكونوا خرجوا من دورهم إلى حيث لقوا حتفهم ، فان ما يلقونه بعد هذا الحتف خير مما كانوا فيه قبله .

خاطب سبحانه عباده المؤمنين يقول لهم : لا تكونوا أيها المؤمنون فى شك من أن الأمور كلها بيد الله ، وأن اليه الإحياء والاماتة ، كما شك المنافقون فى ذلك . ولكن جاهدوا فى سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله ، على يقين منكم بأنه لا يقتل فى حرب ولا يموت فى سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته . ثم وعدهم على جهادهم فى سبيله المغفرة والرحمة ، وأخبرهم أن موتا فى سبيل الله وقتلا فى الله خير مما يجمعون فى الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذى من أجله يتثاقلون عن الجهاد فى سبيل الله ، ويتأخرون عن لقاء العدو .

﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ قالوا إن الموت والقتل هنا أعم مما فى الآية السابقة ، لأن كل من يموت ومن يقتل فى سبيل الله وهى طريق الحق والخير ، أو فى سبيل الشيطان وهى طريق الباطل والشر . فلا بد أن يحشر إلى الله تعالى دون

غيره ، فهو الذى يحشرهم بعد الموت فى نشأة أخرى ، وهو الذى يحاسبهم أو يجازيهم . وهنا قدم ذكر الموت لأنه أعم من القتل وأكثر .

وانتقل الكلام من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبى ﷺ فيما يتعلق بمعاملتهم بقوله تعالى لنبيه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ الفاء هنا للتعقيب ، لأن الكلام فى واقعة خالف النبىَّ ﷺ فيها بعض أصحابه ، فكان لذلك من الفشل وظهور المشركين ما كان ، حتى أصيب النبى مع من أصيب ، فكان من لينه فى معاملتهم ومخاطبتهم ، ومن رحمته بهم ، أن صبر وتجلد فلم يتشدد فى عتب ولا توبيخ ، اهتداء بكتاب الله تعالى . فقد كان خلقه ﷺ القرآن كما ورد فى الصحيح من حديث عائشة رضى الله عنها .

كأنه يقول إنه قد كان من أصحابك يا محمد ما كان كما دلت عليه الآيات ، وهو مما يؤاخذون عليه ، فلنت لهم ، وعاملتهم بالحسنى . وإنما لنت لهم بسبب رحمة عظيمة أنزلها الله على قلبك وخصك بها ، فعمت الناس فوائدها ، وجعل القرآن مدداً لها بما هداك اليه من الآداب العالية والحكم السامية التى هونت عليك المصائب ، وعلمتك منافعها وحكمها وحسن عواقبها للمعتبر بها .

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ لأن الفظاظة ـ وهى الشراسة والخشونة فى المعاشره ، وهى القسوة ـ من الأخلاق المنفرة للناس لا يصبرون على معاشرة صاحبها وإن كثرت فضائله ورجيت فواضله بل يتفرقون ويذهبون من حوله ويتركونه وشأنه ، لا يبالون ما يفوتهم من منافع الاقبال عليه والتحلق حواليه ، وإذاً لفاتهم هدايتك ، ولم تبلغ قلوبهم بدعوتك

﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ فلا تؤاخذهم على ما فرطوا ، واسأل الله تعالى أن يغفر لهم ولا يؤاخذهم أيضاً ، فبذلك تكون محافظاً على تلك الرحمة التى خصك الله بها ، ومداوماً لتلك السيرة الحسنة التى هداك الله اليها ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ العام الذى هو سياسة الأمة فى الحرب والسلم والخوف والأمن وغير ذلك من

مصالحهم الدنيوية ، أي دم على المشاورة ، وواظب عليها ، كما فعلت قبل الحرب فى هذه الواقعة (غزوة أحد) وإن أخطأوا الرأى فيها ، فان الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأى الرئيس وإن كان صواباً ، لما فى ذلك من النفع لهم فى مستقبل حكومتهم ان أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة) ، فان الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر . والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر

والمراد بالأمر أمر الأمة الدنيوى الذى يقوم به الحكام عادة ، لا أمر الدين المحض الذى مداره الوحى دون الرأى ، إذ لو كانت المسائل الدينية - كالعقائد والعبادات والحلال والحرام - مما يتقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر ، وإنما هو وضع إلهى ليس لأحد فيه رأى ، لا فى عهد النبى ﷺ ولا بعده . وقد روى أن الصحابة عليهم الرضوان كانوا لا يعارضون رأيهم مع النبى ﷺ فى مسائل الدنيا إلا بعد العلم بأنه قاله عن رأى لا عن وحى ، كما فعلوا يوم بدر .

وقد ترك ﷺ وضع قواعد الشورى للأمة تضع منها فى كل حال ما يليق بها بالشورى ، قال تعالى بعد أمر نبيه بالمشاورة ﴿ فاذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أى فاذا عزمت بعد المشاورة فى الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى وأعددت له عدته فتوكل على الله فى إمضائه ، وكن واثقاً بمعونته وتأييده لك فيه ، ولا تتكل على حولك وقوتك ، بل اعلم أن وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وأكمل ، يجب أن تكون فيها الثقة ، وعليها المعول ، واليها الملجأ ، إذا انقطعت الأسباب وأغلقت الأبواب .

إن العزم على الفعل — وإن كان يكون بعد الفكر وإحكام الرأى والمشاورة وأخذ الأهبة — فذلك كله لا يكفى للنجاح إلا بمعونة الله وتوفيقه ، لأن الموانع الخارجية له والعوائق دونه لا يحيط بها إلا الله تعالى ، فلا بد للمؤمن من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته ﴿ ان الله يحب المتوكلين ﴾ على حوله وقوته مع العمل فى الأسباب بسنته .

الآية صريحة فى وجوب إمضاء العزيمة المستكملة لشروطها، وأهمها فى الأمور العامة - حربية كانت أو سياسية أو إدارية - المشاورة، وذلك أن نقض العزيمة ضعف فى النفس وزلزال فى الأخلاق لا يوثق بمن اعتاده فى قول أو عمل.

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ أى إن ينصركم الله بالعمل بسننه، وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتكال على توفيقه ومعونته فلا غالب لكم من الناس الذين تصيبهم حرمانهم من التوكل عليه تعالى فيكونوا عرضة للقنوط واليأس ﴿ وإن يخذلكم ﴾ بما كسبت أيديكم من الفشل وعصيان القائد فيما حتمه من عمل كما جرى لكم فى واقعة أحد أو بالاعجاب بالكثرة والاعتماد على الاستعداد والقوة وهو مخل بالتوكل كما جرى يوم واقعة حنين ﴿ فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ أى بعد خذلانه، أى لا أحد يملك لكم حينئذ نصراً ولا أن يدفع عنكم ضراً، ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ولا يتوكلوا على غيره لأن النصر بيده وهو الموفق لأسبابه.

قد علم مما تقدم أن التوكل إنما يكون مع أخذ الأسباب، وأن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد فى العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، والإنسان مسوق اليه بمقتضى فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ ومأمور به فى الشرع قال تعالى ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ وقال ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ وقال ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾.

* * *

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ، ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰنَ اللّٰهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّٰهِ وَمَأْوٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجٰتٌ عِنْدَ اللّٰهِ، وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

ولقد كان من بين العوامل التى جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل خوفهم ألا يقسم لهم الرسول ﷺ من الغنائم وأن يعدهم لم يشاركوا فى القتال. كذلك كان بعض المنافقين قد تكلموا بأن بعض غنائم بدر من قبل قد اختفت، وهمسوا باسم الرسول ﷺ فى هذا المجال

هنا يأتى السياق بحكم عام ينفى عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا، أى أن يخونوا ويحتجزوا شيئاً من أموال الغنائم أو سواها.

﴿ وماكان لنبي أن يغل ﴾ أصل الغل الأخذ بخفية كالسرقة، وغلب فى السرقة من الغنيمة قبل القسمة، وتسمى غلولا.

روى الكلبي ومقاتل: أن هذه الآية نزلت حين ترك الرماة المركز الذى وضعهم فيه النبي ﷺ يوم أحد طلبا للغنيمة. وقالوا نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً من مغنم فهو له، وألا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر. فقال لهم عليه السلام: ألم أعهد اليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى؟ فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفاً. فقال لهم: بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم.

والمعنى ماكان من شأن نبى من الأنبياء ولا من سيرته أن يغل، لأن الله عصم أنبياءه من الغل والغلول فهو لا يقع منهم. وذهب بعض المفسرين إلى أن الغل أو الغلول هنا هو إخفاء شيء من الوحى وكتمانه عن الناس ـ لا الخيانة فى الغنم ـ وإن كان ما بعده عاماً فى كل غلول، أو خاصاً بالغنيمة فانه جيء به للمناسبة كما عهدت مناسبات القرآن وانتقاله من حكم إلى حكم أو خبر له حكمه. وذكر أنه نزل على من رغب إلى النبي ﷺ أن يترك النعى على المشركين، وكأنه تعالى يقول اعلاماً للناس بما يجب للأنبياء عليهم السلام فى أمر التبليغ: ماكان من شأن نبى من الأنبياء أن يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه، وان كان مما يشق على الناس فى حكم العادة ذكره وتبليغه، وناهياً بذلك عباده عن الغلول وآمراً لهم بالاشتغال بمنهاج نبيهم.

﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ والمعنى أن الاتيان بالشيء الذى يغله الغال هو عبارة أو كناية عن انكشافه وظهوره أى إن كل غلول أو خيانة خفية

يعلمه الله تعالى مهما خفى ، ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كمعرفة من أتى بالشيء على حد قوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾

﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ أى ثم انه بعد أن يأتى الغال بما غل كما يأتى كل عامل بما عمل فيتمثل لديه كأنه حاضر بين يديه ينظر اليه بعينيه ، بعد هذا تنال النفس جزاء ما كسبت مستوفى تاماً لا تنقص منه شيئاً .

﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ أى جعل ما يرضى الله من فعل وترك إماماً له فى الخيرات والأعمال الصالحات ، واتقى الغلول وغيره من الفواحش والمنكرات ، حتى زكت نفسه وارتقت روحه فوفى جزاءه الحسن وكان عند ربه فى جنات عدن ﴿ كمن باء بسخط من الله ﴾ أى انتهى إلى مباءته فى الآخرة ، مصاحباً ومقترناً بغضب عظيم من الله عز وجل لتدسية نفسه بما خفى من الخطايا كالسرقة والغلول ، وتدنيسها بما ظهر منها كالسلب والنهب ، وإهمال تطهيرها بالعبادات وعمل الخيرات ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ذلك المأوى الذى يأوى اليه ، وساء المنتهى الذى ينتهى اليه ، وهو سكنى جهنم . كلا إنهما لا يستويان كما لا تستوى الظلمة والنور . ولا الظل والحرور ، وقد جعل الخيّر متبعاً للرضوان لأن أسباب الرضوان أعلام هداية تتبع ، ولم يقل ذلك فى الشرير لأنه فى ظلمة يبتدع ولا يتبع .

﴿ هم درجات عند الله ﴾ والمعنى أن الناس يتفاوتون فى الجزاء عند الله ، كما يتفاوتون هنا فى العرفان والفضائل ، والجهل والرذائل ، وما يترتب على ذلك أو يترتب عليه ذلك من الأعمال الحسنة والقبيحة . وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضاً . وهذه الدرجات لا تكون عطاء مؤتنفاً وكيلا جزافاً ، وإنما تكون أثراً طبيعياً لارتقاء الارواح وتدليها هنا بالأعمال ، ولذلك قال بعد ذكرها ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ فهو لا يغيب عنه شيء من أعمالهم ، وما لها من

التأثير فى تزكية نفوسهم التى يترتب عليها الفلاح فى ارتقاء الدرجات وفى تدسيتها التى تترتب عليها الخيبة فى هبوط الدركات ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ فتحصيل الدرجات إنما يكون فى هذه الدار ، والتمتع بها يكون فى دار القرار .

* * *

لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَٰكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٦٨)

انتقل الكلام من نفى الغلول عن النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن وصفه قبل ذلك بالرحمة واللين وأمره بالمشاورة ، إلى التفرقة بين أصحابه الذين عاملهم هذه المعاملة الذين اتبعوا رضوان الله ، وبين من باء بسخط من الله ، وتفاوت درجاتهم فى ذلك وقالوا ما قالوا مما دل على جهلهم وكفرهم بحرمانهم من هدايته — ولعله يعنى من كان مع أبى سفيان فى أحد من الكافرين — ثم عاد الى ذكر منته تعالى على المؤمنين ببعثة النبى ﷺ فيهم . وقد كان ما تقدم من وصفه ﷺ بالرحمة واللين وأمره بتلك المعاملة الحسنى وتنزيهه عن الغلول تمهيداً لهذه المنة والنعمة ، نعمة الإيمان ونعمة إرسال الرسول الذى هداهم اليه — إنها المنة الكبرى والنعمة

العظمى أن ينتقلوا من الضلال المبين الذى كانوا فيه ويرتفعوا على ذلك المستوى الهابط الذى لا يليق بالإنسان . . . وهو يعبر تعبيراً مجملا عن ذلك الذى كانوا فيه بأنه ضلال مبين . ولكن هذا الإجمال يفصله شيئاً ما ورد قبله من عمل الرسول فيهم : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ فيرفع مداركهم ﴿ ويزكيهم ﴾ فيطهرهم من دنس الشرك والمعصية والهبوط الإنسانى ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ فينقلهم من الجهالة إلى المعرفة ﴿ والحكمة ﴾ فيهديهم إلى الرشد والادراك السليم . . لقد كانوا محرومين من هذا كله . . . كانوا فى ضلال مبين — قال تعالى :

﴿ ولقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ مَنّ عليهم غمرهم بالمنة وأثقلهم بالنعمة . ذكر منته تعالى على المؤمنين ببعثه النبى ﷺ فيهم ، ووصفه أنه من أنفسهم أى من جنسهم أى العرب ، ووجه المنة أن كونه منهم يزيد فى شرفهم ، ويجعلهم أول المهتدين به ، لأنهم أسرع الناس فهماً لدعوته ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ الآيات هى الآيات الكونية الدالة على حكمته ووحدانيته . وتلاوتها عبارة عن تلاوة ما فيه بيانها ، وتوجيه النفوس إلى الاستفادة منها والاعتبار بها ، وهو القرآن ، كقوله عز وجل فى أواخر هذه السورة ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾

﴿ ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ المراد بالتزكية تربية النفوس على مكارم الأخلاق واتقاء فسادها وأنه كان ﷺ مربياً ومعلماً . وتزكيته إياهم هى تطهيرهم من العقائد الزائفة ، ووساوس الوثنية وأدرانها . وتزكية النفس لا تتم إلا بتزكية العقل ، ولا تتم تزكية العقل إلا بالتوحيد الخالص . أما تعليمهم الكتاب فمعناه أن هذا الدين الذى جاء به قد اضطرهم إلى تعلم الكتابة بالقلم ، وأخرجهم من الأمية ، لأنه دين حث على المدنية وسياسة الأمم ، وكان أول حاجتهم إلى تعلم الكتابة وجوب كتابة القرآن ، وقد اتخذ عليه الصلاة والسلام كتبة للوحى ، وكتبوا له كتباً دعا فيها الملوك والرؤساء إلى الإسلام ، وكان يأمرهم بتعلم الكتابة . ثم كان ذلك يكثر فيهم على قدر نماء مدنيتهم وامتداد سلطتهم ، وأما الحكمة فهى

أسرار الأمور ، وفقه الأحكام ، وبيان المصلحة فيها ، والطريق إلى العمل بها . ذلك الفقه الذى يبعث على العمل — أو هى العمل الذى يوصل إلى الفقه فى الأحكام ، أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها ، لأن هذه هى طريقة القرآن وسنته فى العقائد ، وكذا فى الآداب والعبادات ، وقد مرت الشواهد الكثيرة على ذلك .

﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ أى وإنهم كانوا قبل بعثة النبى ﷺ فى ضلال بين واضح . وأى ضلال أبين من ضلال قوم مشركين يعبدون الأصنام ويتبعون الأوهام ، أميين لا يقرءون ولا يكتبون فيعرفوا كنه ضلالتهم وحقيقة جهالتهم . فضلالهم أبين من ضلال أهل الكتاب كما هو ظاهر لأولى الألباب .

بعد أن حكى الله عن المنافقين أنهم نسبوا إلى النبى ﷺ الغلول والخيانة ثم برأه منها ، وبين ما بعث لأجله — عاد هنا إلى كشف الشبهات التى عرضت للغزاة قبل الواقعة وبعدها وبين خطأهم وضلالهم فى أقوالهم وأفعالهم

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ﴾ الكلام إنكار لتعجبهم ، وبيان لمنة الله تعالى عليهم ، حتى فى واقعة أحد فان خذلانهم فيها لم يبلغ مبلغ ظفرهم فى بدر ، بل كان نصرهم هنالك ضعفى انتصار المشركين هنا . كأنه يقول : لماذا نسيتم فضل الله عليكم فى بدر فلم تذكروه ، وأخذتم تعجبون مما أصابكم فى أحد وتسألون عن سببه ومصدره .

وفائدة قوله ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ التنبيه إلى أن أمور الدنيا لا تدوم على نهج واحد فأنتم هزمتموهم مرتين فكيف تستبعدون أن يهزموكم مرة واحدة .

وقد كان سبب تعجبهم أنهم قالوا : كيف ننصر الإسلام الذى هو دين الحق ومعنا الرسول وهم ينصرون دين الشرك بالله ومع ذلك ينصرون علينا .

وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بجوابين :

(١) قوله ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾

(٢) قوله ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أى ان هذا الذى وقع انما وقع بشؤم معصيتكم لأنكم عصيتم الرسول .

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ فانكم أخطأتم الرأى بخروجكم من المدينة إلى أحد وكان الرأى ما رآه النبي ﷺ من البقاء فيها حتى إذا ما دخلها المشركون عليهم قاتلوهم على أفواه الأزقة والشوارع ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من سطوح المنازل روى هذا عن الربيع . ثم إنكم فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم الرسول طمعاً فى الغنيمة ، ففارق الرماة منكم موقعهم الذى أقامهم فيه لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل إذا أراد أن يكر عليكم من ورائكم ، والعقوبات آثار لازمة للأعمال .

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ لا يعجزه تنفيذ سنته بعقاب المسىء وإثابة المحسن ، وإقامة النظام العام فى الكائنات بربط الأسباب بالمسببات ، فلا يشذ عن ذلك مسلم ولا كافر ولا بر ولا فاجر .

بناء على كون وجه تعجبهم هو وجود الرسول ﷺ فيهم ، أى أن الرسول ﷺ لا ينفع أمة قد خالفت السنن والطبائع ، فلا تغتروا بوجودكم معه مع المخالفة لله وله . فهو لا يحميكم مما تقتضيه سنن الله فيكم .

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ أى لا عجزاً فى القدرة ولا قهراً للإرادة ، وهذا صريح أن قدرته لا يمنعها وجود الرسول فيهم ، وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين فى أحد فهو بإذن الله أى إرادته الأزلية وقضائه السابق بأن تكون السنن العامة فى الأسباب والمسببات مطردة ، فكل عسكر يخطىء الرأى ويعصى القائد ويخلى بين العدو وبين ظهره يصاب بمثل ما أصبتم أو بما هو أشد منه . هذا هو معنى ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه

﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أى حالهم من قوة الإيمان وضعفه والاستفادة من المصائب ، حتى لا يعودوا إلى أسبابها ، والعلم بسنن الله عند ما يظهر فيهم حكمها فى الشدة والبأس ، أى ليظهر علمه بذلك ويترتب عليه مقتضاه .

﴿ وليعلم الذين نافقوا ﴾ والمعنى : وليعلم حال الذين نافقوا ، أى وقع منهم النفاق فى هذه الواقعة ، ولم يقل المنافقين كما قال المؤمنين لأن النفاق لم يكن صفة

ثابتة لهم كثبوت الإيمان ، فان منهم من تاب بعد ذلك وصدق فى إيمانه ، أى ليظهر علمه بذلك فيترتب عليه مقتضاه من العبرة لسوء عاقبة المنافقين حتى فيما ظنوه حزماً وتوقياً للمكروه واحتياطاً فى الأمر كالعبرة بحسن عاقبة الصادقين حتى فيما ظنوه شراً وسوءاً وكرهوا حصوله

أما قوله ﴿ وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ﴾ فمعناه أن هؤلاء الذين نافقوا قد دعوا إلى القتال على أنه فى سبيل الله ، أى دفاع عن الحق والدين وأهله ابتغاء مرضاة الله وإقامة دينه ، لا للحمية والهوى ولا ابتغاء الكسب والغنيمة ، أو على أنه دفاع عن أنفسهم وأهلهم ووطنهم . فراوغوا وحاولوا وقعدوا وتكاسلوا

﴿ قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ أى لو نعلم أنكم تلقون قتالا فى خروجكم لا تبعناكم ، ولكننا نرى أن الأمر ينتهى بغير قتال . نزل ذلك فى عبد الله بن أبىّ (ابن سلول) وأصحابه الذين خرجوا من المدينة فى جملة الألف الذين خرج بهم رسول الله ﷺ ثم رجعوا من الطريق وهم ثلثمائة ليخذلوا المسلمين ويوقعوا فيهم الفشل

﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ إنه تعالى كان يعلم أنهم كانوا يبطنون الكفر ، وأن امتناعهم عن الجهاد عمل من أعمال الكفر ، ولكنه لم يصرح به فى الآية بل صرح بما يومىء اليه تأديباً لهم ، عسى أن يتوب منهم من لم يتمكن الكفر فى قلبه ، ومنعاً للناس من الهجوم على التكفير

﴿ يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ أى إن الكذب دأبهم وعادتهم ، وهل يكون نفاق بغير كذب ؟

﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ من الكفر والكيد للمسلمين ، وتربص الدوائر بهم ، فهو يبين فى كل حين من مخبآت سرائرهم ما تقتضيه الحال وتقوم به المصلحة ، ثم هو الذى يعاقبهم فى الدنيا والآخرة

﴿ الذين قالوا لإخوانهم — وقعدوا — لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ هذا وصف آخر من أوصاف المنافقين جاء فى سياق التقريع ، وقدم القول فيه على القعود عن القتال لأنه أقبح منه ، فان القعود ربما كان لعذر أو التمس الناس له عذراً ، واللوم فيه على فاعله وحده لأن إثمه لا يتعداه إلى غيره ، وأما هذا القول الخبيث فانه أدل على فساد السريرة وضعف العقل والدين ، وضرره يتعدى لما فيه من تثبيط همم المجاهدين ، وقد أدحض الله حجتهم بقوله لنبيه ﴿ قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ إن هذا القول فى حكمه الجازم يتضمن أن علمهم قد أحاط بأسباب الموت فى هذه الواقعة ، وإذا جاز هذا فيها جاز فى غيرها ، وحينئذ يمكنهم درء الموت أى دفعه عن أنفسهم ، ولذلك طالبهم به وجعله حجة عليهم

* * *

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

بين سبحانه وتعالى حال المنافقين فى قعودهم عن القتال فى سبيل الله والدفاع عن الحقيقة وتثبيطهم لإخوانهم قبل القتال وبعده وقولهم فيمن قتلوا إنهم لو أطاعوهم ما قتلوا ، وبين أفنهم وفساد رأيهم فى التوقى من الموت بعدم القتال والدفاع ، وهو فى الحقيقة من أسباب الهلاك لا من أسباب السلامة . وبعد هذا كله أراد أن يبين حال من يقتل فى سبيل الله وأنه لا يكون بحيث يظن أولئك السفهاء فى موتهم ، بل إن الذين يستشهدون فى سبيل الله لا تنقطع حياتهم بالموت كما تنقطع حياة الذين

يموتون ميتة القاعدين . . فهم باستشهادهم أربح من هؤلاء القاعدين وأطول حياة ، لأن حياتهم فى الأرض تمتد — على نحو لا ندركه — بحياة أخرى عند ربهم ، فيها استمتاع برزق الله ، وفرح بفضله ، واستبشار بمصير زملائهم الأحياء . . . قال تعالى :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ﴾ والمعنى : لا تحسبن أى لا تظنن يا محمد أو أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه فيؤثرون الدنيا على الآخرة ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ أن من قتلوا فى سبيل الله أموات قد فقدوا الحياة وصاروا عدماً ﴿ بل ﴾ هم ﴿ أحياء عنـــد ربهم يرزقون ﴾ فى عالم غير هذا العالم هو خير من الشهداء وغيرهم من الصالحين. ولكرامته وشرفه أضافه الرب تعالى اليه ، فهذه العندية شرف وكرامة لا مكان ومسافة ، وقيل عندية علم وحكم . فليس يضير أولئك الذين قتلوا فى سبيل الله قتلهم وليس ما صاروا اليه دون ما كانوا فيه — والخروج للقتال كثيراً ما يكون سبباً للسلامة فى الغالب ، لأن الأمة التى لا تدافع عن نفسها يطمع غيرها فيها ، فاذا هاجمها الأعداء ظفروا بها ونالوا ما يريدون منها

﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ أى مسرورين بما أعطاهم الله من فضله ، أى زيادة على ذلك الرزق الذى استحقوه بعملهم ، والفضل ما كان فى غير مقابلة عمل ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا من خلفهم ﴾ الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة وإنما قال ﴿ من خلفهم ﴾ للدلالة على أنهم وراءهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم قدماً بقدم ، فهو قيد فيه الخير والحث والترغيب والمدح والبشارة ، وهو من البلاغة بالمكان الذى لا يطاول . والمعنى ويطلبون البشرى بالذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم ، أى يتوقعون أن يبشروا فى وقت قريب بقدومهم عليهم مقتولين فى سبيل الله كما قتلوا مستحقين من الرزق والفضل الإلهى مثل ما أوتوا

﴿ أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ المراد بنفى الخوف والحزن نفيهما عن

الذين لم يلحقوا بهم ممن قاتل معهم ولم يقتل . وان الآية الآتية مفسرة لذلك ، والخوف تألم من مكروه يتوقع ، والحزن تألم من مكروه وقع . ويجوز أن يكون المعنى أنه لا خوف عليهم فى الدنيا من استئصال المشركين لهم أو ظفرهم بهم ثانية ، ولا هم يحزنون فى المستقبل البعيد عند ما يقدمون على ربهم فى الآخرة

﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ﴾ ضمير يستبشرون إما للشهداء وإما للذين لم يلحقوا بهم ، فان كان للشهداء فهو عبارة عما يتجدد لهم من نعمة وفضل ، أو المراد بقوله بنعمة ما ذكره فى الآية السابقة من كونهم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿ وفضل ﴾ هو عين ما ذكره فى الآية السابقة من كونهم ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ . وان كان للذين لم يلحقوا بهم فالمعنى أنهم يستبشرون بمثل ما فرح به الشهداء ﴿ وان الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ الذين استجابوا لدعوة الله والرسول

﴿ الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ وهم إخوان أولئك الشهداء الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، فدعاهم الرسول ﷺ إلى اتباع أبى سفيان فى حمراء الأسد ، فاستجابوا لله وله بعد ما أصابهم القرح فى أحد حتى أنهك قواهم . وقيل المراد به الشهداء . والقرح الجراح فى يوم أحد ﴿ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ ومعنى هذا أن من المؤمنين الصادقين من لم يخرج معه ﷺ إلى حمراء الأسد أى وهم الذين لا يضيع الله أجرهم ، ولكن لا يستحقون الأجر العظيم الذى استحقه الذى خرجوا معه وهم مثقلون بالجراح ومرهقون من الإعياء إلى استئناف قتال أضعافهم من الأقوياء . والاحسان أن يعمل الانسان العمل على أكمل وجوه ممكنة . والتقوى أن يتقى الإساءة والتقصير فيه

روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الرّوحاء (موضع بين مكة والمدينة) ندموا وهموا بالرجوع حتى يستأصلوا ما بقى من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب

أصحابه للخروج فى إثر أبى سفيان وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، نخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال من المدينة) وكان بأصحابه القرح (الجراح) فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا إلى مكة مسرعين ، فنزلت الآية

وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد ، وهى متصلة بغزوة احد .

* * *

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة أن الآية نزلت فى غزوة بدر الصغرى ، وذلك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعد ما بيننا وبينك موسم بدر القابل إن شئت . فقال رسول الله ﷺ ، ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل « مجنة » من ناحية « مر الظهران » وقيل بلغ « عسفان » فألقى الله تعالى الرعب فى قلبه فبدا له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمراً ، فقال له أبو سفيان : إنى واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر ، وأن هذا عام جدب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن . وقد بدا لى أن أرجع وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل أضعها فى يدى سهيل بن عمرو . فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان ، فقال لهم : ما هذا بالرأى أتوكم فى دياركم وقراكم فلم يفلت منكم إلا شريد ، فتريدون أن تخرجوا اليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم ! فو الله لا يفلت منكم أحد . فوقع الكلام فى قلوب قوم منهم ،

فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى » فخرج ومعه سبعون راكباً يقولون « حسبنا الله ونعم الوكيل » حتى وافى بدراً الصغرى (بدر الموعد) فاقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلقوا أحداً لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة (وكان معه - كما قال ابن القيم - ألفا رجل) فسماه أهل مكة جيش السّويق ، وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السويق . وقال بعضهم : ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدماً وزبيباً وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ الذين قال لهم الناس هم الذين استجابوا لله وللرسول ، فخرجوا إلى حمراء الأسد للقاء المشركين ، إذ عاد لهم أبو سفيان لاستئصالهم . وقيل إن الناس الذين قالوا هم المنافقون وأما الناس الذين جمعوا الجموع لقتال المسلمين فهم أبو سفيان وأعوانه قولا واحداً ﴿ فزادهم إيماناً ﴾ أى فزادهم قول الناس لهم إيماناً بالله وثقة به ، من حيث خشوه ولم يخشوا الناس الذين خوفوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع ، واعتمدوا على نصر الله ومعونته وإن قل عددهم وضعف جلدهم ، فانه هو العزيز القوىّ ، وذلك من شأن المؤمنين الصادقين .

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ أى وقالوا معبرين عن إيمانهم حسبنا الله ، أى هو كافينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا لنا — وحسبنا بمعنى محسبنا — فهو من حسبه إذا كفاه ، كما قالوا : ونعم الوكيل ، أى نعم المولى لمن وليه وكفله ، فهو الذى توكل اليه الأمور ، فانه لا يعجزه أن ينصرنا عليهم على قلتنا وكثرتهم أو يلقى فى قلوبهم الرعب ويكفينا شر بغيهم وكيدهم ، وقد كان الأمر كذلك ، فان الله تعالى ألقى الرعب فى قلب أبى سفيان وجيشه على كثرتهم فولوا مدبرين ، وأعز الله بذلك رسوله والمؤمنين ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ أى فعادوا بعد خروجهم إلى لقاء الذين جمعوا لهم ومناجزتهم القتال متمتعين أو مصحوبين بنعمة من الله وهى السلامة ، كما روى عن ابن عباس أو العافية كما روى

عن مجاهد والسدى أو ما هو أعم من ذلك . وأما الفضل فقد فسروه بالربح فى التجارة ، وفسر السوء بالقتل والجراح . ﴿ واتبعوا رضوان الله ﴾ أى واتبعوا فى كل ما أوتوا من قول أو فعل رضا الله الذى هو وسيلة النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة فأطاعوا رسوله فى كل ما به أمر وعنه نهى ﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾ فان كان أكرمهم بذلك فى الدنيا فقد يعطيهم ما هو أعظم وأكرم فى العقبى ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ قيل المراد بالشيطان هنا شيطان الإنس الذى غش المسلمين وخوفهم ليخذلهم ، وقيل بل المراد به شيطان الجن الذى يوسوس فى صدور الناس . والمعنى على الأول : ليس ذلك الذى قال لكم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم أو من أوعز اليه بأن يقول ذلك أو من وسوس به الشيطان . يخوفكم أولياءه وهم مشركو مكة ويوهمكم أنهم جمع كثير أولو بأس شديد وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقائهم وتجبنوا عن مدافعتهم . والمعنى على الثانى أن الشيطان يخوف أولياءه ولا سلطان له على أولياء الله المؤمنين ، فهو عاجز عن تخويفهم ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ أى لا تحفلوا بقوله (فاخشوهم) فتخافوهم بل خافونى أنا لأنكم أوليائى وأنا وليكم وناصركم إن كنتم راسخين فى الإيمان قائمين بحقوقه .

وخلاصة ذلك - أنه إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا فى نفوسكم قدرة الله الذى بيده كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه . وتذكروا وعده بنصركم وإظهار دينكم على الدين كله ، وأن الحق يدمغ الباطل فاذا هو زاهق ، واذكروا قوله ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ — ثم خذوا أهبتكم وتوكلوا على ربكم فإنه لا يدع للخوف غيره مكاناً فى قلوبكم

وفى هذه الآية من العبرة :

(١) إن صادق الإيمان لا يكون جباناً ، فالشجاعة وصف للمؤمن لا يبلغ

غيره فيها مداه ، إذ أن العلة الحقيقية للجبن ، هى الخوف من الموت والحرص على الحياة ، وقلب المؤمن لا يتسع لهما

ولا يزال العالم إلى اليوم يشهد شجاعة الجيوش الإسلامية مع ما منى به المسلمون من ضعف فى إيمانهم وجهل بكثير من شئون دينهم

(٢) ان فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف ، ويعود نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية وتعود الإقدام إذا عرضت له تلك الأسباب

(٣) إذا عرضت له أسباب الخوف ، فعليه ألا يسترسل لها حتى لا يتمكن أثرها فى نفسه وتتجسم صورتها فى خياله ، بل يغالبها بصرفها عن ذهنه ، وشغله بما يضادها ويذهب بآثارها ، أو يتبدلها بآثار مناقضة لها ، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى نيط به التكليف

* * *

وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئًا ، يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (١٧٨) ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

لما كان ما كان من فوز المشركين فى أحد ، وما أصاب النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين ، أظهر بعض المنافقين كفرهم وقالوا : لو كان محمد نبياً ما قتل ، وغير ذلك مما سبق نقل بعضه . وما سارع هؤلاء فى إظهار ما يسترون من الكفر وتثبيط

المؤمنين عن نصر الإيمان إلا لظنهم أن المسلمين قد قضى عليهم ، وقد كان هذا مما يحزن النبي ﷺ ، فكان من تسلية التنزيل له فى هذا السياق قوله عز وجل :

﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ المراد من السياق تسليته ﷺ عما ساءه وحزنه من اهتمام المشركين بنصرة شركهم ، ومعاودتهم للقتال بعد أحد فى حمراء الأسد أو بدر الصغرى ، لولا خذلان الله لهم . وقد روى القول بتفسير الذين يسارعون بالكفر بالمنافقين ، وقيل هم المرتدون ، وقيل هم الكفار . قالوا : المسارعة فيه هى الوقوع فيه سريعاً ﴿ انهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ أى إنهم لا يحاربونك ليضروك بذلك بل يحاربون الله تعالى ، ولا شك فى ضعف قوتهم وعجزها عن مناوئة قوته عز وجل ، فهم لا يضرون بذلك إلا أنفسهم ﴿ يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ﴾ أى إنهم على حالة من فساد الفطرة تقتضى حرمانهم من نعيم الآخرة لسنة الله وإرادته فلا نصيب لهم فيها ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ فوق عذاب الحرمان من نعيمها . ولم يقيد هذا العذاب بكونه فى الآخرة فهو أعم

﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ﴾ . الذين اشتروا الكفر بالإيمان أى اختاروه ورضوا به كما يرضى المشترى بالسلعة بدلا من الثمن ، ويراها بعد بذله فيها متاعاً ينتفع به ، بل الشأن فى المشترى أن يرى ما أخذه أنفع له مما بذله . لا يقدر أحد على ضره تعالى ، وهذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان فاستبدله به . وفيها تأكيد عدم إضرارهم للنبى ﷺ فكأنه يقول إن هؤلاء لا قيمة لهم فيخاف منهم أو يحزن عليهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى سيعذبون بعذاب مؤلم فى الآخرة ولا يكون لهم نصيب من نعيمها — ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ إنه تعالى بين لنا سنة حكيمة من سننه فى الاجتماع البشرى ، وهى أن الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن ، ويقع فى الضير بتقصيره فى العمل الصالح ، وتشميره فى عمل

السيئات . والعبرة بالخواتيم ، فكأنه قال : ان هذا الاملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو جرىٌ على سنته فى الخلق ، وهى أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله . ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الاملاء للكافر علة لغروره ، وسبباً لاسترساله فى فجوره ، فيوقعه فى الإثم الذى يترتب عليه العذاب المهين . والاملاء : الامهال .

وفى الآية من العبرة :

(١) أن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول عمره ، ويتمكن من العمل على حسب استعداده

(٢) أن من شأن المؤمن إذا أنسأ الله أجله أن تكثر حسناته ، وتزداد خيراته ، فليجعل المؤمن هذا دستوراً فيما بينه وبين ربه ، ويحاسب نفسه على مقتضاه . فاذا فقهه وعمل به خرج من الظلمات إلى النور وكان من الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين

ثم بين أن الشدائد هى محك صدق الإيمان فقال :

﴿ وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ والمعنى ما كان من شأن الله تعالى ولا من سنته فى عباده أن يذر - أى يدع - المؤمنين على مثل الحال التى كان عليها المسلمون عند حدوث غزوة أحد حتى يميز الخبيث من الطيب وكيف كانوا . ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ وإنما لم يكن من شأنه إطلاع الناس على الغيب لأنه لو فعل ذلك لأخرج به الإنسان عن كونه إنساناً ، فانه تعالى خلق الإنسان نوعاً عاملا يحصل على رغائبه ويدفع جميع مكارهه بالعمل الكسبى الذى ترشده اليه الفطرة وهدى النبوة ، ولذلك جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ويميز بين الخبيث والطيب بالابتلاء بالشدائد ، وما تتقاضاه من بذل الأموال والأرواح فى سبيله التى هى سبيل الخير لا سبيل الهوى ، كما ابتلى المؤمنين فى واقعة أحد بجيش عظيم ، وابتلاهم باختيار الخروج لمحاربته وغير ذلك مما تقدم ذكره ﴿ ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾ أى يصطفيهم فيطلعهم

على ما شاء من الغيب ، وهو ما فى تبليغه للناس مصلحة ومنفعة لهم فى الأيمان ، كصفات الله تعالى واليوم الآخر وبعض شؤونه والملائكة ، وهذا هو الغيب الذى أمر المكلفون بالإيمان به ومدحوا عليه فى مثل قوله ﴿ الم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والدّليل على كون المراد أن من يجتبيهم من رسله يطلعهم على ما شاء أن يبلغوه لعباده من خبر الغيب هو مثل قوله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ وعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ متضمناً الإيمان بما أخبر به رسله من خبر الغيب ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ أى إن أنتم آمنتم بما جاء به خبر الغيب وقرنتم بالإيمان تقوى الله تعالى بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الاستطاعه فلكم أجر عظيم لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه

وقل أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن به التقوى . كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة ، حثاً على عمل البر والرأفة بالفقراء والبائسين ، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما

* * *

وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءاتَيٰهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بل هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

والدعوة إلى بذل المال تقترن كثيراً بالحديث عن الجهاد والتضحيات . فالجهاد فى حاجة إلى من يجودون بأموالهم حاجته لمن يجودون بأرواحهم ، ومن ثم يستطرد السياق هنا ـ وهو يكشف للمؤمنين عن حكمة الابتلاء فى الأرواح والأجسام ، وأنها كانت ليميز الله الخبيث من الطيب ـ يستطرد إلى الحديث عن الذين يبخلون بأموالهم . ويحسبون أن الاحتفاظ بها خير لهم . فينفى هذا الحسبان الكاذب . ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة ناراً . . . وهو تهديد فظيع . . ثم يقرر أنهم ذاهبون وتاركوه . وأن لله ميراث السموات والأرض فهو وحده الحى الباقى بعد أن يزول الجميع . وإذن فهذا الكنز إلى أمد قصير ، فمن الخير لأصحابه أن يقدموه بين أيديهم ذخراً ، بدل أن يطوقوه يوم القيامة ناراً . ثم هو فى النهاية راجع إلى الوارث الباقى الواحد الذى لا يموت

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ﴾
قال الإمام الرازى : اعلم أنه تعالى لما بالغ فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى الآيات المتقدمة شرع ههنا فى التحريض على بذل المال فى الجهاد ، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال فى سبيل الله ــ وقيل : إن البخل يعم المال والعلم والجاه وكل فضل من الله على العبد يمكنه أن ينفع به الناس ، ويؤيد العموم فى قوله ﴿ بما آتاهم الله ﴾ العموم فى الجزاء على ذلك البخل فى قوله ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ ولم يقل سيطوقون زكاتهم أو المال الذى منعوه . أما معنى التطويق فقد يكون من الطاقة فيكون بمعنى التكليف ، أى سيكلفون ذلك فى الآخرة فلا يجدون اليه سبيلا كقوله ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ وقد يكون من الطوق ، أى سيجعل ما بخلوا به طوقاً فى أعناقهم يوبقون بما يلزمهم من الجزاء عليه فلا يجدون عنه مصرفاً . وحاصل المعنى على هذا أن العقاب على البخل لزام لا مرد له فهو شر عظيم لهم

﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أى أن له وحده سبحانه جميع ما فى السموات والأرض مما يتوارثه الناس فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر فى يد ولا يسلم التصرف فيه لأحد إلا أن يفنى جميع الوارثين والموروثين ويبقى المالك الحقيق وهو رب العالمين

والعبارة تبين ان كل ما يعطاه الانسان من مال وجاه وقوة وعلم فانه عرض زائل ، وصاحبه يفنى ويزول ، ولا معنى لاستبقاء الفانى ما هو فان مثله . بل عليه أن يضع كل شىء فى موقعه الذى يصلح له ويبذله فى وجوهه اللائقة به أى فهو بذلك يكون خليفة لله فى إتمام حكمته فى أرضه ومحسناً للتصرف فيما استخلفه فيه

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى لا يخفى عليه شىء من دقائق عملكم ولا مما تنطوى عليه الصدور من الهوى فيه والنية فى إتيانه ، فيجزى كل عامل بما عمل على حسب تأثير عمله فى نفسه

ثم يشير السياق إلى جماعة من يهود وجدوا فى أيديهم المال فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله فلا حاجة بهم إلى جزاء ولا إلى أضعاف كثيرة . وحسبوا أن الله يطلب إلى الناس أن ينفقوا بعض ما آتاهم فى سبيله لأنه افتقر ! وهو تصور يدل على الغباء ، كما يدل على سوء الأدب فى حق الله

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ روى عن ابن عباس قال : اتت اليهود رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ فقالوا : يا محمد ، فقير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله الآية . والظاهر أن هذه المجازفة فى القول قد وقعت من غير واحد من اليهود ، سمع الله قول هؤلاء المجازفين لم يفته ولم يخف عليه ، فهو سيجزيهم عليه ، فهذا التعبير يتضمن التهديد والوعيد ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ وعيد لهم على ذلك القول الذى قالوه استهزاء بالقرآن أى سيكتب قولهم هذا ويثبت عند الله فيعاقبهم عليه ، لأنه لا يفوته ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ ضم قتل الأنبياء ـ وهو أفظع

جرائم هذا الشعب - إلى الجريمة التى سبق الوعيد لأجلها ، لبيان أن مثل هذا الكفر والتهور ليس بدعاً من أمرهم فانه سبق أن قتلوا الهداة المرشدين بعد ما جاءوهم بالبينات ، فهم يجرون فى هذا على ما عرف عنهم وليس هو بأول كبائرهم وللايذان بأن الجريمتين سيان فى العظم واستحقاق العقاب

وهذا يدل على أن الأمم متكافلة فى الأمور العامة ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه لئلا يفشو فيها فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها فتستحق العقوبة فى الدنيا بالضيق والفقر والمهانة والمذلة والاستعباد ، والعقوبة فى الآخرة بتدنيس نفوسها . وبأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما يستحسنه ويستهجن ما يستهجنه - عدّ شريكا له فى إثمه ومستحقاً لمثل عقوبته

﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ الذوق عبارة عن الشعور بالألم أو ضده ، فمعنى ذوقوا : تألموا من مرارته أو حرارته

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ أى ذلك العذاب الذى تذوقون مرارته أو حرارته بسبب ما قدمتم فى الدنيا من الأعمال . عبر عن الأشخاص بالأيدى ، لأن أكثر الأعمال تزاول بها ، وليفيد أن ما عذبوا عليه هو من عملهم حقيقة لا مجازاً

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أى ذلك العذاب إنما يصيبكم بعملكم وبكونه تعالى عادلا فى حكمه وفعله ، لا يجور ولا يظلم فيعاقب غير المستحق بالعقاب ، ولا يجعل المجرمين كالمتقين والكافرين كالمؤمنين . وان مثل هذه التسوية لا تصدر إلا ممن كان كثير الظلم مبالغاً فيه ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ أى أولئك هم الذين قالوا فى الاعتذار عن عدم الإيمان بمحمد ﷺ إن الله عهد إلينا فى كتابه (التوراة) أن لا نؤمن لرسول يدعى أنه مرسل من الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار . قال المفسرون : انهم أرادوا شيئاً كان شائعا عندهم وهو أن يذبح القربان من النعم وغيرها فيوضع فى مكان

معين فتأتى نار بيضاء من السماء لها دوى فتأخذه أو تحرقه . والواقع أنهم كانوا يحرقون المحرقات من القرابين بأيديهم كما جاء فى الفصل الأول من سفر اللاويين .

ويجوز ـ وهو الأظهر ـ أن يكون معنى ﴿ حتى تأتينا بقربان تأكله النار ﴾ أن يفرض علينا تقرير قربان يحرق بالنار ، فقد كان من أحكام الشريعة عندهم أن يحرقوا بعض القربان ، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يرد عليهم فقال ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ فى زعمكم أنكم لا تؤمنون بى لأنى لم آمر بإحراق القرابين ، أى إنكم لم ترضوا بعصيان أولئك الرسل فقط بل قسوتم عليهم وقتلتموهم . ﴿ فان كذبوك ﴾ بعد أن جئتهم بالبينات الناصعة والكتاب الذى ينير السبيل ويقيم الدليل ﴿ فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ فأقاموا على أقوامهم الحجة ببيناتهم ، وهزوا قلوبهم بزبر عظاتهم ، وأناروا بالكتاب سبل نجاتهم ، فما أغنى ذلك عنهم من شىء ، كما انصرفت قلوبهم عن طلب الحق وتحرى سبيل الخير . فالآية تسلية للنبى ﷺ وبيان لطباع الناس واستعدادهم فى كل الأزمنة سواء فمنهم من يقبل الحق ويتبعه ويقبل عليه بصدر رحيب ، ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والدواعى اليه ويسفه أحلام معتنقيه ، فليس بالعجيب أن يقاوموا دعوتك ولا أن يفندوا حجتك فان نفوسهم منصرفة عن طلب الحق وتحرى سبيل الخير

والزبر بمعنى الكتب والصحف ، أو بمعنى المواعظ الزاجرة . والزبر هنا صحف الأنبياء . والكتاب المنير للجميع فانه يعنى أن الزبر ينير فيبين الحق لمن التبس عليه ويوضحه .

* * *

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتٰعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ

قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

فى سياق التكاليف المفروضة على الأمة المسلمة فى كفاحها مع الكفار وأهل الكتاب ، وفى جهادها لتحقيق أهداف الدعوة وما يقتضيه من تضحيات ـ فى هذا السياق يقرر أن الموت نهاية كل حى وأنه متربص بكل نفس ، فالقاعدون ملاقوه كالمجاهدين ، والجبناء واردوه كالشجعان . . . إنما المعول عليه هو المصير . فكل نفس ستلقى أجرها من نوع ما عملت . والنار متعرضة فى طريق الجميع ، فمن أدركته العناية بما قدم من عمل صالح فزحزح عنها فهو الفائز . أما الحياة الدنيا وكل ما فيها فهى متاع الغرور الذى يغر ولا يدوم :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وهو أن كل حى يموت فتذوق نفسه طعم مفارقة البدن الذى يعيش فيه . ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ وفاه أجره أعطاه إياه وافياً بالعمل لم ينقصه منه شيئاً ، ومهما نال الإنسان من أجر على عمله فى الدنيا فانه لا يوفاه إلا فى الآخرة . والقيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين فى الحياة بعد الموت . ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ قال أحد المفسرين : اعلم أن هناك جنة وناراً ، وأن من الناس من يلقى فى تلك ومنهم من يدخل فى هذه . وابان عظيم هول النار وشدتها بالتعبير عن النجاة عنها بالزحزحة ، كأن كل شخص كان مشرفاً على السقوط فيها وان مجرد الزحزحة عنها فوز كبير . وفيه إيماء إلى أن أعمال الناس سائقة لهم إلى النار لأنها حيوانية فى الغالب حتى لا يكاد يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يكون زحزح عما كان صائراً اليه من السقوط فى النار . أما هؤلاء المزحزحون فهم الذين غلبت فى نفوسهم الصفات الروحية على الصفات الحيوانية ، فأخلصوا فى إيمانهم وفى أعمالهم ، وجاهدوا فى الله حق جهاده حتى لم يبق فى نفوسهم شائبة من إشراك غير الله فى عمل من الأعمال . أفاد هذا الإيجاز كل هذه المعانى ، ولم يحتج فى هذه الآية إلى مثل ما ذكر فى آيات أخرى من وصف الجنة والنار لما يقتضيه السياق هنالك من الاطناب والتعريف بشىء من

أمور الغيب ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ الحياة الدنيا هى السفلى أو القربى ، والمراد منها حياتنا هذه أى معيشتنا الحاضرة التى نتمتع فيها باللذات الحسية كالأكل والشرب الخ . . أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة وما إلى ذلك . هذه الحياة هى أقرب الحياتين وأدناهما وأحطهما ، وهى على كل حال متاع الغرور ، لأن صاحبها دائماً مغرور مخدوع لها تشغله كل حين بجلب لذاتها ودفع آلامها ، فهو يتعب لما لا يستحق التعب ، ويشق لتوهم السعادة . ويتعب نقداً ليستريح نسيئة . والعبارة جاءت بصيغة الحصر ، فهى تشمل حياة الأبرار الذين يصرفون أعمالهم فى نفع الناس حباً للخير ، وتقرباً إلى الله عز وجل من حيث هم متمتعون فيها ، وأن لذتهم فيما هم فيه قهرية . وإما على معنى أنها لا بقاء لها — أو يقال إن ما كان من عمل الخير والطاعة ليس من متاع الدنيا ، والحصر بحسب ما عليه الغالب .

﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾ أى لا بد أن تبلوا أى تختبروا - بعد ذلك فى الأنفس والأموال ، وتجرى فيكم سنته تعالى فى خلقه ، فلا تظنوا أنكم جلستم على عرش العزة واعتصمتم بالمتعة وأمنتم حوادث الكون ، فانه لا بد أن يعاملكم الله تعالى كما يعامل الأمم معاملة المختبر المبتلى ، لا ليعلم ما لم يكن يعلم من أمركم فهو علام الغيوب ، بل ليميز الخبيث من الطيب ، كما ماز الكثيرين فى واقعة أحد . والابتلاء فى الأموال يفسر بفرض الصدقات والبذل فى سبيل الله ، وهو كل ما يوصل إلى الخير . والابتلاء فى الأنفس يكون بتكليف بذلها فى سبيل الله ، وبموت من يحب الإنسان من الأهل والأصدقاء ، والابتلاء بالمصائب البدنية كالأمراض والجروح . والابتلاء بالتكليف هو أهم الابتلاءين ، وذلك أن الله تعالى لم يكفل للمسلمين الحفظ والنصر لأنهم مسلمون وإنما يكلفهم الجرى على سنته تعالى كغيرهم فلا بد لهم من الاستعداد للمدافعة دائماً ، وذلك يقتضى بذل المال والنفس .

﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى

كثيراً ﴾ فهو ابتلاء آخر ، وقد نزلت هذه الآية بعد أن كان المشركون وأهل الكتاب ملئوا الفضاء بكلامهم المؤذى للرسول والمؤمنين . وإن هذا يدخل فى الابتلاء فى الأنفس ، وإنما خصه بالذكر لأنه من الأهمية بمكان . ومن ذلك حديث الأفك (قذف أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها) وتألب اليهود عليهم ونقض عهودهم ومحاولتهم قتل النبى ﷺ حتى أجلاهم عن المدينة فأمن شرهم . واتفاق اليهود مع أحزاب المشركين وزحفهم على المدينة لاستئصال المسلمين . فقد حاصروهم وأوقعوا بهم شديد البلاء وضيقوا عليهم وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغتِ الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ . وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديداً ﴾ .

﴿ وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ﴾ قال أحد المفسرين : الصبر هو أن تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه ، مع الروية فى دفعه ، ومقاومة ما يحدثه من الجزع . فهو مركب من أمرين : دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس به لا يسمى صابراً ، وإنما هو فاقد الاحساس ويسمى بليداً . وفرق بين الصبر والبلادة ، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة ، وما أحسن قرن التقوى بالصبر فى هذه الموعظة ، وهى أن يمتثل ما هدى الله اليه فعلا وتركا عن باعث القلب ، وذلك من عزم الأمور ، أى التى يجب أن تعقد عليها العزيمة وتصح فيها النية وجوباً محتماً لا ضعف فيه .

إنها سنـــة العقائد والدعوات . . لا بد من بلاء ولا بد من صبر ومقاومة وصمود ، ذلك لكى يثبت على الدعوة أصلب أصحابها عوداً فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها فى مستقبلها فهم عليها مؤتمنون

وذلك لكى تعز عليهم هذه الدعوة وتغلو بقدر ما يصيبهم فى سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون فى سبيلها من عزيز وغال فلا يفرطوا بعد ذلك فيها مهما تكن الأحوال

وذلك لكى يصلب عود الدعوة وعود الدعاة ، فالمقاومة هى التى تستثير القوى الكامنة وتنميها وتجمعها وتوجهها . . والدعوات الجديدة فى حاجة إلى هذه الاستثارة لتتأصل جذورها . . وذلك لكى يشعر المعارضون لها أن لا بد فيها من خير ، ولا بد فيها من شر يجعل أصحابها يلاقون فى سبيلها ما يلاقون وهم صامدون . فعندئذ ينقلب هؤلاء المعارضون إلى تلك الدعوة أفواجاً كما يحدث فى نهاية المطاف

إنها سنة الدعوات ، وما يصبر على ما فيها من مشقة ويحافظ فى ثنايا الصراع على تقوى الله ، فلا يشط ولا يعتدى وهو يرد الاعتداء ولا ييأس أو يقطع أمله فى الله وهو يعانى الشدائد ، إلا أولو العزم

* * *

وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وراءَ ظُهُورِهِمْ واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوٰتِ والأَرْضِ واللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

ذكر سبحانه فى الآية السابقة من البلاء الذى يصاب به المؤمنون إنما يصابون به لأخذهم بالحق ودعوتهم اليه ، ومحافظتهم فى الشدائد عليه . فناسب بعد ذكر ذلك البلاء الذى أخبر الله به المؤمنين ووطن عليه نفوسهم ليثبتوا ويصبروا أن يذكر لهم مثل الذين خلوا من قبلهم إذ أخذ عليهم الميثاق ببيان الحق فكان من أمرهم ما استحقوا به الوعيد المذكور فى الآية ، فهو يذكر المؤمنين بذلك كأنه يقول لهم : إنكم إذا كتمتم ما أنزل عليكم يكون وعيدكم كوعيدهم . قال تعالى :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ أى اذكروا إذ أخذ الله الميثاق عليهم بلسان أنبيائهم ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ أى أكد عليهم

إيجاد البيان والتبيين ، وفيه معنى التكثير والتدريج ، كما يؤكد على المخاطب أهم الأمور بالعهد واليمين فيقال إنك لتفعلن كذا ؟ وروى أن الذى أخذ عليه العهد الموثق ببيانه هو محمد ﷺ ، كما روى أيضاً أنه الكتاب الذى أوتوه وهو الظاهر المتبادر ، ويدخل فيه البشارة بالنبي ﷺ ، وتبيينه هو أنه يوضحوا معانيه كما هى ، ولا يؤولوه ، ولا يحرفوه عن مواضعه التى وضع لتقريرها ، ومقاصده التى أنزل لأجلها ، حتى لا يقع فى فهمه لبس ولا اضطراب

إن البيان والتبيين على نوعين : أحدهما تبيينه لغير المؤمنين به لأجل دعوتهم اليه . وثانيهما تبيينه للمؤمنين به لأجل إرشادهم وهدايتهم بما أنزل اليهم من ربهم . وكل من النوعين واجب حتم لا هوادة فيه . قال قتادة فى تفسير هذه الآية : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم . فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتمان العلم فإن كتمان العلم هلكة ، ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به فيخرج من دين الله فيكون من المتكلفين . كان يقال : مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه . ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب . وكان يقال : طوبى لعالم ناطق ، وطوبى لمستمع واع .

﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ النبذ الطرح ، وقد جرت كلمة نبذه وراء ظهره مجرى المثل فى ترك الشىء وعدم المبالاة به والاهتمام بشأنه ﴿ واشتروا به ثمناً قليلا ﴾ أى أخذوا بدله فائدة دنيوية قليلة لا توازى عشر معشار فوائد بيان الكتاب والعمل به ، فكانوا مغبونين فى هذا البيع والشراء . وهذا الثمن هو ما كان يستفيده الرؤساء من المرءوسين وعكسه . ومنه ما يتقرب به العلماء إلى الحكام وأجور الفتاوى الباطلة . قال تعالى ﴿ فبئس ما يشترون ﴾ أى هو ذميم قبيح ، لأنهم يجعلون هذا الغرض الفانى بدلا من النعيم الباقى فى الآخرة ، وكذا من سعادة الدنيا الحقيقية التى تحصل للأمة بمحافظة العلماء على الكتاب وتبيينه لها وإرشادها به إلى ما يهذب أخلاقها ويعلى آدابها ، ويجمع كلمتها ويحول بينها وبين

مطامع المستبدين فيها حتى تكون أمة عزيزة قوية متكافلة متضامنة أمرها شورى بين أهل الرأى وأولى الأمر من أفرادها.

وقد روى عن على رضى الله عنه أنه قال : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا

﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ بين الله تعالى فى هذه الآية حالا آخر من أحوال أولئك الغادرين ليحذّر المؤمنين منه لأنهم عرضة له ، وهو أنهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ، ويرون لأنفسهم شرفاً فيه وفضلا بأنهم أئمة يقتدى بهم ، وهذا فرح باطل ، وكانوا يحبون أن يحمدوا بأنهم حفاظ الكتاب ومفسروه وعلماؤه ومبينوه والمقيمون له ، وهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك . وإنما فعلوا نقيضه إذ حولوه عن الهداية إلى ما يوافق أهواء الحكام وأهواء الناس ، يطلبون بذلك حمدهم . بين الله هذه الحقائق فى أسلوب عجيب بين فيه حكما آخر وهو أن هؤلاء الفرحين المحبين للمحمدة الباطلة قد اشتبه أمرهم على الناس ، فهم يحسبون أنهم أولياء الله وأنصار دينه وعلماء كتابه ، وأنهم أبعد الناس عن عذابه وأقربهم من رضوانه ، فبين لهم كذب هذا الحسبان ، ونهى عنه ، وسجل عليهم العذاب الأليم فى الآخره ، فإن فساد أخلاقهم الفاسدة وفرحهم وبطرهم وصغارهم الذى زين لهم حب الحمد الكاذب بالباطل جعل أرواحهم مظلمة دنسة ، فهى التى تهبط بهم إلى الهاوية حيث يلاقون ذلك العذاب المؤلم

﴿ ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير ﴾ كأنه يقول لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا ، واصبروا واتقوا ، ولا تخونن عزائمكم . بينوا الحق ولا تكتموا منه شيئاً ، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، ولا تفرحوا بما علمتم ، ولا تحبوا أن تحمدوا بما لم تفعلوا ، فإن الله تعالى يكفيكم ما أهمكم ، ويغنيكم عن هذه المنكرات التى نهيتم عنها . فإن ملك السموات والأرض كله له يعطى منه ما يشاء وهو على كل شىء قدير ، لا يعز عليه نصركم على الذين يؤذونكم

بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين ، وإليه ترجع الأمور ، لأنه هو الذى يديرها بحكمته وسننه فى خلقه .

* * *

إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيٰتٍ لِأُولِى الْأَلْبٰبِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بٰطِلاً سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عٰمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰرُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

قال الرازى : اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق ، فلما طال الكلام فى تقرير الاحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية . اهـ

هذا الدرس يبدأ بعرض حقيقة عميقة : إن فى خلق السموات والأرض لآيات كافية للإيمان بخالق الأرض والسموات ؛ وإن مجرد التأمل فى هذه الآيات عن إدراك ووعى ليقود إلى الإيمان بالله والإيمان بالآخرة فى غير عناء ولا التواء .

ثم يثنى بوعد قاطع من الله للذين جاهدوا فى سبيله وثبتوا على الأذى وقاموا بتكاليف الدعوة أن يعوضهم من ذلك كله ثواباً حسناً والله عنده حسن الثواب .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ السموات ما علاك مما تراه فوقك ، والأرض ما تعيش عليه الخلق . والخلق التقدير والترتيب . وبعد ما ذكر خلق السموات والأرض لفت العقول إلى أمر مما يكون فى الأرض وهو اختلاف الليل والنهار ، فإن هذا الاختلاف قائم بنظام الليل والنهار وقصرهما وتعاقبهما ، وهذا أمر عظيم سواء كان سببه ما كانوا يعتقدون من أنه حادث من حركة الشمس ، أو ما يعتقدون الآن من أن سببه حركة الأرض حول الشمس . ومن الحكم فى ذلك ما نراه فى أجسامنا وعقولنا من تأثير حرارة الشمس ورطوبة الليل ، وكذا فى تربية الحيوان والنبات وغير ذلك ولو كان الليل سرمداً لفاتت هذه الحكم .

وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكره . فأما علماء الهيئة فانهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل . وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة وما فيها من الحسن والروعة . وخص أولى الألباب بالذكر ، وقد سمى العقل لباً لأن اللب هو محل الحياة من الشىء وخاصته وفائدته ، وإنما حياة الإنسان الخاصة به هى حياته العقلية ، وكل عقل متمكن من الاستفادة من النظر فى هذه الآيات ، والاستدلال بها على قدرة الله وحكمته . ولكن بعضهم لا ينظر ولا يتفكر . وإنما العقل الذى ينظر ويستفيد ويهتدى هو الذى وصف أصحابه بقوله تعالى :

﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ والذكر فى الآية على عمومه ، لا يختص بالصلاة ، والمراد بالذكر ذكر القلوب ، وهو إحضار الله تعالى فى النفس ، وتذكر حكمه وفضله ونعمه فى حال القيام والقعود والاضطجاع ، وهذه الحالات الثلاث التى لا يخلو العبد منها تكون فيها السموات والأرض معه لا يتفاوتان . والآيات الإلهية لا تظهر من السموات والأرض إلا لأهل الذكر ،

فكأين من عالم يقضى ليله فى رصد الكواكب فيعرف منها مالا يعرف الناس من نظامها وسننها وشرائعها ، وهو يلتذ بذلك العلم ، ولكنه مع هذا لا تظهر له هذه الآيات لأنه منصرف عنها بالكلية .

ثم إن ذكر الله تعالى لا يكفى فى الالتجاء إلى الآيات ، ولكن يشترط مع الذكر التفكر فيها ، فلا بد من الجمع بين الذكر والفكر ، فقد يذكر المؤمن بالله ربه ولا يتفكر فى بديع صنعه وأسرار خليقته ، ولذلك قال ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ أى يتفكرون فى عجائب السموات والأرض وأسرارهما ، وما فيهما من الاتقان والابداع ، والمنافع الدالة على العلم المحيط ، والحكمة البالغة . والنعم السابغة ، والقدرة التامة للعليم الحكيم القادر الرحيم الذى خلق ذلك فى أبدع نظام ، فاذا تحول التجلى عن جمال الأكوان وتفكر الذاكر فى تقصيره من حيث هو إنسان عن شكر المنعم عليه بكل شىء يتمتع به وعن القيام بما يصل اليه استعداده من معرفته استولى عليها سلطان الجلال ، فتعلو همته فى طلب الكمال ، فينطلق لسانه بالدعاء والثناء ، وقلبه بين الخوف والرجاء .

﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ أى يقول الذين يجمعون بين التذكر والتفكر ، معبرين عن نتيجة جمع الأمرين ، والتأليف بين المقدمتين : ربنا ماخلقت هذا الذى نراه من العوالم السماوية والأرضية باطلا ، ولا أبدعته وأتقنته عبثاً ، سبحانك وتنزيهاً لك عن الباطل والعبث ، بل كل خلقك حق مؤيد بالحكم ، فهو لا يبطل ولا يزول ، وإن عرض له التحويل والتحليل والأفول ، ونحن بعض خلقك لم نخلق عبثا . ولا يكون وجودنا من كل وجه باطلا ، فإن فنيت أجسادنا وتفرقت أجزاؤنا بعد مفارقة أرواحنا لأبداننا فانما يهلك منا كوننا الفاسد ووجهنا الحادث ، ويبقى وجهك الكريم ، ومتعلق علمك القديم يعود بقدرتك فى نشأة أخرى كما بدأته فى النشأة الأولى . فريق ثبتت له الهداية ، وفريق حقت عليهم كلمة الضلالة ، فأولئك فى الجنة بعملهم وفضلك ، وهؤلاء فى النار بعملهم وعدلك

﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بعنايتك وتوفيقك لنا ، واجعلنا مع الأبرار بهدايتك إيانا ورحمتك بنا .

﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أى إنهم ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلىّ العظيم الذى خلق الأكوان المملوءة بالأسرار والحكم والدلائل على قدرته وعزته ، فيعلمون أنه لا يمكن لأحد أن ينتصر عليه ، وأن من عاداه فلا ملجأ ولا منجى له منه إلا اليه ، فيقرون أن من أدخله ناره فقد أخزاه أى أذله وأهانه

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ وصف من يدخلون النار بالظالمين تشنيعاً لأعمالهم ، وبياناً لعلة دخولهم فيها وهو جورهم وميلهم عن طريق الحق ، فالظالم هنا هو الذى يتنكب الطريق المستقيم ، لا الكافر خاصة كما قال بعض المفسرين ، فكل ظالم

يؤخذ بظلمه ويعاقب على قدره ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ المنادى للإيمان هو الرسول ، وذكره بوصف المنادى تفخيما لشأن هذا النداء ، وسماع النداء يشمل من سمع منه مباشرة فى عصره ومن وصلت اليه دعوته من بعده ، ويحتمل أن يكون قولهم فآمنا مرادا به إيماناً جديداً غير الإيمان الذى استفادوه من الفكر والذكر ، وهو الإيمان التفصيلى الذى أشرنا اليه آنفاً . ويحتمل أن يكونوا سمعوا دعوة الرسول أولا وآمنوا به ، ثم نظروا وذكروا وتفكروا فاهتدوا إلى ما اهتدوا اليه من الدلائل التى تدعم إيمانهم فذكروا النتيجة ثم اعترفوا بالوسيلة . ولا ينافى ذلك تأخير هذه عن تلك فى العبارة كما هو ظاهر .

﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ﴾ الذنوب هى التقصير فى عبادة الله تعالى وكل معاملة بين العبد وربه والسيئات هى التقصير فى حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضاً ، فالذنب معناه الخطيئة ، وأما السيئة فهى ما يسوء . فاشتقاقها من الإساءة يشعر بما قلناه . وغفر الذنوب عبارة عن سترها وعدم العقوبة عليها البتة . وتكفير السيئات عبارة عن حطها وإسقاطها ، فكل من الطلبين مناسب

لما ذكرنا من المعنيين ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أى أمتنا على حالتهم وطريقتهم ،

يقال أنا مع فلان أى على رأيه وسيرته ومذهبه فى عمله ، والأبرار هم المحسنون فى أعمالهم ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ أى أعطنا ما وعدتنا من الجزاء الحسن كالنصر فى الدنيا والنعيم فى الآخرة - وخصه بعضهم بالدنيا وبعضهم بالآخرة ، جزاء على تصـــديق رسلك واتباعهم ، إذ استجبنا لهم وآمنا بما جاءوا به أو ما وعدتنا به منزلا على رسلك ، أو ما وعدتنا به على ألسنة رسلك ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ أى لا تفضحنا وتهتك سترنا يوم القيامة بإدخالنا النار التى تخزى من دخلها ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ فهو ثناء ختم به الدعاء ولا شك يصيبهم إذا قاموا بما ترتب عليه من الايمان والعمل الصالح ، فإن الوعد كما قال الرازى لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم بل يتناولهم بحسب أوصافهم . والمعنى أى لا تخلف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل فقد وعدت بسيادة الدنيا فى قولك ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ﴾ وقلت ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ووعدت بسعادة الآخرة فقلت : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾

﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ بين تعالى أن الاستجابة ليست إلا توفية كل عامل جزاء عمله لينبههم بذكر العمل والعامل إلى أن العبرة فى النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب إنما هى بإحسان العمل والإخلاص فيه ، فان الانسان قد تغشه نفسه فيظن أنه محسن وليس بمحسن ، وأنه مخلص وما هو بمخلص ، وأن حوله وقوته قد فنيا فى حول الله وقوته ، وأنه لا يريد إلا وجهه تعالى فى كل حركة وسكون ، ويكون فى الواقع ونفس الأمر مغروراً مرائياً . وذكر أن الذكر والأنثى متساويان عند الله فى الجزاء متى تساويا فى العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها . ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعل الرجل رئيساً عليها يقتضى أن يكون أرفع منزلة عند الله منها . وقد بين تعالى علة هذه المساواة بقوله ﴿ بعضكم من بعض ﴾ فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل ، فلا فرق بينهما فى

البشرية ، ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال ، أى وما تترتب عليه الأعمال ويترتب عليها من العلوم والأخلاق . وفيه وجه آخر أن كلا منهما صنو وزوج وشقيق للآخر . وفى معنى ذلك حديث « النساء شقائق الرجال » قالوا أى مثلهم فى الطباع والأخلاق ، كأنهن مشتقات منهم ، أو لأنهن معهم من أصل واحد . لم يكتف بربط الجزاء بالعمل حتى بين العمل الذى يستحقون به ماطلبوا من تكفير السيئات ودخول الجنة فقال ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ﴾ ذكر الاخراج من الديار بعد الهجرة من باب التفصيل بعد الاجمال ، فالهجرة إنما كانت تكون بالاخراج من الديار وتستتبع ما ذكر فى قوله ﴿ وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا ﴾ من الإيذاء والقتال ، وقرىء وقتلوا بتشديد التاء للمبالغة . فمن لم يحتمل القتل بل والتقتيل فى سبيل الله تعالى ويبذل مهجته لله عز وجل فلا يطمعن بهـذه المثوبة المؤكدة فى قوله ﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ يذكر الله تعالى صفات المؤمنين لينبهنا إلى أن نرجع إلى أنفسنا ونمتحنها بهذه الأعمال والصفات فان رأيناها تحتمل الإيذاء فى سبيل الله حتى القتل فليبشرها بالصدق منها والرضوان من الله تعالى وحسن الجزاء فى دار النعيم ، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التى لا ينجى عنده غيرها . وإنما كلف الله المؤمنين الصادقين الموقنين المخلصين هذا التكليف الشاق لأن قيام الحق مرتبط به . وانما سعادتهم — من حيث هم مؤمنون — بقيام الحق وتأييده ، والحق فى كل زمان ومكان محتاج إلى أهله لينصروه على أهل الباطل الذين يقاومونه . والحق والباطل يتصارعان دائماً ، ولكل منهما حزب ينصره ، فيجب على أنصار الحق أن لا يفشلوا ولا ينهزموا ، بل عليهم أن يثبتوا ويصبروا حتى تكون كلمته العليا وكلمة الباطل هى السفلى ﴿ ثواباً من عند الله ﴾ فمعناه لأكفرن عنهم سيئاتهم وأدخلنهم جنات أثيبهم بذلك ثواباً من النوع العالى الكريم الذى عند الله لا يقـدر عليه غيره ، والثواب ما يرجع إلى الانسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثواباً تصوراً أنه هو هو .

إن الجزاء أثر طبيعي للعمل ، أي إن للأعمال تأثيراً في نفس العامل تزكيها فتكون بها منعمة في الآخرة ، أو تدسيها فتكون معذبة فيها بحسب سنة الله تعالى ، فكأن الأعمال نفسها تثوب وتعود ، وليس أن الجزاء أمر وضعي كجزاء الحكام بحسب قوانينهم وشرائعهم . وإذا فقه الناس هذا المعنى زال غرورهم ولم يعتمدوا في أمر ما يرجون من نعيم الآخرة ويخشون من عذابها إلا على ما أرشدهم اليه كتاب الله من العمل الصالح دون أشخاص الصالحين وتسمية أنفسهم ، محاسيب عليهم ، ودعائهم والاستغاثة بهم ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ وان هذا تأكيد لما قبله من كون الثواب من عند الله يبين أن هذا الجزاء بمحض الفضل والكرم الإلهي ، وأنه يقع بإرادته واختياره تعالى ، وأنه كان جزاء على عمل .

* * *

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

كان الكلام في أولي الألباب المؤمنين . وقد علمنا أن الله تعالى يستجيب لهم بالأعمال . فالعبرة بالعمل ، ومنه المهاجرة ، وتحمل الإيذاء في سبيل الله ، وبذل النفس في القتال حتى يقتلوا ، وبذلك يستحقون ثواب الله تعالى . ثم ذكر حال الكافرين للمقابلة وربط الكلام بما قبله بالنهي عن الاغترار بما هم فيه من نعيم وتمتع ، كأنه يقول : على المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب الذي وعد به ،

فهو النعيم الحقيق الباقى . وهذا الذى فيه الكافرون متاع قليل فلا تطلبوه ولا تحفلوا به ، يسهل بهذا على المسلمين ما كلفوه من تحمل الإيذاء والعناء فى إقامة الحق

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾ تقول : غرنى ظاهره أى قبلته على غفلة عن امتحانه . تقلب الذين كفروا : تصرفهم فى التجارات والمكاسب

وحاصل معنى النهى أن تقلب الذين كفروا فى البلاد آمنين مغترين لا ينبغى أن يكون سبباً لغرور المؤمن بحالهم وتوهمه أن هذا شىء يدوم لهم ، فإن هذا من إبقاء الأشياء على ظاهرها من غير بحث عن أسبابها وعللها والغوص على بواطنها ودخائلها كما يطوى الثوب على غره وكما ينظر الغر إلى ظواهر الأشياء دون بواطنها

﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ أى ذلك التقلب الذى يتمتعون به متاع قليل عاقبته هذا المأوى الذى ينتهون اليه فى الآخرة وهو جهنم فيكونون خالدين فيها سواء منهم من مات متمتعاً بدنياه ومن أنسىء له فى عمره حتى أدركه الخذلان بنصر الله المؤمنين فسلب منه متاعه . وجهنم اسم للدار التى يجازى فيها الكافرون فى الآخرة ، والمهاد المكان الممهد الموطأ كالفراش . قيل سميت النار مهداً تهكما لهم ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ﴾ قالوا إن النزل ما يهيأ للضيف النازل . وقيل أول ما يهيأ له ، وخصه الراغب بالزاد . وإذا كانت الجنات نزلا وهى النعيم الجسمانى فلا جرم يكون النعيم الروحانى برضوان الله الأكبر أعظم من الجنة ونعيمها أضعافاً مضاعفة . وقد وعدهم هذا الجزاء على التقوى التى يتضمن معناها ترك المعاصى وفعل الطاعات ، ثم أشار إلى أن النعيم الروحانى يكون بمعنى الفضل والاحسان للأبرار ، فقال ﴿ وما عند الله ﴾ من الكرامة الزائدة على هذا النزل الذى هو بعض ما عنده وأول ما يكله لعباده المتقين ﴿ خير للأبرار ﴾ وأفضل مما يتقلب فيه الذين كفروا من متاع فان ، بل ومما يحظى به المتقون من نزل الجنان . ولفظ الأبرار مشتق من البر ، وانه يفيد التوسع بفعل الخير ، فهو إذن أدل على الكمال

من التقوى التي هي عبـــارة عن ترك أسباب السخط والعقوبة . وتحصل بترك المحرمات وفعل الفرائض من غير توسع فى نوافل الخيرات

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ﴾ بعد أن بين الله تعالى حال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب ، وذكر حال الكافرين وما أعد لهم من العقاب ذكر فريقاً من أهل الكتاب يهتدون بهذا القرآن ، وكانوا مهتدين من قبل بما عندهم من هدى الأنبياء ، وذكر وصفهم الخشوع لله ، وما كل من يدعى الإيمان بالله خاشع لله ، وهذا الخشوع هو روح الدين ، وهو السائق للإيمان بالنبى الجديد ، وهو الذى حال بينهم وبين أن يشتروا بآياته ثمناً قليلا ، وهذا الثمن يعم المال والجاه ، فان منه التمتع بما كانوا فيه من ذلك ، وان كان صعباً على الإنسان أن يترك ما ألفه . وخص هؤلاء بالذكر على كونهم بالمؤمنين الذين وعدوا بما تقدم ذكره فى مقابلة الكافرين لأجل القدوة بهم فى صبرهم على الحق فى الدين السابق والدين اللاحق ،

﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى أولئك المتصفون بما ذكر من الصفات لهم أجرهم اللائق بهم عند ربهم الذى رباهم بنعمه ، وهداهم إلى الحق ، أى فى دار الرضوان التى نسبها الرب عز وجل اليه تشريفاً لها ولأهلها ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يحاسب الخلق كلهم فى وقت واحد قصير بما يكشف لهم من تأثير أعمالهم فى نفوسهم بحيث يتمثل لهم فيها كل عمل سبق منهم كالصور المتحركة التى تمثل الوقائع فى هذا العصر .

ثم ختم سبحانه السورة بهذه الوصية للمؤمنين ، لأنها هى التى تتحقق بها استجابة ذلك الدعاء ، وإيفاء الوعد بالنصر فى الدنيا وحسن الجزاء فى الآخرة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى اصبروا على ما يلحقكم من الأذى ، وصابروا الأعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم ويخذلوا الحق الذى فى أيديكم ، واربطوا الخيل كما يربطونها استعداداً للجهاد .

فالمصابرة والمرابطة بمعنى مباراة الأعداء ومغالبتهم فى الصبر وربط الخيل ، كما قال تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ على الأصل الذى قرره الإسلام من مقابلتهم بمثل ما يقاتلوننا به ، فيدخل فى ذلك مباراتهم فى هذا العصر بعمل البنادق والمدافع والسفن البحرية والبرية والهوائية والقنبلة الذرية والايدروجينية وغير ذلك من المخترعات الجديدة وما يستجد من الفنون العسكرية وغيرها ، ويتوقف ذلك كله على البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها ، فهى واجبة على المسلمين فى هذا العصر لأن الواجب من الاستعداد العسكرى لا يتم إلا بها .

والتقوى أن تقى نفسك من الله أى من غضبه وسخطه وعقوبته ، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه ، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى وعرف سنة نبيه ﷺ وسيرة سلف الأمة الصالح ، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله .

فمن صبر وصابر ورابط من أجل حماية الحق وأهله ونشر دعوته ، واتقى ربه فى سائر شؤونه ، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح ، والفوز بالسعادة عند الله تعالى . وهذه الأعمال كلها اختيارية داخلة فى مقدور الإنسان ، ولذلك أمر بها ، فعمله إذن هو سبب فلاحه فى الدنيا والآخرة . نسأل الله أن ينيلنا ما أرشدنا اليه وأقدرنا على أسبابه من سعادة الدارين .

سورة النســـاء

وآياتها مائة وسبعون وست ، نزلت بعد الممتحنة

قال القرطبي كلها مدنية ، إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح فى عثمان بن طلحة وهى قوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وسيأتى ذلك فى محله .

افتتحت بعد الأمر بالتقوى باحكام اليتامى والبيوت والأموال ، ومنها الميراث ، ومحرمات النكاح ، وحقوق الرجال على النساء والنساء على الرجال ، ثم ذكر فيها كثير من أحكام القتال ، وجاء فيها بين أحكام البيوت وأحكام القتال حجاج لأهل الكتاب . وفى أثناء أحكام القتال وآدابه شىء عن المنافقين . ثم كانت أواخرها فى محاجة أهل الكتاب إلا ثلاث آيات هن خاتمتها - وكل ذلك من شئون الإسلام بعد الهجرة .

ومن وجوه الاتصال بينها وبين ما قبلها أن هذه قد افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك من الأمر بالتقوى وهو ما يسمى فى البديع « تشابه الأطراف » وفى (روح المعانى) أن هذا آكد وجوه المناسبات فى ترتيب السور (ومنها) محاجة أهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً فى كل منهما . (ومنها) ذكر شىء عن المنافقين فى كل منهما . وكونه فى سياق الكلام عن القتال . (ومنها) ذكر أحكام القتال فى كل منهما . (ومنها) أن فى هذه شيئاً يتعلق بغزوة أحد التى فصلت وقائعها وحكمها وأحكامها فى آل عمران وهو قوله تعالى فى هذه السورة ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين ﴾ الخ كما سيأتى فى موضوعه وكذا ذكر شىء يتعلق بغزوة « حمراء الأسد » التى كانت بعد « أحد » وسبق ذكرها فى آل عمران كما تقدم وذلك قوله تعالى فى هذه السورة ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ﴾ وسيأتى .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

يٰأَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الّذى خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وٰحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنهما رِجالاً كَثيراً ونِساءً، واتَّقُوا اللهَ الّذى تَساءَلُونَ بهِ والأَرْحامَ، إنَّ اللهَ كانَ عَليكُمْ رَقيبا (١) وءاتُوا الْيَتٰمىٰ أَمْوٰلَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الخَبيثَ بالطَّيِّبِ، ولا تَأْكُلُوا أَمْوٰلَهُمْ إلىٰ أَمْوٰلِكُمْ إنَّهُ كانَ حُوباً كَبيرا (٢) وإنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فى اليَتٰمىٰ فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنىٰ وثُلٰثَ ورُبٰعَ، فإنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلوا فَوٰحِدَةً أوْ ما مَلَكَتْ أَيْمٰنُكُمْ، ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣) وءاتُوا النِّساءَ صَدُقٰتِهِنَّ نِحْلَةً، فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَىْءٍ منهُ نَفْساً فَكُلوهُ هَنِيئاً مَرِيئا (٤)

افتتح سبحانه السورة بتذكير الناس المخاطبين بأنهم من نفس واحدة . فكان هذا تمهيداً وبراعة مطلع لما فى السورة من أحكام القرابة بالنسب والمصاهرة وما يتعلق بذلك من أحكام الأنكحة والمواريث ، فبين القرابة العامة بالاجمال ، ثم ذكر الأرحام ، وشرع بعد ذلك فى تفصيل الأحكام المتعلقة بها

وسميت سورة النساء لأنها افتتحت بذكر النساء وبعض الأحكام المتعلقة بهن

الخطاب « يا أيها الناس » وهو خطاب عام ليس خاصاً بقوم دون قوم . ولفظ الناس اسم لجنس البشر ، قيل أصله « أناس » فحذفت الهمزة عند إدخال الألف واللام عليه ، وعلى كل حال وكل قول يصح أن جميع الناس هم من نفس واحدة هى الإنسانية التى كانوا بها ناساً وهى التى يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم على كونها هى الحقيقة الجامعة لهم ، فتراهم على اختلافهم فى أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف إنهم إخوة فى الإنسانية ، فيعدون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر ، سواء اعتقدوا أن أباهم آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك . وهذا المعنى هو المراد

من تذكير الناس بأنهم من نفس واحدة ، لأنه مقدمة للكلام فى حقوق الأيتام والأرحام ، وليس كلاماً مستقلا لبيان مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل لأن هذا ليس من مقاصد الدين .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ومعنى الآية أن الله تعالى يقول : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى أنشأكم ورباكم بنعمه ، اتقوه فى أنفسكم ، ولا تعتدوا حدوده فيما شرعه من الحقوق والآداب لكم بإصلاح شأنكم ، فإنه خلقكم من نفس واحدة ، فكنتم جنساً واحداً تقوم مصلحته بتعاون أفراده واتحادهم وحفظ بعضهم حقوق بعض . فتقواه عز وجل فيها شكر لربوبيته ، وفيها ترقية لوحدتكم الانسانية وعروج للكمال فيها . واتقوا الله فى أمره ونهيه فى حقوق الرحم التى هى أخص من حقوق الانسانية ، بأن تصلوا الأرحام التى أمركم بوصلها ، وتحذروا ما نهاكم عنه من قطعها . اتقوه فى ذلك ، لما فى تقواه من الخير لكم ، الذى يذكركم به تساؤلكم فيما بينكم باسمه الكريم وحقه على عباده وسلطانه الأعلى على قلوبهم ، وبحقوق الرحم وما فى هذا التساؤل من الاستعطاف والإيلاف ، فلا تفرطوا فى هاتين الرابطتين بينكم ، رابطة الإيمان بالله وتعظيم اسمه ، ورابطة وشيجة الرحم ، فانكم إذا فرطتم فى ذلك أفسدتم فطرتكم ، فتفسد البيوت والعشائر والشعوب والقبائل ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ إن الله تعالى ذكرنا هنا بمراقبته لنا لتنبيهنا إلى الاخلاص يعنى أن من تذكر أن الله مشرف عليه مراقب لأعماله كان جديراً أن يتقيه ويحترم حدوده .

الرقيب وصف بمعنى الراقب من رقبه إذا أشرف عليه من مكان عال . ومنه المرقب للمكان الذى يشرف منه الإنسان على ما دونه ، وأطلق بمعنى الحفظ لأنه من لوازمه وبه فسره هنا مجاهد . وحاصل المعنى أن الله سبحانه وتعالى مشرف على أعمالكم ومناشئها من نفوسكم وتأثيرها فى أحوالكم لا يخفى عليه شىء من ذلك فهو يشرع لكم من الأحكام ما يصلح شأنكم ويعدكم به للسعادة فى الدنيا والآخرة .

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر ما يجب على العبد أن ينقاد له من التكاليف ليبتعد عن سخطه وغضبه فى الدنيا والآخرة — شرع فى ذكر أنواعها، وأولها إيتاء اليتامى أموالهم. وثانيها حكم ما يحل عدده من الزوجات ومتى يجب الاقتصار على واحدة، ثم وجوب إيتاء الصداق لهن.

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ : (آتوا) أعطوا (اليتامى) جمع يتيم، واليتيم لغة من مات أبوه مطلقاً. وفى عرف الفقهاء من مات أبوه وهو صغير، فمتى بلغ زال يتمه، إلا إذا بلغ سفيهاً فانه يبقى فى حكم اليتيم ولا يزول عنه الحجر. ومعنى إيتاء اليتامى أموالهم هو جعلها لهم خاصة وعدم أكل شىء منها بالباطل، أى أنفقوا عليهم من أموالهم حتى يزول يتمهم بالرشد، فعند ذلك يدفع اليهم ما بقى لهم بعد النفقة عليهم فى زمن اليتم والقصور. والمقصود من هذه الآية ظاهر، وهو المحافظة على مال اليتيم وجعله له خاصة وعدم هضم شىء منه، لأن اليتيم ضعيف

لا يقدر على حفظه والدفاع عنه، ولذلك قال ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ المراد بالخبيث الحرام، وبالطيب الحلال، أى لا تمتعوا بمال اليتيم فى المواضع والأحوال التى من شأنكم أن تتمتعوا فيها بأموالكم. يعنى أن الإنسان إنما يباح له التمتع بمال نفسه فى الطرق المشروعة فاذا عرض له استمتاع فعليه أن يجعله من مال نفسه لا من مال اليتيم الذى هو قيم ووصى عليه، فاذا استمتع بمال اليتيم فقد جعل مال اليتيم فى هذا الموضع بدلا من ماله، وبهذا يظهر معنى التبدل والاستبدال.

﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ أى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، وهذا صريح فيما إذا كان للولى مال يضم مال اليتيم إليه. ويمكن أن يقال إن أكله مفرداً غير مضموم إلى مال الولى أولى بالتحريم. وهو داخل فى عموم قوله ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾. وقيل يفهم من هذا القيد جواز أكل الوصى الفقير الذى لا مال له شيئاً من مال اليتيم، وسيأتى التصريح بذلك فى الآية السادسة. وعبر عن أخذ المال والانتفاع به بالأكل لأنه معظم ما يقع به التصرف، وهذا

الاستعمال شائع معروف ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾ أى إن أكل مال اليتيم أو

تبدل الخبيث بالطيب منه أو ما ذكر من مجموع الأمرين - وكانت تفعله الجاهلية - كان فى حكم الله حوباً كبيراً أى إثما عظيما ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ الآية مسوقة فى الأصل للوصية بحفظ حق يتامى النساء فى أموالهن وأنفسهم . والمراد باليتامى فيها النساء والنساء غير اليتامى . أى إن خفتم ألا تقسطوا أى ألا تعدلوا فى يتامى النساء فتعاملوهن كما تعاملون غيرهن فى المهر وغيره أو أحسن فاتركوا التزوج بهن وتزوجوا ما حل لكم أو ما راق لكم وحسن فى أعينكم من غيرهن ، قال ربيعة : اتركوهن فقد أحللت لكم أربعاً . وإن خفتم أيضاً من الأربع ألا تعدلوا بينهن فاقتصروا على الواحدة أو ما ملكت أيمانكم .

جاء ذكر تعدد الزوجات فى سياق الكلام على اليتامى والنهى عن أكل أموالهم ، ولو بواسطة الزوجية ، فقال إن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها فان الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ، ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط . والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه بل يصدق بتوهمه أيضاً ، ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذى يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفاً . قال : ولما قال ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ علله بقوله ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ أى أقرب من عدم الجور والظلم ، فجعل البعد من الجور سبباً فى التشريع . وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ، ومنبه إلى أن العدل عزيز

ومن تأمل الآيات التى وردت فى القرآن الكريم بهذا الخصوص علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور . وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن

لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات ، فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يجىء الأولاد بعضهم لبعض عدو . فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة

وأما قوله تعالى ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ فهو معطوف على قوله ﴿ فواحدة ﴾ أى فالزموا زوجة واحدة أو أمسكوا زوجاً واحدة مع العدل ، وهذا فيمن كان متزوجاً كثيرات ، أو الزموا ما ملكت أيمانكم واكتفوا بالتسرى بهن بغير شرط ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ أى أقرب إلى عدم العول وهو الجور ، فان العدل بين الاماء فى الفراش غير واجب إذ لا حق لهن فيه ، وإنما لهن الحق فى الكفاية بالمعروف .

وهذا لا يفيد حل ما جرى عليه المسلمون من قرون كثيرة من الاسراف فى التمتع بالجوارى المملوكات بحق أو بغير حق ، مهما ترتب على ذلك من المفاسد ، كما شوهد ولا يزال يشاهد فى بعض البلاد

إن تعدد الزوجات خلاف الأصل الطبيعى فى الزوجية ، فان الأصل أن يكون للرجل امرأة واحدة يكون لها كما تكون له زوجاً ، ولكنه ضرورة تعرض للاجتماع لا سيما فى الأمم الحربية كالأمة الإسلامية فهى إنما أبيحت للضرورة واشترط فيها عدم الظلم والجور

﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ أى وأعطوا النساء اللواتى تعقدون عليهن مهورهن نحلة أى عطاء نحلة أى فريضة لازمة عليكم . وروى عن ابن عباس أن النحلة المهر . والنحلة تطلق على ما ينحله الإنسان ويعطيه هبة عن طيب نفس بدون مقابل عوض . والصدقات جمع صدقة ، وفيه لغات : منها الصداق وهو ما يعطى للمرأة قبل الدخول عن طيب نفس ، والذى ينبغى أن يلاحظ أن هذا الصداق أو العطاء آية من آيات المحبة وصلة القربى وتوثيق عرى المودة والراحة ، وانه واجب حتم لا تخيير فيه كما يتخير المشترى والمستأجر . والخطاب للسلمين جملة فالزوج

يؤخذ منه أنه مأمور بأداء المهر وأنه لا هوادة فيه ، والولى يؤخذ منه أنه ليس له أن يزوج موليته بغير مهر لمنفعة له ، ولا أن يأكل من المهر شيئاً إذا هو قبضه من الزوج باسمها إلا أن تسمح هى لأحد بشىء برضاها واختيارها كما قال عز وجل

﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته إلا إذا علم أن نفسها طيبة به ، فاذا طلب منها شيئاً فحملها الخجل أو الخوف على إعطائه ما طلب فلا يحل له . وعلامات الرضا وطيب النفس لا تخفى على أحد . والمراد بالأكل التصرف ويكون هنيئاً مريئاً لا تبعة فيه ولا عقاب عليه

٭ ٭ ٭

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاء أَمْوالَكُمُ الَّتى جَعلَ اللهُ لَكُمْ قِيماً وارْزُقُوهمْ فِيها واكْسُوهُمْ وقُولُوا لهمْ قولا مَعْرُوفاً (٥) وابْتَلُوا الْيَتمى حَتَّى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ فإنْ ءانَسْتُمْ منهمْ رُشْداً فادْفَعُوا إلَيْهِمْ أَمْوٰلَهُمْ ولا تَأْكُلوها إسْرافاً و بِداراً أنْ يَكْبَرُوا ، ومَنْ كانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ، ومَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالْمَعْرُوفِ فاذا دَفَعْتُمْ إليهمْ أمْوٰلَهمْ فَأَشْهِدُوا عَليهمْ ، وكَفَىٰ باللهِ حَسِيباً (٦) لِلرِّجال نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوٰلِدانِ والْأَقْرَبُونَ ولِلنِّساء نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوٰلِدانِ والْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ منهُ أوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضا (٧)

« السفهاء » جمع سفيه من السفه . والسفاهة هى الاضطراب فى الرأى والفكر والأخلاق . وأصله الاضطراب فى المحسوسات . فالسفهاء هنا هم المبذرون أموالهم ، الذين ينفقونها فيما لا ينبغى ، ويسيئون التصرف بإنمائها وتثميرها « قياماً » تقوم بها أمور معايشكم فتحول دون وقوعكم فى الفقر

اختلف مفسرو السلف فى المراد بالسفهاء هنا ، فقيل هم اليتامى والنساء ، وقيل النساء خاصة . وقيل الأولاد الصغار للخاطبين . وقيل هى عامة فى كل سفيه من

صغير وكبير وذكر وأنثى واختاره ابن جرير . وجعل الخطاب لمجموع الأمة ليشمل النهى كل مال يعطى لأى سفيه ، وهو أحسن الأقوال

أمرنا الله تعالى فى الآيات السابقة بإيتاء اليتامى أموالهم وبإيتاء النساء صدقاتهن

أى مهورهن . وأتى فى قوله ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ﴾ بشرط للإيتاء يعم الأمرين السابقين ، أى اعطوا كل يتيم ماله إذا بلغ ، وكل امرأة صداقها ، إلا إذا كان أحدهما سفيهاً لا يحسن التصرف فى ماله فحينئذ يمتنع أن تعطوه إياه لئلا يضيعه ويجب أن تحفظوه له أو يرشد . وإنما قال « أموالكم » ولم يقل أموالهم مع أن الخطاب للأولياء والمال للسفهاء الذين فى ولايتهم للتنبيه على أمور :

(أحدها) أنه إذا ضاع هذا المال ولم يبق للسفيه من ماله ما ينفق منه عليه وجب على وليه أن ينفق عليه من مال نفسه ، فبذلك تكون إضاعة مال السفيه مفضية إلى إضاعة شىء من مال الولى فكأن ماله عين ماله

(ثانيها) ان هؤلاء السفهاء إذا رشدوا وأموالهم محفوظة لهم وتصرفوا فيها تصرف الراشدين وأنفقوا منها فى الوجوه الشرعية من المصالح العامة والخاصة فإنه يصيب هؤلاء الأولياء حظ منها

(ثالثها) التكافل فى الأمة واعتبار مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين كما قلناه فى آيات أخرى

ومعنى جعل الأموال قياماً للناس أى تقوم وتثبت بها منافعهم ومرافقهم . ولا يمكن أن يوجد فى الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة ويبلغ ما تصل اليه من البلاغة فى الحث على الاقتصاد وبيان فائدته ومنفعته والتنفير عن الاسراف والتبذير الذى هو شأن السفهاء وبيان غائلته وسوء مغبته ، فكأنه قال : إن منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة لا تزال قائمة ثابتة ما دامت أموالكم فى أيدى الراشدين المقتصدين منكم الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها ، ولا يتجاوزون حدود المصلحة فى إنفاق ما ينفقونه منها . فاذا وقعت فى أيدى السفهاء المسرفين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع

سالماً ، ويسقط ما كان من تلك المصالح قائماً . فهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال فى الأموال كالأمور كلها . ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ فهذه الآية شارحة للفظ « قياماً » فى الآية التى نفسرها ، وقد نهانا القرآن عن التبذير حتى فى مقام الانفاق والتصدق المؤكد ، وجعل المبذر كالشيطان مبالغاً فى الكفر ، وبين سوء عاقبة المتوسع فى النفقة إلى حد الاسراف كما فى آيات سورة الإسراء ﴿ وآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ . ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا ﴾

وفى الأحاديث النبوية مثل ذلك فمنها : « ما عال من اقتصد » . رواه أحمد عن ابن مسعود وهو حديث حسن . « الاقتصاد نصف المعيشة وحسن الخلق نصف الدين » . رواه الخطيب عن أنس « من اقتصد أغناه الله ، ومن بذّر أفقره الله » الخ رواه البزار عن أبى طلحة وسنده ضعيف

ومن الأحاديث فى فضل الغنى حديث سعد المتفق عليه « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وحديثه عند مسلم « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » وحديث حكيم بن حزام فى الصحيحين « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى » الخ وحديث عمرو بن العاص عند أحمد بسند صحيح « نعم المال الصالح للمرء الصالح » وحديث أنس عند مسلم والبيهقى « كاد الفقر أن يكون كفراً »

فماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم حتى صرنا أشد الأمم إسرافا وتبذيراً وإضاعة للأموال وجهلا لطرق الاقتصاد فيها وتثميرها وإقامة مصالح الأمة بها فى هذا الزمن الذى لم يسبق له نظير فى أزمنة التاريخ من حيث توقف قيام مصالح الأمم ومرافقها وعظمة شأنها على المال حتى إن الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد التى ليس فى أيديها مال كثير قد صارت مستذلة ومستعبدة للأمم الغنيه بالبراعة فى الكسب والإحسان فى الاقتصاد

فى هذه الجملة من الآية تحريض على حفظ المال وتعريف بقيمته ، فلا يجوز للمسلم أن يبذر أمواله .وكان السلف من أشد الناس محافظة على ما فى أيديهم ، وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال ، فأين من هذا ما نسمعه من خطباء مساجدنا من تزهيد الناس وغلّ أيديهم وإغرائهم بالكسل والخمول ، حتى صار كل مسلم يعدل عن الكسب الشريف إلى الكسب المرذول من الغش والحيلة والخداع،وذلك أن الإنسان ميال بطبعه إلى الراحة فعند مايسمع من الخطباء والعلماء والمعروفين بالصلحاء عبارات التزهيد فى الدنيا فانه يرضى بها ميله إلى الراحة ، ثم إنه لا بد له من الكسب فيختار أقله سعياً وأخفه مؤنة وهو أخسه وأبعده عن الشرف . على أن هذا التزهيد فى الدنيا من هؤلاء لم يأت بما يساق لأجله من الترغيب فى الآخرة والاستعداد لها ، بل ان خطباءنا ووعاظنا قد زهدوا الناس فى الدنيا وقطعوهم عن الآخرة ، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وما ذلك إلا لجهلهم وعدم عملهم بما يعظون به غيرهم ، والواجب على المسلم العارف بالإسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة

﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ وإنما قال وارزقوهم فيها ولم يقل وارزقوهم منها كما قال فى الكشاف واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من طلب رأس المال فلا يأكلها الانفاق . والرزق يعم وجوه الانفاق كلها كالأكل والمبيت والزواج والتعليم والتربية والكسوة . وإنما قال واكسوهم فخص الكسوة بالذكر لأن الناس يتساهلون فيها أحياناً ﴿ وقولوا لهم

قولا معروفاً ﴾ المعروف هو ما تعرفه النفوس الكريمة وتألفه ، ويقابله المنكر وهو ما تنكره وتمجه . فالمعروف هنا يشمل تطييب القلوب بإفهام السفيه أن المال ماله لا فضل لأحد فى الانفاق منه عليه ليسهل عليه الحجر ، ويشمل النصح والارشاد وتعليم ما ينبغى أن يعلمه السفيه وما يعده المرشد ، فان السفه كثيراً ما يكون عارضاً للشخص لا فطرياً ، فاذا عولج بالنصح والتأديب حسنت حاله . فهذا هو القول المعروف الذى أمر الله أولياء السفهاء به زيادة على حفظ أموالهم وتثميرها والانفاق عليهم بها .

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ اختلف العلماء فى ابتلاء اليتيم أى فى كيفية اختباره ، فقال بعضهم يعطى شيئاً من المال ليتصرف فيه فيرى تصرفه كيف يكون ، فان أحسن فيه كان راشداً وإلا كان على سفه . وقال بعضهم ان الاعطاء لا يجوز إلا بعد الابتلاء وإيناس الرشد ، فمن أعطاه قبل ذلك يكون مخالفاً للأمر ومجازفاً بالمال ، والصواب أن يحضره الولى المعاملات المالية ويطلعه على كيفية التصرف ويسأله عند كل عمل عن رأيه فيه ، فاذا رأى أجوبته سديدة ورأيه صالحاً يعلم أنه قد رشد . و « حتى » ابتدائية ، أى ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ . وان بلوغ النكاح هو الوصول إلى السن التى يكون بها المرء مستعداً للزواج وهو بلوغ الحلم ، فى هذه السن تطالبه الفطرة بأهم سننها وهى سنة الانتاج والنسل ، فتتوجه نفسه إلى أن يكون زوجاً وأباً ورب بيت ورئيس عشيرة ، وذلك لا يتم له إلا بالمال ، فوجب حينئذ إيتاؤه ماله إلا إذا بلغ سفيها وخيف أن يضيع ماله فيعجز عما تطالبه به الفطرة ولو بعد حين . فالرشد حسن التصرف وإصابة الخير فيه الذى هو أثر صحة العقل وجودة الرأى ، وهو يطلق لكل مقام بحسبه . ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ . إن النهى عن أكل أموال اليتامى إسرافاً وبداراً هو كالأمر قبله تفسير للآية الناهية عن أكل أموال اليتامى إلى أموال الأولياء . وقد قيد النهى هنا بالاسراف وهو صرف مال اليتيم فى غير محله ولو على اليتيم نفسه ، وسمى هذا أكلا لأنه إضاعة ، والأكل يطلق على إضاعة الشىء . لكن ضم مال اليتيم إلى مال الولى لا يسمى إسرافاً وقيده بالبدار والمسابقة لكبر اليتيم لأن الولى الضعيف الذمة يستعجل ببعض التصرفات فى مال اليتيم التى منها منفعة لئلا تفوته إذا كبر اليتيم وأخذ ماله . فهاتان الحالتان : الاسراف ، وبدار ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرفات ، هما مواضع الضعف التى تعرض للإنسان ، فنبه الله تعالى عليهما ونهى عنهما ليراقب الولى ربه فيهما إذا عرضتا له .

أما الأكل منها بغير إسراف ولا مبادرة خوف أخذها عند البلوغ والرشد

ـ كما هو شأن الخائن ـ فقد ذكر حكمه فى قوله تعالى ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ أى فمن كان منكم غنياً غير محتاج إلى مال اليتيم الذى فى حجره وتحت ولايته فليعف عن الأكل من ماله أو ليطالب نفسه ويحملها على العف عنه نزاهة وشرف نفس . ومن كان فقيراً لايستغنى عن الانتفاع بشىء من مال اليتيم الذى يصرف بعض وقته أو كله فى تثميره وحفظه فليأكل منه بالمعروف الذى يبيحه الشرع ولا يستنكره أهل المروءة والفضل ولا يعدونه طمعاً ولا خيانة ، والأكل بالمعروف ، قال بعض الفقهاء ان له أجر مثله من مال اليتيم الذى يتولى تدبير أمواله وهذا هو الذى اختاره ابن جرير وقال ، ان الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالا للولى فليس له أن يأكل منه شيئاً ، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له ، وله أن يؤاجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة إذاكان اليتيم محتاجاً إلى ذلك كما يستأجر له غيره من الأجراء غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر ، فعين أن الأكل بالمعروف هو القرض والأجرة ولا يباح أكل شىء منه بلا عوض كسائر أموال الناس . قال وكذلك الحكم فى أموال المجانين والمعاتيه ، ولكن ما ذكر فى كيفية الأكل لا يظهر فى الاستقراض ، وقد يظهر فى الأجرة

﴿ فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ﴾ أى ليعرف أمر رشدهم وتصرفهم ولتظهر براءة ذمتهم ولتحسم مادة النزاع بينهم . قال ابن عباس : إذا دفع إلى اليتيم ماله (أى عند بلوغه رشده) فليدفعه اليه بالشهود كما أمره تعالى . ولا شك أن الاشهاد حتم وأن تركه يؤدى إلى النزاع والتخاصم والتقاضى كما هو مشاهد

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ الحسيب هو المراقب المطلع على ما يعمل العامل . وإنما جاء بهذا بعد الأمر بالاشهاد القاطع لعرق النزاع ليدلنا على أن الاشهاد وإن حصل وكان يسقط الدعوى عند القاضى بالمال لا يسقط الحق عند الله إذا كان الولى خائناً ، إذ لا يخفى عليه تعالى ما يخفى على الشهود والحكام

* * *

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو أكثر﴾ ذكر تعالى أن المال الموروث الذى يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء ، خلافاً لما كان فى الجاهلية من عدم توريث النساء . ومال اليتامى إنما يكون فى الغالب من الوالدين والأقربين . فمعنى الآية : إذا كان لليتامى مال مما تركه الوالدان والأقربون فهم فيه على الفريضة ، لا فرق فى شركة النساء والرجال فيه بين القليل والكثير ، ولهذا كرر ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ وعين بقوله ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أنه حق معين مقطوع فيه وليس لأحد أن ينقصهم منه شيئاً

ذكر هنا أن المال الموروث الذى يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء ، وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء والأولاد الصغار ويقولون : لا يرث إلا من طاعن بالرماح وحاز الغنيمة . ثم أمر بإحسان القول إلى اليتامى لأن اليتيم مرهف الحس يألم للكلمة تهينه ولا سيما ذكر أبيه وأمه بسوء . ثم طلب الاشفاق عليهم ومعاملتهم بالحسنى ، فربما يترك المرء ذرية ضعافاً يود أن غيره يعاملهم بمثل هذه المعاملة . وبعدئذ شدد فى الوعيد ونفر من أكل أموال اليتامى ظلماً وجعل أكله كأكل النار . وقد روى فى سبب نزول الآية ، أن أوس بن الصامت الأنصارى توفى وترك امرأته أم كحلة وثلاث بنات له منها فزوى أبنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فى مسجد الفضيح (مسجد بالمدينة كان يسكنه أهل الصفة) فشكت اليه أن زوجها أوساً قد مات وخلف ثلاث بنات وليس عندها ما تنفق عليهن منه . وقد ترك أبوهن مالا حسناً عند ابنى عمه لم يعطياها منه شيئاً وهن فى حجرى لا يطعمنى ولا يسقينى . فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلا ولا ينكى عدواً نكسب عليها ولا تكسب فنزلت الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله ﷺ : لا تفرقا من مال أوس شيئاً فان الله جعل لبناته نصيباً مما تركه ولم يبين فنزلت ﴿يوصيكم الله الخ﴾ فأعطى زوجه الثمن والبنات الثلثين والباقى لبنى العم

* * *

وإذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)

أعطى الإسلام المرأة منذ أربعة عشر قرناً حق الإرث كالرجل من ناحية المبدأ ، كما حفظ به حقوق الصغار الذين كانت الجاهلية لا تعرفها لهم . لأن الجاهلية كانت تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية فى الحرب والانتاج . أما الإسلام فجاء بمبدئه الانسانى الذى ينظر إلى الأفراد حسب قيمتهم الانسانية أولا ، ثم حسب تكاليفهم العائلية والاجتماعية أخيراً

ولما كان نظام التوريث — كما سيجيء — يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضا فيوجد ذوو قرابة ولكنهم لا يرثون لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم . فان السياق يقرر للمحجوبين حقاً غير محدود — إذا هم حضروا قسمة التركة — تطييباً لخاطرهم ، واحتفاظاً بالروابط العائلية والمودات القلبية . . كذلك يقرر لليتامى والمساكين مثل هذا الحق — تمشياً مع قاعدة التكافل العام خطوة أخرى فى محيط الجماعة

﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً ﴾ أى إذا حضر قسمة التركة التى يتركها المورث لورثته أو قسمة أموال اليتامى عند الرشد أو الوصية أحد من ذوى القربى للوارثين أو الموصى لهم ومن اليتامى والمساكين فانفحوهم بشىء من هذا الرزق الذى أصابكم من غير كد ولا كدح ، وقولوا لهم قولا حسناً تعرفه النفوس الأبية وتستحسنه ولا تنكره الأذواق السليمة ولا تمجه . والمراد بذوى القربى الذين يحضرون قسمة الورثة من لا يرث منهم ، وقريب الوارث لا يجب أن يكون وارثاً ، فالأخ من الأب من ذوى القربى لأخى الميت الشقيق وهو لا يرث ، وكذلك العم والخال والعمة

والخالة يعدون من ذوى القربى للوارث الذى لا يرثون معه . وقـد يسرى إلى نفوسهم الحسد فينبغى التودد اليهم واستمالتهم بإعطائهم شيئاً من ذلك الموروث بحسب ما يليق بهم ولو بصفة الهبة أو الهديه أو إعداد طعام لهم يوم القسمة . وذلك من صلة الرحم وشكر النعم ، ووجه إعطاء اليتامى والمساكين ظاهر

الخطاب فى قوله ﴿ فارزقوهم ﴾ لأرباب المال الذى يقسم عليهم . وإذا كانت القسمة بين اليتامى الذين رشدوا كان للولى أن يعطيهم ويرشدهم إلى ما ينبغى فى هذه الحال ، وليس له أن يعطى شيئاً من غير ماله إلا بإذن أرباب المال . والأدب الذى يرشد اليه الكتاب فى هذا المقام هو اعتبار أن هذا المال رزق ساقه الله للوارثين عفواً بغير كسب منهم ولا سعى ، فلا ينبغى أن يبخلوا به على المحتاجين من ذوى القربى واليتامى والمساكين من أمتهم ، ويتركوهم يذهبون منكسرى القلب مضطربى النفس ، ومنهم من يكون الحرمان مدعاة حسده للوارث . وأما قول المعروف فهو ما تطيب به نفوس هؤلاء المحتاجين عند ما يأخذون ما يفاض عليهم حتى لا يثقل على عزيز النفس منهم ما يأخذه ويرضى الطامع فى أكثر مما أعطى بما أعطى ، فان من الفقراء من يظهر استقلال ما ناله واستكثار ما نال سواه ، فينبغى أن يلاطف مثل هذا ولا يغلظ له فى القول

﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ﴾ روى عن قتادة وسعيد بن جبير ومجاهد كما روى عن غيرهم أن الآية فى ولاة اليتامى يأمرهم الله أن يحسنوا معاملتهم كما يحبون أن يحسن الناس معاملة ذريتهم الضعاف لو تركوهم وماتوا عنهم . وروى عن ابن عباس أنه قال فيها « يعنى بذلك الرجل يموت وله أولاد صغار ضعاف يخاف عليهم العيلة ـ أى الفقر ـ والضيعة ويخاف بعده أن لا يحسن اليهم من يليهم » يقول : فان ولى مثل ذريته ضعافاً يتامى فليحسن اليهم ولا يأكل أموالهم إسرافاً وبداراً خشية أن يكبروا ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً يكفهم أمر ذريتهم بعدهم . وحاصل معنى الآية : ليكن من أهل الخشية ـ أو يخشى العاقبة أو الله ـ الذين تركوا من بعدهم ذرية ضعافاً خافوا أن يسىء الناس معاملتهم ويهينوهم فلا يقولون ما يترتب

عليه ضر بذرية أحد ، بل ليقولوا قولا محكما يسد منافذ الضرر ، فكما يدين المرء يدان .

﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ أى الظالمين فى أكلها ، أو أكلا على سبيل الظلم وهضم الحق وتعدى أمر الله ﴿ انما يأكلون فى بطونهم ﴾ أى ملء بطونهم ﴿ ناراً ﴾ أى ما هو سبب لعذاب النار أو مايشبه النار فى ضررها ﴿ وسيصلون سعيراً ﴾ فالأكل عذاب باطن ، لأن معظم اغتيال المال يكون للأكل ، والصلى عذاب ظاهر ، فهو جزاء للناس وسائر التصرفات . والمعنى أنهم إنما يأكلون الآن ما لا خير لهم فى أكله لأنه فى قبحه وما يترتب عليه من العقاب كالنار ، أو لأنه سبب فى دخول النار . ثم بين ما يجزون به فى المستقبل الذى يشير اليه المجاز فى أكل النار فقال ﴿ وسيصلون سعيراً ﴾ .

° ° °

يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ ، وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَها النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ ، آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ ، فَإِنْ

كانوا أكثرَ مِنْ ذٰلكَ فهمْ شُرَكاء فى الثُّلُثِ مِنْ بعدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بها أوْ دَينٍ غيرَ مُضارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللهِ واللهُ عليمٌ حليمٌ (١٢)

أمر الله تعالى فيما قبل هاتين الآيتين من أوائل السورة بإعطاء اليتامى والنساء أموالهم إلا من كان سفيهاً لا يحسن تثمير المال ولا حفظه ؛ فيثمره له الولى ويحفظه له إلى أن يرشد . ونهى عن أكل أموالهم ، وأبطل ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريثهم، فناسب بعد هذا أن يبين أحكام الميراث وفرائضه، فكان بيانه فى هاتين الآيتين وآية فى آخر السورة ، فهذه هى الفرائض التى جرى عليها العمل بعد نزولها فبطل بها وبقوله ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ ما كان من نظام التوارث فى الجاهلية وأول الإسلام

أما الجاهلية فكانت أسباب الإرث عندها ثلاثة : (أحدها) النسب وهو خاص بالرجال الذين يركبون الخيل ، ويقاتلون الأعداء ، ويأخذون الغنائم ، ليس للضعيفين الطفل والمرأة منه شيء . (ثانيها) التبنى ، وقد كان الرجل يتبنى ولد غيره فيرثه ويكون له غير ذلك من أحكام الدين الصحيح . وقد أبطل الله التبنى بآيات من سورة الأحزاب ونفذ النبى صلى الله عليه وعلى آله ذلك بذلك العمل الشاق وهو التزوج بمطلقة زيد بن حارثة الذى كان تبناه قبل الاسلام . (ثالثها) الحلف والعهد . كان الرجل يقول للرجل : دمى دمك ، وهدمى هدمك ، وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك . فاذا تعاهدا على ذلك فمات أحدهما قبل الآخر كان للحى ما اشترط من مال الميت . وقيل إن هذا لم يبطل إلا بآيات الميراث

وأما الاسلام فقد جعل التوارث أولا بالهجرة والمؤاخاة ، فكان المهاجر يرث المهاجر البعيد ولا يرثه غير المهاجر وإن كان قريباً . وكان النبى ﷺ يؤاخى بين الرجلين فيرث أحدهما الآخر . وقد نسخ هذا وذاك واستقر الأمر عند جميع المسلمين بعد نزول أحكام الفرائض أن أسباب الإرث ثلاثة : النسب والصهر والولاء . وحكمة ما كان فى أول الإسلام ظاهرة ، فان ذوى القربى والرحم للمسلمين كان أكثرهم مشركين . وكان المسلمون لقلتهم وفقرهم محتاجين إلى التناصر والتكافل بينهم ولا سيما المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وترك ذو المال منهم ماله فيها

وذهب كثير من العلماء إلى أن الوصية للوالدين والأقربين قد نسخت أيضاً بآيات الميراث ، ولكنك ترى أن هاتين الآيتين المفصلتين لأحكام الإرث قد جعلتا الوصية مقدمة على الإرث وأكدت ذلك بتكراره عند كل نوع من أنواع الفرائض فيها . وترى أن الوصية للوالدين والأقربين فى سورة البقرة مؤكدة تأكيداً ينافى النسخ . وتقدم ذلك فى سورة البقرة

أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والبيهق فى سننه وغيرهم من حديث جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أُحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال . فقال : « يقضى الله فى ذلك » . فنزلت آية الميراث ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ الآية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال « أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن . وما بقى فهو لك »

الخطاب فى الآية عام موجه إلى جميع المكلفين فى الأمة لأنهم هم الذين يقسمون التركة وينفذون الوصية ولتكافل الأمة فى الأمور العامة

﴿ يوصيكم الله ﴾ والوصية ما تعهد به إلى غيرك من العمل فى المستقبل القريب أو البعيد ﴿ فى أولادكم ﴾ فى شأن أولادكم من بعدكم أو ميراثهم وما يستحقونه مما تتركونه من أموالكم سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً كباراً أم صغاراً . ولا خلاف بين المسلمين فى قيام أولاد البنين مقام والديهم عند فقدهم وعدم إرثهم مع وجودهم لأن النسب للذكور ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فالله تعالى جعل إرث الأنثى مقرراً معروفاً لإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء ، وأخبر بأن للذكر مثله مرتين أى جعل إرث الذكر مثل الأنثى مرتين إذا لم يكن للميت وارث غيرهم

والحكمة فى جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين أن الذكر يحتاج إلى الانفاق على نفسه وعلى زوجه فجعل له سهمان . وأما الأنثى فهى تنفق على نفسها فقط . فان تزوجت كانت نفقتها على زوجها

ويدخل فى عموم الأولاد :

(١) الكافر . لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانع من الإرث قال عليه الصلاة والسلام : « لا يتوارث أهل ملتين »

(٢) القاتل عمداً لأحد أبويه . ويخرج بالسنة والاجماع

(٣) الرقيق . وقد ثبت منعه بالاجماع لأن المملوك لا يملك بل كل ما يصل إلى يده من مال فهو ملك لسيده ومالكه . فلو أعطيناه من التركة شيئاً كنا معطين ذلك السيد فيكون هو الوارث بالفعل

(٤) الميراث من النبى ﷺ . فقد استثنى بحديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث »

﴿ فان كن نساء ﴾ اى إن كان الأولاد — وأنث الضمير باعتبار الخبر — وقيل المولودات أو الوارثات نساء ليس معهن ذكر ﴿ فوق اثنتين ﴾ أى زائدات عن اثنتين مهما بلغ عددهن ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ﴾ والدهن المتوفى أو والدتهن .

﴿ وان كانت ﴾ المولودة أو الوارثة امرأة ﴿ واحدة ﴾ ليس معها أخ ولا أخت ﴿ فلها النصف ﴾ مما ترك والباقى للورثة يعرف حق كل منهم من محله

ولم يذكر حكم الثنتين . ومن ثم اختلفوا فيهما . فروى عن ابن عباس أن لهما النصف كالواحدة والجمهور على أن لهما الثلثين كالعدد الكثير

وقد علم من ذلك أن البنات لا يستغرق فرضهن التركة ، والولد الذكر إذا انفرد يأخذ التركة وإذا كان معه أخ له فأكثر كانت قسمة التركة بينهما أو بينهم بالمساواة

ثم انتقل من حق الأولاد إلى حق الوالدين ، وهى المرتبة الثانية من مستحق الأقربين الذين يتصلون بالميت بغير واسطة فقال ﴿ ولأبويه ﴾ أى أبوى الميت وهو معلوم من السياق لا يتوقف الذهن فى ذلك ﴿ لكل واحد منهما السدس مما ترك ﴾ فهما سواء فى هذه الفريضة لا يتفاضلان كما يتفاضل الذكور والإناث

من الأولاد والأخوات والأزواج ، وذلك لعظم مقام الأم بحيث تساوى الأب بالنسبة إلى ولدهما ، وان كانا يتفاضلان فى الزوجية وغيرها ، وهذا ﴿ ان كان له ولد ﴾ أى إن كان للميت ولد واحد فأكثر ، وما زاد عن الثلث الذى يتقاسمه الوالدان يكون لأولاده على التفصيل المتقدم فيهم ﴿فان لم يكن له ولد﴾ ما ، لا ولد صلب ولا ولد ابن أو ابن ابن الخ ﴿ وورثه أبواه ﴾ فقط ﴿ فلأمه الثلث ﴾ مما ترك والباقى للأب كما هو معلوم من انحصار الإرث فيهما . وهاهنا يدخل الأبوان فى قاعدة « للذكر مثل حظ الأنثيين » كل فى طبقته ، وإنما تساويا مع وجود الأولاد ليكون احترامهم لهما على السواء . على أن الأب لا يفضل الأم هنا بالفرضية بل له الثلث فرضاً ويأخذ الباقى بالتعصيب ، إذ لا عصبة هنا سواه ، وإنما كان حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد لأنهما يكونان فى الغالب أقل حاجة من الأولاد إما لكبرهما وقلة مابقى من عمرهما ، وإما لاستقلالها وتمولها ، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء . وأما الأولاد إما أن يكونوا صغاراً لا يقدرون على الكسب ، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقة الزواج وتربية الأطفال ، فلهذا وذاك كان حظهم من الإرث أكثر من حظ الوالدين - ﴿ فان كان له إخوة ﴾ أى الميت مع إرث أبويه له ﴿ فلأمه السدس ﴾ مما ترك سواء كان الإخوة ذكوراً أو إناثاً من الأبوين أو من أحدهما كل جمع منهم يحجب الأم من الثلث إلى السدس ولا يحجبها الواحد . ﴿ من بعد وصية ﴾ أى يوصيكم الله ويعهد إليكم أيها المؤمنون بأن لأولاد من يموت منكم كذا ولأبويه كذا من بعد وصية ﴿ يوصى بها ﴾ أى يقع الإيصاء بها من الميت - ووصف الوصية بأنها يوصى بها لتأكيد أمرها والتحقق من نسبتها إلى الميت ، لأن الحقوق يجب التثبت فيها . وقيل إن فائدة الوصف الترغيب فى الوصية والندب إليها ، وقيل فائدته التعميم ﴿ أو دَين ﴾ أى ومن بعد دين يتركه عليه ، وقدمت الوصية على الدين فى الذكر لأنها شبيهة بالميراث شاقة على الورثة ،

وإن كان الدين مقدماً عليها فى الوفاء فهو أول ما يجب فى التركة ، ويليه الوصية فهى مما فضل عن الدين ، وما بقى بعد أدائهما هو الذى يقسم على الوارثين وهما متساويان فى الوجوب متقدمان على القسمة مجموعين أو مفردين

﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾ أى اتبعوا ما أمركم الله ، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعاً لكم مما تقوم به فى الدنيا مصالحكم وتعظم به فى الآخرة أجوركم ﴿ فريضة من الله ﴾ فرض ما ذكر من الأحكام فريضة من الله لا هوادة فى وجوب العمل بها ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ فهو لعلمه المحيط بشؤونكم ولحكمته البالغة التى يقدر بها الأشياء قدرها ويضعها فى مواضعها اللائقة بها لا يشرع لكم من الأحكام إلا ما فيه المصلحة والمنفعة لكم ، إذ لا يخفى عليه شىء من وجوه المنافع والمصالح ، وهو منزه عن الغرض والهوى اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشىء فى موضعه وإعطاء الحق لمستحقه

بعد أن بين سبحانه فرائض الأولاد والوالدين ، وقدم الأهم منهما من حيث حاجته إلى المال المتروك وهم الأولاد ـ ذكر هنا فرائض الزوجين فقال :

﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم ﴾ اللاتى تحققت بهن الزوجية بأكمل معناها بالدخول منهن ﴿ إن لم يكن لهن ولد ﴾ مما ، منكم أو من غيركم ، ذكراً كان أو أنثى ، واحداً كان أو أكثر ، من بطنها مباشرة أو من صلب بنيها أو بنى بنيها فنازلا ، والباقى لأولادها ووالديها على ما بينه الله فى الآية السابقة . هذا ما ذهب اليه الجمهور وجرى عليه العمل . وروى عن ابن عباس أن ولد الولد لا يحجب ﴿ فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ﴾ والباقى من التركة للأقرب اليها من أصحاب الفروض والعصبات وذوى الأرحام ، يعلم كل ذلك من موضعه فى الكتاب والسنة ﴿ من بعد وصية يوصين بها أو دين ﴾ أى إنما يكون لكم ذلك فى تركتهن فى كل من الحالتين بعد إنفاذ الوصية ووفاء الدين ، إذ ليس لوارث شىء إلا مما يفضل عنهما إن كانا كما تقدم ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ﴾ مما على

التفصيل السابق فى أولادهن ، فان كان للميت منكم زوج واحدة كان لها وحدها ، وإن كان له زوجان فأكثر اشتركتا أو اشتركن فيه بالمساواة ، والباقى يكون لمستحقه شرعاً من ذوى القربى وأولى الأرحام لكم ﴿ فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ﴾ والباقى لولدكم علا أو نزل ، ولمن عساه يوجد معه من والديه على التفصيل الذى بينه الله تعالى ، وذلك ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ وبهذا كان للذكر من الزوجين مثل حظ الأنثيين .

وبهذا تعلم أن فرض الرجل بحق الزواج ضعف فرض المرأة كما فى النسب . ولم يعط الله تعالى للزوجات فى الميراث إلا مثل ما أعطى للزوج الواحدة لإرشادنا إلى أن الأصل الذى ينبغى أن نسير عليه فى الزوجية أن تكون للرجل امرأة واحدة . وإنما يباح الأكثر بشروط مضيقة وان التعدد من الأمور النادرة التى تدعو اليها الضرورة فلم يراعها الشارع فى الاحكام . إذ الاحكام انما توضع للأصل الذى عليه العمل . والنادر لا حكم له .

وبعد أن بين سبحانه حكم ميراث الأولاد والوالدين والأزواج ممن يتصل بالميت مباشرة شرع فى بيان من يتصل به بالواسطة وهو الكلالة فقال :

﴿ وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة ﴾ والمعنى وإن كان رجل موروث كلالة أى ذا كلالة ، وهو من ليس له ولد ولا والد وعليه أكثر الصحابة . واللفظ مصدر كل يكل بمعنى الكلال وهو الإعياء ، ثم استعمل للقرابة البعيدة غير قرابة الولد والوالد لضعفها بالنسبة إلى قرابة الأصول والفروع ﴿ وله أخ أو أخت ﴾ يعنى به الأخ والأخت من الأم فقط لأن الأخوين من العصب قد بين حكمهما فى آخر السورة ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ الخ ، ولأن قوله ﴿ لكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ﴾ يدل على أنهم إنما يأخذون فرض الأم ، فانه إما السدس وإما الثلث . والحاصل أن الأخ من الام يأخذ فى الكلالة السدس ، وكذلك الأخت ، لا فرق بين الذكر والأنثى ، لأن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها . وإذا كانوا متعددين أخذوا

الثلث وكانوا فيه سواء لافرق بين ذكرهم وأنثاهم ، وذلك ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ كما تقدم نظيره . وأما الباقى بعد فرض هؤلاء كغيرهم فهو على القاعدة التى بينها ﷺ وعلى آله بقوله « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر » أى من عصبة الميت رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث ابن عباس . وإنما لم يذكر هذا فى القرآن لأن المخاطبين به فى عصر التنزيل كانوا يعطون جميع التركة للرجال من عصبتهم دون النساء والصغار ، ففرض سبحانه للنساء ما فرضه فكن شريكات للرجال ، وجعل الصغار والكبار فى الإرث سواء ، وما سكت عنه فلم يبينه بالنص ولا بالفحوى فهو مفوض اليهم يجرون فيه على عرفهم فى تقديم الأقرب من العصبات إذ لا ضرر فيه ، إلا أن يسن النبى ﷺ فيه سنة فيكون اتباعها مقدماً على عرفهم كما هو بديهى ﴿ غير مضار ﴾ أى ذلك الحق فى الورثة يكون من بعد وصية صحيحة يوصى بها الميت فى حياته غير مضار بها ورثتهم . وحدد النبى ﷺ الوصية الجائزة بثلث التركة وقال « والثلث كثير » كما فى حديث سعد المتفق عليه ، فما زاد عن الثلث فهو ضرار لا يصح ولا ينفذ . وعن ابن عباس رضى الله عنه أن الضرار فى الوصية من الكبائر إذا قصده الموصى . وأيضاً من بعد دين صحيح له يعقده الميت فى حياته أو يقر به فى حال صحته لأجل مضارة الورثة . والحال أنه لم يأخذ ممن أقر له به شيئاً فهذا معصية أيضاً ، وكثيراً ما يجترحها المبغضون للوارثين لهم ، لا سيما إذا كانوا كلالة . ولذلك جاء هذا القيد فى وصية إرث الكلالة دون ما قبله ، لأن القصد إلى حد مضارة الوالدين أو الأولاد وكذا الأزواج نادر جداً فكأنه غير موجود ﴿ وصية من الله ﴾ أى يوصيكم بذلك وصية منه عز وجل فهى جديرة بالإذعان لها والعمل بموجبها ، ﴿ والله عليم ﴾ بمصالحكم ومنافعكم وبنيات الموصين منكم ، ﴿ حليم ﴾ لا يسمح لكم بأن تعجلوا بعقوبة من تستاءون منه فى مضارته بالوصية ، كما أنه لم يسمح لكم بحرمان النساء والأطفال من الإرث ، وهو لا يعجل بالعقاب فى أحكامه ولا فى الجزاء على

مخالفتها ، عسى أن يتوب المخالف ، فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بحلمه لأن عقاب الحليم أشد إذا أصر المذنب على ذنبه

* * *

تِلْكَ حُدودُ الله ، ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِى من تَحْتِها الأَنْهرُ خَلِدِينَ فيها وذلِكَ الفَوْزُ العَظِيم (١٣) ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورَسولَهُ ويَتَعَدَّ حُدُودَه يُدْخِلْهُ ناراً خَلِداً فيها ولَهُ عَذابٌ مُهِين (١٤)

هذا التعقيب على شرعة المواريث :

لبيان أن هذه الأحكام للوقوف عندها وتنفيذها كاملة بلا مجاوزة ولا تقصير وبلا تبديل ولا تغيير ، وجزاء الطاعة فيها هو الخلود فى هذه الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والفوز فى هذه الدنيا بصلاح الذرية والأسرة والمجتمع ، والفوز فى الآخرة بهذا النعيم . وجزاء عصيانها وتعديها الخلود فى النار ثم المهانة جزاء على العصيان والتعدى

وهذه القسمة جاءت فى القرآن مفصلة هكذا ثابتة مقررة ، لأن التكافل العائلى أصل من أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام . ولأن التوزيع على هذا النحو يتمشى مع الفطرة الثابتة فى النفس البشرية ، فهو دائم إذن لا يحتاج إلى تعديل

والأحكام التى وردت فى الشريعة مفصلة ومحدودة هى الأحكام الخاصة بمثل هذه الأصول الثابتة فى نظام المجتمع الإسلامى القائمة على أصول فطرية ثابتة فى نفس الإنسان ، بغض النظر عن اختلاف المكان أو اختلاف الزمان

﴿ تلك حدود الله ﴾ تتناول الأحكام التى ذكرت من أول هذه السورة إلى ما قبل هذه الآية ، أى إنه تعالى جعل تلك الأحكام حدوداً لأعمال المكلفين ينتهون منها إليها ولا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتعدوها ، وهكذا جميع أحكامه فى المأمورات والمنهيات وكذا المباحات فإن لها حدوداً إذا تجاوزها المكلف وقع فى المحظورات ، فقال عز وجل ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إن الله لا يحب

المسرفين ﴾ فمدار الطاعة على البقاء فى دائرة هذه الحدود وهى الشريعة . ومدار العصيان على اعتدائها ، ولذلك وصل الجملة المبينة كون تلك الأحكام حدوداً بذكر

الجزاء على الطاعة والعصيان مطلقاً فقال ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ الخ . طاعة الله تعالى هى ما شرعه من الدين على لسان رسوله ﷺ ، وطاعة الرسول ﷺ هى اتباع ما جاء به من الدين عن ربه عز وجل ، فطاعته ﷺ هى عين طاعة الله عز وجل كما قال تعالى فى هذه السورة ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية ، لأن الارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى

« طاعة الرسول هى طاعة الله بعينها ، لأنه إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله من مصالحنا التى فيها سعادتنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله لأن من الناس من كانوا يعتقدون - قبل اليهوديه وبعدها ، وكذلك بعد الإسلام إلى اليوم - أن الانسان يمكن أن يستغنى بعقله وعلمه عن الوحى . يقول أحدهم إننى اعتقد أن للعالم صانعاً عليما حكيما ، وأعمل بعد ذلك بما يصل اليه عقلى من الخير واجتناب الشر . وهذا خطأ من الإنسان ، ولو صح ذلك لما كان فى حاجة إلى الرسل . وإن الإنسان محتاج بطبيعته النوعية إلى هداية الدين . وإنها هى الهداية الرابعة التى وهبها الله للإنسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل . فلم يكن العقل فى عصر من عصوره كافياً لهداية أمة من أممه ومرقياً له بدون معونة الدين »

« اقول يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة : إننا نرى كثيراً من أفراد الناس لا يدينون بدين ، وهم فى درجة عالية من الأفكار والآداب وحسن الأعمال التى تنفعهم وتنفع الناس ، حتى أن العاقل المجرد من التعصب الدينى يتمنى لو كان الناس كلهم مثله ، بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الأمم مثل هؤلاء الأفراد فى آدابهم وارتقائهم . وأجيب عن هذا :

« أولا » بأن الكلام فى هداية الجماعات من البشر كالشعوب والقبائل والأمم الذين يتحقق فى ارتقائهم معنى الإنسانية فى الحياة الاجتماعية سواء كانت بدوية أو مدنية ، وقد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية فى الأرض من المدنيات التى وعاها

وعرفها إلا على أساس الدين ، حتى فى مدنيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين (فى بعض عصورهم) والكلدانيين . واليونانيين . وعلمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عز وجل لهدايتها ، فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهى ، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها كما سرت إلى ما بعدهم من أهل الديانات التى بقى أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع أو على سبيل الظن ، وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظاً تاماً إلا الديانة الإسلامية وهو مع ذلك قد دون فى أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية إلى كثير من المنتسبين اليها كالنصيرية وسائر الباطنية وغيرهم ممن غلب عليهم التأويل أو الجهل - حتى أنه يوجد فى هذا العصر من المنتمين إلى الإسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم كجواز أكل لحم البقر فى الأطراف الشاسعة من الهند . وكيفية الزواج ودفن الموتى فى بعض بلاد روسيا وغيرها ، فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الإلهية القديمة إلى الوثنية

فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية لأن الارتقاء المعنوى هو الذى يبعث إلى الارتقاء المادى . وهانحن أولاء نقرأ فى كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين (هربرت سبنسر) أن آداب الأمم وفضائلها التى هى قوام مدنيتها مستندة كلها إلى الدين وقائمة على أساسه ، وأن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العلم والعقل . وأن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل لا بد أن تقع فى طور التحويل فى فوضى أدبية لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها - الخ . هذا معنى كلامه فى بعض كتبه

« وثانياً » انه لا يمكن الجزم بأن فلانا الملحد الذى نراه عالى الأفكار والآداب قد نشأ على الإلحاد وتربى عليه من صغره حتى يقال إنه قد استغنى فى ذلك عن الدين ، لأننا لا نعرف أمة من الأمم تربى أولادها على الإلحاد ، وأننا نعرف بعض هؤلاء الملحدين الذين يعدون فى مقدمة المرتقين بين قومهم ، ونعلم أنهم كانوا فى نشأتهم الأولى من أشد الناس تديناً واتباعاً لآداب دينهم وفضائله ، ثم طرأ عليهم الالحاد فى الكبر بعد الخوض فى الفلسفة التى تناقض بعض أصول ذلك الدين الذى نشأوا عليه . والفلسفة قد تغير بعض عقائد الإنسان وآرائه ،

ولكن لا يوجد فيها ما يقبح له الفضائل والآداب الدينية ، أو يذهب بملكاته وأخلاقه الراسخة كلها

من الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحـــدها ضماناً للسلام والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الخلق . ذلك أن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الانسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الشر والفساد

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين النـاس على قواعد العدالة والنصفة ، وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة انسانية

استمع لقول روبر ملليكال العالم الطبيعى الأمريكى « إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق . ولقد كان زوال هذا الإيمان سبباً للحرب العامة ، وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة ، بل يصير العلم نكبة على البشرية » ويقول الدكتور ويلسن الرئيس الأسبق للولايات المتحدة بأمريكا « وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ، وإنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها ، ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية وأصحاب رءوس أموالنا وكل فرد خائف من الله محب لبلده[1] »

فتبين بهذا أن طاعة الله ورسوله لا بد منها لسعادة الدنيا . على أن السياق هنا قد جاء لما يتعلق بالسعادة الدائمة فى الحياة الأخرى ، ولذلك كان جزاء الشرط فى الطاعة هو قوله تعالى :

﴿ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة . وإننا نؤمن بتلك الجنات والحدائق وأنها أرقى مما نرى فى هذه الدنيا ، وأنه ليس لنا أن نبحث عن كيفيتها لأنها من عالم الغيب ﴿ خالدين فيها ﴾ وتقدم تفسير الخلود

(١) الدين والعلم للمشير أحمد عزت

وسيأتى فى آيات كثيرة أيضاً ﴿ وذلك الفوز العظيم ﴾ لأنه الصافى الدائم الذى لا يذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة المنغصة بالشوائب والأكدار

﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ﴾ أى إن العاصى المتعدى للحدود مع إصراره على هذه المعصية ، وإنكاره لأوامر الله ، يكون خالداً فى النار . فالاصرار مع العصيان مع استشعار الخوف والندم لا يجتمع مع الإيمان الصحيح بعظمة الله وصدقه فى وعده ووعيده ﴿ وله عذاب مهين ﴾ أراد تعالى بالعذاب المهين عذاب الروح بالإهانة أى ان بدن هذا العاصى يعذب فى النار من حيث هو حيوان يتألم ، وروحه تتألم بالإهانة من حيث هو إنسان يشعر بمعنى الكرامة والشرف ، فنسأل الله تعالى النجاة من العذاب المهين والفوز بالنعيم القيم

٭ ٭ ٭

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلا (١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٨)

بعد أن أوصى سبحانه بالاحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالمعروف والمحافظة على أموالهن وعدم أخذ شيء منها إلا إذا طابت أنفسهن بذلك ـ ذكر هنا التشديد عليهن فيما يأتينه من الفاحشة . وهو فى الحقيقة إحسان إليهن ، إذ الاحسان فى الدنيا تارة يكون بالثواب وأخرى بالزجر والعقاب لكف العاصى عن العصيان الذى يوقعه فى الدمار والبوار . ومبنى الشرائع على العدل والانصاف والابتعاد عن

طرفى الافراط والتفريط — ومن أقبح العصيان الزنا ولا سيما النساء لأن الفتنة بهن أكثر ، والضرر منهن أخطر ، لما يفضى إليه من توريث أولاد الزنا وانتسابهم إلى غير آبائهم

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة ﴾ اللاتى جمع سماعى لكلمة التى أو معنى الجمع ، ويأتين الفاحشة معناها يفعلن الفعل الشديد القبح ، وهى الزنا على رأى الجمهور ، والسحاق على ما اختاره بعض المفسرين ﴿ من نسائكم ﴾ أى يفعلنها عن كونهن من نسائكم أى من المؤمنات وفى التعبير عن الاقدام على الفواحش بهذه العبارات معنى دقيق وهو أن الفاعل لها ذهب إليها بنفسه واختارها بطبعه

﴿ فاستشهدوا عليهن ﴾ أى اطلبوا أن يشهد عليهن ﴿ أربعة منكم ﴾ ولفظ أربعة يطلق على الذكور فالمراد أربعة من رجالكم ، وحكمة ذلك إبعاد النساء عن مواقف الفواحش والجرائم والعقاب والتعذيب رغبة فى أن يكن دائماً غافلات عن القبائح ، لا يفكرن فيها ولا يخضن مع أربابها ، وأن تحفظ لهن رقة أفئدتهن ، فلا يكن سبباً للعقاب ، واشترطوا فى الشهادة أيضاً أن يكونوا أحراراً ﴿ فإن شهدوا ﴾ عليهن بإتيانها ﴿ فامسكوهن فى البيوت ﴾ أى فاحبسوهن فى بيوتهن وامنعوهن الخروج منها عقاباً لهن وحيلولة بينهن وبين الفاحشة . وفى هذا دليل على إمساكهن فى البيوت ومنعهن الخروج عند الحاجة إليه فى غير هذه الحالة لمجرد الغيرة أو محض التحكم من الرجال واتباعهم لأهوائهم فى ذلك كما يفعله بعضهم ﴿ حتى يتوفاهن الموت ﴾ التوفى القبض والاستيفاء . أى حتى تقبض أرواحهن بالموت ﴿ أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ أى طريقاً للخروج منها ، ويحتمل أن يراد بالسبيل على قول أبى مسلم ذهاب داعية السحاق والشفاء منه فانه يصير مرضاً ، وعلى رأى الجمهور التوبة وصلاح الحال ، يرجحه الأمر فى الآية الأخرى بالاعراض عن عقاب اللذين يأتيان الفاحشة إن تابا . وقيل السبيل : الحدود التى حكم بها فيهم

وقد روى عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال : « خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا ، الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة . والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام . ومن هنا نعلم أن السبيل كان مجملا فبينه الحديث وخصص عموم آية الجلد الآتية فى سورة النور ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾

﴿ واللذان يأتيانها منكم ﴾ أى يأتيان الفاحشة وهى الزنا فى قول الجمهور واللواط فى قول بعضهم ، والمراد بالتثنية فى الأول الزانى والزانية بطريق التغليب وفى الثانى الفاعل والمفعول بجعل القابل كالفاعل ، وفى الثالث الزانى واللائط ولا تجوز فيه ﴿ فآذوهما ﴾ بعد ثبوت ذلك بشهادة الأربعة كما يؤخذ من الآية الأولى ، روى عن ابن عباس رضى الله عنه تفسير الإيذاء بالتعيير والضرب بالنعال . عن مجاهد والسدّى تفسيره بالتعيير والتوبيخ فقط ، فاذا كانت هذه الآية قد نزلت قبل آية سورة النور وكان المراد بها الزنا كما هو قول الجمهور فالعقاب كان تعزيزاً مفوضاً إلى الأمة ، وإلا جاز أن يراد بالإيذاء الحد المشروع نفسه . والظاهر أن آية النور نزلت بعد هذه فهى مبينة ومحددة بالإيذاء هنا على القول بأن ما هنا فى الزنا ، وإلا فتلك خاصة بحكم الزنا لأنها صريحة فيـــه ، وهذه خاصة باللواط ولذلك اختلف الصحابة ومن بعدهم فى عقاب من يأتيه ، وهذا ما اختاره أبو مسلم ، وتخصيصه الفاحشة فى هذه الآية باللواط الذى هو استمتاع الرجل بالرجل ، والفاحشة فيما قبلها بالسحاق الذى هو استمتاع المرأة بالمرأة هو المناسب لجعل تلك خاصة بالنساء وهذه خاصة بالذكور . فهذا مرجح لفظى يدعمه مرجح معنوى وهو كون القرآن عليه ناطقاً بعقوبة الفواحش الثلاث وكون هاتين الآيتين محكمتين والإحكام أولى من النسخ عند الجمهور القائلين به . ﴿ فإن تابا ﴾ رجعا عن الفاحشة وندما على فعلها ﴿ وأصلحا ﴾ العمل كما هو شأن المؤمن يقبل على الطاعة بعد العصيان ليطهر نفسه ويزكيها من درنه ويقوى فيها داعية الخير على داعية الشر ، ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ أى كفوا عن إيذائهما بالقول والفعل ﴿ إن الله كان تواباً رحيما ﴾ أى

مبالغاً فى قبول التوبة من عباده شديد الرحمة بهم ، وإنما شرع العقاب لينزجر العاصى ولا يتمادى فيما يفسده فيهلك ويكون قدوة فى الشر والخبث

لما ذكر تعالى أن التوبة مع الاصلاح تقتضى ترك العقوبة على المذنب فى الدنيا ، ووصف نفسه بالتواب الرحيم أى الذى يقبل التوبة من عباده كثيراً ويعفو بها عنهم — عقب ذلك ببيان شرط قبول التوبة فقال :

﴿ إنما التوبة على الله ﴾ أى التوبة التى أوجب الله تعالى قبولها على نفسه بوعده الذى هو أثر كرمه وفضله ليست إلا ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ فالسوء هو العمل القبيح الذى يسوء فاعله إذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس ، أو يسوء الناس . ويصدق على الصغائر والكبائر . والجهالة الجهل ، وتغلب فى السفاهة التى تلابس النفس عند ثورة الشهوة أو ثورة الغضب ، فتذهب بالحلم ، وتنسى الحق . والمراد بالزمن القريب الوقت الذى تسكن به تلك الثورة أو تنكسر به تلك الثورة ويثوب إلى فاعل السيئة حلمه ، ويرجع إليه دينه وعقله . فكلما قرب وقت التوبة من وقت اقتراف الذنب كان الرجاء أقوى ، وكلما بعد الوقت بالاصرار وعدم المبالاة والتسويف كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح . لأن الاصرار قد ينتهى قبل حضور الموت بالرين والختم وإحاطة الخطيئة ، فيكون سبباً فى الخلود فى النار ، وقد تقدم شرح هذا ، ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ أى أولئك الموصوفون بأنهم يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاذا تراخت توبتهم لا يطول عليها الزمن ولا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون يتوب الله تعالى عليهم بسبب ذينك الأمرين ، وهما كون فعل السوء لم يكن إلا عن جهالة ، إذ مثلهم فى إيمانهم وتقواهم لا يتعمد الذنب مع الروية . وكون التوبة قريبة من زمن الذنب لم تدع له مجالا يرسخ فى النفس . وقد أشار تعالى اليهم بعد حصر التوبة المقبولة لهم لتأكيد ذلك الحصر ، ولاستحضارهم فى الذهن عند الحكم ، حتى لا يخطر على بال القارىء والسامع إشراك غيرهم معهم فيه ، وضمن التوبة معنى العطف أى يعطف عليهم بقبول توبتهم ويعود برحمته عليهم ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾

فمن علمه بشؤون عباده وصالحهم وحكمته فيما شرعه لهم أنه جعل التوبة بشرطها مقبولة حتما ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ قال تعالى فى الآية السابقة ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ ولم يقل هنا ليست التوبة على الله الخ ، وذلك أنه ليس المراد نفى القطع بقبول توبتهم ، وإنما المراد نفى وقوع التوبة الصحيحة منهم وأنه ليس من شأنها أن تكون لهم ، ولو نفى كونها بما أوجبه تعالى على نفسه لكان المعنى أنها غير واجبة لهم ولا مقطوع بقبولها منهم ولكنهم قد ينالونها ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ أى لا توبة لأولئك ولا لهؤلاء ، فانه إذا كان المؤمن ليس له توبة عند حضور الموت فالأولى أن لا يكون للكافر عند الموت ، فكيف يتصور أن يكون له توبة بعده . ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ أى أولئك الفريقان البعيدان عن سنة الفطرة وهداية الشريعة ، المستعبدان لسلطان الشهوة وشيطان الرذيلة ، فقد أعتدنا وهيأنا لهم عذاباً مؤلماً فى دار الجزاء ، بما قدموا لأنفسهم فى دار الأعمال ، فان إصرارهم على السيئات إلى أن وافاهم الممات قد دسى نفوسهم ، وأفسد قلوبهم ، فصارت تهبط خطاياهم بأرواحهم إلى هاوية الهوان ، وتعجز عن العروج إلى فراديس الجنان ، ومعاهد الكرامة والرضوان

* * *

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا (٢١)

لما نهى سبحانه فيما تقدم عن عادات الجاهلية فى أمر اليتامى والأموال عقبه بالنهى عن نوع من الاستنان بسنتهم فى النساء أنفسهن وأموالهن

أخرج بن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم فى الجاهلية ورّث امرأته من يرث ماله ، فكان يعضلها حتى يتزوجها أو يزوجها من أراد ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك . وروى عن الزهرى أنها نزلت فى الرجل يحبس المرأة عنده لا حاجة له بها وينتظر موتها حتى يرثها . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾ أى لا يحل لكم أيها الذين آمنوا بالله ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية فى هضم حقوق النساء فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعبيد وتتصرفوا فيهن كما تشاءون وهن كارهات لذلك . فان شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه وإن شاء زوجها غيره وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج — كانت العرب تحتقر النساء وتعدهن من قبيل المتاع والعروض ، حتى كان الأقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله ، فحرم الله هذا العمل من أعمال الجاهلية . ولفظ الكره هنا ليس قيداً ، وإنما هو بيان للواقع الذى كانوا عليه ، فانهم كانوا يرثونهن بغير رضاهن ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ — العضل معناه هنا لا تضاروهن ولا تضيقوا عليهن ليكرهنكم ويضطررن إلى الافتداء منكم ، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسنها ويزوجون من لا تعجبهم أو يمسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث أو ما كانت أخذت من صداق ونحوه أو المجموع من هذا وذاك ، وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها ، وذلك هو العضل المحرم هنا . ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ والمعنى لا تعضلوهن فى حال من الأحوال أو فى زمن من الأزمان إلا الحال والزمن الذى يأتين فيه بالفاحشة المبينة الظاهرة من قول أو فعل دون الظنة والشبهة ، فإذا نشزن عن طاعتكم بالمعروف المشروع ولم ينفع معهن التأديب الذى سيذكر فى آية أخرى من هذه السورة وساءت عشرتهن لذلك أو تبين ارتكابهن للزنا أو السحاق ، فلكم حينئذ أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن

من صداق وغيره ، إذ لا يكلفكم الله أن تخسروا عليهن مالكم فى هذه الحالة التى يجىء فيها الفحش من جانبهن ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أى يجب عليكم أيها المؤمنون أن تحسنوا عشرة نسائكم ، بأن تكون مصاحبتكم ومخالطتكم لهن بالمعروف . والمدار فى المعروف على ما تعرفه المرأة ولا تستنكره وما يليق به وبها بحسب طبقتهما فى الناس فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر وسبب هناءته وسعادته فى معيشته ومنزله ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾

﴿ فإن كرهتموهن ﴾ لعيب فى الخلق أو الخلق مما لا يعد ذنباً لهن لأن أمره ليس فى أيديهن أو التقصير فى العمل الواجب عليهن فى خدمة البيت والقيام بشؤونه مما لا يخلو عن مثله النساء وكذلك الرجال فى أعمالهم ، أو الميل منكم إلى غيرهن ، فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن ولا بمفارقتهن لأجل ذلك

﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ الإسلام يوصى أهله بحسن معاشرة النساء والصبر عليهن إذا كرهن الأزواج . رجاء أن يكون فيهن خير كثير كأن تلد له أولاداً نجباء ، وأن تكون عوناً له على انتظام معيشته وحسن خدمته . فيكون لذلك الأثر المحمود فى تقدمه ونجاحه فى الحياة

هذا وان التعليل فى الآية يرشدنا إلى قاعدة عامة تأتى فى جميع الأشياء لا فى النساء خاصة ، وهى أن بعض ما يكرهه الإنسان يكون فيه خير له متى جاء ذلك الخير تظهر قيمة ذلك الشىء المكروه ، وهى قاعدة عرف العقلاء صدقها بالتجارب ، ولأجل التنبيه لها قال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً ﴾ ولم يقل وعسى أن تكرهوا امرأة

﴿ وإذا أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ أى إذا أردتم استبدال زوج جديدة ترغبون فيها مكان زوج سابقة ترغبون عنها لكراهتكم لها أو عدم طاقتكم الصبر على معاشرتها بالمعروف وهى

لم تأت بفاحشة مبينة وقد آتيتم من قبل إحداهن قنطاراً من المال أى مالا كثيراً سواء أخذنه وحزنه فى إيديهن أو التزمتموه لهن فصار ديناً فى ذمتكم فلا تأخذوا منه شيئاً ، بل يجب أن يكون كله لصاحبته ، لأنكم إنما تستبدلون غيرها بها لأجل هواكم وتمتعكم بغير ذنب شرعى منها يبيح لكم أخذ شىء منهن ، كأن تكون هى الطالبة لفراقكم المسيئة إليكم لأجل حملكم على طلاقها ، فإذا لم تفعل شيئاً يبيح لكم ذلك فبأى وجه تستحلون أخذ شىء من مالها ﴿ أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ استفهام انكار وتوبيخ ، أى أتأخذون ذلك الشىء باهتين إياها كاذبين عليها لنسبة الفاحشة اليها ، فالبهتان هو الكذب والافتراء . والإثم الحرام . ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ إنكار آخر لأخذ شىء من مال المرأة . يقول : كيف تأخذون ذلك الشىء من مالهن والحال أنكم قد أفضيتم اليهن أى خلصتم ووصلتم اليهن ذلك الخلوص الخاص بالزوجين الذى يتحقق به معنى الزوجية تمام التحقق . فيلابس كل منهما الآخر حتى كأنهما حقيقة واحدة ، أبعد هذا الافضاء والملابسة يصح أن يكون القاطع للصلة العظيمة طامعاً فى مال الآخر المظلوم ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ أى عهداً شديداً موثقاً يربطكم بهن أقوى الربط وأحكمه ، إن هذا الميثاق وهو كما قال مجاهد أنه كلمة النكاح أى صيغة العقد الذى حلت به المرأة للرجل ، وان المرأة لا تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها إلا وهى واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة ، وعيشها معه أهنأ من كل عيشة . وهذا ميثاق فطرى من أغلظ المواثيق وأشدها إحكاماً

* * *

وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِنَ الرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَٰئِبُكُمُ الَّتِي

فى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فانْ لم تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وحَلَائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إلاّ ما قَدْ سَلَفَ ، إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رَحِيما (٢٣)

بعد أن بين فى أوائل السورة حكم نكاح اليتامى وعدد من يحل من النساء والشرط فى ذلك ، وبين حكم استبدال زوج مكان زوج ، وما يجب من المعروف فى معاشرتهن ، وصل هذا ببيان ما يحرم نكاحه منهن

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ ذكر الله هذا النكاح أولا ولم يذكره مع سائر المحرمات فى الآية التالية لأنه كان فاشياً فى الجاهلية وقد ذمه الله أقبح ذم فسماه فاحشة وجعله مبغوضاً أشد البغض . أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب ، قال : كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه أو ينكحها من شاء . فلما مات أبو قيس بن الأسلت قام ابنه محصن فورث نكاح امرأته ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً . فأتت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فقال : ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئاً فنزلت ﴿ ولا تنكحوا ﴾ الآية . ونزلت أيضاً ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾

والنكاح هو الزواج ، وهو الذى تمكن معرفته وتبنى عليه الأحكام فى الغالب ، ويؤكد ذلك ما قاله ابن عباس رضى الله عنه . النكاح هنا العقد . فقد روى ابن جرير والبيهقى عنه أنه قال « كل امرأة تزوجها أبوك دخل أو لم يدخل بها فهى عليك حرام » والمراد من الآباء ما يشمل الجدود بالاجماع ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ معناه لكن ما سلف أى مضى من ذلك فلا تؤاخذون عليه . وقال بعضهم معناه إلا من قد مات منهن . وقالوا إن المراد به المبالغة فى تأكيد التحريم وقطع عرق هذه الفاحشة وسد باب إباحتها سداً محكما ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ أى ان نكاح حلائل الآباء كان ولا يزال فى الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها

وأيدتها الشريعة التي هداهم الله اليها أمراً فاحشاً شديد القبح عند من يفعل ومقتاً أي ممقوتاً مقتاً شديداً عند ذوي الطباع السليمة حتى كأنه نفس المقت وهو البغض الشديد أو بغض الاحتقار والاشمئزاز ، وكانوا يسمون هذا النكاح في الجاهلية « نكاح المقت » وسمى الولد منه « مقيتاً » ومقيتاً أي مبغوضاً محتقراً . ﴿ وساء سبيلا ﴾ أي ان هذا النكاح وإن كان سبيلا مسلوكا إلا أنه سبيل سيء لم يزده السير فيه إلا قبحاً ومقتاً

ثم بين سبحانه أنواع المحرمات في النكاح لعلة ثابتة تنافي ما في النكاح من الحكمة في صلة البشر بعضهم ببعض أو لعلة عارضة كذلك ، وهذه الأنواع داخلة في عدة أقسام : القسم الأول ما يحرم من جهة النسب ، وهو أنواع : النوع الأول نكاح الأصول وذلك قوله تعالى ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ أي حرم الله تعالى عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم ، وأمهاتنا هن اللواتي لهن صفة الولادة من أصولنا فيدخل فيهن الجدات ، وهذا ما فهمه العلماء وأجمعوا عليه . النوع الثاني نكاح الفروع ، وذلك قوله سبحانه ﴿ وبناتكم ﴾ وهن اللواتي ولدن لنا من أصلابنا وإن شئت قلت من تلقيحنا ، أو ولدن لأولادنا وأولاد أولادنا وإن سفلوا ، فيدخل في ذلك كل من كان سبباً في ولادتهن وأصولهن . النوع الثالث الحواشي القريبة وذلك قوله عز وجل ﴿ وأخواتكم ﴾ سواء كن شقيقات لكم أو كن من الأم وحدها أو الأب وحده. النوع الرابع الحواشي البعيدة من جهة الأب. والنوع الخامس الحواشي البعيدة من جهة الأم وذلك قوله تبارك اسمه ﴿ وعماتكم وخالاتكم ﴾ ويدخل في ذلك أولاد الأجداد وان علوا وأولاد الجدات وإن علون وعمة جده وخالته وعمة جدته وخالاتها للأبوين أو لأحدهما إذ المراد بالعمات والخالات الإناث من جهة العمومة ومن جهة الخئولة . والنوع السادس الحواشي البعيدة من جهة الأخوة وهو قوله تعالى ﴿ وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ أي من جهة أحد الأبوين أو كليهما ، وسيأتي بيان ذلك كله في تفسير الآية التالية

القسم الثانى ما حرم من جهة الرضاعة وهو أنواع كالنسب بيّنها تعالى بقوله

﴿ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾

وقد نزل الله سبحانه الرضاعة منزلة النسب ، فسمى المرضعة أماً للرضيع وبنتها أختاً له ، فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاع كجهة النسب . وقد وضحت السنة ذلك فقال النبى ﷺ لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة « إنها لا تحل لى ، إنها ابنة أخى من الرضاعة ، ويحرم من الرضاعة ما يحرم بالنسب » رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وعلى ذلك جرى المسلمون جيلا بعد جيل فجعلوا زوج المرضعة أباً للرضيع تحرم عليه أصوله وفروعه ولو من غير المرضعة لأنه صاحب اللقاح الذى كان سبب اللبن الذى تغذى منه الرضيع . وقد روى البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما بنتاً والأخرى غلاماً أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ « قال : لا — اللقاح واحد »

وقد غلب على الناس التساهل فى أمر الرضاعة فيرضعون الولد من امرأة أو من عدة نسوة ولا يهتمون بمعرفة أولاد المرضعة واخوتها ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ليعرفوا ما يترتب عليهم فى ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب ، فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدرى

وظاهر الآية أن قليل الرضاعة ككثيرها ، ويروى ذلك عن على وابن عباس والحسن والزهرى وقتادة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك . وذهب جماعة إلى أن التحريم إنما يثبت بثلاث رضعات فأكثر لأن النبى ﷺ قال : « لا تحرم المصة والمصتان » وقد روى العمل به عن الإمام أحمد . وذهب جماعة آخرون إلى أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات . ويروى هذا عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن الزبير . وهو مذهب الشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه

ولا يحرم الرضاع إلا فى سنه ومدته المحدودة بقوله تعالى ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ وهو مذهب عمر وابن مسعود وابن عباس ، وبه أخذ الشافعى وأحمد وصاحبا أبى حنيفه : أبو يوسف ومحمد —

وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس قوله ﷺ : « لا رضاع إلا ما كان فى الحولين » وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى والزهرى والحسن وقتادة أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطم فإن فطم الرضيع ولو قبل السنتين امتنع تأثير رضاعه بالتحريم ، وإن استمر رضاعه إلى ما بعد السنتين ولم يفطم كان رضاعه محرماً

القسم الثالث — محرمات المصاهرة التى تعرض بسبب الزواج وتحته الأنواع الآتية :

(١) ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ويدخل فى الأمهات الجدات . ولا يشترط فى تحريم أم المرأة دخوله بالبنت بل يكفى مجرد العقد . وبهذا قال جمهور الصحابة ومن بعدهم وعليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة

(٢) ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ﴾ - الربائب جمع ربيبة . وربيب الرجل ولد امرأته من غيره ، سمى ربيباً لأن الرجل يربه ويسوسه ويؤدبه كما يؤدب ولده . وقوله : اللاتى فى حجوركم وصف لبيان الحال الغالب فى الربيبة وهى أن تكون فى حجر زوج أمها ، وللاشعار بالمعنى الذى يوضح علة التحريم ويحرك عاطفة الأبوة فى الرجل وهى كونها فى حجره يحنو عليها حنوه على بنته . ويدخل فى التحريم كل بنات امرأة الرجل إذا كان قد دخل بها وبنات بناتها وبنات أبنائها لأنهن من بناتها فى عرف اللغة

﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ والمعنى أن الرجل إذا عقد نكاحه على امرأة ولم يدخل بها لا يحرم عليه بناتها . والجناح : الإثم أو التضييق والأذى . ثم قال سبحانه ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ الحلائل جمع حليلة وهى الزوجة ، ويقال للرجل حليل ، ويدخل فى الحلائل الإماء اللواتى يستمتع بهن ، واللفظ يصدق عليهن بكل معنى قيل فى اشتقاقه . ويدخل فى الأبناء أبناء الصلب مباشرة وبواسطة ، كابن الابن وابن البنت ؛ فحلائلهما تحرم على الجد

﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ أى حرم عليكم الجمع بين الأختين فى الاستمتاع

الذى يراد به الولد سواء كان بعقد النكاح أو ملك اليمين ، هـذا ما عليه جمهور الصحابة وعلماء التابعين ومن تبعهم ، ويدخل فى ذلك الأختان من الرضاعة ، وقد فهم النبى ﷺ من تحريم الجمع بين الأختين تحريم ما فى معناه وهو الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، قال العلماء والضابط فى هذا أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة ولو كانت إحداهما ذكراً لحرم عليه بها نكاح الأخرى وهو الذى تظهر فيه العلة وتنطبق عليه الحكمة ، ثم قال عز وجل ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ أى حرم عليكم ما ذكر ، لكن ما سلف لكم قبل التحريم لا تؤاخذون عليه ، وقيل إلا ما قد سلف لكم فى الشرائع السابقة

﴿ إن الله كان غفوراً رحيما ﴾ لا يؤاخذكم بما سلف منكم فى زمن الجاهلية إذا أنتم التزمتم العمل بشريعته فى الإسلام ، فمن مغفرته أن يمحو من نفوسكم أثر تلك الأعمال المنكرة التى تنافى الفطرة ، ومن رحمته بكم أن شرع لكم من أحكام النكاح ما فيه المصلحة لكم لتتراحموا وتتعاطفوا وتتعاونوا على البر والتقوى فتنالوا تمام الرحمة فى الدنيا والآخرة

آخر الجزء الرابع

الجزء الخامس من سورة النساء

والمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّساءِ إلاَّ ما مَلَكَتْ أيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ اللهِ عَلَيكُمْ وأُحِلَّ لَكُمْ ماوراءَ ذَٰلِكُمْ أنْ تَبْتَغُوا بأمْوَٰلِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ، فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، ولا جُناحَ عليكُمْ فِيما تَرَٰضَيْتُمْ بِهِ مِن بَعدِ الفَرِيضَةِ ، إن اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤) ومَنْ لم يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَٰتِ المُؤْمِنَٰتِ فَمِن مّا مَلَكَتْ أيْمَٰنُكُمْ مِنْ فَتَيَٰتِكُمُ المُؤْمِنَٰتِ ، واللهُ أعْلَمُ بإيمَٰنِكُمْ ، بَعضُكُمْ مِنْ بَعضٍ ، فانْكِحُوهُنَّ بإذْنِ أهْلِهِنَّ وءاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ولا مُتَّخِذَٰتِ أخْدانٍ ، فاذا أُحْصِنَّ فانْ أتَيْنَ بفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما على المُحْصَنَٰتِ مِنَ العَذابِ ، ذَٰلكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ مِنكُمْ ، وأنْ تَصْبِرُوا خَيرٌ لَكُمْ ، واللهُ غَفُورٌ رحيم (٢٥)

فى هاتين الآيتين بيان بقية ما يحرم من نكاح النساء ، وحل ما عداه ، وحكم نكاح الإماء ، وما فصلناهما عما قبلهما إلا لأن من قسموا القرآن إلى ثلاثين جزءاً جعلوهما فى أول الجزء الخامس ، وقد راعوا فى هذا التقسيم المقادير من اللفظ دون المعنى . وكان المناسب للمعنى أن يجعلوا أول الجزء الخامس قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنو لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ كما هو ظاهر .

فقوله تعالى ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ عطف على ما قبله من المحرمات . والمحصنات المتزوجات . أى أن عقد الزوجية محترم مطلقاً لافرق فيه بين المؤمنات والكافرات والحرائر والمملوكات ، فيحرم تزوج أية امرأة فى عصمة رجل وحصنه . ﴿ إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ وما ملكت الأيمان بالسبى فى حرب دينية وأزواجهن كفار فى دار الحرب ينفسخ نكاحهن ويحل الاستمتاع بهن بعد

الاستبراء . فإذا قيل إن ما ملكت الأيمان يشمل المملوكة المتزوجة فى دار الإسلام وهى محرمة على سيدها أن يفترشها بالاجماع . فالجواب أن العموم هنا مخصوص بالمسبيات وسكت عن المملوكات المتزوجات لأن التزويج بالمملوكات خلاف الأصل وهو مكروه فى الشرع والذوق والعقل ، فهو كالتنبيه إلى أنه لا ينبغى أن يكون ، ولذلك شدد فيه كما يأتى . ويزاد على هذا أنه أمر لم يكن معروفاً عند التنزيل

والمعنى : وحرمت عليكم كل أجنبية إلا بعقد النكاح وهو ملك الاستمتاع أو بملك اليمين الذى يتبعه حل الاستمتاع

﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أى كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع من النساء كتاباً مؤكداً أى فرضه فرضاً ثابتاً محكما لا هوادة فيه لأن مصلحتكم فيه ثابتة لا تتغير .

﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم مما هو خارج من مدلول اللفظ وإفادته ولا يتناوله بنص أو دلالة فيدخل بطريق الدلالة فى الأمهات الجدات وفى البنات بنات الأولاد وفى الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها كما يؤخذ بعض المحرمات من آيات أخرى كتحريم المشركات والمطلقة ثلاثاً على مطلقها فى سورة البقرة . قد يقال ان ما ذكر هنا من المحرمات مجمل بينته السنة ، والسر فى النص على ما ذكر أنه كان واقعاً شائعاً فى الجاهلية فهو يعلمنا بالنص على الواقع أن لا نتعرض إلا للأمور الوجودية ، وأن الأمور المفروضة والمتخيلة لا ينبغى الالتفات اليها ولا الاشتغال بها

﴿ أن تبتغوا بأموالكم ﴾ معناه أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوه أو إرادة أن تبتغوه أى تطلبوه بأموالكم - أى أحل لكم طلبه بأموالكم تدفعونها مهراً للزوجة ، قيل أو ثمناً للأمة . وهو يقتضى أنه يجب قصد إحصان الأمة كما يجب قصد إحصان الزوجة لقوله ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ وهذا معناه أن يقصد الرجل إحصان المرأة وحفظها من أن ينالها أحد سواه ليكنَّ عفيفات طاهرات . ولا يكون التزوج لمجرد التمتع وسفح الماء وإراقته ، وهو يدل على بطلان النكاح المؤقت وهو نكاح المتعة الذى يشترط فيه الأجل فيما وراء ذلك التحريم وفيما عدا ذلك المحظور

فلال أن تطلبوا المتاع بالنساء بما تؤدونه لهن من فروض ولكن عن طريق الإحصان لا عن طريق السفاح

وفى تسمية النكاح المشروع إحصاناً لفتة نفسية ، فهو حماية من المعصية . ووقاية من النزوة ، كما أنه حماية ووقاية من نوازل الحياة . وضرورات المعاش وابتذال الحاجة . لذلك سمى الرجل محصناً — بصيغة الفاعل — وسميت المرأة محصنة - بصيغة المفعول - لأن الرجل هو الذى يقوم للمرأة بهذا الإحصان ، على أوسع معانيه وإن كانت هى تقوم بإحصانه فى دائرة الدوافع الفطرية

وكذلك فى تسمية الفاحشة سفاحاً لفتة معنوية . فالسفح أصلا ضد القمة . وإراقة ماء الحياة فى غير نكاح شرعى هى أولا سفح لهذا الماء بمعنى إراقته . وهى كذلك هبوط إلى السفح فى تذوق الحياة وتصورها ، وفى معالجة لذة الجسد والاستمتاع بها . وهى سفاح لأنها مفاعلة بين الجنسين كلاهما يهبط فيها إلى السفح . وكلاهما يريق ماء الحياة بلا جدوى

ولما كان متاع الرجل بالمرأة إطلاقاً لطاقة فائضة فيه لا تعقبها تكاليف ولا متاعب ، بينما متاع المرأة بالرجل يعقبه متاعب الحمل ومشقات الولادة وتكاليف الرضاعة ، فان نصيب الرجل فى هذا المتاع يبدو خالصاً . ومتاع المرأة يبدو مشوباً . لذلك كان من الحق إذن أن يؤدى الرجل من ماله عوضاً يسوى كفتى الميزان بقدر المستطاع . هذا العوض هو المهر والنفقة وما إليها . وكان من العدل أن تصبح هذه فريضة ملزمة لا تطوعاً متروكا للرغبة . فاذا أديت الفريضة فلا جناح عليهما إذا هما تراضيا على التنازل عن شىء منها أو على زيادتها ، فذلك شأنهما وحدهما بعد أن يتحقق العدل الذى قرره الله لتحقيق شىء من التعاون فى هذه الشركة الانسانية

﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ والمعنى فكل امرأة أو أية امرأة من أولئك النساء اللواتى أحل لكم أن تبتغوا تزوجهن بأموالكم استمتعتم بها أى تزوجتموها فأعطوها الأجر والجزاء بعد أن تفرضوه لها فى مقابلة ذلك الاستمتاع وهو المهر

﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ أى لا حرج ولا

تضييق عليكم منه تعالى إذا تراضيتم بعد الفريضة على الزيادة فيها أو النقص منها أو حطها كلها فإن الغرض من الزوجية أن تكون فى عيشة راضية ومودة ورحمة تصلح بها شؤنكم وترتقى بها أمتكم — والشرع يضع لكم قواعد العدل ، ويهديكم مع ذلك إلى الاحسان والفضل ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ فيضع لعباده من الشرائع بحكمته ما يعلم أن فيه صلاح حالهم ما تمسكوا به

وهذا التعقيب : « إن الله كان عليما حكيما » يجيء هنا فى مكانه ، لأن تقرير هذه الفريضة وتقرير المبادىء التى سبقتها فى العلاقة بين الجنسين كلها مستمدة من العلم ومن الحكمة قائمة على العلم بأحوال النفس البشرية وعلى الحكمة فى علاجها وتقرير ما يصلح لها ويصلحها من النظم والفرائض والتكاليف

﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ : الطول السعة والغنى . والمعنى : ومن لم يستطع منكم طولا فى المال أو الحال لنكاح المحصنات التى أحل لكم أن تبتغوا نكاحهن بأموالكم وأمرتم أن تقصدوا بالاستمتاع أو الانتفاع بنكاحهن الاحصان لهن ولأنفسكم فلينكح امرأة من نوع ما ملكتم من فتياتكم أى إمائكم المؤمنات — والفتيات جمع فتاة ، والعرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة

﴿ والله أعلم بأيمانكم ، بعضكم من بعض ﴾ فهو يبين أن الايمان قد رفع شأن الفتيات المؤمنات وساوى بينهن وبين الأحرار والحرائر فى الدين وهو أعلم بحقيقة هذا الايمان ودرجات قوته وكماله ، فرب أمة أكمل إيمانا من حرة فتكون أفضل منها عند الله تعالى ، أى فلا يصح مع هذا أن تعدوا نكاح الأمة عارا عند الحاجة اليه فأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمان بعضكم من بعض ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ المراد هنا أن الأمة كالحرة فى تزويج أوليائها لها وعدم تزويجها لنفسها بل هى أولى من الحرة فى الحاجة إلى إذن أوليائها . والظاهر أنه لا بد بعد رضا المولى بتزويجها من تولى وليها فى النسب للعقد إن كان وإلا فالمولى أو القاضى

يتولى ذلك . ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ إيتاء الأجور - المهور - بالمعروف معناه بالمتعارف بين الناس - وقال أصحاب مالك ان السيد إذا زوج جاريته فقد جعل للزوج ضرباً من الولاية عليها لا يشاركه هو فيه ، فما تأخذه من الزوج يكون فى مقابلة ما أسقط السيد حقه منه فلا يكون له حظ منه بل يكون لها وحدها ، وهذا هو الصحيح

﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ والمعنى انكحوهن محصنات لكم ولأنفسهن غير مسافحات يمكنّ من أنفسهن أى طالب ولا متخذات أخدان وأصحاب - أو رفقاء كما يقول المصريون - تختص كل واحدة منهن بصاحب . ثم قال

﴿ فإذا أحصنّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ أى فاذا فعلن الفعلة الفاحشة وهى الزنا بعد إحصانهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات - وهن الحرائر - إذا زنين ، وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ﴾ - ﴿ ذلك لمن خشى العنت منكم ﴾ ذهب الجمهور إلى أن المراد بالعنت لازمه وهو الإثم بارتكاب الزنا - والعنت المشقة والجهد والفساد - أى ذلك الذى أبيح لكم من نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر جائز لمن خشى على نفسه الضرر والفساد فى دينه وبدنه من التزام العفة ومقاومة داعية الفطرة ، ذلك بأن مقاومة هذه الداعية التى هى أقوى وأرسخ شئون الحياة قد تفضى إلى أمراض عصبية وغير عصبية إذا طال العهد على مقاومتها - ﴿ وأن تصبروا خير لكم ﴾ أى وصبركم بحبس أنفسكم عن نكاح الإماء مع العفة خير لكم من نكاحهن وإن كان جائزاً وهو خير لكم لما فيه من تربية الإرادة وملكة العفة وتحكيم العقل بالهدى ومن عدم تعريض الولد للرق . ولفساد الأخلاق بالإرث . فإن الجارية بمنزلة المتاع والحيوان . فهى تشعر دائماً بالذل والهوان فيرث أولادها إحساسها ووجدانها الخسيسين ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يغفر لمن لم يصبر على نكاح الأمة رحيم به . وفى الآية ذكر أمور كثيرة يكون

الإنسان فيها عرضة للهفوات واللمم كعدم الطول واحتقار الإماء المؤمنات والطعن فيهن عند الحديث فى نكاحهن ثم عدم الصبر على معاشرتهن بالمعروف. وسوء الظن بهن. فلما كان الإنسان عرضة لأمثال هذه الأمور ومنها ما يشق اتقاؤه ذكرنا الله تعالى بمغفرته ورحمته بعد بيان أحكام شريعته ليذكرنا بأنه لا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها.

* * *

يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَٰتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ، وَخُلِقَ الْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا (٢٨)

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والاسهاب. ذكر هنا عللها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التى يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب ليكون فى ذلك طمأنينة للقلوب وسكون للنفوس، لتعلم مغبة ما هى مقدمة عليه من الأعمال. وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهى مثلجة الصدور، عالمة بأن لها فيها سعادة فى دنياها وأخراها، ولا تكون فى عماية من أمرها فتتيه فى أودية الضلالة، وتسير قدماً لا إلى غاية

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ جاءت هذه الآيات كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام. فيطوف بخاطره أن يسأل: ما الحكمة فى هذه الأحكام وما فائدتها للعباد؟ وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها، فلم يبح لهم أن يتزوجوا كل امرأة؟ وهل كان ما أمرنا به ونهانا عنه تشديداً علينا أو تخفيفاً عنا؟

﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ أى يريد الله ذلك التحريم والتحليل لأجل أن يبين لكم به ما فيه مصلحتكم وقوام فطرتكم ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ أى

يهديكم سنن الذين أنعم عليهم من قبلكم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أى طرقهم فى العمل بمقتضى الفطرة السليمة وهداية الدين والشريعة كل بحسب حال الاجتماع فى زمانه كما قال ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وانما كان دين جميع الأنبياء واحداً فى التوحيد وروح العبادة وتزكية النفس بالأعمال التى تقوم بها الملكات وتهذب الأخلاق

﴿ ويتوب عليكم ﴾ أى ويريد بتلك الأحكام ان يجعلكم بالعمل بها تائبين عما سلف فى زمن الجاهلية وأول الإسلام ، إذ كنتم منحرفين عن سنة الفطرة ، تنكحون ما نكح آباؤكم وتقطعون أرحامكم ، ولا تراعون ما فى الزوجية من تجديد قرابة الصهر بدون تنكيب لقوى روابط النسب . وقيل المراد بالتوبة ما هى سبب له من الغفران - ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أى أنه ذو العلم والحكمة الثابتين اللذين تصدر عنهما أحكامه فتكون موافقة لما الحكم ومنافعكم ، لأن علمه الواسع محيط بها وحكمته البالغة تقضى بها

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ . ان التوبة الأولى ذكرت فى تعليل أحكام محرمات النكاح فكان معناها أن العمل بتلك الأحكام يكون توبة ورجوعاً عما كان قبلها من أنكحتهم الباطلة الضارة وان الله شرعها لأجل ذلك ، ثم أسند إرادة التوبة إلى الله تعالى فى جملة مستأنفة ليبين لنا أن ذلك ما يريد الله تعالى أن نكون عليه دائماً فى مستقبل أيامنا بعد الإسلام ، ويقابله بما يريده منا متبعو الشهوات . كأنه يقول ما جعل إرادة التوبة علة لتلك الأحكام إلا وهو يريد ذلك دائماً منكم لتزكو نفوسكم وتطهر قلوبكم وتصلح أحوالكم

﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾ عن صراط الفطرة فتؤثروا داعية الشهوة الحيوانية على كل داعية فلا تبالوا أن تقطعوا لارضائها وشائج الأرحام . وتزيلوا أواصر القرابة وتكونوا مثلهم إمامكم المتبع هو الشهوة . وغرضكم من الحياة التمتع باللذة . وقيل المراد بمتبعى الشهوات أهل الكتاب أو اليهود خاصة لأنهم ينكحون بنات الإخوة وكذا الأخت لأب كما نقل . وقيل

المجوس . والمختار ما تقدم من الاطلاق . ومنهم الذين يقولون بنكاح المتعة ـ والميل العدول عن طريق الاستواء . والمراد بالشهوات هنا ما حرمه الشرع دون ما أحله .

ثم قال تعالى ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ إذ لم يضيق عليكم فى أمر النساء حتى أنه أباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء . بل لم يجعل عليكم فى الدين من حرج قط ، فشريعتكم هى الحنيفية السمحة كما ورد . ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ لا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء ولا يحمل ثقل التضييق عليه فى الاستمتاع بهن فمن رحمته تعالى أنه لم يحرم عليه منهن إلا ما فى إباحته مفسدة عظيمة فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف ، فلهذا أراد الله سبحانه التخفيف عنه .

ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين ، فهم يفسدون النساء ويغرونهن بالأموال ، ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها . وإنه لغرّ جاهل ، أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواه ؟ فقلما يفسق رجل إلا ويكون قدوة لأهل بيته فى الفسق والفجور ، وفى الحديث « عفوا تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » رواه الطبرانى من حديث جابر .

وقد بلغ الفسق فى هذا الزمان حداً صار الناس يظنونه من الكياسة ، وزالت غيرتهم ، وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقيادتهم . فوهت الروابط الزوجية ، ونخر السوس فى سعادة البيوت . ووجـــدت الرذيلة لها مرتعاً خصباً فى أجواء الأسر ، حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله ، وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها

° ° °

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰطِلِ ، إِلَّآ أَنْ تَكُونَ تِجٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِنكُمْ ، ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيما (٢٩) ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوٰناً وظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً ، وكانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرا (٣٠)

كان الكلام من أول السورة إلى هنا فى معاملة اليتامى والأقارب والنساء ، ثم فى معاملة سائر الناس . ومدار الكلام فى تلك المعاملات على المال ، حتى أنه لما ذكر ما يحل وما يحرم من النساء لم يخرج الكلام عن أحكام المال ، فقد ذكر مايفرض لهن وما يجب من إيتائهن أجورهن . وبعد ذكر تلك الأنواع من الحقوق المالية ذكر قاعدة عامة للتعامل المالى فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ أى ما ليس بحق : أضاف الأموال إلى الجميع فلم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض للتنبيه على تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها ، كأنه يقول إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم ، فاذا استباح أحدكم أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أكل ماله وهضم حقوقه لأن المرء يدان كما يدين . وهناك وجه آخر ، وهو أن صاحب المال الحائز له يجب عليه بذله ـ أو البذل منه ـ للمحتاج ، فكما لا يجوز للمحتاج أن يأخذ شيئاً من مال غيره بالباطل ـ كالسرقة والغصب ـ لا يجوز لصاحب المال أن يبخل عليه بما يحتاج اليه

سبق الإسلام مذاهب الاشتراكية ، وجعل مال كل فرد من أفراد المتبعين له مالا لأمته كلها مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها . فهو يوجب على كل ذى مال كثير حقوقاً معينة للمصالح العامة . كما يوجب عليه وعلى صاحب المال القليل حقوقاً أخرى لذوى الاضطرار من الأمة ومن جميع البشر . ويحث فوق ذلك على البر والاحسان والصدقة الدائمة والصدقة المؤقته والهدية . فالبلاد التى يعمل فيها بالإسلام لا يوجد فيها مضطر إلى القوت والستر قط سواء كان مسلماً أو غير مسلم . لأن الإسلام يفرض على المسلمين فرضاً قطعياً أن يزيلوا ضرورة كل مضطر . كما يفرض فى أموالهم حقاً آخر للفقراء والمساكين ومساعدة الغارمين الذين يبذلون أموالهم للاصلاح بين الناس ولغير ذلك من أنواع البر . ويرى كل من يقيم فى تلك البلاد أن مال الأمة هو ماله لأنه إذا اضطر اليه يجده مذخوراً له وقد يصيبه منه حظ فى غير حال الاضطرار . وقد جعل المال المعين المفروض فى أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة من الأمة لئلا يمنعه بعض من يمرض الإيمان فى قلوبهم . فمتى يعود المسلمون إلى حقيقة دينهم ويكونون حجة له على جميع الملل كما

كان سلفهم فيقيموا المدنية الصحيحة فى هذا العصر كما أقامها أولئك فى عصورهم

أما الباطل فهو ما لم يكن فى مقابلة شىء حقيق، وهو من البطل والبطلان أى الضياع والخسارة. فقد حرمت الشريعة أخذ المال بدون مقابلة حقيقية يعتد بها ورضى من يؤخذ منه. وكذا إنفاقه فى غير وجه حقيقى نافع - وعبر بالأكل عن مطلق الأخذ لأنه أقوى أسبابه وأعمها وأكثرها

قال تعالى ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ والمعنى لا تكونوا من ذوى الطمع الذين يأكلون أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة، ولكن كلوها بالتجارة التى قوام الحل فيها التراضى، فذلك هو اللائق بأهل الدين والمروءة إذا أرادوا أن يكونوا من أهل الدثور والثروة. ولما كان المال عديل الروح ونهى عن إتلافه بالباطل نهى عن إتلاف النفس لكون أكثر اتلافهم لها بالغارات لنهب الأموال وما كان بسببها أو تسببها، على أن من أكل ماله ثارت نفسه فأدى ذلك إلى الفتن التى ربما كان آخرها القتل. فكان النهى عن ذلك أنسب شىء لما بنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل فقال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ الخ ظاهر هذه الجملة وحدها أن النهى إنما هو عن قتل الانسان لنفسه وهو الانتحار، والمتبادر منها فى هذا الأسلوب أن المراد لا يقتل بعضكم بعضاً وهو الأقوى. واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها. وجمع بعضهم فى النهى عن القتل بين الأمرين فقال أى لا تقتلوها حقيقة بالانتحار ولا مجازاً بقتل بعضكم لبعض. وإذا كان الدين يرشدنا بأنه يجب علينا أن نحترم نفوس الناس بعدّها كنفوسنا فاحترامنا لنفوسنا يجب أن يكون أولى فلا يباح بحال من الأحوال أن يقتل أحد نفسه كأن يبخعها ليستريح من الغم وشقاء الحياة، فهما اشتدت المصائب على المؤمن فأنه يصبر ويحتسب ولا ينقطع رجاؤه من الفرج الإلهى. ولذلك نرى بخع النفس (الانتحار) يكثر حيث يقل الإيمان ويفشو الكفر والالحاد ﴿ إن الله كان بكم رحيما ﴾ أى انه كان بنهيه إياكم عن أكل أموالكم بالباطل وعن قتل أنفسكم رحيما بكم لأن فى ذلك حفظ دمائكم وأموالكم التى هى قوام

مصالحكم ومنافعكم ، فيجب أن تتراحموا فيما بينكم ويكون كل منكم عوناً للآخرين على حفظ النفس ومدافعة رزايا الدهر

﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً ﴾ قال بعض المفسرين إن المشار اليه فى هذه الآية هو القتل فقط . وأكثر المفسرين على أن المراد بذلك ما فى الآية الأخيرة من النهى عن أكل أموال الناس بالباطل وعن القتل

والعدوان هو التعدى على الحق ، فكأنه قال بغير حق ، وهو يتعلق بالقصد ، فمعناه أن يتعمد الفاعل إتيان الفعل وهو يعلم أنه قد تعدى الحق وجاوزه إلى الباطل . والظلم يتعلق بالفعل نفسه بأن كان المتعدى لم يتحر ويجتهد فى استبانة ما يحل له منه فيفعل ما لا يحل . والوعيد مقرون بالأمرين معاً وهما أن يقصد الفاعل العدوان وأن يكون فعله ظلماً فى الواقع ونفس الأمر . وإصلاؤه النار إدخاله فيها وإحراقه بها

﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أى ان ذلك الوعيد البعيد شأوه الشديد وقعه يسير على الله غير عسير . وقريب من العادين الظالمين غير بعيد . وقيل إن معنى كونه يسيراً على الله تعالى هو أن حلمه فى الدنيا على المعتدين الظالمين وعدم معاجلتهم بالعقوبة لا يقتضى أن ينجوا من عقابه فى الآخرة

* * *

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١)

نهى سبحانه عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتل الأنفس ، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد . وتوعد فاعل ذلك عدواناً وظلماً بالنار . ثم نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها ، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ووعد على تركها بالجنة ومدخل الكرامة . وقيل المراد بالكبائر هنا جميع ما تقدم النهى عنه فى هذه السورة .

الاجتناب : ترك الشيء جانباً . والكبائر جمع كبيرة : أي الفعائل أو المعاصي الكبائر . والسيئات جمع سيئة : وهي الفعلة التي تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا ، أو تسوء غيره . وفسروها بالصغائر بدليل مقابلتها بالكبائر ، واللفظ أعم . والتخصيص غير متعين

إن الذين قسموا المعصية إلى صغيرة وكبيرة وأرادوا بالسيئات الصغائر لم يفهموا الآية ، وقد قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾ فجعل أهل السيئات في مقابلة المؤمنين ، فهم المشركون والكافرون والمفسدون . وقال ﴿ ليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ الآية . ولا يمكن حمل السيئات فيها على الصغائر . والصواب أن في كل سيئة وفي كل نهي خاطبنا الله تعالى به كبيرة أو كبائر وصغيرة أو صغائر . وأكبر الكبائر في كل ذنب عدم المبالاة بالنهي والأمر واحترام التكاليف . ومنه الإصرار ، فإن المصر على الذنب لا يكون محترماً ولا مبالياً بالأمر والنهي

﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ أي الكبائر التي يتضمنها كل شيء تنهون عنه ﴿ نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أي نكفر عنكم صغيره فلا نؤاخذكم عليه ، فإضافة السيئات إلى ضمير المخاطبين يدل على ماقاله جمهور الأشاعرة من أنه لا كبيرة ، بمعنى أن بعض السيئات يكون كبيرة مطلقاً على الدوام وان فعل بجهالة عارضة وعدم استهانة ، ولا صغيرة مطلقا وإن فعلت لعدم الاكتراث بالنهي وأصر الفاعل عليها . ويدل على هذا ما قاله ابن عباس (رض) حين قال له الكبائر سبع فقال هي إلى السبع مئة أقرب . ولا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار أي مع توبة ، فكل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب أو غلبة جبن أو ثورة شهوة وصاحبه متمكن من الدين يخاف الله ولا يستحل محارمه فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى إذا كان لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاوناً بالدين . وكان بعد اجتراحه إياه حال كونه مغلوباً على امره يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله عز وجل ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله

فهو بعدم اصراره و باستقرار هيبة الله وخوفه فى نفسه يكون أهلا لأن يتوب الله عليه ويكفر عنه . وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله اليه ورؤيته إياه حيث نهاه فهو مهما كان صغيراً (أى فى صورته أو ضرره) بعد كبيرة (أى من حيث هو استهانة بالدين وداع إلى الاصرار والانهماك والاستهتار) ومثال ذلك تطفيف الكيل والميزان وإخسارهما فقد قال تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ وهو يصدق بالقليل والكثير ولو حبة . والهمز واللمز فقد قال ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ أى الذين اعتادوا الهمز واللمز وهما عيب الناس والطعن فى أعراضهم ، والويل الهلاك فهو وعيد شديد

أما قوله ﴿ وندخلكم مدخلا كريماً ﴾ أى وندخلكم مكاناً كريماً وهو الجنة ، وقد يكون المدخل الكريم والمقام الكريم هو المكان الذى يكرم به من يدخله ويقيم فيه

* * *

ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْض ، لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكتسبوا وللنِّساء نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إن اللهَ كانَ بِكُلِّ شيء عَليما (٣٢)

لما نهى الله تعالى المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه

بالنهى عما يؤدى اليه من الطمع فى أموالهم فقال تعالى ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله

به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ . سبب نزول الآية أن أم سلمة قالت : يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولا نقاتل فنستشهد وإنما لنا نصف الميراث . فنزلت . والمعنى : أن الله تعالى كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا . فما كان خاصاً بالرجال فلهم نصيب من أجره لايشاركهم فيه النساء ، وما كان خاصاً بالنساء فلهن نصيب من أجره لايشاركهن فيه الرجال ، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر . وجعل الخطاب عاماً للفريقين مع

أن الرجال لم يتمنوا أن يكونوا نساء ولا أن يعملوا عمل النساء ، وهو الولادة وتربية الأولاد وغير ذلك مما هو معروف ، وإنما كان النساء هن اللواتى تمنين عمل الرجال . وأى عمل الرجال تمنين ؟ تمنين أخص أعمال الرجولة وهو حماية الذمار والدفاع عن الحق بالقوة . فى هذا التعبير عناية بالنساء وتلطف بهن وهن موضع للرأفة والرحمة لضعفهن وإخلاصهن فيما تمنين . والحكمة فى ذلك أن لا يظهر ذلك التمنى الناشىء عن الحياة الملية الشريفة ، فان تمنى مثل هذا العمل غريب من النساء جداً ، وسببه أن الأمة فى عنفوان حياتها يكون النساء والأطفال فيها مشتركين مع الرجال فى هذه الحياة وآثارها وانها لتسرى فيها سريانا عجيباً . ومن عرف تاريخ الإسلام ونهضة العرب به وسيرة النبى ﷺ والمؤمنين فى زمنه يرى أن النساء كن يسرن مع الرجال فى كل منقبة وكل عمل . فقد كن يأتين ويبايعن النبى ﷺ تلك المبايعة المذكورة فى (سورة الممتحنة) كما كان يبايعه الرجال ، وكن ينفرن معهم إذا نفروا للقتال يخدمن الجرحى ويأتين غير ذلك من الأعمال . فاراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها ليتقن كل منهما عمله ويقوم به كما يجب مع الإخلاص له . وتنكير لفظ « نصيب » لإفادة أن ليس كل ما يعمله العامل يؤجر عليه ، وإنما الأجر على ما عمل بالاخلاص ،

أى ففى الكلام حث ضمنى عليه ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ أى ليسأل كل منكم الإعانة والقوة على ما نيط به حيث لا يجوز له أن يتمنى ما نيط بالآخر ، كأنه يقول : وجهوا أنظاركم إلى ما يقع تحت كسبكم ، ولا توجهوها إلى ما ليس فيه استطاعتكم ، فانما الفضل بالأعمال الكسبية ، فلا تتمنوا شيئاً بغير كسبكم وعملكم

﴿ إن الله كان بكل شىء عليما ﴾ فهو الذى علم الانسان بالالهام وبآياته فى الأنفس والآفاق كى يطلب المنافع والفضل . وكلما سأله بلسان الحال والاستعداد والعمل زاده من فضله بخزائن جوده لا تنفد ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزل إلا بقدر معلوم ﴾ ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من علمه ما يفضلون به القاعدين البطالين ، وقد بلغ التفاوت بين الناس فى الفضل حداً بعيداً جداً حتى كاد التفاوت بين بعض الشعوب وبعضهم الآخر يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان

والنص عام ينهى عن تمنى ما فى أيدى الآخرين من فضل . ويأمر بالتوجه إلى فضل الله ، تكريماً للنفس عن التطلع ، وتنقية للضمير من الحسد ، وتبرئة للقلب من الحقد ، وتوجيهاً للفرد إلى الله الذى لا تغلق خزائنه ولا تنفد

وليس فى هذا تحذير للفقراء ليتركوا الأغنياء وغناهم ويكتفوا بالتطلع إلى رزق السماء ، إنما المقصود هو صيانة أرواحهم من التهادى والضعف ، ومن الحسد والحقد أمام الثراء والأثرياء . أما حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء فيكفلها لهم التشريع عن طريق آخر غير طريق التطلع والتمنى - والتمنى هو التطلع العاجز السلبى الذى لا يدفع إلى جهد ولا محاولة . . فأما الرغبة فى الثراء عن طريق العمل فهى رغبة حميدة مشروعة لأنها تدفع إلى الانتاج والنماء والصلاح وهى ابتغاء فضل الله الذى لا يستحقه إلا العاملون . والله هو العليم بمداخل النفوس ومسارب الأحاسيس ، ومسالك الخير فى الحياة ﴿ إن الله كان بكل شىء عليما ﴾

وإذا كانت المرأة لا ترث إلا نصف ما يرث الرجل فقد كشفنا عند استعراض آيات الإرث عما نراه من حكمة ذلك التشريع . وإذا كانت لا تساهم فى الغنيمة ولم يكتب عليها الجهاد ، فانما ذلك لأن وظيفتها فى إنجاب الذرية وفى تنشئة الأجيال وفى منح المحضن الأول جوه وعطره . لأن وظيفتها فى هذا كله مقدمة على الجهاد . ولها فى مقابلها فرائض على الرجل تحقيقاً للعدل فى الحقوق والواجبات

* * *

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره من المال حتى لا يسوقه التمنى إلى التعدى ، وهو وإن كان نهياً عاماً فالسياق يعنى المراد منه وهو المال لأن أكثر التمنى يتعلق به ، ثم ذكر القاعدة العامة فى حيازة الثروة وهى الكسب - انتقل إلى نوع آخر تأتى به الحيازة وهو الإرث

﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك ﴾ أى ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا

موالى أى ورثه هم أولى بميراثه . فالموالى من لهم الولاية على التركة . والمعنى : ولكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا والنساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم ، وهؤلاء الموالى هم ﴿ الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم ﴾ أى جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج كما تقدم التفصيل فى أول السورة . فالمراد هنا بالذين عقدت أيمانكم الأزواج ، فان كل واحد من الزوجين يصير زوجاً له حق الإرث بالعقد . والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين ﴿ فآتوهم نصيبهم ﴾ أى فاعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المفروض لهم ولا تنقصوهم منه شيئاً . ولما كان الميراث موضعاً لطمع بعض الوارثين ـ أى ولا سيما من يكون فى أيديهم المال لإقامة المورث معهم ـ قال تعالى بعد الأمر بإعطاء كل ذى حق حقه ﴿ إن الله كان على كل شىء شهيداً ﴾ أى أنه تعالى رقيب عليكم حاضر يشهد تصرفكم فى التركة وغيرها ، فلا يحملنكم الطمع وحسد بعضكم لبعض الوارثين على أن يأكل من نصيبه شيئاً سواء كان ذكراً أم أنثى كبيراً أم صغيراً

° ° °

الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰلِهِمْ ، فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ، وَالَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

لما نهى الله تعالى كلا من الرجال والنساء عن تمنى ما فضل به بعضهم على بعض ، وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم ، وأمرهم أن يؤتوا الوراث نصيبهم ،

ولما كان من جملة أسباب هذا البيان ذكر تفضيل الرجال على النساء في الميراث والجهاد كان لسائل هنا أن يسأل عن سبب هذا الاختصاص ؟

إن دستور البيت وتنظيم السلطات فيه يستدعى توحيد القيادة - والإسلام يسير على قاعدة توحيد القيادة فى كل عمل ، حتى إذا كان اثنان فى مهمة فليكن أحدهما أميراً : وذلك منعاً لتنازع القيادة والرأى والاتجاه . والمجتمع شركة لا بد فيها من مدبر ، فمن يكون المدبر فى المجتمع ؟ إن المرأة بحكم وظيفتها مشغولة بالمحضن الذى ينشىء المستقبل . وهذه الوظيفة تقتضى أولا أن تقضى المرأة فترات طويلة بين الحمل والرضاع محجوبة عن المجتمع وما يجرى فيه ، وتقتضى ثانية أن تنمو فى نفسها العواطف والانفعالات أكثر مما ينمو التفكير والتدبير ، لأن هذا أصلح للوظيفة التى تؤديها

فلم يكن بد إذن أن تكون القوامة فى هذه الشركة للرجل ، لأن وظيفته تقتضى أن يلابس المجتمع فى معظم أوقاته فيتعرف مداخله ومخارجه ، كما تقتضى أن تنمو عضلاته وأفكاره أكثر من عواطفه وانفعالاته ؛ وكل هذا يجعله أقدر على وظيفة القوامة مادياً ومعنوياً . وقد فضل فى الميراث لما عليه من تبعات . وفضل فى الغنيمة لأنه يشارك فى الجهاد بعد ما تفرغ له . وألزم فى مقابل هذا بفرائض للمرأة من المال . وعلاقة المال بالقوامة ظاهرة . . والأمر فى النهاية منوط بحسن توزيع العمل ، وحسن سير الشركة الكبرى ، شركة الحياة

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أى ان من شأنهم المعروف المعهود القيام على النساء بالحماية والرعاية والولاية والكفاية ، ومن لوازم ذلك أن يفرض عليهم الجهاد دونهن ، فإنه يتضمن الحماية لهن وأن يكون حظهم من الميراث أكثر من حظهن لأن عليهم من النفقة ما ليس عليهن . وسبب ذلك أن الله تعالى فضل الرجال على النساء فى أصل الخلقة ، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة ، فكان التفاوت فى التكاليف والأحكام أثر التفاوت فى الطبيعة والاستعداد . وثم سبب آخر كسبى يدعم السبب الفطرى وهو ما أنفق الرجال على النساء من أموالهم ، فإن فى المهور تعويضاً للنساء ،

ومكافأة على دخولهن بعقد الزوجية تحت رياسة الرجال . فالشريعة كرمت المرأة إذ فرضت لها مكافأة عن أمر تقتضيه الفطرة ونظام المعيشة ، وهو أن يكون زوجها قيما عليها ، فجعل هذا الأمر من قبيل الأمور العرفية التى يتواضع الناس عليها بالعقود لأجل المصلحة ، كأن المرأة تنازلت باختيارها عن المساواة التامة وسمحت بأن يكون للرجل عليها درجة واحدة هى درجة القيامة والرياسة ، ورضيت بعوض مالى عنها فقد قال تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ .

﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ . هذا تفصيل لحال النساء فى هذه الحياة المنزلية التى تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل ، ذكر أنهن فيها قسمان صالحات وغير صالحات ، وأن من صفة الصالحات القنوت وهو السكون والطاعة لله تعالى وكذا لأزواجهن بالمعروف وحفظ الغيب . عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « خير النساء التى إذا نظرت اليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها » والغيب هنا هو ما يستحى من إظهاره أى حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين فلا يطلع أحد منهن على شىء مما هو بالزوج — ﴿ بما حفظ الله ﴾ والمعنى حافظات للغيب بحفظ الله أى بالحفظ الذى يؤتيهن الله إياه لصلاحهن . فإن الصالحة يكون لها من مراقبة الله تعالى وتقواه ما يجعلها محفوظة من الخيانة قوية على حفظ الأمانة ، أو حافظات له بسبب أمر الله بحفظه ، فهن يطعنه ويعصين الهوى . فعسى أن يصل معنى هذه الآية إلى نساء عصرنا اللواتى يتفكهن بافشاء أسرار الزوجية ولا يحفظن الغيب فيها

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ﴾ والنشوز فى الأصل بمعنى الارتفاع ، فالمرأة التى تخرج عن حقوق الرجل قد ترفعت عليه وحاولت أن تكون فوق رئيسها ، بل ترفعت أيضاً عن طبيعتها وما يقتضيه نظام الفطرة فى التعامل ، فتكون كالناشز من الأرض الذى خرج عن الاستواء . فإذا آنس الرجل من المرأة ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية فعليه أولا أن يبدأ بالوعظ الذى يرى أنه يؤثر فى نفسها . والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة . وأما الهجر فهو من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره

إياها . ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ولا بهجر الحجرة التى يكون فيها الاضطجاع وإنما يتحقق بهجر فى الفراش نفسه ، وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها الله تعالى . واما الضرب فاشترطوا فيه أن يكون غير مبرّح ، وهذا أمر يحتاج اليه فى حال فساد البيئة وغلبة الأخلاق الفاسدة ، ويباح إذا رأى الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه ، وإذا صلحت البيئة وصارت النساء يعقلن النصيحة ويستجبن للوعظ أو يزدجرن بالهجر فيجب الاستغناء عن الضرب ، فلكل حال حكم يناسبها فى الشرع . ونحن مأمورون على كل حال بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان ، والأحاديث فى الوصية بالنساء كثيرة جداً

ملحوظة

قد يستعظم بعض من قلد الافرنج من المسلمين مشروعية ضرب المرأة الناشز ولا يستعظمون أن تنشز وتترفع هى عليه فتجعله وهو الرئيس مرءوساً محتقراً وتصر على نشوزها فلا تلين لوعظه ونصحه ، ولا تبالى بإعراضه وهجره ، فان كان قد ثقل ذلك عليهم فليعلموا أن الافرنج أنفسهم يضربون نساءهم العالمات المهذبات ، بل فعل هذا حكماؤهم وعلماؤهم وملوكهم وأمراؤهم ، فهو ضرورة لا يستغنى عنها ولا سيما فى دين عام للبدو والحضر من جميع أصناف البشر ، وكيف يستنكر هذا والعقل والفطرة يدعوان اليه إذا فسدت البيئة وغلبت الأخلاق الفاسدة ولم ير الرجل مناصاً منه ولا ترجع المرأة إلا به ، ولكن إذا صلحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة أو يزدجرن بالهجر وجب الاستغناء عنه ، إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن وإمساكهن بمعروف أو تسريحن بإحسان

والضرب علاج مرّ قد يستغنى عنه الخير الكريم . ولكنه لا يزول من البيوت إلا إذا عم التهذيب الرجال والنساء ، وعرف كل ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات . وكان للدين سلطان على النفوس يجعلها تراقب الله فى السر والعلن

﴿ فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ أى إذا أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية فلا تبغوا بتجاوزها إلى غيرها ، فابدأوا بما بدأ الله به من

الوعظ فان لم يفد فليهجر فان لم يفد فليضرب فاذا لم يفد هذا أيضاً يلجأ إلى التحكيم .

﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ أتى بهذا بعد النهى عن البغى ، لأن الرجل إنما يبغى على المرأة بما يحسه فى نفسه من الاستعلاء عليها وكونه أكبر منها وأقدر ، فذكره تعالى بعلوه وكبريائه وقدرته عليه ليتعظ ويخشع ويتقى الله فيها . واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم يعنى أن أولادهم يتربون على ذل الظلم فيكونون كالعبيد الأذلاء لمن يحتاجون إلى المعيشة معهم

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . الخلاف بين الزوجين قد يكون بنشوز المرأة ، وقد يكون بظلم من الرجل . فإذا تمادى هو فى ظلمه أو عجز عن إنزالها عن نشوزها وخيف أن يحول الشقاق بينهما دون إقامتها لحدود الله تعالى فى الزوجية بإقامة أركانها الثلاثة : السكون والمودة والرحمة ، وجب على المؤمنين المتكافلين فى مصالحهم ومنافعهم أن يبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها عارفين بأحواله وأحوالها . ويجب على هذين الحكمين أن يوجها إرادتهما إلى إصلاح ذات البين ، ومتى صدقت الإرادة كان التوفيق الإلهى رفيقها إن شاء الله تعالى . ويجب الخضوع لحكم الحكمين والعمل به . نخوف الشقاق توقعه بظهور أسبابه . والشقاق هو الخلاف الذى يكون به كل من المختلفين فى شق أى فى جانب . والحكم من له حق الحكم والفصل بين الخصمين

﴿ إن الله كان عليما خبيراً ﴾ أى أنه كان فيما شرعه لكم من هذا الحكم عليما بأحوال العباد وأخلاقهم وما يصلح لهم ، خبيراً بما يقع بينهم وباسبابه الظاهرة والباطنة فلا يخفى عليه شىء من وسائل الاصلاح بينهما

* * *

وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ

وَالْيَتَمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَـٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَـٰنُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

نحن إزاء هذا البيان أمام علاقات إنسانية أوسع من علاقات الأسرة التى كنا حيالها فيما سلف ، وإن كانت تبدأ بشىء من علاقات الأسرة فيما يختص بالوالدين . والسياق هنا يتناول رعاية طوائف شتى فى المجتمع الانسانى إلى جوار الدين ، ويحث على الإحسان اليهم ابتغاء مرضاة الله لا رياء واختيالا ومباهاة

ويربط السياق هذا البر بعبادة الله تعالى إشارة إلى الرابطة الأولى التى يلتقى عندها العباد جميعاً رابطتهم فى الله خالقهم ورازقهم على النحو الذى بدأت به هذه السورة ـ وهو الأمر بعبادته تعالى . وعبادته ملاك حفظ الأحكام والعمل بها وهى الخضوع له تعالى وتمكين هيبته وخشيته من النفس والخشوع لسلطانه فى السر والجهر . فمتى كان الإنسان على هذا فانه يقيم هذه الأحكام وغيرها حتى تصلح جميع أعماله . ولذلك كانت النية عندنا تجعل الأعمال العادية عبادات كالزارع يزرع ليقيم أمر بيته ويعول من يمونه ويفيض من فضل كسبه على الفقراء والمساكين ويساعد على الأعمال ذات المنافع العامة فعمله بهذه النية يجعل حرثه من أفضل العبادات

﴿ واعبدوا الله ﴾ تشمل التوحيد وجميع ما يمده من الأعمال . وعبادة الله هى الخضوع له وتمكين هيبتـــه وعظمته من النفس والخشوع لسلطانه فى السر والجهر ، وأمارة ذلك العمل بما به أمر وترك ما عنه نهى ، وبذا تصلح جميع

الأعمال من أقوال وأفعال ﴿ ولا تشركوا به شيئاً ﴾ . الشرك أنواع وضروب أدناها ما يتبادر إلى أذهان عامة المسلمين أنه العبادة لغير الله كالركوع والسجود له ، وأشـــدها وأقواها هو ما سماه الله دعاء واستشفاعاً وهو التوسل بهم إلى الله وتوسيطهم بينهم وبين الله تعالى . فالقرآن ناطق بهذا ، وهو المشهور فى كتب السير والتاريخ . فهذا المعنى هو أشد أنواع الشرك وأقوى مظاهره التى يتجلى فيها معناه أتم التجلى ، وهو الذى لا ينفع معه صلاة ولا صيام ولا عبادة أخرى . وهناك شرك خفى لا يكاد يسلم منه إلا الصديقون ، ومنه أن يعمل المؤمن العمل الصالح من العبادة لله تعالى ويحب أن يمدح عليه أو يتلذذ بالمدح عليه مثلا

﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أى واحسنوا بالوالدين إحسانا تاماً ولا تقصروا فى شىء منه . والاحسان فى المعاملة يعرفه كل أحد ، وهو يختلف باختلاف أحوال الناس وطبقاتهم ، وان العامى الجاهل ليدرى كيف يحسن إلى والديه ويرضيهما ما لا يدرى العالم النحرير

﴿ وبذى القربى ﴾ إذا قام الإنسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته وصلحت أعماله وقام بحقوق الوالدين فصلح حالها وحاله تكون بذلك وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد . وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة فاذا عاون أهل البيوت الأخرى التى تنسب إلى هذا البيت بالقرابة وعاونته هى أيضاً يكون لـكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه أن يحسن بها إلى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تـكفيهم مؤونة الحاجة إلى الناس الذين لا يجمعهم به نسب ، وهم الذين عطفهم على ذوى القربى بقوله ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ فان الله يوصى باليتامى فى مثل هذا المقام لأن اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوى الغيور وهو الأب ، أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذى هو جناية على العقل أو فساد الاخلاق الذى هو جناية على النفس ، وهو بجهله وفساد أخلاقه يكون شراً على أولاد الناس يعاشرهم فيسرى فيهم فساده ، وقلما تستطيع الأم أن تربى الولد تربية كاملة مهما اتسعت معارفها ، وكذلك المساكين لا تنتظم الهيئـــة الاجتماعية إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم ، فان أهمل أمرهم الأغنياء كانوا بلاء وويلا على الناس

﴿ والجار ذى القربى والجار الجنب ﴾ الجوار ضرب من ضروب القرابة ، فهى قرب بالنسب وهو قرب بالمكان والسكن . وحدد بعضهم الجوار بأربعين داراً من كل جانب من الجوانب الأربعة . والحكمة فى الوصية بالجار هى التى تعرفنا سر الوصية ومعنى الجوار . المراد بالجار من تجاوره ويتراءى وجهك ووجهه فى غدوك أو رواحك إلى دارك ، فيجب أن تعامل من ترى وتعاشر بالحسنى ، فتكون فى راحة معهم ويكونون فى راحة معك . وعدم التحديد أصوب ، والرجوع فى ذلك إلى العرف ، والأقرب حقه آكد . ومن الاحسان بالجار الاهداء اليه ودعوته إلى الطعام وتعاهده بالزياره والعيادة . ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ هو من صاحبته وعرفته ولو وقتاً قصيراً ﴿ وابن السبيل ﴾ أى من تبناه السبيل فى غير معصية — أى السائح الرحالة فى غرض صحيح غير محرم . والأمر بالاحسان بابن السبيل يتضمن الترغيب فى السياحة والإعانة عليها ، وقد أهملها المسلمون فى هذه العصور . واللقيط يوشك أن يدخل فى معنى ابن السبيل واللفظ يتسع للقيط ، ولا سيما فى باب الاحسان ، ما لا يتسع لغيره . وهو أولى وأجدر من اليتيم بما ذكرنا من الحكمة والفقه فى الأمر بالاحسان . وإنما غفل جماهير المفسرين عن ذكره لندرة اللقطاء فى زمن المتقدمين منهم

﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ أى والذين ملكتموهم من أرقائكم وهم عبيدكم وإماؤكم ، ويشمل هذا تحريرهم وعتقهم وهو أتم الاحسان وأكمله ، ومساعدتهم على شراء أنفسهم دفعة واحـــدة أو نجوماً وأقساطاً ، وحسن معاملتهم فى الخدمة ، وبينت السنة ذلك قولا وعملا ، ومنها أن لا يكلفوا ما لا يطيقون . روى الشيخان وأبو داود والترمذى من حديث أبى ذر مرفوعاً « هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم عليه »

﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً ﴾ فالمختال هو المتكبر الذى يظهر على بدنه أثر كبره فى الحركات والأعمال ، فيرى نفسه أعلى من نفوس الناس ، وأنه

يجب على غيره أن يتحمل من تيهه ما لا يتحمله هو منه . والفخور هو المتكبر الذى يظهر أثر الكبر فى قوله كما يظهر فى فعل المختال ، فهو يذكر ما يرى أنه ممتاز به على الناس تبجحاً بنفسه ، وتعريضاً باحتقار غيره . فالمختال الفخور مبغوض عند الله تعالى لانه احتقر جميع الحقوق التى وضعها عز وجل وأوجبها للناس ، وعمى عن نعمه تعالى عليهم وعنايته بهم . ان المختال لا يقوم بحقوق الوالدين ولا حقوق ذوى القربى لانه لا يشعر بما عليه من الحق لغيره ، وهو منكر لما بقى من الحقوق ، فهذا رجل مفتون بنفسه ، مسحور فى عقله وحسه ، فلا يرجى منه البر والاحسان ، وإنما يتوقع منه الإساءة والكفران

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ المراد بالبخل البخل بذلك الإحسان المأمور به ، فهو أعم من البخل بالمال ، فيشمل البخل بلين الكلام ، وإلقاء السلام ، والنصح فى التعليم وبالنفس لإنقاذ المشرف على التهلكة ، وكذلك كتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال ، وكتمان العلم . وجىء به بعد الأول لتوبيخ أهله وبيان أنهم لا حق لهم فيه . ويجوز أن يخص البخل بإمساك المال ويجعل الكتمان عاماً شاملا لما عداه من أنواع الاحسان . فالكلام فى الاحسان ، والمقصرون فيه إنما يقصرون بعلة الخيلاء والفخر اللذين هما مظهر الترفع والكبر ، فهو يبين لنا أن من كان ملوث النفس بتلك الرذيلة لا يكون محسناً ، لأن الكبر يستلزم جحود الحق ولا سيما إذا ظهرت آثاره بالقول والعمل ، وجحود الحق يستلزم منعه ، ومنعه هو البخل . فبين أن الملوثين بذلك الخلق الذى يبغض الله صاحبه ولا يحبه (وهو الكبر البين أثره) يبخلون بما أمروا به من الاحسان ، ويأمرون الناس بالبخل إما بلسان المقال وإما بلسان الحال بأن يكونوا قدوة سيئة فى ذلك ، ويكتمون نعم الله عليهم بانكارها وعدم الشكر عليها بالانفاق منها ولذلك توعدهم بقوله ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ﴾ أى وهيأنا لهم بكبرهم وكفرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذاباً ذا إهانة يجمع لهم فيه بين الألم والمهانة والذلة جزاء كبرهم . وقال « للكافرين » ولم يقل « لهم » للإيذان بأن هذه الأخلاق والأعمال إنما تكون من الكفور ، لا من المؤمن الشكور

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ﴾ فالمرائى لا يقصد بإنفاقه إلا الفخر على الناس بكبريائه وإشراع الطريق لخيلانه . والمرائى فى الحقيقة بخيل لا يرى لأحد عليه حقا ، ولكنه يتوهم أنه صاحب الفضل على الناس ، فهو لا يتحرى فى إنفاقه مواضع النفع العام ولا الخاص ، وإنما يتحرى مواضع التعظيم والمدح ، فهو تاجر يشترى تعظيم الناس له وتسخيرهم لقضاء حاجه والقيام بخدمته

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المجرمين المرائين بقوله ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ وذلك بأن المرائى يثق بما عند الناس بما لا يثق بما عند الله ، ويرجح التقرب اليهم على التقرب اليه ، ويؤثر ما عندهم من المدح وتوقع النفع على ما أعده الله فى الآخرة على الإيمان وعمل الصالحات ، فالله - فى نظره المظلم - أهون من الناس . فهل يعد هذا مؤمناً بالله إيماناً حقيقياً ومؤمناً باليوم الآخر كما يجب ؟ أم يكون إيمانه تخيلا كتخيل الشعراء وقولا كقول الصبيان

﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ فى هذه الآية تنبيه إلى تأثير قرناء المرء فى سيرته ، وما ينبغى من اختيار القرين الصالح على قرين السوء ، وتعريض بتنفير أولئك الأنصار من مقارنة أولئك اليهود الذين كانوا ينهونهم عن الانفاق فى سبيل الله ، وبيان أنهم شياطين يعدون الفقر وينهون عن المعروف ويأمرون بالمنكر . والقرين الصالح من يكون عوناً لك على الخير ، مرغباً لك فيه ، منفراً لك بنصحه وسيرته عن الشر ، مبعداً لك عنه ، مذكراً لك بتقصيرك مبصراً إياك بعيوب نفسك . وكم أصلح القرين الصالح فاسداً وكم أفسد قرين السوء صالحاً

﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ جهل المرائين جدير بأن يتعجب منه ، لأنه جهل بالله ، وجهل بأحوال الناس . ولو آمنوا وأخلصوا وأحسنوا ووثقوا بوعد الله ووعيده لكان هذا الإيمان كنز سعادة لهم ، فان من يحسن موقناً أن المال والجاه من فضل الله على العبد ؛ وأنه ينبغى أن يتقرب بهما اليه تعلو همته فتهون عليه المصاعب والنوائب ، ويكون له هذا الإيمان الصحيح عوضاً له عن كل فائت وسلوى فى كل مصاب

﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ تنبيه للمؤمن على الاكتفاء بعلم الله تعالى بإنفاقه وعدم مبالاته بعلم الناس ، فهو لا ينسى عمل عامل ولا يظلمه من أجره عليه شيئاً ، وهو الذى يسخر القلوب لمن يشاء

* * *

إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْها ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (٤٠) فكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنا بِكَ عَلَى هؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ولا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً (٤٢)

بعد ما بين تعالى صفات المتكبرين وسوء حالهم ، وتوعدهم على ذلك ، أراد أن يزيد الأمر تأكيداً ووعيداً فبين أنه لا يظلم أحداً من العاملين بتلك الوصايا قليلا أو كثيراً ، بل يوفيه حقه بالقسطاس المستقيم . فالآية تتميم لموضوع الأوامر السابقة وترغيب للعاملين فى الخير كما قال فى سورة الزلزلة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الخ ، فمن سمع هذه الآية تعظم رغبته فى الخير ورجاؤه فى الله تعالى

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ ان الله تعالى لا ينقص أحدا من أجر عمله والجزاء عليه شيئاً وإن صغر كالذرة أو ما هو دونها ، بل يوفيه أجره ولا يعاقبه بغير استحقاق للعقوبة ، فلكل عمل أثر فى نفس العامل يرفع نفسه بالحق والخير إلى عليين ، أو يهبط بها إلى سافلين ، ولذلك درجات ومثاقيل مقدرة فى نفسها لا يحيط بدقائقها إلا من أحاط بكل شىء علماً

﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ أى يزيد المحسن فى حسنته فان كانت الذرة التى عملها العامل سيئة كان جزاؤها بقدرها ؛ وان كانت حسنة يضاعفها له الله تعالى عشرة أضعاف أو أضعافاً كثيرة

﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾ أى يزيد المحسنين من فضله ويعطيهم من

لدنه أي من عنده لا فى مقابل حسناتهم أجراً عظيما أى عطاء كبيراً . وفى ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغير المحسنين إذ هو علاوة على أجور أعمالهم ، فلا مطمع للسيئين فيه

﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ . والمعنى : إذا كان الله لا يضيع من عامل مثقال ذرة فكيف يكون حال الناس إذا جمعهم الله وجاء بالشهداء عليهم وهم الانبياء ، فما من أمة إلا ولها بشير ونذير

تعرض أعمال كل أمة على نبيها لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين وسائر أتباع الانبياء ، فمن شهد لهم نبيهم ـ بعد معرفة أعمالهم وظهورها ـ بأنهم على ما جاء به عمل وأمر الناس بالعمل به فهم الناجون ، وأما إذا كانت أخلاقهم وأعمالهم فاسدة وشراً فهم الهالكون

وقد اختلفوا فى المراد بقوله ﴿ على هؤلاء شهيدا ﴾ قيل ان المراد به شهادة خاتم المرسلين على المرسلين قبله ، فهم يشهدون على أممهم ، وهو يشهد عليهم . وقيل هى شهادته على أمته ، وهذا هو الموافق لقوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً ﴾ أى إن هذه الأمة بحسن سيرتها تكون شهيدة على الأمم السالفة وحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين . والرسول ﷺ بسيرته وأخلاقه العالية وسننه المرضية يكون حجة على من تركها وتساهل فى اتباعها ، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع المحدثة من بعد

فهل نعتبر بهذه الشهادة ، ونستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته ، ونجتهد فى اجتناب البدع والتقاليد التى لم تكن فى عهده ﷺ ، وبذا نكون أمة وسطاً لاتفريط عندها فى الدين ولا إفراط ، لا فى الشئون الجسمية ولا فى الشئون الروحية ، أم نظل فى غوايتنا تقليداً للآباء فنكون كما قال الكافرون « انا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »

﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ ، والمعنى : فكيف يكون حال الناس إذا جئنا من كل أمة بشهيد الخ ، والجواب :

يومئذ يود أي يحب ويتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء به أن يصيروا تراباً تسوّى بهم الأرض فيكونوا وإياها سواء. كما قال فى آخر سورة النبأ ﴿ ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً ﴾

﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ أى لا يكتمون شيئاً من خبر كفرهم ولا سيئاتهم فى ذلك الوقت الذى تقوم به الحجة عليهم بشهادة أنبيائهم الذين كانوا ينسبون اليهم ما كانوا عليه من كفر وأباطيل وبدع وتقاليد

* * *

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَاتَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

أمر الله تعالى فى الآيات السابقة بعبادته ، وترك الشرك به ، وبالاحسان للوالدين وغيرهما ، وتوعد الذين لا يقومون بهذه الأوامر والنواهى . وقد عرفنا من سور أخرى أن الله تعالى يأمر بالاستعانة بالصلاة على القيام بأمور الدين وتكاليفه كما قال ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وقال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وقال ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ﴾ وقد كثر فى القرآن الأمر بالصلاة ، لا بالصلاة هكذا مطلقاً ، بل بإقامتها . وإنما إقامتها القيام بها على الوجه الأكمل وهو أن ينبعث المؤمن اليها بباعث الشعور بعظمة الله وجلاله ، ويؤديها بالخشوع له تعالى . فهذه الصلاة هى التى تعين على القيام بالاوامر وترك النواهى . ولذلك جاء ذكرها ها هنا عقب تلك الأوامر والنواهى الجامعة

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ذكرت الصلاة فى القرآن بأساليب مختلفة ، وذكرت ها هنا فى سياق النهى عن الاتيان بها فى حال

السكر الذى لا يتأتى معه الخشوع والحضور مع الله تعالى بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه . فالمراد بالصلاة حقيقتها لا مواضعها وهى المساجد ، قال العلماء إن هذه الآية تمهيد لتحريم السكر تحريماً قطعياً لا هوادة فيه ، فان من يتقى أن يجىء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لانتشار الصلوات الخمس فى هذه المدة

﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ وهذا التعليل للنهى يفيد أن العلم بما يقوله الانسان فى الصلاة من تلاوة وذكر واجب أو شرط ، والعلم به فهمه . هذا هو حاصل المعنى على القول بأن المراد بالصلاة حقيقتها كما هو الظاهر ، فان أريد بها موضعها فالمراد تنزيه المساجد وهى بيوت الله عن اللغو والكلام الباطل الذى من شأنه أن يبدر من السكران . ﴿ ولا جنباً ﴾ والمعنى لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً . والجنب إشارة إلى المضاجعة التى هى أسباب الجنابة . والجنب يعرفه كل أحد يعنى من قراء العربية لأنه مستعمل الآن عند الخاصة والعامة فى المعنى الذى جاء به القرآن

﴿ إلا عابرى سبيل ﴾ اى لا تقربوا الصلاة جنباً فى حال من الأحوال إلا حال كونكم عابرى سبيل أى مجتازى طريق . ومن قال إن المراد بالصلاة هنا حقيقتها فسر عابر السبيل هنا بالمسافر ، ومن قال إن المراد بالصلاة هنا مواضعها أى المساجد فسره بالمجتاز لحاجة . ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ أى لا تقربوا الصلاة جنباً لا بأدائها ولا بالمكث فى مكانها إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل فى المسجد . والاغتسال عبارة عن إفاضة الماء على البدن كله . ومن شأن الجنابة أن تحدث تهيجاً فى المجموع العصبى فيتأثر بها البدن كله ويعقبها فتور وضعف فيه يزيله الماء ، ولذلك جاء فى الحديث الصحيح « إنما الماء من الماء » رواه مسلم

﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ طويل أو قصير والشأن فيهما تعسر استعمال الماء ولا سيما فى الحجاز وغيره من جزيرة العرب . وقد يكون الماء ضاراً بالمريض كبعض الأمراض الجلدية والقروح

﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء ﴾ أى أو أحدثتم حدثاً أصغر وهو خروج شىء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وعبر عنه بالمجىء من الغائط كناية كما هى سنة القرآن فى النزاهة بالكناية عما لا يحسن التصريح به . وملامسة النساء كناية عن غشيانهن والافضاء اليهن . وحقيقة اللمس المشترك من الجانبين ولو باليد فهو كالمباشرة وحقيقتها إصابة البشرة للبشرة وهى ظاهر الجلد

﴿ فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ . المعنى أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم — وتيمموا صعيداً طيباً أى اقصدوا وتحروا مكاناً من صعيد الأرض أى وجهها طيباً أى طاهراً لا قذر فيه ولا وسخ ، فامسحوا هناك بوجوهكم وأيديكم تمثيلا لمعظم عمل الوضوء فصلوا

والخلاصة أن حكم المريض والمسافر إذا أرادا الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر أو ملامس النساء ولم يجد ماء . فعلى كل هؤلاء التيمم فقط ، قاله الاستاذ الإمام . لكن المعروف فى المذاهب الاربعة أن شرط التيمم فى السفر فقد الماء ، فلا يجوز مع وجوده ، وهذا بخلاف ظاهر الآية

ومن تأمل فى رخص السفر التى منها قصر الصلاة وإباحة الفطر فى رمضان لا يستنكر أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين . فالمشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد فى هذا الزمان الذى سهلت فيه وسائل السفر فى السكك الحديدية والبواخر ، فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل فى مفاوز الحجاز وجباله ، فأشق ما يشق فى السفر الغسل والوضوء . وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه ، ففى البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ولكنها خاصة بالاغنياء الذين يركبون فى الدرجة الأولى والثانية وهؤلاء الاغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر معه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فاذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها الماء على هذا الحال يتعسر فيها

الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال فى قطر السكك الحديدية أو فى قوافل الجمال والبغال

﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ العفوّ ذو العفو العظيم ، ويطلق العفو بمعنى اليسر والسهولة ، ومن عفوه تعالى أن أسقط فى حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل ، والمغفرة من الغفر والستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه ، فالعفو عن الذنب جعله كأن لم يكن بأن لا يبقى له أثر فى النفس لا ظاهر ولا خفى

ان التيمم فى الآية بمعنى القصد وهو المعنى اللغوى ، ثم صار حقيقة شرعية فى العمل المخصوص وهو ضرب اليدين بوجه الارض ومسح الوجه واليدين بهما . وفى الحديث عن رسول الله ﷺ « إنما يكفيك أن تضرب بيديك التراب ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك إلى الرسغين » . وتيمم الجنب كتيمم المحدث

قال الشعرانى فى الميزان فى وجه قول الشافعى وأحمد لا يجوز التيمم إلا بالتراب أو برمل فيه غبار : وقول أبى حنيفة ومالك بجوازه بالحجارة وجميع أجزاء الارض حتى النبات عند مالك ، أقول وكذا الثلج والجليد فى رواية

المتيمم لا يعيد الصلاة إذا وجد الماء - وهذا هو الظاهر من الآية - فإن الله تعالى أسقط عنه شرط الطهارة بالماء . وفى حديث أبى سعيد الخدرى عند أبى داود والنسائى والدارمى والحاكم والدارقطنى قال : خرج رجلان فى سفر ، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء ، فتيمما صعيداً طيباً فصليا . ثم وجدا الماء فى الوقت ، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يعد الآخر . ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا له ذلك . فقال للذى لم يعد « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للذى توضأ وأعاد « لك الأجر مرتين »

° ° °

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ الضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرا

(٤٥) مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيراً من الأحكام الشرعية ، ووعد فاعلها بجزيل الثواب ، وأوعد تاركها بشديد العقاب ، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الامم الذين تركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم واشتروا الضلالة بالهدى لينبه الذين خوطبوا بالاحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصروا أخذهم بالعقاب الذى رتبه على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة . والمؤمنون بالله حقاً بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الاحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس ، وذلك هو الأثر المطلوب منها . ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها ، لا بأخذ صورها الظاهرة فحسب

ولكن قد اكتفى بعض الامم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط ، كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة ، وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل والتيمم لا يغنى عنهم شيئاً إذا لم يطهروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلا لكرامته ، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الامم

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ أى ألم ينته إلى علمك . أن الذين أعطوا حظاً من علم الكتاب يعنى التوراة وهم اليهود . أوتوا نصيباً من الكتاب لانهم لم يأخذوا الكتاب كله بل تركوا كثيراً من أحكامه ولم يعملوا بها وزادوا عليها . والزيادة فيه كالنقص منه

والامر المحقق الذى لا شك فيه هو أنهم يعملون ببعض أحكام التوراة وقد أهملوا سائرها ففى مقام الاحتجاج بالعمل بالدين وعدمه يذكر الواقع وهو أنهم لم يؤتوا الكتاب كله إذ لم يعملوا به كله وإنما عملوا ببعضه ، وفى مقام الاحتجاج عليهم بالإيمان بالنبى والقرآن يناديهم ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا ﴾ الخ — والمعنى ألم ينته إلى علمك أيها الرسول أن هؤلاء الذين اعطوا نصيباً أى حظاً وطائفة من الكتاب الإلهى كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يشترون الضلالة باختيارهم لانفسهم بدلا من الهداية ويريدون أن تضلوا أيها المسلمون السبيل أى طريق الحق القويم كما ضلوا ، فهم يكيدون لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أى والله أعلم منكم بأعدائكم وذواتهم كالمنافقين الذين تظنون أنهم منكم وما هم منكم وأحوالهم وأعمالهم التى يكيدون بها لكم فى الخفاء وما يغشونكم به فى الجهر بإبراز الخديعة فى معرض النصيحة وإظهار الولاء لكم والرغبة فى نصركم والله أعلم بما فى قلوبهم من العداوة والبغضاء ﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾ لكم يتولى شئونكم بإرشادكم إلى ما فيه خيركم وفوزكم وينصركم على أعدائكم بتوفيقكم للعمل بأسباب النصر فى الاجتماع والتعاون والتناصر وإعداد جميع ما يستطاع من وسائل القوة ، فلا تغتروا بولاية غيره ، ولا تطلبوا النصر إلا منه باتباع سننه فى نظام الاجتماع وهدايته فى القرآن

﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ هذا بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب واتصفوا بالضلال ، وتحريف الكلم عن مواضعه هو إمالته وتنحيته عنها كأن يزيلوه بالمرة أو يضعوه فى مكان غير مكانه من الكتاب . أو المراد بمواضعه معانيه كأن يفسروه بغير مايدل عليه ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ﴾ أى ويقول هؤلاء للنبى ﷺ : سمعنا قولك وعصينا أمرك ، ويقولون أيضاً اسمع غير مسمع . قال المفسرون إن هذا دعاء عليه ، ومعناه لا سمعت أى لا سمعك الله . ويحتمل أن يكون المعنى واسمع شيئاً لا يستحق

أن يسمع . وأما ﴿ راعنا ﴾ فقد روى أن اليهود كانوا يتسابون بكلمة « راعينا » العبرانية أو السريانية ، فسمعوا المؤمنين يقولون للنبي ﷺ راعنا من المراعاة أو بمعنى أرعنا سمعك فافترضوها وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر . ﴿ ليّاً بألسنتهم وطعناً فى الدين ﴾ فيجعلونها فى الظاهر راعنا وبليّ اللسان وإمالته « راعينا » ينوون بذلك الشتم والسخرية أو جعله راعياً من رعاة الغنم أو من الرعن والرعونة

﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ﴾ أى لو أنهم قالوا سمعنا قولك وأطعنا أمرك واسمع منا ما نقول وانظرنا أى أمهلنا وانتظرنا ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول أو انظر إلينا نظر رعاية ورفق لكان ذلك خيراً لهم وأقوم مما قالوه لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى خذلهم الله وأبعدهم عن الصواب بسبب كفرهم ، أى مضت سنته فى طباع البشر وأخلاقهم أن يمنع الكفر صاحبه من مثل هذه الروية والأدب ويجعله طريداً لا يدلى إلى الخير والرحمة بحبل ولا سبب ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ لا يؤمنون إلا قليلا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، فان الأمة مهما فسدت لا يعم الفساد جميع أفرادها بل تغلب سلامة الفطرة على أناس يكونون هم السابقين إلى كل إصلاح جديد ، هكذا كان وهكذا يكون ، فهى سنة من سنن الله فى الاجتماع — وهناك معنى آخر أى إيماناً لا يعتد به إذ لا يقى صاحبه الشرك ، فهو لا يصلح عملا ولا يطهر نفساً ولا يرقى عقلا — ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيماناً كاملا لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب . وبين لهم ما نسوا منه وما حرفوا فيه كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة فى الاجتماع والتشريع . وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد ، وعلى الحق والسداد

٭ ٭ ٭

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ

أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها على أدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كما لَعَنَّا أَصْحٰبَ السَّبْتِ
وكانَ أَمرُ اللهِ مَفعولا (٤٧) إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ
لِمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فقَدِ افْتَرَى إثْماً عَظِيما (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ ولا يُظْلَمونَ فَتِيلا (٤٩) انْظُرْ كيفَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وكَفىٰ بِهِ إثْماً مُبِينا (٥٠)

بعد أن نعى الله على أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحريفهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر . ألزمهم هنا العمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن ، ذلك أن إيمانهم بالتوراة يستدعى الإيمان بما يصدقها ، وحذرهم من مخالفة ذلك ، وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور . ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾

ذكر أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر ، فأما سائر الذنوب سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها

﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب ﴾ أى أعطوا علم الكتاب الإلهى أى جنسه على ألسنة أنبيائهم أو التوراة خاصة

﴿ آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم ﴾ أى صدقوا بما نزلناه على محمد مصدقاً لما معكم . ومنه تقرير التوحيد الخالص واتقاء الشرك كله صغيره وكبيره . وإثبات النبوة والرسالة وما يغذى ذلك الإيمان ويقويه من ترك الفواحش والمنكرات وعمل الصالحات ، أى مصدقاً لما معكم من أصول الدين وأركانه التى هى المقصد من إرسال جميع الرسل لا يختلفون فيها وإنما يختلفون فى طرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها وترقيتهم فى معارجها بحسب سنة الله فى ارتقاء البشر بالتدريج جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن ﴿ من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ فظاهر المعنى هنا آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم

اليها فى كيد الإسلام ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذى جاء به الأنبياء . وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والمعرفة والقوة ، فهذا ما تفسر به على جعل الطمس والرد على الأدبار معنويين ، وبه قال مجاهد . وجعل ذلك بعضهم حسياً ظاهريا فقال : المعنى نطمس آثارهم من الحجاز ونردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام التى جاءوا الحجاز منها ورواه ابن زيد عن أبيه

﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ ورد فى أهل السبت أن الله أهلكهم ، فمعنى اللعنة هنا الاهلاك بقرينة التشبيه وبه صرح أبو مسلم . ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى واقعاً أى شأنه أن يفعل حتما . والمراد هنا أمر التكوين المعبر عنه بقوله عز وجل ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . قال ابن عباس : يريد لا رادّ لحكمه ولا ناقض لأمره فلا يتعذر عليه شىء يريد أن يفعله كما تقول فى الشىء الذى لا شك فى حصوله هذا الأمر مفعول ، وان لم يفعل بعد

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الشرك بالله يتحقق باعتماد الإنسان على غير الله مع الله فى طلب النجاة من رزايا الدنيا ومصائبها أو من العذاب فى الآخرة ، كما يتحقق بالأخذ بقول بعض الناس فى التشريع كالعبادات والعقائد والحلال والحرام — وإثبات الشرك لليهود هنا وفى تلك الآية لا ينافى تسميتهم أهل الكتاب الذى يدخل فيه الإيمان بالله والأنبياء ، فانه قال فى الآية السابقة ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ أى إيماناً لا يعتد به ، إذ لا يبقى صاحبه الشرك — كأنه يقول : لا يغرنكم انتماؤكم إلى الكتب والأنبياء وقد هدمتم أساس دينكم بالشرك ، الذى لا يغفره الله بحال من الأحوال

﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ أى ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده المؤمنين وإنما مشيئته موافقة لحكمته وجارية على مقتضى سنته ، وقد جرت سنته بألا يغفر الذنوب التى لا يتوب صاحبها ولا يتبعها بالحسنات التى تزيل آثارها فى نفس صاحبها

﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما ﴾ هذه الجملة تشعر بعلة عدم غفران الشرك . والمعنى ومن يشرك بالله واجب الوجود قيوم السموات والأرض القائم بنفسه الذى قام به كل شىء بأن يجعل لغيره شركة ما معه فقد افترى إثماً عظيما أى اخترع ذنباً مفسداً عظيم الفحش والضرر سيء المبدأ والأثر فيكون جديراً أن لا يغفر وإن كان ما دونه يمحوه الغفران . والافتراء يطلق على الكذب والافساد

﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ ذكرت روايات كثيرة فى تزكية اليهود لأنفسهم ، ورجح أن تزكيتهم لأنفسهم وصفهم إياها بأنها لا ذنوب لها ولا خطايا وأنهم أبناء الله وأحباؤه . أما معنى ﴿ ألم تر ﴾ فقد ذكر قريباً ، والاستفهام للتعجيب من حالهم . وأصل الزكاء والزكاة النمو والبركة فى الزرع ، ومثله كل نافع ، فتزكية النفس بالفعل عبارة عن تنمية فضائلها وخيراتها ، وتكون بالقول وهو ادعاء الزكاء والكمال ، ومنه تزكية الشهود . وقد أجمع العقلاء على استقباح تزكية المرء لنفسه بالقول ومدحها ولو بالحق ولتزكيتها بالباطل أشد قبحاً . وهذا هو المراد هنا . وقد رد الله عليهم بقوله ﴿ بل الله يزكى من يشاء ﴾ من عباده من جميع الشعوب والأقوام بهدايتهم إلى العقائد الصحيحة والآداب الكاملة والأعمال الصالحة أو شهادة كتابه لهم بموافقة عقائدهم وآدابهم وأخلاقهم وأعمالهم لما جاء فيه ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾

﴿ ولا يظلمون فتيلا ﴾ أى ولا يظلم الله هؤلاء الذين يزكون أنفسهم ولا غيرهم من خلقه شيئاً مما يستحقونه بأعمالهم ولا حقيراً كالفتيل — وان أصل الظلم بمعنى النقص ، أى لا ينقصهم من الجزاء على أعمالهم الحسنة شيئاً — والفتيل ما يكون فى شق نواة التمرة مثل الخيط وما تفتله بين أصابعك من وسخ أو خيط ، وتضرب العرب به المثل فى الشىء الحقير

﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ أى انظر أيها الرسول كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أنهم شعبه الخاص وأبناؤه وأحباؤه وأنه يعاملهم

معاملة خاصة يخرجون فيها عن نظام سننه فى سائر خلقه ، وهذا تأكيد للتعجب من شأنهم فى الآية السابقة لنعتبر به ، ﴿ وكفى به إثماً مبيناً ﴾ أى وكفى بهذا الضرب من آثامهم إثماً ظاهراً ، فانه تعالى لم يعاملهم معاملة خاصة مخالفة لسنن الاجتماع البشرى التى عامل بها غيرهم ، ولكنهم قوم مغرورون جاهلون ، وقد أطلق الاثم على الكذب خاصة وعلى كل ذنب . وقال الراغب : الاثم والآثام للأفعال المبطئة عن الثواب ، يعنى عن الخيرات التى يثاب الإنسان عليها . ويطلق لفظ الاثم على ماكان ضاراً — وأى ضرر أكبر من ضرر الغرور وتزكية النفس بالدعوى والتبجح

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَٰهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة هم حُيىّ بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وأبو عمارة وهَوْذة ابن قيس ، وباقيهم من بنى النضير . فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب - إلى قوله - ملكا عظيما ﴾ قاله السيوطى فى لباب المنقول .

وقد تكون هذه الآيات نزلت بعد غزوة الأحزاب أو فى أثنائها إذ نقض اليهود عهد النبي ﷺ واتفقوا مع المشركين على استئصال شأفة المسلمين حتى لا يظهروا عليهم . ومن ثم فضلوهم على المؤمنين ، كما أن هذا التفضيل ربما كان عند النداء بالنفير للحرب

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ والمعنى الجامع للفظ الجبت هو الدجل والأوهام والخرافات . والمعنى الجامع للفظ الطاغوت بأنه كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق ، من مخلوق يعبد ، ورئيس يقلد ، وهوى يتبع — ومعنى الآية ألم ينته إلى علمك أيها الرسول ، أو ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب كيف حرموا هدايته فهم يؤمنون بالجبت والطاغوت وينصرون أهلهما من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم وحقيقة أصل كتبهم ﴿ ويقولون للذين كفروا ﴾ أى لأجلهم وفى شأنهم والحكاية عنهم ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ أى يقولون إن المشركين أهدى وأرشد طريقاً فى الدين من المؤمنين الذين اتبعوا محمداً ﷺ

ومعنى الكلام كما قال ابن جرير : إن الله وصف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة والاذعان له بالطاعة فى الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما ، وانهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان ، وأن دين أهل التكذيب لله ولرسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله

﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ أى أولئك الذين بينا سوء حالهم الذين أوتوا نصيباً من الكتاب وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت هم الذين لعنهم الله أى اقتضت سنته فى خلقه أن يكونوا بعداء عن موجبات رحمته وعنايته من الإيمان بالله وحده والكفر بالجبت والطاغوت ﴿ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ أى ومن يلعنه الله — بالمعنى الذى ذكرناه آنفاً — فلن ينصره أحد من دونه إذ لا سبيل لأحد

إلى تغيير سننه تعالى فى خلقه . وهذه الآية تدل على أن سبب لعن الله للأمم هو إيمانها بالخرافات والأباطيل والطغيان ، وأنه تعالى إنما ينصر المؤمنين باجتنابهم ذلك

﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ . يستفاد من قرينة المقام ، أى ليس لهم نصيب من الملك كما لهم نصيب من الكتاب بل فقدوا الملك كله بظلمهم وطغيانهم

﴿ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أى ولو كان لهم نصيب من الملك لسلكوا فيه طريق البخل والأثرة بحصر منافعه ومرافقه فى أنفسهم فلا يعطون الناس نقيراً منه إذ ذاك . والنقير هو النقرة أو النكتة فى ظهر نواة التمر ، وهى الثقبة التى تنبت منها النخلة ، يضرب بها المثل فى الشىء القليل والحقير التافه ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ . والمعنى أن الله تعالى يقول إن هؤلاء اليهود يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ولا يحبون أن يكون لأمة من الأمم فضل أكثر مما لهم أو مثله أو قريباً منه لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم وتقاليدهم مع سوء حالهم . فكأنه قال : هل غرر هؤلاء بأنفسهم تغريراً أم لهم نصيب من الملك فى هذا الكون فهم يمنعون الناس فلا يوتونهم منه نقيراً . أم يحسدون الناس على ما أعطاهم الله من فضله أى العرب — ﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ والعرب منهم فانهم من ذرية ولده اسماعيل ، وقد كانت ظهرت تباشير الملك العظيم فيهم عند نزول هذه الآيات فانها مدنية متأخرة وكانت شوكة المسلمين قد قويت ، فالآية مبشرة لهم بالملك الذى يتبع النبوة والحكمة . والحاصل أن حال اليهود يومئذ كان لا يعدو الأمور الثلاثة : إما غرور خادع يظنون معه أن فضل الله محصور فيهم . ورحمته تضيق عن غير شعب إسرائيل من خلقه . وإما حسبان أن ملك الكون فى أيديهم فهم لا يسمحون لأحد بشىء منه ولو حقيراً كالنقير ، وإما حسداً للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذى ظهرت مبادىء عظمته — فسروا الحسد بأنه تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها . وفى التفسير المأثور أن المراد بالناس هنا النبى ﷺ ولا شك

أنهم حسدوه وحسدوا قومه العرب لأنه منهم وهم أسبق إلى الخير الذى جاء به

﴿ فنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ﴾ يرجع الضمير إلى ما ذكر من الذين أوتوا الكتاب والحكمة والملك العظيم، فأما الإيمان بالكتاب والحكمة (وهى ما جاء به الانبياء من بيان أسرار الكتاب) فظاهر، وأما الإيمان بالملك فهو الايمان بوعد الله تعالى به. وهكذا شأن الناس فى كل شىء لا يتفقون عليه، وانما يأخذ به بعضهم ويعرض عنه آخرون أى إن أولئك الأنبياء مع ما اختصوا به من النبوة والملك لم تؤمن أممهم جميعاً بل منهم من آمن بهم ومنهم من بقى على كفره، فلا تعجب أيها الرسول مما عليه قومك، فان هذه حال جميع الأمم مع أنبيائهم. وفى هذا تسلية للنبى ﷺ ليكون أشد صبراً على ما يناله من قبله

﴿ وكفى بجهنم سعيراً ﴾ أى ناراً مسعرة لمن صد عنه وآثر إرضاء حسده والعمل بما يزينه له على عدم اتباع الحق، فهو لا يزال يغريه بنصر الباطل ومعاندة الحق حتى يدسى نفسه ويفسدها ويهبط بها إلى دار الشقاء وهاوية النكال المعبر عنها بجهنم وبالسعير وهى بئس المثوى وبئس المصير

ثم فسر الوعيد بذكر أحوال الفريقين وما يلاقيه كل منهم من الجزاء يوم القيامة فقال:

° ° °

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَداً، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً (٥٧)

قال تعالى فى الآية السابقة ﴿ فنهم من آمن ومنهم من صد عنه ﴾ وتوعد من صد عنه بسعير جهنم، ثم فصل هذا الوعيد بقوله:

﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ﴾ المراد بآيات الله هنا ما يدل على حقيقة دينه مطلقاً ، ويدخل فيها القرآن دخولا أولياً ، لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها . ونصليهم ناراً معناه نجعلهم يصلونها أى يدخلونها ويعذبون بها جزاء كفرهم وإعراضهم

﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ نضج الجلود هو نحو نضج الثمار والطعام ، وهو عبارة عن فقد التماسك الحيوى والبعد عن الحياة ، وإنما تتبدل لأن النضج يذهب القوة الحيوية التى بها الاحساس ، فاذا بقيت يقل الاحساس بما يمسها أو يزول ، لذلك تتبدل بها جلوداً حية غيرها

﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ لأن الذوق والاحساس يصل إلى النفس بواسطة الحياة فى الجلد ، ومن هنا قال بعض المفسرين ان المراد بتبديل الجلود دوام العذاب ، فالكلام تمثيل أو كناية عن دوام الاحساس بالعذاب

﴿ إن الله كان عزيزاً حكيما ﴾ أى أنه تعالى غالب على أمره حكيم فى فعله ، فكان من حكمته أن جعل الكفر والمعاصى سبباً للعذاب ، وجعل سنته فى ربط الأسباب بمسبباتها مطردة لا يستطيع أحد أن يغلبه فيبطل اطرادها لأنه عزيز لا يغلب على أمره ، كما جعل الإيمان والعمل الصالح سبباً للنعيم المقيم

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ جعل دخول الجنة جزاء من آمن وعمل صالحاً ، إذ الإيمان بغير عمل صالح لا يكفى لتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء ، ولا يكاد يوجد الإيمان بغير العمل الصالح إلا أن يموت المرء عقب إيمانه فلا يتسع الوقت لظهور آثار الإيمان وثمراته منه — والخلود طول المكث وأكده هنا بقوله ﴿ أبداً ﴾ أى دائماً ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ قالوا أى من الحيض والنفاس والعيوب والأدناس ، مع العلم بأن الجنة عالم غيبي ليس كعالم الدنيا ﴿ وندخلهم ظلا ظليلا ﴾

يقال لكل موضع لم تصل اليه الشمس ظل . وظل ظليل أى فائض . وندخلهم ظلا ظليلا كناية عن غضارة العيش

* * *

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

هاتان الآيتان هما أساس الحكومة الإسلامية ، ولولم ينزل فى القرآن غيرهما لكفتا المسلمين فى ذلك إذا هم بنوا جميع الأحكام عليهما

بعد ما بين الله تعالى لنا من شأن أهل الكتاب ما بينه — حتى تفضيلهم المشركين فى الهداية على المؤمنين بالله وحده وبجميع كتبه ورسله — أدبنا بهذا الأدب العالى ، وأمرنا بالأمانة العامة وهى الاعتراف بالحق ، سواء كان حسياً أو معنوياً ، فقال سبحانه :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ . الأمانة حق عند المكلف يتعلق به حق غيره ويودعه لأجل أن يوصله إلى ذلك الغير كالمال والعلم ، سواء كان المودع عنده ذلك الحق قد تعاقد مع المودع على ذلك بعقد قولى خاص صرح فيه بأنه يجب على المودع عنده أن يؤدى كذا إلى فلان مثلا أم لم يكن كذلك ، فان ما جرى عليه التعامل بين الناس فى الأمور العامة هو بمثابة ما يتعاقد عليه الأفراد فى الأمور الخاصة . فالذى يتعلم العلم قد أودع أمانة وأخذ عليه العهد — بالتعامل والعرف — بأن يؤدى هذه الأمانة ويفيد الناس ويرشدهم بهذا العلم . وقد أخذ الله العهد العام على الناس بهذا التعامل المتعارف بينهم شرعاً وعرفاً بنص قوله ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ ولذلك عد

علماء أهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبي ﷺ فيجب على العالم أن يؤدى أمانة العلم إلى الناس كما يجب على من أودع المال أن يرده إلى صاحبه. ويتوقف أداء أمانة العلم على تعرف الطرق التى توصل إلى ذلك، فيجب أن تعرف هذه الطرق لأجل السير فيها، وهذه الطرق تختلف باختلاف الزمان والمكان

إن هذا النص القصير ليضع القاعدة الأولى لنظام الجماعة البشرية الذى يريده الإسلام:

إن أداء الأمانات إلى أهلها ليشمل أساس الاعتقاد، وأساس العبادة، وأساس التعامل، وأساس العلاقات كلها بين الناس. وإنه ليصعب أن يتقصى الإنسان مدلولات هذا الأمر و «ماصدقاته» فحسبنا أن نشير فيه إلى الكليات

إن أول أمانة ترد إلى أهلها هى أمانة الإيمان. فالفطرة البشرية قد أعطيت أسباب الإيمان بما يربط به طبيعة البشر وطبيعة هذا الكون من قوانين متحدة تعمل معانى تعاون وتوافق واتساق. وإن وحدة التكوين، ووحدة النشأة، ووحدة المصير لتشير كلها إلى وحدة المشيئة التى صدر عنها الكون، وصدرت عنها الحياة، وصدر عنها الإنسان. وفطرة البشر تحس هذه الوحدة بكليتها وتتجه إلى الاعتقاد فى إله بطبيعتها.. فهى أمانة إذن وعليها أن تحافظ على هذا الأيمان، فلا تضيعه، ولا تنحرف عن طريقه. أمانة ترد إلى أهلها... ترد إلى الله...

وردُّ هذه الأمانة لا يقف عند حد الاعتقاد الصامت الساكن، إنما ينسحب على العمل المعبر عن ذلك الإيمان الكامن. فإحسان العمل والسلوك والتوجه بهما إلى الله سبحانه واهب الحياة، ومبدع الخير لفاعله، هو أمانة ترد إلى أهلها فى صورة عمل، بعد ردها إلى أهلها فى صورة اعتقاد

وإمانة التعامل مع الناس: سواء فى مجال الآداب الشخصية أو فى مجال المعاملات المادية، هى الأمانة الواقعية المنبثقة عن الأمانة الوجدانية. وهى تشمل مجالى الحياة كلها فى محيط الأسرة، وفى نشاط الجماعة، وفى علاقات الأمم والدول والحكومات. إنها أمانة الفرد للفرد، والفرد للجماعة، والدولة للدولة، وأمانة الحاكم للمحكومين، والرعية للراعى. أمانة الزوجين والصاحبين والعشيرين والوالد والمولود

وكلها ترجع إلى الأمانة الكبرى التى ناطها الله بهذا المخلوق الإنسانى وهو يمنحه خلافة الأرض . ويسلمه قيادها . ويقول له : اعمل هنا ، وهناك الحساب . فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان ، ومستقر أساس الحكومات ، وباسط ظلال الأمن والراحة ، ورافع أبنية العز والسلطان ، وروح العدالة وجسدها ، ولا يكون شىء من ذلك بدونها ـ وان أمة عطلت نفوسها من حلية هذه الحلة الجليلة (الأمانة) فلا تجد فيها إلا آفات جائحة . ورزايا قاتلة ، وبلايا مهلكة ، وفقراً معوزاً ، وذلا معجزاً . ثم لا تلبث بعد هذا كله أن تبتلعها بلاليع العدم وتلتهمها أمهات اللهيم »

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر الله من يحكم بين الناس أن يحكم بالعدل . والحكم بين الناس له طرق ، منها (الولاية العامة) ، و (القضاء) ومنها (تحكيم المتخاصمين) فى قضية خاصة ، فكل من يحكم يجب عليه أن يعدل ، والعدل عبارة عن إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق اليه

والمسلمون مأمورون بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق ، وقد قال تعالى ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ وهذا الأمر موجه إلى الحكام وغيرهم

هذه هى القاعدة الأولى لنظام الحكم فى الجماعة البشرية ـ الذى يريده الإسلام ـ فالحكم بالعدل ـ فالنص يجرده من كل شائبة ، ويطلقه عدلا « بين الناس » لا بين المسلمين ولا بين أهل الكتاب . إنه حق لكل إنسان بوصفه إنساناً ، فهذه الصفة التى يلتقى فيها البشر جميعاً . أعداء وأصدقاء ، مؤمنين وكفاراً ، سوداً وبيضاً ، عرباً وعجما ، هذه الصفة وحدها هى منبع هذا الحق ومناطه . والأمة المسلمة قيمة عليها فى هذه الأرض ، مطالبة بتكاليفها . . . وهذا هو نصيبها الزائد فى رد هذه الأمانة . فالعدل أحد الأمانات الكبرى التى يجب أن ترد للناس جميعاً بدون استثناء . . هذا هو نصيبها الزائد : أن تتكفل بتحقيق هذا العدل . وأن تبذل له التضحيات التى يقتضيها . وأن تحتمل الآلام الناشئة عن تلك التبعة الثقيلة دون أن يكون لها من العدل إلا ما لسائر الناس

وذلك هو أساس الحكم فى الإسلام كما أن الأمانه المطلقة هى أساس الحياة

﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ أى نعم الشىء الذى يعظكم به ، وهو هنا أداء الأمانات والحكم بالعدل ، لأنه لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم ما عملتم به مهتدين متعظين

﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ فلا يخفى عليه شىء من أقوالكم ولا من أفعالكم ولا من نياتكم فلا تدعوا ما ليس فيكم من الأمانة والعدل ، ولا تقولوا ما لا ما تفعلون فأنه سيجزى كل عامل بما عمل

وبعد فالأمانة المطلقة والعدل المطلق ما مناطهما ؟ كيف السبيل إلى تصورهما وتحديدهما ؟ ثم كيف السبيل إلى تطبيقهما وتحقيقهما : هل نترك تحديد الأمانة والعدل إلى تعارف الناس واصطلاحهم ، لقد يكون هذا مأمون العاقبة فى بعض الجزئيات التى تعرض فى الحياة ، فأما الأصول الكبرى والحدود الأولى فليس عرف الناس . واصطلاحهم بمقياس ، فكثيراً ما تنحرف الفطرة وكثيراً ما يتحكم الهوى . وكثيراً ما تختل المعايير ذاتها فتصبح غير صالحة للقياس ، أم هل نترك ذلك للعقل البشرى ؟ والعقل البشرى أداة غير ثابتة لأنه يتأثر بالأهواء ، ويتأثر بالملابسات ، بل يتأثر بما يطرأ على الاجسام من آفات . وبما يكون فى الجو من تقلبات ! وما يزال هذا العقل البشرى ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس ، ويبرم اليوم ما كان قد نقض . . .

إنه لا بد من معيار ثابت للأمانة ومعيار ثابت للعدل — على وجه خاص — معيار لا يتأثر بما يحيط بالبشر ، وبما يخالط العقل ، وبما يلابس حياة الناس .

والإسلام يصنع هذا المعيار الثابت فى هذا النص القصير :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾

وفى هذا النص يضع الأساس الكامل لنظام الحكم فى الإسلام . إن الحاكمية

لله وحده ، فشريعته هى الدستور الأساسى ، والله واجب الطاعة فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداء ، وأن يطيعوا الرسول — بما له من صفة الرسالة — فطاعته إذن هى طاعة الله الذى أرسله بهذه الشريعة ، وسنته وقضاؤه — على هذا — جزء من الشريعة واجب النفاذ

فأما أولو الأمر فالنص يجعل طاعتهم تبعية لا أصلية - فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله ، وليس لهم طاعة فيما وراءها لأن الطاعة لهم تبعية لا أصلية . ومستمدة من أصل ، وليست بذاتها أصلا . ونصوص السنة تتواتر لتوكيد هذا المعنى الذى يشير اليه بناء النص القرآنى . وقد ورد فى الصحيحين من حديث الأعمش : « إنما الطاعة فى المعروف » ومن حديث يحي القطان أخرجه الشيخان : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ومن حديث أم الحصين رواه مسلم « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا »

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ أمر الله فى كتابه وسنة رسوله الثابتة القطعية التى جرى عليها ﷺ بالعمل هما الأصل الذى لا يرد ، وما لا يوجد فيه نص عنهما ينظر فيه أولو الأمر — أى أهل الحل والعقد من المؤمنين — إذا كان من المصالح ، لأنهم هم الذين يثق بهم الناس فيها ويتبعونهم ، فيجب أن يتشاوروا فى تقرير ما ينبغى العمل به ، فاذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمل بما أجمعوا عليه ، وإن اختلفوا وتنازعوا فقد بين

الواجب فيما تنازعوا بقوله ﴿ فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ﴾ وذلك بأن يعرض على كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة والسنن المطردة فما كان موافقاً لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به ، وما كان منافراً علم أنه غير صالح ووجب تركه ، وبذلك يزول التنازع وتجتمع الكلمة . وهذا الرد واستنباط الفصل فى الخلاف من القواعد هو الذى يعبر عنه بالقياس ، فالآية مبينة أصول الدين والحكومة الإسلامية وهى :

الأصل الأول ـ القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله تعالى

الأصل الثانى ـ سنة رسول الله ﷺ ، والعمل بها هو طاعة الرسول ﷺ

الأصل الثالث ـ إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجارة والصناعة والزراعة وكذا رؤساء العمال والأحزاب ومديرو الجرائد المحترمة ورؤساء تحريرها وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر

الأصل الرابع ـ عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة فى الكتاب والسنة

﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فان المؤمن لا يؤثر على حكم الله شيئاً ، والمؤمن باليوم الآخر يهتم بجزاء الآخرة أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا ، فلو كان له هوى فى المسألة المتنازع فيها فأنه يتركه لحكم الله ابتغاء مرضاته ومثوبته فى اليوم الآخر

﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ أى ذلك الذى شرعناه لكم فى تأسيس حكومتكم واصلاح أمركم خير لكم فى نفسه لانه أقوى أساس لحكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو خير لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله من الأصول والقواعد ، وهو على كونه خيراً فى نفسه أحسن تأويلا أى مآلا وعاقبة لأنه يقطع عرق التنازع ويسد ذرائع الفتن والمفاسد

وبهذا يرسى القرآن الكريم قواعد الحكم فى الإسلام على أساسها المكين

وبهذا يقرر كذلك حدود الإيمان . فمن لم يتبع هذا المنهج فليس متبعاً لنهج الإسلام : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فعلامة الإيمان ومقتضاه اتباع ذلك النهج وإقامة الحكم على هذا الأساس . وذلك هو الإدراك الأفضل والتفسير الأحسن لمنهج الحكم فى الإسلام ولتحقيق الأمانة والعدل فى ذلك النظام

° ° °

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ
أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ
رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَٰبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

الكلام متصل بما قبله ، فأنه تعالى ذكر أن اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت الخ ، وذكر من سوء حالهم ووعيدهم ما ذكر ، ثم أمر المؤمنين بعد ذلك بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل ، لأن أولئك قد خانوا بجعلهم الكافرين أهدى سبيلا من المؤمنين . وأمرهم بطاعة الله ورسوله فى كل شىء وطاعة أولى الأمر فيما يجمعون عليه مختارين لا مسيطر عليهم فيه ، وبرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله فى مقابلة طاعة أولئك للطاغوت وإيمانهم به وبالجبت واتباعهم للهدى . وبعد هذا بين لنا حال طائفة أخرى بين الطائفتين ، وهم المنافقون الذين يزعمون أنهم آمنوا ، ومن مقتضى الإيمان امتثال ما أمر به المؤمنون فى الآيتين السابقتين . ولكنهم مع هذه الدعوى يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذى عليه تلك الطائفة فقال :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ أى انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بك وآمنوا بمن قبلك من الأنبياء ويأتون بما ينافى الإيمان . إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضى العمل بما شرعه الله على ألسنة أولئك الرسل . وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ فى نفس مدعيه فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله

ومن قصد التحاكم إلى أى حاكم يريد أن يحكم له بالباطل ويهرب اليه من الحق فهو مؤمن بالطاغوت

وكل من يتحاكم اليه من دون الله ورسوله بمن يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله فهو راغب عن الحق إلى الباطل ، وذلك عين الطاغوت الذى هو بمعنى الطغيان الكثير . ويدخل فى هذا ما يقع كثيراً من تحاكم الخصمين إلى الدجالين كالعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدعى الكشف . ويخرج المحكم فى الصلح وكل ما أذن به الشرع بما هو معروف — ﴿ وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ . والمعنى أن هؤلاء الزاعمين تدعى ألسنتهم الإيمان بالله و بما أنزله على رسله وتدل أفعالهم على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه

﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ﴾ أى أن الشيطان الذى هو داعية الباطل والشر فى نفس الإنسان يريد أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فيكون ضلالهم عنه مستمراً لانهم لشدة بعدهم عنه لا يهتدون إلى الطريق الموصل اليه

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ يقول تعالى وإذا قيل لأولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يريدون التحاكم إلى الطاغوت : تعالوا إلى ما أنزل الله فى القرآن لنعمل به ونحكمه فيما بيننا وإلى الرسول ليحكم بيننا بما أراه الله رأيت المنافقين أى رأيتهم وهم المنافقون يصدون عن ذلك صدوداً ، أى يعرضون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضاً متعمداً منهم . ان الحامل لهم على هذا الصدود هو اتباع شهواتهم وأنفتهم للباطل وعدو الحق يعرض عنه إعراضاً شديداً

﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ الآية تنذر جميع المنافقين الذين يستخفون من الناس بأعمال النفاق مبينة أن هذه الأعمال لا بد أن يترتب عليها بعض المصائب التى تفضح أمرهم وتضطرهم إلى الرجوع إلى النبى والاعتذار له والحلف على ذلك ليصدقه ، فأنهم يشعرون بأنهم متهمون بالكذب . أو كيف تعاملهم فى هذه الشدة أيها الرسول بعد علمك بما كان من صدودهم عنك فى وقت الاستغناء عنك ، هل تعطف عليهم وتقبل قولهم إذا أصابتهم المصيبة التى يستحقونها بارتكاب أسبابها

﴿ ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ أى يخادعونك بالحلف بالله أنهم ما أرادوا بما عملوا من الصدود أو من الأعمال المنكرة والمعاصى التى ترتبت عليها المصيبة إلا إحساناً فى المعاملة وتوفيقاً بينهم وبين خصمهم بالصلح أو الجمع بين منفعة الخصمين . وقالوا نحن نعلم أنك لا تحكم إلا بمر الحق لا تراعى فيه أحداً ، فلم نر ضرراً فى استمالة خصومنا بقبول حكم طواغيتهم والتوفيق بين منفعتنا ومنفعتهم . سأل العليم الحكيم كيف تكون المعاملة فى هذه الحال تمهيداً لبيان ما يجب العمل به وهو قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ من الكفر والحقد والكيد وتربص الدوائر بالمؤمنين ليظهروا عداوتهم . والمعنى أن ما فى قلوب هؤلاء المنافقين كبير جداً لا يعرفه كما هو إلا الله تعالى ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أى اصرف وجهك عنهم ولا تقبل عليها بالبشاشة والتكريم ﴿ وعظهم ﴾ ببيان سوء حالهم إذا هم أصروا على ماهم عليه ﴿ وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً ﴾ . قيل المعنى قولا بليغاً فى أنفسهم أى يغوص فيها ويبلغ غاية ما يراد به منها . وقيل ان المراد بالقول البليغ أن يكون الوعظ بكلام بليغ . وقيل هو أمر ثالث فالوعظ النصح المتعلق بأمر الآخرة والقول البليغ ما يكون فى أمر الدنيا ومعاملتهم فيها

* * *

وما أرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطاعَ بإذْنِ اللهِ ، ولو أَنَّهمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهمْ جاءوكَ فاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لهمُ الرَّسولُ لَوَجَدُوا اللهَ توَّاباً رَحِيما (٦٤) فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيما (٦٥) ولَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيٰرِكُمْ ما فَعَلُوه إلاَّ قَلِيلٌ منهمْ ، ولَوْ أَنَّهمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بهِ لَكانَ خَيراً لهمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتا (٦٦) وإذاً لآتَيْنٰهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عظِيما (٦٧) ولَهَدَيْنٰهُمْ صِرٰطاً مُسْتَقِيما (٦٨)

الـكلام متصل بما قبله . متمم لسياق وجوب طاعة الله ورسوله ، والتشنيع على من يرغب عن التحاكم إلى الرسول ، ويؤثر عليه التحاكم إلى الطاغوت

بعد ما بين سبحانه ما ينبغي للرسول مع أولئك المنافقين قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ فهذا كالدليل على استحقاق أولئك المنافقين للمقت ، لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول ﷺ

يقول تعالى إننا لو أرسلنا هذا الرسول على حكمنا وسنتنا فى الرسل قبله ، لأننا لا نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله ، فمن صد عنهم وخرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم كان خارجاً عن حكمنا وسنتنا فيهم مرتكباً أكبر الآثام فى ذلك . وقوله ﴿ بإذن الله ﴾ للاحتراس ، لأن الطاعة فى الحقيقة لله تعالى ، فهذا القيد من قيود القرآن المحكمة الذاهبة بظنون من يظنون أن الرسول يطاع لذاته بلا شرط ولا قيد ، فهو عز وجل يقول ان الطاعة الذاتية ليست إلا لله تعالى ، وقد أمر أن تطاع رسله ، فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه

إن الرسول ليس واعظاً يلقى كلمة ويمضى ، إن الاحترام الضرورى لـكلمة الله التى يحملها الرسول يقتضى أن يضمن الله لهذه الـكلمة النفاذ . وما يطاع الرسول لذاته وبذاته ، ولـكنه يطاع بإذن الله وشرعه . فقد جاء الرسول ليطاع لا لتهمل أوامره ، ولا لتـكون موكولة لمجرد التأثير الوجدانى . جاء ليبين شريعة الله ويقوم على تنفيذها ويأخذ الناس بطاعتها احتراما لأمر الله أن تبتذله الأهواء.

ومن هنا كان الإسلام عقيـدة وشريعة ، وكان إيماناً فى القلب ، ونظاماً فى المجتمع . وكانت وظيفة خليفة الرسول أن يؤدى مهمة الرسول فى شطرها الثانى وهو القيام على تنفيذ الشريعة لتحقق الطاعة الدائمة للرسول كما أراد الله أن تكون

﴿ ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم ﴾ أى ولو أن أولئك الذين رغبوا عن حكمك إلى حكم الطاغوت عند ظلمهم لأنفسهم بذلك ﴿ جاءوك فاستغفروا الله ﴾ من ذنبهم وندموا أن اقترفوه وحسنت توبتهم ﴿ واستغفر لهم الرسول ﴾ أى دعا الله

أن يغفره لهم ﴿ لوجدوا الله تواباً رحيما ﴾ أى يتقبل الله توبتهم على هذا الوجه أتم القبول وأكمله وتغمدهم برحمته وغمرهم بأحسانه ، لأنه تعالى يقبل التوبة النصوح كثيراً مهما عاد صاحبها ورحمته وسعت كل شيء

انه تعالى سمى ترك طاعة الرسول ظلماً للأنفس أى إفساداً لمصلحتها ، لأن الرسول هاد إلى مصالح الناس فى دنياهم وآخرتهم . وهذا الظلم يشمل الاعتـــداء والبغى والتحاكم إلى الطاغوت وغير ذلك - والاستغفار هو الاقبال على الله وعزم التائب على اجتناب الذنب وعدم العود اليه مع الصدق والاخلاص لله فى ذلك — وأما الاستغفار باللسان عقب الذنب دون هذا التوجه القلبى فليس استغفاراً حقيقياً

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ أقسم تعالى بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم اليه ﷺ وأمثالهم وهم من المنافقين الذين يزعمون الإيمان زعماً كما تقدم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً حقيقياً وهو إيمان الاذعان النفسى إلا أن يحكموا الرسول فيما شجر أى فى القضايا التى يختصمون فيها — أى اختلف واختلط الأمر فيها — وتحكيمه تفويض أمر الحكم اليه

﴿ ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ﴾ والمعنى ثم تذعن نفوسهم لقضائك وحكمك فيما شجر بينهم بحيث لا يكون فيها ضيق ولا امتعاض من قبوله والعمل به . ﴿ ويسلموا تسليما ﴾ التسليم هنا الانقياد بالفعل ، وما كل من يعتقد أحقية الحكم ولا يجد فى نفسه ضيقاً منه ينقاد له بالفعل وينفذه طوعاً وان لم يخش فى ترك العمل به مؤاخذة فى الدنيا

ومرة أخرى يؤكد أن الإيمان لا يتحقق إلا بسلوك منهجه ، وأن التحاكم إلى شريعة الله هى الطريق . . ولكن فى هذه المرة يوضح صفة هذا التحاكم . فهى ليست مجرد الخضوع القهرى . إنما هى كذلك الاطمئنان والرضا والقبول . .

إنه اقتناع الوجدان . واطمئنان الضمير ، وتسليم الرضا بذلك التحكيم

كان ذلك حين كان الرسول ﷺ يحكم بشخصه . فأما بعد جواره للرفيق الأعلى

فشرعته وسنته بعده ، ولا وربك ما يؤمن أحد لا يتحاكم إلى شرعته وسنته ، ولا يجد فى نفسه الاطمئنان والرضا والقبول والتسليم . ثم يشير السياق هنا إلى مناسبة كانت حاضرة عند نزول هذه الآيات ، وعند سن هذه القاعدة . فلقد كانت الأحداث التى نزلت فى شأنها هذه الآيات متعلقة ببنى إسرائيل فى المدينة . فالسياق يشير إلى أن هذه الأحكام الإسلامية أقل مشقة من بعض ما كلفت به إسرائيل فى ديانتها ، فقد كتب عليهم فى فترة من الفترات أن يقتلوا أنفسهم ليتطهروا . وكتب عليهم أن يخرجوا من ديارهم ليقاتلوا . . وهم كانوا يقولون دائماً إذ يدعون إلى حكم الله إنهم سيرجعون إلى ما عندهم فى التوراة . فالسياق هنا يقول إنهم لو دعوا إلى مثل ما دعتهم اليه التوراة ما أجابوا — إلا قليل منهم — ولو أنهم استجابوا لدعوة الإسلام — وهى أيسر — لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً لإيمانهم ، ولنالوا جزاء طاعتهم خيراً كثيراً

﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ﴾ أى لو أمرناهم بقتل أنفسهم أى بتعريضها للقتل المحقق أو المظنون ظناً راجحاً ، وقيل قتلها هو الانتحار كما قيل مثل هذا فى أمر بنى إسرائيل بقتل أنفسهم توبة إلى ربهم من عبادة العجل ، أو قلنا لهم اخرجوا من دياركم أى من أوطانكم وهاجروا إلى بلاد أخرى ﴿ ما فعلوه ﴾ أى المأمور به من القتل والهجرة من الوطن ﴿ إلا قليل منهم ﴾ وهم أصحاب العزائم القوية الذين يؤثرون رضوان الله على حظوظهم وشهواتهم

﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ من الأوامر والنواهى المقرونة بحكمها وبيان فائدتها والوعد والوعيد لمن عمل بها ومن صد عنها ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ فى حفظ مصالحهم واعتزاز أنفسهم بارتقاء أمتهم وفى عاقبة أمرهم وآخرتهم ﴿ وأشد تثبيتاً ﴾ لهم فى أمر دينهم . والتثبيت التقوية بجعل الشيء ثابتاً راسخا

﴿ وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ﴾ « إذاً » حرف جواب وجزاء ، وهي هنا جواب لسؤال مقدر كأنه قيل : ما ذا يكون من هـذا الخير العظيم والتثبيت ؟ فأجيب : هو أن نؤتيهم — أي نعطيهم — أجراً عظيما الخ .

﴿ ولهديناهم صراطاً مستقيما ﴾ قيل إن هذا الصراط عبارة عن دين الحق ، وقيل هو موطن من مواطن القيامة . وقيل إن الصراط المستقيم هنا هو طريق العمل الصالح على الوجه الصحيح

ذلك أن هذا الذي يوعظ به إنما هو الصورة الأخيرة لشريعة الله التي نالوا منها طرفاً موقوتاً بزمانه وبمكانه ، فمن اتعظ بالصورة الأخيرة — وهي أيسر مشقة — فقد أطاع طاعة كاملة ، وعمل بالخطة الدائمة واطمأن إلى المنهج الأخير

والتعبير يقرر أنها عظة ، لتبلغ إلى مكمن العقيدة في أعماق الضمير . ويقرر أن الأجر العظيم « من لدنا » - لا من عندنا - زيادة في قرب مصدره من الله ، وإيناساً للقلوب بهذا القرب الذي تفيده كلمة « لدن » . وتزيد به على كلمة « عند » ، ليشترك هذا في لمس الوجدان واستجاشته في معرض التأثير والاحياء

* * *

وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيما (٧٠)

بعد أن أمر سبحانه بطاعته وطاعة الرسول ، ثم شنع على الذين تحاكموا إلى الطاغوت ، وصدوا عن الرسول ، ثم رغب في تلك الطاعة ووصفها بأنها خير لهم وأشد تثبيتاً - حث على الطاعة وشوق اليها بذكر مزاياها وبيان حسن عواقبها ، وأنها منتهى ما تصل اليه الهمم ، وأرفع ما تشرئب اليه الأعناق

﴿ ومن يطع الله والرسول ﴾ أي ومن يطع الله ورسوله على الوجه المبين في

قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - إلى قوله - ولهديناهم صراطاً مستقيما ﴾ ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ . ﴿ الصديقون ﴾ هم الذين زكت فطرتهم واعتدلت أمزجتهم وصفت سرائرهم حتى أنهم يميزون بين الحق والباطل والخير والشر بمجرد عروضه لهم ، فهم يصدقون بالحق على أكمل وجه . ويبالغون في صدق اللسان والعمل .

و ﴿ الشهداء ﴾ هم الذين أمرنا الله تعالى أن نكون منهم فى قوله تعالى ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وهم أهل العدل والانصاف الذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله بأنهم محقون ، ويشهدون على أهل الباطل أنهم مبطلون ، ودرجتهم تلى درجة الصديقين . والصديقون شهداء وزيادة و ﴿ الصالحون ﴾ هم الذين صلحت نفوسهم وأعمالهم ولم يبلغوا أن يكونوا حججاً ظاهرين كالذين قبلهم ، لانه ليس لهم من العلم والعمل المتعدى نفعه إلى غيرهم ما يحتج به على المبطلين والجائرين عن الصراط المستقيم ، وقيل هم الذين صلحت أعمالهم فى الغالب ويكفى أن تغلب حسناتهم على سيئاتهم وأن لا يصرّوا على ذنب وهم يعلمون

هؤلاء الأصناف الأربعة هم صفوة الله من عباده ، وقد كانوا موجودين فى كل أمة ، ومن أطاع الله والرسول من هذه الأمة كان منهم وحشر يوم القيامة معهم ، لأنه وقد ختم الله النبوة والرسالة لا بد أن يرتقى فى الأتباع إلى درجة أحد الأصناف الثلاثة الصديقين والشهداء والصالحين

﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ أى أن مرافقة أولئك الأصناف هى الدرجة التى يرغب العاقل فيها لحسنها . وجاء فى الحديث الصحيح « من أحب قوماً حشره الله معهم » وجاء فى حديث آخر « المرء مع من أحب » وآية المحبة الطاعة

﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ فى هذه العبارة وجهان : أحدهما أن المعنى ذلك الذى ذكر جزاء من يطيع الله ورسوله ، هو الفضل الكامل الذى لا يعلوه فضل ، فان الصعود إلى إحدى تلك المراتب فى الدنيا وما يتبعه من مرافقة أهلها وأهل من

فوقها فى الآخرة هو منتهى السعادة فيه يتفاضل الناس فيفضل بعضهم بعضاً ، وهو من الله تفضل به على عباده . وثانيهما أن المعنى ذلك الفضل الذى ذكر من جزاء المطيعين هو من الله تعالى

﴿ وكفى بالله عليما ﴾ التذكير بالعلم الإلهى فى آخر السياق يشعرنا بأن شيئاً من أعمالنا ونياتنا لا يعزب عن علمه . ليحذر المنافقون المراءون لعلهم يتذكرون فيتوبون ، وليطمئن المؤمنون الصادقون لعلهم ينشطون ويزدادون

هذه هى اللمسة الشاملة لقلوب المؤمنين تشوقهم إلى ذلك الأفق الرفيع الحبيب الذى يرقى اليه الطائعون لله والرسول

إنه ذلك الأفق الوضىء الذى تتشوق اليه الأرواح وتهفو اليه القلوب ـ أفق الرفقة والصحبة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وها هو ذا على سموقه وارتفاعه ووضاءته فى متناول من يريد . . فما هى إلا طاعة الله والرسول ، فاذا الأفق الشاهق السامى قريب

إن الطاعة ليست أمراً ، وليست تكليفاً فى هذه المرة ، وإنما هى وسيلة التسامى إلى ذلك المرتقى ، وأداة الوصول إلى ذلك الحمى . والتقـــدمة بين يدى ذلك الأمل الحبيب

﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ . . . فهو جزاء لا يستحقه الإنسان عن جهد . فما يبلغ الجهد وحده أن يكون هذا جزاءه . . إنما هو الفضل من الله يساعف الجهد ويضاعف الجزاء

* * *

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ وانفِرُوا جَمِيعـاً (٧١)
وإنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فإنْ أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قدْ أنعَمَ اللهُ عَلَىَّ إذْ لمْ
أكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ
بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيما (٧٣) فَلْيُقَتِلْ

فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ ، ومَنْ يُقَٰتِلْ فى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤) وما لَكُمْ لا تُقَٰتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدٰنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرا (٧٥) الَّذِينَ ءامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فى سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ ، فَقَٰتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كانَ ضَعِيفاً (٧٦)

إن الله تعالى بين لنا أصل الحكومة الإسلامية فى آية الأمانات والعدل وكان قد بين لنا فى هذه السورة كثيراً من مهمات الأحكام الدينية والشخصية والمدنية (كما يقال فى عرف هذا العصر) ثم شدد النكير على من يرغب عن حكم الرسول إلى حكم غيره من أهل الطغيان . بعد هذا كله شرع يبين لنا بعض الأحكام الحربية والسياسية ، وبين لنا الطريق الذى نسير عليه فى حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول المحكمة الحكيمة من الأعداء الذين يعتدون علينا

والأمة المسلمة يومئذ كلها جيش يجاهد فى سبيل الله ، وتكاليفها إلى يوم القيامة تعرضها لأن تحمل تبعة الجهاد فى أى زمان

هنا ينبه المؤمنين أن يأخذوا حذرهم دائماً حين يواجهون الأعداء . وأن يأخذوا حذرهم كذلك تجاه المبطئين والمعوقين — من المنافقين — داخل الجيش الإسلامى

ثم يثبت قلوبهم على الجهاد ، ويقرر لهم وجهتهم فيه ، فهم لايقاتلون لأنفسهم ، إنما يقاتلون لنصرة الضعفاء ودفع العدوان ، وهم لا يقاتلون عدواً ذا مبـدأ أو عقيدة ، فأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت بينما هم يقاتلون فى سبيل الله

﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ الحذْر والحذَر الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو ، وذلك بأن نعرف حال العدو ومبلغ استعداده وقوته ، وإذا كان الأعداء متعددين فلا بد فى أخذ الحذر من معرفة مابينهم من الوفاق والخلاف ،

وأن نعرف الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، وأن يعمل بتلك الوسائل . وأن نكون على معرفة من حال العدو فى بلاده وخارجها . ويدخل فى الاستعداد والحذر معرفة الأسلحة واتخاذها واستعمالها . فاذا كان ذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجر الأثقال فيجب تحصيل كل ذلك كما هو الشأن فى هذه الأيام ، ذلك أنه أطلق الحذر ، أى ولا يتحقق الامتثال إلا بما تتحقق به الوقاية والاحتراز فى كل زمن بحسبه ، أى يجب على المسلمين فى هذا الزمان اتخاذ أهبة الحرب المستعملة من الدبابات والطيارات والمدافع والغواصات والقنابل الذرية ، وأنه يجب تحصيل العلم بصنع هذه الأسلحة وما يلزم لها والعلم بسائر الفنون والأعمال الحربية

﴿ وانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾ والنفر مستعمل فى الخروج إلى الحرب . وثبات جماعات . ولا تتقيد الجماعة بعدد معين . وجميعاً يراد به جميع المؤمنين على الاطلاق ، وهذا حسب حال العدو . وإن أخذ الحذر ليشمل مع ما تقدم كيفية سوق الجيش وقيادته وهو النفر . ان النفر على حسب الحاجة إلى مقاومة العدو وهو أن يرسل الجيش جماعات وفرقاً كما عليه العمل حتى الآن . فاذا احتيج فى المقاومة إلى نفر جميع أفراد الأمـــة وخروجهم للجهاد وجب وهو قوله ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ وليس المراد أن يكون النفر على كيفيتين الأولى أن يقسم الجيش إلى فرق وسرايا والثانية أن يسير خميساً واحداً ، ليس هذا هو المراد ، وإنما المراد هو الأول . ويتوقف امتثال هذا الأمر على أن تكون الأمة كلها مستعدة دائماً للجهاد بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمرنون عليها بالعمل ، فيظهر أن المعافاة من الخدمة العسكرية ليست شرفاً بل هى إباحة لترك ما أوجب الله فى كتابه . ويجب على الحكومة الإسلامية تدريب جميع أبناء الأمة على حمل السلاح والتدريب به ، ويجب على الأمة أن تواتيها وتساعدها عليه وأن تلزمها إياه إذا هى قصرت فيه

وقد شدد الدين أيما تشديد فى هذا الأمر فى قوله تعالى ﴿ وأعـــدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى

لما حث الله على الجهاد بين حال المتخلفين عنه فقال :

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ أى يبطىء هو عن السير إبطاء لضعف فى إيمانه . والإتيان بصيغة التشديد للمبالغة فى الفعل وتكراره ، وليس معناه أن يحمل غيره على البطء ، فان الخطاب المؤمنين وهذا لا يصدر عن مؤمن . وقد شرح الله حال هذا القسم من الضعفاء توبيخاً لهم وإزعاجاً إلى تطهير نفوسهم وتزكيتها ـ فقال ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ فيه من قتل أو هزيمة ﴿ قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ فشكره لله على عدم شهوده لتلك الحرب دليل على إيمانه ﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ كالظفر والغنيمة ﴿ ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما ﴾ أى يقولن قول من ليس منكم ولا جمعته مودة بكم ياليتنى كنت معهم فأفوز بذلك الفضل فوزهم ، فقد نسى أنه كان أخاً لكم وكان من شأنه أن يخرج معكم ، وما منعه أن يخرج إلا ضعف إيمانه . ثم إن تمنيه بعد الظفر أو الغنيمة لو كان معكم دليل على ضعف عقله وكونه ممن يشرون الحياة الدنيا بالآخرة وهم الذين تشير اليهم الآية التالية :

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ بين الله تعالى حال ضعفاء الإيمان الذين يبطئون عن القتال فى سبيله ، ثم دلهم بهذه الآية على تطهير نفوسهم من ذلك الذنب العظيم ذنب القعود عن القتال ، ولو عملوا كل صالح وضعفت نفوسهم عن القتال لما كان ذلك مكفراً لخطيئتهم . وسبيل الله هى طريق الحق والانتصار له . فمنه إعلاء كلمة الله ونشر دعوة الإسلام ومنه دفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا أو أغاروا على أرضنا أو نهبوا أموالنا أو صادرونا فى تجارتنا وصدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس . فسبيل الله عبارة عن تأييد الحق الذى قرره ويدخل فيه كل ما ذكرناه . ويشرون بمعنى يبيعون قولا واحداً بلا احتمال ، واستعمال القرآن فيه مطرد . قال تعالى ﴿ ولبئسما شروا به أنفسهم ﴾ أى باعوها ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ أى باعوه . والباء فى صيغة البيع تدخل على الثمن

دائماً . فالمعنى أن من أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويبذلها ويجعل الآخرة ثمناً لها وبدلا عنها فليقاتل فى سبيل الله

﴿ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ أى ومتى كان القتال فى سبيل الله لا لأجل الحمية والحظوظ الدنيوية فكل من قتل لظفر عدوه به ففاته الانتفاع بالقتال فى الدنيا فان الله تعالى يؤتيه فى الآخرة أجراً عظيما بدلا مما فاته ، وهو إذا ظفر وغلب عدوه لا يفوته ذلك الأجر لأنه إنما ناله بكون قتاله فى سبيل الله ، وهى سبيل الحق والعدل والخير . لا فى سبيل الهوى والطمع

ثم حث سبحانه على تخليص المستضعفين فقال :

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ﴾ التفات إلى الخطاب لزيادة الحث على القتال الذى لا بد منه لكونه فى سبيل الحق ، أى وماذا ثبت لكم من الأعذار فى حال ترك القتال حتى تتركوه ؟ أى لا عذر لكم ولا مانع يمنعكم أن تقاتلوا فى سبيل الله لإقامة التوحيد مقام الشرك ، وإحلال الخير محل الشر ، ووضع العدل والرحمة فى موضع الظلم والقسوة ﴿ والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ أى فى سبيل المستضعفين أو وأخص فى سبيل الله انقاذ المستضعفين من ظلم الأقوياء الجبارين وهم إخوانكم فى الدين . وقد استذلهم أهل مكة ونالوا منهم بالعذاب والقهر ، ومنعوهم من الهجرة ليفتنوهم عن دينهم . ويردوهم فى ملتهم . والخطاب لضعفاء الإيمان من المسلمين لا للمنافقين . والمستضعفون هم المؤمنون المحصورون فى مكة يضطهدهم المشركون ويظلمونهم . وقد جعل لهم سبيلا خاصة عطفه على سبيل الله مع أنه داخل فيه . والنكتة فيه إثارة النخوة وهز الأريحية الطبيعية وإيقاظ شعور الأنفة والرحمة ، ولذلك مثل حالهم بما يدل على نصرتهم فقال ﴿ والذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ بين تعالى أنهم فقدوا من قومهم لأجل دينهم كل عون ونصير ، وحرموا كل مغيث وظهير ، فهم لتقطع أسباب الرجاء بهم يستغيثون

ربهم ويدعونه ليفرج كربهم ويخرجهم من تلك القرية وهى وطنهم لظلم أهلها لهم ويسخر لهم بعنايته الخاصة من يتولى أمرهم وينصرهم على من ظلمهم ليهاجروا اليكم ويتصلوا بكم ، فان رابطة الإيمان أقوى من روابط الأنساب والأوطان ، فليكن كل منكم لهم ولياً ونصيراً ، فاستجاب الله تعالى دعاءهم ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة جعل الله نبيه لهم ولياً فاستعمل على مكة عتاب بن أسيد فجعله الله نصيراً فكان ينصف الضعيف من الشديد

بين القرآن فى عدة مواضع حكمة القتال وكونه للضرورة وإزالة المفسدة وأداة المصلحة ، ولم يكتف هنا ببيان هذه الآية من كون القتال المأمور به مقيداً بكونه فى سبيل الله وهى سبيل الحق والعدل وإنقاذ المظلومين المستضعفين من الظلم حتى أكده بإعادة ذكره مع مقابلته بضده وهو ما يقاتل الكفار لأجله فقال :

﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ تقدم أن الطاغوت من المبالغة فى الطغيان وهو مجاوزة حدود الحق والعدل والخير إلى الباطل والظلم والشر ، فلو ترك المؤمنون القتال ـ والكافرون لا يتركونه ـ لغلب الطاغوت وعمَّ ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ فغلبت الوثنية المفسدة للعقول والأخلاق وعم الظلم لعموم الاستبداد

﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ﴾ فأنتم أيها المؤمنون أولياء الرحمن قاتلوا أولياء الشيطان الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه أن فى الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفاً لهم أيما شرف

﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ هذه الآية جواب عما عساه يطوف بخواطر أولئك الضعفاء ـ وهو أننا لا نقاتل لأننا ضعفاء والأعداء أكثر منا عدداً وأقوى منا عدداً . فدلهم الله تعالى على قوة المؤمنين التى لا تعادلها قوة ، وضعف الأعداء الذى لا يفيد معه كيد ولا حيلة . وهو أن المؤمنين يقاتلون فى سبيل الله وهو تأييد الحق الذى يوفق به صاحبه . وصاحب اليقين والمقاصد الصحيحة الفاضلة

تتوجه نفسه بكل قواها إلى إتمام الاستعداد . ويكون أجدر بالصبر والثبات ، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعُدد

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

بعد أن أمر الله تعالى بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له وذكر حال المبطئين ، الذين ضعفت قلوبهم وأمرهم بالقتال في سبيله وفي سبيل إنقاذ المستضعفين — ذكر هنا أن الإسلام كلفهم ترك ما كانوا عليه في الجاهلية من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ، ولا سيما بين قبيلتي الأوس والخزرج ، فان الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجيء الإسلام . وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم . وطلب اليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة ، حتى خمدت في نفوس كثير منهم حمية الجاهلية ، وحل محلها شريف العواطف الانسانية ، إلى أن اشتدت الحاجة إلى القتال الذود عن بيضة الإسلام ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين وأحبوا فتنتهم في دينهم وردهم إلى ما كانوا عليه ، ففرضه عليهم فكرهه المنافقون والضعفاء ، فنعى الله عليهم ذلك ووبخهم أشد التوبيخ

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال ﴾ الخطاب لجماعة المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء، والاستفهام للتعجب منهم إذ أمرهم الله تعالى باحترام الدماء وكف الأيدى من الاعتداء وبإقامة الصلاة وبالخشوع والعبودية لله وتمكين الايمان فى قلوبهم وبإيتاء الزكاة التى تفيد مع تمكين الإيمان شد أواصر التراحم بينهم فأحبوا أن يكتب الله عليهم القتال ليجروا على ما تعودوا، فلما كتب عليهم للدفاع عن بيضتهم وحماية حقيقتهم كرهه الضعفاء منهم وكان عليهم أن يفقهوا من الأمر بكف الأيدى أن الله تعالى لا يحب سفك الدماء وأنه ما كتب القتال إلا لضرورة دفاع المبطلين المغيرين على الحق وأهله لأنهم خالفوا أباطيلهم واتبعوا الحق من ربهم فيريدون أن ينكلوا بهم أو يرجعوا عن حقهم فأين محل الاستنكار فى مثل هذه الحال؟ وهؤلاء هم ضعفاء المسلمين الذين ذكروا أنهم يبطئون عن القتال ولذلك قال ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾، و «أو» هنا بمعنى «بل»، أى أنهم يخشون الناس بالقعود عن قتالهم على ما فيه من مخالفة أمر الله تعالى – ولما كان من شأن الذى يساوى بين اثنين فى الخشية أو يميل إلى هذا تارة وإلى الآخر تارة وكان هؤلاء قد رجحوا بترك القتال خشية الناس مطلقاً قال ﴿ أو أشد خشية ﴾ أى بل أشد خشية. وليس هذا من شأن الإيمان الراسخ، فظهر أثر الخشية والخوف من الأعداء حتى رجحوه على الخشية من الله عز وجل وسهل عليهم مخالفته بالقعود عن القتال وهو يقول ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ واستنكروا فرض القتال وأحبوا لو تأخر إلى أجل ﴿ وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أى هلا أخرتنا إلى أن نموت حتف أنوفنا بأجلنا القريب. وقال بعض المفسرين المراد بالأجل القريب الذى يقوون فيه ويستعدون للقتال بمثل ما عند أعدائهم، ويحتمل ألا يكونوا قصدوا أجلا معيناً معلوماً وإنما ذكروا ذلك لمحض الهرب والتقصى عن القتال كما تقول لمن يرهقك

عسراً فى أمر : أمهلنى قليلا ، أنظرنى إلى أجل قريب . وقد أمر نبيه ﷺ أن يرد عليهم بقوله :

﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ أى أن علة استنكاركم للقتال وطلبكم الانظار فيه إنما هى خشية الموت والرغبة فى متاع الدنيا ولذاتها ، وكل ما يتمتع به فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى متاع الآخرة لأنه محدود وفان ﴿ والآخرة خير لمن اتقى ﴾ لأن متاعها كثير وباق لا نفاد له ولا زوال وإنما يناله من اتقى الاسباب التى تدنس النفس بالشرك وبالأخلاق الذميمة كالجبن والقعود عن نصر الحق على الباطل والخير على الشر ، وإذا كانت الآخرة خيراً للمتقين فهى شر ووبال على المجرمين ، فحاسبوا أنفسكم واعلموا أنكم مجزيون هنالك عن أعمالكم . ﴿ ولا تظلمون فتيلا ﴾ أى ولا تنقصون من الجزاء الذى تستحقونه بأثر أعمالكم فى أنفسكم مقدار فتيل وهو ما يكون فى شق نواة التمرة مثل الخيط أو ما يفتل من الوسخ على الجلد أو من الخيوط ويضرب هذا مثلا فى القلة والحقارة . وقيل لا تنقصون أدنى شىء من آجالكم . ثم جاء بما يذهب بأعذارهم وينفخ روح الشجاعة والاقدام فى المستعدين منهم فقال :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ أى أن الموت حتم لا مفر منه ولا مهرب ، فهو لا بد أن يدرككم فى أى مكان كنتم ولو تحصنتم منه فى البروج المشيدة — وهى القصور العالية التى يسكنها الملوك والأمراء فيعز الارتقاء اليها بدون إذنهم ، أو الحصون المنيعة التى تعتصم فيها حامية الجند — شيد البناء يشيده علاه واحكم بناءه — كان من مرض قلوب هؤلاء أن كرهوا القتال وجبنوا عنه وخافوا الناس وتمنوا بذلك طول البقاء فكان صدعاً فى دينهم وعقولهم قامت به عليهم الحجة . ثم ذكر شأناً آخر من شؤونهم يشبه فى الدلالة على مرض القلب والعقل فقال ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ﴾ الحسنة ما يحسن عند صاحبه كالرخاء والخصب والظفر والغنيمة ، كانوا يضيفون الحسنة إلى الله تعالى لا بشعور التوحيد الخالص بل غروراً بأنفسهم وزعماً منهم أن الله

أكرمهم بها عناية بهم وهروباً من الاقرار بأن شيئاً من ذلك أثر ما جاء به الرسول من الهداية وما أحاطهم به من التربية والرعاية ، ولذلك كانوا ينسبون اليه السيئة وهو ﷺ برىء من أسبابها دع إيجادها وإيقاعها . وذلك قولهم ﴿ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ والسيئة ما يسوء صاحبه كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجرح والقتل ، كان المنافقون والكفار من اليهود وغيرهم إذا أصاب الناس فى المدينة سيئة بعد الهجرة يقولون هذا من شؤم محمد ﴿ قل كل من عند الله ﴾ قل أيها الرسول إن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله لوقوعها فى ملكه على حسب سنته فى نظام الأسباب والمسببات ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ أى فما بال هؤلاء القوم وماذا أصاب عقولهم حال كونها بمعزل عن الغوص فى أعماق الحديث وفهم مقاصده وأسراره ، فهم لا يعقلون حقيقة حديث يلقونه ولا حقيقة حديث يلقى اليهم قط ، وإنما يأخذون بما يطفو من المعنى على ظاهر اللفظ بادىء الأمر . والفقه معرفة مراد صاحب الحديث من قوله وحكمته فيه من العلة الباعثة عليه والغائية له

بعد أن بين حقيقة الأمر فى السيئات والحسنات بالنسبة إلى موضوعها وسنن الاجتماع فيها وأنها كلها تضاف بهذا الاعتبار إلى الله عز وجل أراد أن يبين حقيقة الأمر فيها من وجه آخر ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وتفصيل القول أن هنا حقيقتين متفقتين (إحداهما) أن كل شىء من عند الله بمعنى أنه خالق الأشياء التى هى مواد المنافع والمضار وأنه واضع للنظام والسنن لأسباب الوصول إلى هذه الأشياء بسعى الإنسان ، وكل شىء حسن بهذا الاعتبار لأنه مظهر الابداع والنظام ، و (الثانية) أن الإنسان لا يقع فى شىء يسوؤه إلا بتقصير فى استبانة الأسباب وتعرف السنن . فالسوء معنى يعرض للأشياء بتصرف الإنسان وباعتبار أنها تسوؤه وليس ذاتياً . ولذلك يسند إلى الإنسان . مثال ذلك المرض فهو من الأمور التى تسوء الإنسان ، وهو إنما يصيبه

بتقصيره فى السير فى سنة الفطرة فى الغذاء والعمل ، فيجيء من تخمة قادته اليها الشهوة ، أو من إفراط فى التعب أو فى الراحة ، أو من عدم اتقاء أسباب الضرر كتعريض نفسه للبرد القارس أو الحر الشديد ، وقس على ذلك غيره من أسباب الأمراض التى ترجع كلها إلى الجهل بالأسباب وسوء الاختيار فى الترجيح

وقيل إن الله خلق الكون وجعل له ناموساً خاصاً وسنة لا تتخلف ولا تتبدل ، فكل ما يقع فى هذا الكون محكوم بذلك الناموس ، جار على هذه السنة ، فهو إذن وفق مشيئة الله

هذه المشيئة اقتضت أن يكون للانسان إرادة تختار الطريق الذى يؤدى إلى الحسنة ، أو الطريق الذى يؤدى إلى السيئة . فحين يختار الطريق الأولى يرضى الله عنه ويحقق له الخير الذى قصد اليه ، فتكون الحسنة التى تصيبه من الله . وحين يختار الطريق الثانية يبعد عن الله فتصيبه السيئة وتكون هذه من عنده . . وكلتاهما فى النهاية من عند الله ، لأنهما تجريان على سنته ووفق مشيئته . ومشيئته هى التى جعلت هذه السنة نافذة

وإذن لا يكون هناك تعارض بين النصين

﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ وما على الرسول إلا البلاغ المبين . وليس للرسول دخل فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات لأنه أرسل للتبليغ والهداية لا للتصرف فى نظام الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ فزعم أولئك الجاهلين أن السيئة التى تصيبهم من عنده أو بسببه وما تخيلوا من شؤمه لا حجة عليه من العقل ، وهو مخالف لما بين من وظيفة الرسول فى النقل ، على أن هدايته جامعة لأسباب النعم

فهى من يمنه لا من خلقه . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ على صحة رسالتك للناس كافة بتأييدك بآياته وتصديقك فيما أنذرت به المعرضين وبشرت به المؤمنين . وقيل ان المراد بالشهادة هنا الشهادة على أولئك الذين قالوا بتلك الأقوال المنكرة

° ° °

مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاعَ اللهَ ، ومَنْ تَوَلَّى فما أرْسَلْناكَ عليهِمْ حَفيظا (٨٠) ويَقولونَ طاعَةٌ ، فاذا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طائفةٌ منهم غَيْرَ الَّذى تَقولُ ، واللهُ يَكتُبُ ما يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنهمْ وتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وكَفَى بِاللهِ وَكيلا (٨١) أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْءانَ ، ولَوْ كانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيه اخْتِلفًا كَثيرا (٨٢) وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أوِ الخَوْفِ أذاعُوا بِهِ ، ولَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلَىٰ أُولِى الأَمْرِ مِنهمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنهمْ ، ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ ورَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَٰنَ إلاَّ قَليلا (٨٣)

هذه الآية متصلة بما قبلها مسايرة لها ، فقد تقدم أن من أصول هذه الشريعة طاعة الله وطاعة الرسول . وقد أمر بهما معاً أمراً عاماً ، وبين جزاء المطيع وأحوال الناس فى هذه الطاعة بحسب قوة الإنسان وضعفه والصدق فيه والنفاق . ثم أمر بالقتال ، وبين مراتب الناس فى الامتثال . وبعد هذا ذكر المؤمنين بأمر الطاعة وكونها لله تعالى بالذات ولغيره بالتبع ، وبين ضرباً من ضروب مراوغة أولئك الضعفاء أو المنافقين فيها فقال :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ الآية تدل على أن الله هو الذى يطاع لذاته لأنه رب الناس وإلههم وملكهم وهم عبيده المغمورون بنعمه ، وأن رسله إنما تجب طاعتهم فيما يبلغونه عنه من حيث أنهم رسله لا لذاتهم . ﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أى ومن تولى وأعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس من شؤون رسالتك أن تكرهه عليها لأنا أرسلناك مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لا حفيظاً عليهم أى مسيطراً ورقيباً تحفظ على الناس أعمالهم فتكرههم على فعل الخير ، ولا جباراً تجبرهم عليه ، بل الإيمان والطاعة من الأمور الاختيارية التى تتبع الاقناع

﴿ ويقولون طاعة ﴾ أى يقول المسلمون كافة أو أولئك الذين ذكروا فى

الآيات الأخيرة يقولون للنبي ﷺ إذا أمرهم بأمر : أمرك طاعة — لك منا طاعة فيما تأمرنا به وتنهانا عنه ، فهو يدل بإيجازه على أنهم كانوا في حضرة الرسول يدعون كمال الطاعة ويظهرون منتهى الانقياد ﴿ فاذا برزوا من عندك ﴾ أي فاذا خرجوا من عندك وكلمة برزوا من البراز وهو الفضاء من الأرض أي خرجوا من المكان يكونون معك فيه إلى البراز منصرفين إلى بيوتهم ﴿ بيت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ دبرت في نفسها ليلا غير الذي تقول لها وتظهر الطاعة لك فيه نهاراً ، أي بيتت غير الذي تقوله هي لك وتؤكده من طاعتك . وليس هذا خاصاً بالمنافقين بل يكون من ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أي يبينه لك في كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآية ، أو يكتبه في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أيها الرسول ولا تبال بما يبيتون ولا تؤاخذهم بما أسرّوا ولم يظهروا . أو المراد لا تقبل عليهم بالبشاشة كما تقبل على الصادقين ﴿ وتوكل على الله ﴾ في شأنهم أي اتخذه وكيلا تكل اليه جزاءهم وتفوض اليه أمرهم ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ يحيط علمه بالأعمال ظاهرها وباطنها وبما يستحق العاملون من الجزاء عليها ، ويقدر على إيقاع هذا الجزاء لا يعجزه منه شيء ، وإنما عليك البلاغ وعليه الحساب والجزاء .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ التدبر هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكير في غاياته ومقاصده التي يرمي اليها وعاقبة العامل به والمخالف . والمعنى جهل هؤلاء حقيقة الرسالة وكنه هذه الهداية ، أفلا يتدبرون القرآن الذي يدل على حقيقتها وعاقبة المؤمنين بها فيعرفوا أنه الحق من ربهم وأن ما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع بهم . أفلم يَبِنْ لهم أن يدركوا من خصائصه ومزاياه أنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله . ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ أي لو كان من عند محمد بن عبد الله القرشي لا من

عند الله الذى أرسله به لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً لعدم استطاعته واستطاعة غيره أن يأتى بمثله فى بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وفلسفة الآداب والأخلاق وسياسة الشعوب والأقوام مع اتفاق جميع الاصول وعدم الاختلاف والتفاوت فى شىء من الفروع

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ هذا بيان لخيانة ضعاف الإيمان اثر ببيان خيانة المنافقين ، أى أنهم من الطيش والخفة بحيث يستفزهم كل خبر عن العدو يصل اليهم فيطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس ، وما كان ينبغى أن تشيع فى العامة أخبار الحرب وأسرارها ، ولا أن تخوض العامة فى السياسة فان ذلك يشغلها بما يضر ولا ينفع — يضرهم أنفسهم بما يشغلهم عن شئونهم الخاصة ، ويضر الأمة والدولة بما يفسد عليها من أمر المصلحة العامة — وهذه الآيات تنبه ضعفاء المسلمين إلى مواضع ضعفهم

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ﴾ أى ولو أرجعوا ذلك الامر العام الذى خاضوا فيه وأذاعوا به وفوضوه إلى الرسول وإلى أولى الامر منهم أى أهل الرأى والمعرفة بمثله من الأمور العامة والمقدرة على الفصل فيها وهم أهل الحل والعقد من الذين تثق بهم الامة فى سياستها وإدارة أمورها ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ أى لعلم ذلك الأمر الذين يستخرجونه ويظهرون مخبأه منهم — لاستنباط استخراج ما كان مستتراً عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم أيها المسلمون بما هداكم اليه من طاعة الله والرسول ظاهراً وباطناً وتدبر القرآن ورد الأمور العامة إلى الرسول وأولى الأمر منكم لاتبعتم وسوسة الشيطان كالتى تذيع بأمر الأمن والخوف وتفسد على الأمة سياستها - إلا قليلا من الاتباع ، أى لاتبعتم الشيطان فى أكثر أعمالكم بجعلها من الباطل والشر لا فيها كلها ، أو إلا قليلا منكم أوتوا من صفاء الفطرة وسلامتها ما يكفى لإيثار الحق والخير كأبى بكر وعمر وغيرهما من أكابر الصحابة

* * *

فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلا (٨٤) من يشفع شفعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شىء مقيتا (٨٥) وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، إن الله كان على كل شىء حسيبا (٨٦) الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثا (٨٧)

تقدم أن الآيات فى وصف أولئك الضعفاء . ولما قال ان الرسول ليس حفيظاً عليهم وأنه هو مبلغ عن الله تعالى أيد هذا وأوضحه بقوله ﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين ﴾ أى انك أنت المكلف أن تقاتل فى سبيل الله والرقيب على نفسك . فقم بما يجب عليك بالعمل ، وحرض المؤمنين على القتال معك لأن التحريض من التبليغ الذى منه الأمر والنهى ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ وحاصل المعنى أن تحريض النبى للمؤمنين على القتال معه هو الذى يحملهم بباعث الإيمان والإذعان النفسى ـ دون الإلزام والسيطرة ـ على الاستعداد له وتوطين النفس عليه . وذلك هو الذى يوطن نفوس الكافرين على كف بأسهم عن المؤمنين ، ويعدهم لترك الاعتداء عليهم ـ لأنه لا شىء أدعى إلى ترك القتال من الاستعداد للقتال

والبأس قوة ـ وكان بأس الكافرين موجها إلى إذلال المؤمنين لأجل الإيمان لا لذواتهم وأشخاصهم ، فتأييد الإيمان متوقف على كف بأسهم ، وكفه متوقف على تصدى المؤمنين للجهاد

﴿ والله أشد بأساً وأشد تنكيلا ﴾ أى لا يخيفنكم أيها المؤمنون بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم ، ولا يصدنكم عن طاعة الرسول والعمل بتحريضه مذعنين مختارين . فان الله تعالى الذى وعده بالنصر أشد بأساً منهم وأشد تنكيلا لهم مما

يحاولون أن ينكلوا بكم . ولكن سنته سبقت بأن تكون العاقبة لأهل الحق إذا اتقوا أسباب الخذلان واتخذوا أسباب الدفاع مع الصبر والثبات . لا أنه ينصرهم وهم قاعدون أو مقصرون في الجرى على سنته التي لا تبديل لها ولا تحويل — والتنكيل أن تعاقب المجرم بما يكون عبرة ونكالا لغيره يمنعه أن يجرم مثل إجرامه ، وهو من النكول بمعنى الامتناع

﴿ من يشفع شفاعة حسنة ﴾ الشفاعة من الشفع وهى مقابل الوتر — قال الراغب : الشفع ضم الشيء إلى مثله . والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلا عنه . والمعنى أن يجعل نفسه شفعاً لك وقد أمرت بالقتال وتراً ، وهى الشفاعة الحسنة ، لأنها نصر للحق وتأييد له . ومثل ذلك كل من ينضم إلى أى محسن ويشفعه

﴿ يكن له نصيب منها ﴾ أى من شفاعته هذه بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة في الدنيا عند ما ينتصر الحق على الباطل ، وبما يكون له من الثواب فى الآخرة سواء أدرك النصر فى الدنيا أم لم يدركه . والنصيب الحظ المنصوب أى المعين كما قال الراغب ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة ﴾ بأن ينضم إلى عدوك فيقاتل معه أو يخذل المؤمنين عن قتاله ، وهذه هى الشفاعة السيئة ، ومثلها كل إعانة على السيئات

﴿ يكن له كفل منها ﴾ أى نصيب من سوء عاقبته وهى ما يناله من الخذلان فى الدنيا والعقاب فى الآخرة . فالكفل بمعنى النصيب المكفول الشافع لأنه اثر عمله ، أو المحدود لأنه على قدره والذى يجيء من الوراء.

وقد ذكر الرازى لاتصال الآية بما قبلها وجوهاً : أولها وثانيها أنه جعل تحريض النبي ﷺ على القتال بمعنى الشفاعة الحسنة له أجره ، وأنه ليس عليه عمن تمرد وعصى وزر ولا عيب . والثالث جواز أن بعض المنافقين كان يشفع الى النبي ﷺ فى أن يأذن لبعضهم فى التخلف عن القتال ، فنهى الله تعالى عن هذه الشفاعة ، وبين أن الشفاعة إنما تحسن إذا كانت وسيلة إلى إقامة طاعة الله تعالى دون العكس . وهذا الوجه صحيح وكان واقعاً ، وقد ذكر فى سورة التوبة استئذانهم فى التخلف . وقد يستأذن بعضهم بغيره ويشفع له كما يستأذن لنفسه . والرابع مما

ذكره الرازى جواز أن يشفع بعض المؤمنين لبعض فى إعانة من لا يجد أهبة القتال أن يعان عليها — وحاصل الوجهين أن الشفاعة ذكرت فى هذا السياق لأن من شأنها أن تقع فى الإعانة على القتال والقعود عنه . وإن كان اللفظ عاماً على سنة القرآن فى الاتيان بالقواعد الكلية والمسائل العامة فى سياق بيان بعض ما يدخل فى ذلك العموم

العلماء متفقون على أن شفاعة الناس بعضهم لبعض تدخل فى عموم الآية ، وأنها قسمان : حسنة وسيئة . فالحسنة أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظلمة عن مظلوم أو جر منفعة إلى مستحق ، ليس فى جرها اليه ضرر ولا ضرار . والسيئة أن يشفع فى إسقاط حد أو هضم حق أو اعطاء لغير مستحق أو محاباة فى عمل يجر إلى الخلل والزلل . والضابط العام أن الشفاعة الحسنة هى ماكانت فيما استحسنه الشرع ، والسيئة فيما كرهه أو حرمه

ومن العبرة فى الآية أن تتذكر بها أن الحاكم العادل لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإعلامه ما لم يكن يعلم من مظلمة المشفوع له أو استحقاقه لما يطلب له ، ولا يقبل الشفاعة لأجل إرضاء الشافع فيما يخالف الحق والعدل وينافى المصلحة العامة . وأما الحاكم المستبد الظالم فهو الذى تروج عنده الشفاعات ، لأنه يحابى أعوانه المقربين منه ليكونوا شركاء له فى استبداده ، فيثق بثباتهم على خدمته وإخلاصهم له ، وما الذئاب الضارية بأفتك فى الغنم من فتك الشفاعات فى إفساد الحكومات والدول . فان الحكومة التى تروج فيها الشفاعات يعتمد التابعون لها على الشفاعة فى كل ما يطلبون منها ، لا على الحق والعدل ، فتضيع فيها الحقوق ، ويحل الظلم محل العدل ، ويسرى ذلك من الدولة إلى الأمة فيكون الفساد عاماً

﴿ وكان الله على كل شىء مقيتاً ﴾ أى مقتدراً أو حافظاً أو شاهدا . وعبر بعضهم بالحفيظ والشهيد — والمقيت بمعنى المقتدر . وحاصل معنى الجملة — وكان الله وما زال على كل شىء مقيتا أى مقتدراً مقدراً فهو لا يعجزه أن يعطى الشافع نصيباً أو كفلا من شفاعته على قدرها فى النفع والضر لأن سنته الحكيمة قضت بأن يكون هذا الجزاء مرتبطاً بالعمل أو شهيداً حفيظاً على الشفعاء ولا يخفى عليه أمر محسنهم ومسيئهم فهو يعطى الجزاء على قدر العمل

بعد أن علم الله المؤمنين طريقة الشفاعة الحسنة والسيئة وهى من أسباب التواصل بين الناس ، علمهم سنة التحية بينهم وبين إخوانهم الضعفاء الأقوياء فى الإيمان وحسن الأدب بينهم وبين من يلقونه فى أسفارهم فقال ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ .ـ وجه الاتصال والمناسبة بين الآية والتى قبلها : ذكر الرازى فى النظم وجهين الأول أنه لما أمر المؤمنين بالجهاد أمرهم أيضاً أن يرضوا بالمسالمة إذا رضى الأعداء بها ، فهذه الآية عنده كقوله تعالى ﴿ وإذا جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ . والثانى أن الرجل كان يلقى الرجل فى دار الحرب أو ما يقاربها فيسلم عليه فقد لا يلتفت إلى سلامه ويقتله ، فمنع الله المؤمنين من ذلك ، وأمرهم أن يقابلوا كل من يسلم عليهم أو يكرمهم بنوع من الاكرام بمثل ما قابلهم به أو بأحسن منه . هذا ملخص قوله . وفى الأول أنه جعل التحية بمعنى السلام والسلم ، وفى الثانى من التوسع فى التحية ما فيه . وسيأتى فى هذه السورة ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً ﴾ وقد ذكر هنا أدب التحية كما ذكر ما ينبغى وما لا ينبغى فى الشفاعة ، لأن لكل من التحية والشفاعة شأناً عظيما فى حال القتال يكون به نفعهما أو ضررهما أقوى منه فى سائر الأحوال . ويدل على ذلك فى التحية اشتقاقها من الحياة

والتحية مصدر حياة إذا قال له « حياك الله » ، هذا هو الأصل ثم صارت التحية اسما لكل ما يقوله المرء لمن يلاقيه أو يقبل عليه من نحو دعاء أو ثناء . كقولهم أنعم صباحاً وأنعم مساء . وقالوا عم صباحاً ومساء ـ وجعلت تحية المسلمين السلام للإشعار بأن دينهم دين السلام والامان ، وأنهم أهل السلم ومحبو السلام . ومن التحيات الشائعة فى بلادنا إلى هذا اليوم : أسعد الله صباحكم ـ أسعد الله مساءكم ـ وهذا بمعنى قول العرب القدماء أنعم صباحاً ومساء ـ ونهارك سعيد ـ وليلتك سعيدة وهذا مترجم عن الأفرنجية

أوجب الله تعالى علينا فى هذه الآية أن نجيب من حيانا بأحسن من تحيته أو بمثلها أو عينها كأن تقول له الكلمة التى يقولها ، وهذا هو ردها . وقد ورد فى حديث الصحيحين إفشاء السلام وكونه سبب الحب بين المسلمين ، ومنها حديث

« ان أفضل الاسلام وخيره إطعام الطعام . وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . وصح « أفشوا السلام بينكم تحابوا » . « افشوا السلام تسلموا » ، وفي صحيح البخارى قال عمار « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الانصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والانفاق من الاقتار »

﴿ إن الله كان على كل شيء حسيباً ﴾ الحسيب المحاسب على العمل ، ويطلق على المكافىء . والمعنى أنه رقيب عليكم فى مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية . وفيه تأكيد لأمر هذه الصلة بين الناس ، وفيها أيضاً إشعار بخطر ترك إجابة من يسلم علينا ويحيينا وأنه تعالى يحاسبنا على ذلك

وقيل وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المراد بالسلام المسالمة التى هى ضد الحرب ، فلما أمر سبحانه بقتال المسلمين عقبه بأن قال : من مال إلى السلام وأعطى ذاك من نفسه وحيي المؤمنين بتحيته فاقبلوا منه

﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ المعنى الله لا إله إلا هو لا يعبد غيره ، فلا تقصروا فى طاعته والخضوع لأمره . وسيجعل لكم بهذا الدين ملكا عظيما ويجعلكم الوارثين . وهل هذا كل ما عنده من الجزاء للمحسنين ؟ كلا إنه والله ليجمعنكم ويحشرنكم إلى يوم القيامة لا ريب فى ذلك اليوم ولا فيما يكون فيه من الجزاء الأوفى على الأعمال ، فقد أكد الله تعالى خبره

بالقسم وهو أقوى المؤكدات ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ أى لا أحد أصدق منه عز وجل فيرجح خبره على خبره ـ فكلام غيره يحتمل الصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن جهل أو سهو . وأما كلامه تعالى فهو عن العلم المحيط بكل شيء ، ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ فلا يحتمل أن يكون خبره غير صادق لنقص فى العلم ، كما لا يجوز أن يكون كذلك لغرض أو حاجة لأنه تعالى غنى عن العالمين . وقد دل إعجاز القرآن على كونه كلام الله تعالى ، فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل إذا آثر على قوله تعالى أقوال المخلوقين كما هو دأب المقلدين الضالين

* * *

فَما لَكُمْ فى المُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً ، فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولٰئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِينا (٩١)

بعد أن ذكر سبحانه أحكام القتال وختمها ببيان أن لا إله غيره يخشى ضره أو يرجى خيره فتترك هذه الأحكام لأجله — ذكر هنا أنه لا ينبغى التردد فى أمر المنافقين وتقسيمهم فئتين ، مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية ، فيجب أن تقطعوا بكفرهم وتقاتلوهم حيثما وجدوا

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فاختلف المسلمون فى شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية

﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين ﴾ والمعنى أى إذا كان تعالى قد أمركم بالقتال فى سبيله وتوعد المبطئين عنه والذين تمنوا تأخير كتابته عليهم . وإذا كان لا إله غيره فيترك أمره وطاعته لأجله فما لكم تترددون فى أمر المنافقين وتنقسمون فيهم إلى فئتين ؟ والمراد بالمنافقين هنا فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون فيما يظهرون وكان المؤمنون فيهم على قسمين منهم من يرى

أن يعدوا من الأولياء ويستعان بهم على سائر المشركين المحاربين لهم جهراً . ومنهم من يرى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم من المجاهرين بالعداوة . فأنكر الله عليهم ذلك وقال ﴿ والله أركسهم بما كسبوا ﴾ أى كيف تتفرقون فى شأنهم والحال أن الله تعالى أركسهم وصرفهم عن الحق الذى أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك والمعاصى حتى أنهم لا ينظرون فيه نظر إنصاف وإنما ينظرون إليكم وما أنتم عليه نظر الأعداء المبطلين ويتربصون بكم الدوائر ، وقد جعلهم الله مركسين كأنهم قد نكسوا على رءوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾ لأنهم فسدت فطرتهم وأحاطت بهم خطيآتهم فأوغلوا فى الضلال وبعدوا عن الحق ، حتى لم يعد يجول فى أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ما عداه

وقد نسبه الله تعالى اليه لأنه ما كان سبباً إلا بسنته فى تأثير الأعمال الاختيارية فى نفوس العاملين

والركس معناه رد الشىء مقلوباً ، والركس شر ضروب التحول والارتداد ، وهو أن يرجع الشىء منكوساً على رأسه إن كان له رأس أو مقلوباً أو متحولا عن حالة إلى أردأ منها . والمراد هنا تحولهم إلى الغدر والقتال أو إلى الشرك . أو معنى أركسهم أظهر ركسهم بما بينه من أمرهم وهذا هو معنى ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ﴾ وهذا استفهام إنكارى معناه ليس فى استطاعتكم أن تغيروا سنن الله فى نفوس الناس فتنالوا منها ضد ما يقتضيه ما انطبع فيها من الأخلاق والصفات بتأثير ما كسبته طول عمرها من الأعمال ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أى من تقضى سنته تعالى فى خلقه بأن يكون ضالا عن طريق الحق ﴿ فلن تجد له سبيلا ﴾ يصل بسلوكها اليه ، فان للحق سبيلا واحدة وهى صراط الفطرة المستقيم ، وللباطل سبلا كثيرة عن يمين سبيل الحق وشمالها كل من سلك سبيلا منها يبعد عن سبيل الحق بقدر إيغاله فى السبيل التى سلكها كما قال تعالى ﴿ وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ، ولما تلا النبى ﷺ هذه الآية وضح معناها

بالخطوط الحسية فخط فى الأرض خطا جعله مثالا لسبيل الله وخط على جانبيه خطوطاً لسبل الشيطان

إن مشيئة الله اقتضت ـ كما ذكرنا مراراً ـ أن من يختار لنفسه طريق الهدى، ويتبع النور الذى وضعه الله فى هـذا الطريق ـ برسالة الرسل وبهداية العقل وباستعداد الفطرة .. فان الله يهديه وييسر عليه الوصول . وإن من يختار طريق الغواية ، ويحجب عن بصيرته النور ، ويهمل وحى عقله وهداية الرسل ويبعد فى هذا الطريق ، فإن الله يدعه فى طريقه فيضل .. ولا يملك أحد أن يوقف هذه السنة الإلهية عن العمل ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾

وقيمة تقرير هذه الحقيقة هى إثارة اليقظة فى ضمير الإنسان ليسأل نفسه دائماً : فى أى طريق يسير ؟ وليحاول دائماً ألا يغفل وألا يستنيم على شهواته ودفعاته وغواياته وأن يكبح جماحها ويعود إلى الطريق السوى كلما انحرف عنه . ولا يعتمد على أن ما قدر له من هداية أو من غواية لا بد أن يكون ، فانه لايدرى ما قدر له ، ولا بد إذن من أن يحاول بنفسه . فسنة الله التى لا تتخلف قد شاءت أن تكون له القدرة على اختيار الطريق . فأيما مصير اتجه اليه فهو تحقيق لمشيئة الله وهبته القدرة على الاختيار ثم كلفته أن يختار

ولقد نوت هذه الطائفة من المنافقين الشر وبيتت الخديعة ، وكان أمامها أن تؤمن إيماناً صادقاً وأن تلحق بركب المسلمين ، ولكنها حادت عن هـذا النهج واختارت الضلال فحق عليها الضلال ونفذت فيهم إرادة الله الأزلية : إن من يسلك هذا الطريق يضل ولا يعود

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ أى أن هؤلاء المنافقين الذين ترجون نصرهم لكم وتطمعون فى هدايتهم ليسوا من الكفار القانعين بكفرهم الغافلين عن غيرهم ، بل هم يودون لو تكفرون ككفرهم وتكونون مثلهم سواء. ويقضى على الإسلام الذى أنتم عليه ويزول من الأرض ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾ أى فلا تتخذوا منهم أنصاراً لينصروكم على المشركين حتى يهاجروا اليكم ويتحدوا بكم ، فترك الهجرة مع القدرة عليها دليل على نفاق

أولئك المختلف فيهم ﴿ فإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عن الإيمان والهجرة ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴾ والمراد المنافقون فى الولاء ، فالأمر بقتالهم ظاهر ، فقدكانوا يعاهدون فيفى لهم المسلمون وهم يغدرون ، ويستقيم المسلمون على عهدهم وهم ينكثون ، ولم يأمرهم الله تعالى بمعاملتهم بما يستحقون إلا بعد تكرار ذلك منهم ، ولذلك عقب نهيه عن اتخاذ ولى أو نصير منهم :

﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ ذهب الجمهور إلى أن الذين استثناهم الله تعالى هم من الكفار وكانوا كلهم حربا للمؤمنين يقتلون كل مسلم ظفروا به إذا لم يمنعه أحد فشرع الله للمؤمنين معاملتهم بمثل ذلك وأن يقتلوهم حيث وجدوهم إلا من استثنى منهم ممن تؤمن غائلتهم بأحد أمرين أحدهما أن يصلوا وينتهوا إلى قوم معاهدين للمسلمين فيدخلوا فى عهودهم ويرضوا بحكمهم ، فيمتنع قتالهم مثلهم . وثانيهما أن يجيئوا المسلمين مسالمين لا يقاتلونهم ولا يقاتلون قومهم معهم بل يكونون على الحياد ، وهذا هو قوله تعالى ﴿ أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ﴾ حصرت : ضاقت . أى جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم فلا تنشرح لأحد الأمرين ولا يظهر هذا ظهوراً بيناً لا تكلف فيه . فهم لا يقاتلون المسلمين حفظاً للعهد ولا يقاتلون قومهم لأنهم قومهم ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أى من رحمته تعالى بكم أن كف عنكم بأس هاتين الفئتين وصرفهم عن قتالكم ولو شاء أن يسلطهم عليكم لسلطهم فلقاتلوكم ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ أى فإن اعتزلكم أولئك الذين يمتون إليكم بإحدى تينك الطريقتين فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم أى أعطوكم زمام أمرهم فى المسالمة بحيث وثقتم بها وثوق المرء بما يلق اليه ، فما جعل الله لكم طريقا تسلكونها إلى الاعتداء عليهم ، فإن أصل شرع الله الذى هداكم اليه أن لا تقاتلوا إلا من يقاتلكم ولا تعتدوا إلا على من اعتدى عليكم . ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾

هؤلاء فريق من الذين لم يهتدوا بالإسلام، ولم يتصدوا إلى مجالدة أهله بحد الحسام، فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين لا يهمهم إلا سلامة أبدانهم والأمن على أرواحهم وأموالهم، فهم يظهرون لكل من المتحاربين أنهم منهم أو معهم. ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ انهم كانوا يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين إما بإظهار الإسلام وإما بالعهد على السلم وترك القتال ومساعدة الكفار على المؤمنين — ثم يفتنهم المشركون أي يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين وهو الاركاس فيرتكسون أي فيتحولون شر التحول معهم ثم يعودون إلى ذلك النفاق والارتكاس المرة بعد المرة، أي قد مردوا على النفاق فلا ينبغي أن يختلف المؤمنون فى شأنهم وقد بين الله حكمهم بقوله ﴿ فان لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أى فان لم يعتزلوكم بتركم وشأنكم والتزامهم الحياد ويلقوا اليكم السلم أى زمام المسالمة بالصفة التى تثقون بها حتى كأن زمامها فى أيديكم عن القتال مع المشركين أو عن الدسائس - إن لم يفعلوا ذلك ويؤمن به غدرهم وشرهم فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، إذ ثبت بالاختبار أن لا علاج لهم غير ذلك. فقد قامت الحجة لكم على ذلك

وذلك قوله تعالى ﴿ وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ أى جعلنا لكم حجة واضحة وبرهاناً ظاهراً على قتالهم، فقد روى عن غير واحد أن السلطان فى كتاب الله تعالى هو الحجة - وهذا يقابل قوله تعالى فى من اعتزلوا وألقوا السلم ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ وكل من العبارتين تؤيد الأخرى فى بيان كون القتال لم يشرع فى الإسلام إلا للضرورة وهذه الضرورة تقدر بقدرها فى كل حال

° ° °

وما كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ

مِيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

لما بين الله تعالى أحكام قتل المنافقين الذين يظهرون الإسلام مخادعة ويسرون الكفر ويعينون أهله على قتال المؤمنين . والذين يعاهدون المسلمين على السلم ويحالفونهم على الولاء والنصر ثم يغدرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم ، ناسب أن يذكر أحكام قتل من لا يحل قتله من مؤمن ومعاهد وذمي ، وما يقع من ذلك خطأ فقال : ـ

﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً ﴾ أي ما كان من شأن المؤمن من حيث هو مؤمن ولا من خلقه وعمله أن يقتل أحداً من أهل الإيمان ، لأن الإيمان ـ وهو صاحب السلطان على نفسه والحاكم على إرادته المصرفة لعمله ـ هو الذي يمنعه من هذا القتل أن يجترحه عمداً ، ولكنه قد يقع منه ذلك خطأ . فقوله تعالى ﴿ إلا خطأ ﴾ استثناء منقطع معناه ما ذكرنا من الاستدراك . وقيل هو استثناء متصل معناه ما ثبت ولا وجد قتل المؤمن للمؤمن إلا خطأ وهو نفي بمعنى النهي للمبالغة

والخطأ هو أن يريد شيئاً فيصيب غيره مثل أن يرمي إلى غرض أو إلى صيد فيصيب إنساناً فيقتله ـ وسبب العقوبة على الفعل الخطأ كالقتل أن الخطأ لا يخلو من التهاون وعدم العناية والاحتياط

﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ ﴾ بأن ظنه كافراً محاربا ، والكافر الحربي ـ غير

المعاهد والمستأمن والذمى - من إذا لم تقتله قتلك إذا قدر على قتلك . أو أراد رمى صيد أو غرض فأصاب المؤمن ، أو ضربه بما لا يقتل عادة كالصفع باليد أو الضرب بالعصا فمات ولم يكن يقصد قتله ، ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فعليه من الكفارة على عدم تثبته تحرير رقبة مؤمنة ، أى عتق رقبة (نسمة) من أهل الإيمان من الرق . لأنه لما أعدم نفساً من المؤمنين كان كفارته أن يوجد نفساً . والعتق كالإيجاد . كما أن الرق كالعدم - عبر بالرقبة عن الذات لأن الرقيق يحنى رقبته دائماً لمولاه كلما أمره ونهاه ، أو يكون مسخراً له كالثور الذى يوضع النير على رقبته لأجل الحرث ﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ أى وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول . فالكفارة حق الله ، والدية ما يعطى إلى ورثة المقتول عوضاً عن دمه أو عن حقهم فيه . ويعرفها الفقهاء بأنها المال الواجب بالجناية على الحر فى نفس أو فيما دونها - وقد أطلق الكتاب الدية وذكرها نكرة ، فظاهر ذلك أنه يجزىء منها ما يرضى أهل المقتول وهم ورثته قل أو كثر . ولكن السنة بينت ذلك وحددته على الوجه الذى كان معروفاً مقبولا عند العرب وهى مائة بعير مختلفة السن أو قيمتها إذا حصل التراضى بين الدافع والمستحق ، ودية المرأة نصف دية الرجل لأن المنفعة التى تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التى تفوت بفقدها

وعلى الذين يتعاملون بالذهب والفضة من أهل المدن ألف دينار وهو مفصل فى كتب الفقه ، ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ معناه أن الدية تجب على قاتل الخطأ لأهل المقتول إلا أن يعفوا عنها ويسقطوها باختيارهم فلا تجب حينئذ . لأنهم يرون أنفسهم بذلك أصحاب فضل ويرى القاتل لهم ذلك . وهذا النوع من الفضل والمنة لا يثقل على النفس حمله كما يثقل عليها حمل منّة الصدقة بالمال . وقد عبر عنه بالتصدق للترغيب فيه . ﴿ فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ﴾ أى فان كان المقتول من أعدائكم والحال أنه هو مؤمن ، ومثله كل من آمن فى دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه إذا قتل ، ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط ، ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعداء محاربون فلا

يعطون من أموال المسلمين ما يستعينون به على عداوتهم وقتالهم . وقيل ديته واجبة لبيت المال ولو صح هذا لما سكت عنه الكتاب فى معرض البيان

﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهم المعاهدون لكم على السلم لا يقاتلونكم ولا تقاتلونهم قد أعطى كل منهم للآخرين ميثاقاً على ذلك ، وهو ما يعبر عنه بالمعاهدات وحقوق الدول . ومثلهم أهل الذمة بعموم الميثاق أو بقياس الأولى ﴿ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة ﴾ أى فالواجب فى قتل المعاهد والذى هو كالواجب فى قتل المؤمن : دية إلى أهله تكون عوضاً عن حقهم وعتق رقبة مؤمنة كفارة عن حق الله تعالى الذى حرم قتل الذميين والمعاهدين كما حرم المؤمنين

ان الروايات القولية والعملية فى أمر الدية مختلفة متعارضة ، ولذلك اختلف فيها الفقهاء ، وظاهر الآية أن أمر الدية منوط بالعرف وبالتراضى . والأقرب أن اختلاف السلف فى العمل كان لأجل هذا

﴿ فمن لم يجد ﴾ الرقبة التى يعتقها كأن انقطع الرقيق كما هو مقصد الإسلام - وهذه العبارة تشعر بهذا المقصد - أو لم يجد المال الذى يشتريها به من مالكها ليحررها من رقه ، وحذف المفعول يدل على الأمرين معاً ﴿ فصيام شهرين متتابعين ﴾ أى فعليه صيام شهرين قمريين متتابعين لا يفصل بين يومين من أيامهما إفطار فى النهار ، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعى استأنف وكان ما صامه قبله كأن لم يكن .

﴿ توبة من الله ﴾ أى شرع الله لكم ما ذكر توبة منه عليكم فهو يريد به أن يتوب عليكم لتتوبوا وتطهر نفوسكم من التهاون وقلة التحرى التى تفضى إلى قتل الخطأ

﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أى عليماً بأحوال نفوسكم وما يصلحها من التأديب حكيماً فيما يشرعه لكم من الأحكام ويهديكم اليه من الآداب . فاذا أطعتموه فيها صلحت نفوسكم وتزكت وصارت أهلا لسعادة الدنيا والآخرة

﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ روى سالم بن أبى الجعد قال كنا عند ابن عباس بعد

ما كف بصره فأتاه رجل فناداه : يا عبد الله بن عباس ما ترى فى رجل قتل مؤمناً متعمداً ؟ فقال ﴿ فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما ﴾ فقال : أفرأيت ان تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال ابن عباس : ثكلته أمه وأنى له التوبة ، فوالذى نفسى بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول « ثكلت أمه رجلا قتل رجلا متعمداً جاء يوم القيامة آخذاً بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دماً من قبل عرش الرحمن يلزم قاتله بيده الأخرى يقول : سل هذا فيما قتلنى » والذى نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسخها من آية أخرى حتى قبض نبيكم ﷺ ، وما نزل بعدها من برهان . وفى رواية أخرى : فما جاء نبى بعد نبيكم ولا نزل كتاب بعد كتابكم

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله ﷺ فيما جاء به من عند ربهم ﴿ إذا ضربتم فى سبيل الله ﴾ أى إذا سرتم مسيراً لله فى جهاد أعدائكم ﴿ فتبينوا ﴾ فتأنوا فى قتل من أشكل عليكم أمره فلم تعلموا حقيقة اسلامه ولا كفره ، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره ، ولا تقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقيناً حربا لكم ولله ولرسوله ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى السلام ﴾ يقول ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم مظهراً لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم ﴿ لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ فتقتلوه ابتغاء عرض الحياة الدنيا أى طلباً لمتاعها الذى هو عرض زائل ، وما أذن الله لكم فى قتال الذين يقاتلونكم لتكونوا مثلهم فى أطماعهم الدنيويه بل للدفاع عن الحق وإعلاء كلمته ونشر هدايته ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ من رزقه وفواضل نعمه ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ أى أنكم كنتم كذلك تستخفون بدينكم كما استخفى بدينه من قومه الذى ألقى اليكم السلام فقتلتموه إلى أن لحق بكم أى فانه ما بقى يخفى الإسلام بينهم إلا خوفاً على نفسه منهم ، وكذلك كان السابقون الأولون وهم خيار المؤمنين يخفون إسلامهم حتى أسلم عمر فأظهر اسلامه وحملهم على اظهار إسلامهم ، ثم كان من بعدهم إذا أسلم يخفى اسلامه حتى يتيسر له الهجرة إلى النبى ﷺ ﴿ فمن الله

عليكم ﴾ بالهجرة والقوة حتى أظهرتم الاسلام ونصرتموه . وقيل انكم كذلك كنتم كفاراً مثل من قتلتم بتهمة الكفر فمن الله عليكم بالهداية إلى الإسلام فمنكم من أسلم لظهور حقيقة الإسلام له من أول وهلة ومنكم من أسلم تقية أو لسبب آخر ثم حسن اسلامه عند ما خبر الإسلام وعرف محاسنه . وقيل معنى ﴿ فمن الله عليكم ﴾ أنه تفضل عليكم بالتوبة من قتل من قتلتموه بهذه التهمة التى كنتم مثله فيها ﴿ فتبينوا ﴾ أى اطلبوا البيان أو كونوا على بينة من الأمر الذى تقدمون عليه ولا تأخذوا بالظن ولا بالظنة (التهمة) وتثبتوا ولا تعجلوا بعد فى مثل هذا ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ والمعنى أن الله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شىء من مرجحات الحمل عليها فى نفوسكم . فان كان فيها ابتغاء حظ للحياة الدنيا فهو يجازيكم على ذلك فلا تغفلوا بل تثبتوا أو تبينوا ، وحكم الآية يعمل به بصرف النظر عن سبب نزولها ، وهو أن كل من أظهر الإسلام يقبل منه ويعد مسلماً ولا يبحث عن الباعث له على ذلك ولا يتهم فى صدقه وإخلاصه . وفى هذا وعيد شديد من الوقوع فى مثل هذا الخطأ

٭ ٭ ٭

لا يَسْتَوِى القَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ـ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ـ وَالْمُجَٰهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَٰعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىٰ ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى القَٰعِدِينَ أَجْراً عَظِيما (٩٥) دَرَجَٰتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيما (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَٰئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَٰنِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُورا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ

فى الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وسَعَةً ، ومَنْ يَخْرُجْ من بَيْتِه مُهاجِراً الى اللهِ ورَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ على اللهِ ، وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيما (١٠٠)

مضت سنة القرآن فى مزج آيات الأحكام العملية بما يرغب فى الأعمال الصالحة وينشط عليها ويحفز الهمم اليها . وينفر من القعود عنها . والتكاسل والتواكل فيها . وعلى هذه السنة جاءت هاتان الآيتان بين آيات أحكام القتال ، فهما متصلتان بهما أتم الاتصال :

﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين ﴾ أى القاعدون عن الجهاد فى سبيل الله لتأييد حرية الدين ، وصد غارات المشركين ، وتطهير الأرض من الفساد ، وإقامة دعائم الحق والإصلاح ﴿ غير أولى الضرر ﴾ العاجزين عن الجهاد كالأعمى والمقعد والزمن والمريض ﴿ والمجاهدون فى سبيل الله ﴾ أى لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلا وحرصاً عليها وبأنفسهم إيثاراً للراحة والنعيم على التعب وركوب الصعاب فى القتال مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم فى الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيل والمؤنة ويبذلون أنفسهم بتعرضها للقتل فى سبيل الله والحق لأجل منع القتل فى سبيل الطاغوت ، لأن المجاهدين هم الذين يحمون بلادهم وأمتهم وبلادهم ، والقاعدون هم الذين لا يأخذون حذرهم ولا يعدون للدفاع عدتهم يكونون عرضة لفتك غيرهم بهم ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ بغلبة أهل الطاغوت عليها وظلمهم لأهلها وإهلاكهم للحرث والنسل فيها ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ هذا بيان لمفهوم عدم استواء المجاهدين والقاعدين غير أولى الضرر ، وهو أن الله تعالى رفع المجاهدين عليهم درجة وهى درجة العمل الذى يترتب عليه دفع شر الأعداء عن الملة والأمة والبلاد والظفر والغنيمة والذكر الجميل عاجلا فى الدنيا ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أى وعد الله المثوبة الحسنى كلا من الفريقين المجاهدين والقاعدين عن الجهاد عجزاً منهم عنه وهم يتمنون لو قدروا عليه فقاموا به . فان إيمان كل منهما واحد . وفسر قتادة الحسنى بالجنة . ﴿ فضل الله المجاهدين ﴾ بأموالهم وأنفسهم

﴿ على القاعدين ﴾ من غير أولى الضرر كما قال ابن جريج ﴿ أجراً عظيما ﴾ وهو ما بينه قوله تعالى ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ ان درجات الآخرة مبنية على درجات الدنيا فى الإيمان والفضيلة والعمل النافع لا فى الرزق وعرض الدنيا ، والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هى أن يكون لذنوبهم فى نفوسهم عند الحساب أثر من الآثار التى قضى عدل الله أن تكون سبب العقاب لأن ذلك الأثر يتلاشى فى تلك الأعمال التى استحقوا بها الدرجات كما يتلاشى الوسخ القليل فى الماء الكثير .
والرحمة ما يخصهم به الرحمن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ وكان شأن الله وصفته أنه غفور لمن يستحق المغفرة ، رحيم بمن يتعرض لنفحات الرحمة ، فهو ما فضلهم بذلك إلا بما اقتضته صفاته وما هو شأنه فى نفسه ، فإذاً لا بد من ذلك الأجر العظيم بأنواعه ولا مردّ له

إن مغفرة الله ورحمته هى التى تبلغهم هذه المنزلة ، وهى التى تمنحهم هذا الأجر . وإن جهادهم لا يؤهلهم ـ وحده ـ لكل ما وعدوا به ، ولكنه يؤهلهم لمغفرة الله ورحمته . وهذه اللفتة كثيراً ما يعقب بها بعد الجهاد وبعد النصر ، تذكيراً للمجاهدين والمنتصرين ، كى لا يأخذهم الزهو ولا ينسوا أن الفضل كله من الله . وأنهم استحقوا هذا الفضل بإخلاص قلوبهم لله . فليبقوا على هـذه الصلة ولا يشوبوها بشائبة

ثم يعرض السياق لطائفة أخرى ذلت نفوسها ، وقعدت هممها ، فآثرت احتمال الهوان فى أرضها على الهجرة فى سبيل الله ، وهى قادرة على أن تنجو منه بتضحية بعض المصالح لو آثرت الكرامة . . يعرض هذه الطائفة فيصور مصيرها وجزاءها تصويراً مهيناً يتلاءم مع مهانتها :

﴿ ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ والمعنى ان الذين تتوفاهم الملائكة بقبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم بعدم إقامة دينهم وعدم نصره وتأييده وبرضاهم بالإقامة فى الذل والظلم حيث لا حرية لهم فى أعمالهم الدينية

انه التوبيخ على قعود الهمة ، وضعف العزيمة ، والرضوخ للذل ، والاحتجاج بالضعف حيث لا يقوم عذر حقيق من هذا الضعف

وهو لا يسميهم مظلومين إنما يسميهم « ظالمي أنفسهم » فهم الذين استكانوا للظلم يقع عليهم فلا يدفعونه ، ولا يهجرون الأرض التي تذيقهم الظلم — إن عجزوا عن دفعه فيها . فهم إذن ظلموا أنفسهم ، وكان في وسعهم أن ينصفوها . لقد ظلموا أنفسهم حين تركوا الظالمين يظلمونها . ولقد ظلموها مرة أخرى حين قبلوا لها هذا الهوان وأرخصوا ما أعزه الله في الإنسان

ومن ثم يتساءلون في استنكار واحتقار :

﴿ قالوا فيما كنتم ﴾ أي قالت الملائكة فيم كنتم أي في أي شيء كنتم من أمر دينكم ؟ قال في الكشاف : معنى « فيم كنتم » التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا . يعني أن الاستفهام يراد به التوبيخ على شيء معلوم لا حقيقة الاستعلام عن شيء مجهول . ولهذا حسن في جوابه :

﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ وهو اعتذار عن تقصيرهم الذي وبخوا عليه بالاستضعاف ، أي اننا لم نستطع أن نكون في شيء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا . فهو اعتذار لا يقره الإسلام ، ولا يتفق مع روح القوة والاستعلاء التي يبثها في النفوس

فرد الملائكة هذا العذر عليهم ﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذي لا يليق بالمؤمن ولا هو من شأنه ، أي ان استضعاف القوم لكم لم يكن هو المانع لكم من الإقامة معهم في دارهم . بل كنتم قادرين على الخروج منها مهاجرين إلى حيث تكونون في حرية من أمر دينكم ولم تفعلوا — إن الاستسلام للضعف جريمة فلا تصلح الجريمة أن تكون معذرة

﴿ فأولئك مأواهم جهنم ﴾ أي أن أولئك الذين لم يكونوا على شيء يعتد به من أمر دينهم لإقامتهم بين الكفار الذين يصدونهم عن ذلك مأواهم ومسكنهم في الآخرة نار جهنم ، ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي وقبحت جهنم مأوى ومصيراً لمن يصير اليها ، لأن كل ما فيها يسوؤه ولا يسره منه شيء ﴿ إلا المستضعفين من الرجال

والنساء والولدان ﴾ دل الوعيد فى الآية السابقة مع الاستثناء فى هذه الآية على أن أولئك الذين اعتذروا من عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به بهجرة إلى الله ورسوله غير صادقين فى اعتذارهم ، فان الاستضعاف الحقيقى عذر صحيح ، ولذلك استثنى أهله من الوعيد بهذه الآية . وقرن الرجال بالنساء والولدان فيما يشعر بأن المراد بالرجال الشيوخ الضعفاء والعجزة الذين هم كمن ذكر معهم ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ أى ضاقت بهم الحيل كلها ، فلم يستطيعوا ركوب واحدة منها . وعميت عليهم الطرق جميعها فلم يهتدوا طريقاً منها إما للزمانة والمرض ، وإما للفقر والجهل بمسالك الأرض وأحزانها ومضايقها . قال بعض المفسرين « بحيث لو خرجوا هلكوا » أى بركوب التعاسيف أو قلة الزاد أو عدم الراحلة ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أى أن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب والحيل وتعمية السبل يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة فى دار الكفر . ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾ أى وكان شأن الله تعالى العفو عن المخالفات التى لها أعذار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ، ومغفرتها بسترها فى الآخرة وعدم فضيحة صاحبها ، لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها

﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ المهاجرة المفارقة ، وأصله من الهجر ضد الوصل . مراغماً مهاجراً وطريقاً يراغم بسلوكه قومه . أى يفارقهم على رغم أنوفهم . ومن يهاجر بالفعل يجد فى الأرض مراغماً كثيراً أى متحوّلا من الرغام وهو التراب ، أو مذهباً فى الأرض ، ويرغم بسلوكه أنوف من كانوا مستضعفين له أو مكانا للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل فيرغم بذلك أنوفهم ، وفيه الوعد للمهاجرين فى سبيل الله بتسهيل السبل وسعة العيش . وإنما تكون الهجرة فى سبيل الله حقيقة إذا كان قصد المهاجر منها إرضاء الله تعالى بإقامة دينه كما يحب وكما يحب تعالى ، ونصر أهله المؤمنين على من يبغى عليهم من الكافرين

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ المهاجر كسائر الناس عرضة للموت . وكما وعد تعالى من يهاجر إلى دار الهجرة بالظفر بما يبغى من وجدان المراغم والسعة وعد من يموت فى الطريق قبل بلوغها بأجر عظيم يضمنه عز وجل له ولو مات بعد مجاوزته عتبة الباب ولم يصب تعبا ولا مشقة ، فان نية الهجرة مع الاخلاص كافية للاستحقاق له . وقد أبهم هذا الأجر وجعله حقاً واقعاً عليه تبارك اسمه للإيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته . والوجوب والوقوع يتواردان على معنى واحد . ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما شاء ، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً إذ لا سلطان فوق سلطانه . ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ أى وكان شأنه الثابت له أزلا وأبداً أنه غفور ، ويستر ما سبق لأمثال هؤلاء المهاجرين من الذنوب بإيمانهم الذى حملهم على ترك أوطانهم ومعاهد أنسهم لأجل إقامة دينه واتباع سبيله رحيما بهم يشملهم بعطفه ويغمرهم بإحسانه

* * *

وإذا ضَرَبْتُمْ فى الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ إِنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلٰوةِ إِنْ خِفتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَفِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِينا (١٠١) وإذا كُنْتَ فِيهِم فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلٰوةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنهم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فإذا سَجَدُوا فَلْيَكُونوا مِن وَرائِكُمْ وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً ، ولا جُناحَ عَلَيكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَو كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وخُذُوا حِذْرَكُم ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَفِرِينَ عَذاباً مُهِينا (١٠٢) فإذا قَضَيْتُمُ الصَّلٰوةَ

فاذكروا الله قيماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلوة إن الصلوة كانت على المؤمنين كتباً موقوتا (١٠٣)

السياق فى أحكام الجهاد فى سبيل الله ، وجاء فيه حكم الهجرة . والصلاة فرض لازم فى كل حال ، لا يسقط فى وقت القتال ولا فى أثناء الهجرة ولا غير الهجرة من أيام السفر ، ولكن قد تتعذر أو تتعسر فى السفر وحال الحرب إقامتها فرادى وجماعة كما أمر الله تعالى أن تقام فى صورتها ومعناها ، فناسب فى هذا المقام أن يبين الله تعالى ما يريد أن يرخص لعباده فيه من القصر من الصلاة فى هاتين الحالتين فقال :

﴿ وإذا ضربتم فى الأرض ﴾ الضرب فى الأرض عبارة عن السفر فيها ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ أى فليس عليكم تضييق ولا ميل عن محجة دين الله (وهو الحنيفية السمحة) فى القصر من الصلاة . و« الجناح » فسر بالإثم والتضييق وبالميل عن الاستواء

« كان من هديه ﷺ فى صلاة الخوف أن أباح الله سبحانه وتعالى قصر أركان الصلاة وعددها إذا اجتمع الخوف والسفر . وقصر العدد وحده إذا كان سفر لا خوف معه . وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لا سفر معه . وهذا كان هديه ﷺ ، وبه يعلم الحكمة فى تقييد القصر فى الآية بالضرب فى الأرض والخوف ، وسيأتى تفصيل ذلك

فقوله تعالى ﴿ ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ شرط لنفى الجناح فى قصر الصلاة . والفتنة الإيذاء بالقتل أو غيره كما صرح به بعضهم ، وأصله الاختبار بالمكروه والأذى كما تقدم من قبل ، قال ابن جرير : « وفتنتهم إياهم فيها حملهم عليهم وهم ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم فيمنعوهم من إقامتها وأدائها ويحولوا بينهم وبين عبادة الله والتوحيد له » ، وليس هذا خاصاً بزمن الحرب بل إذا خاف

المصلى قطاع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر

﴿ ان الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً ﴾ تعليل لتوقع الفتنة من الذين كفروا ، أى كان شأنهم أنهم أعداء مظهرون للعداوة بالقتال والعدوان فهم لا يضيعون فرصة اشتغالكم بمناجاة الله تعالى ولا يراقبون الله ولا يخشونه فيكم عن الايقاع بكم إذا وجدوكم غافلين عنهم . والعدو يستوى فيه الواحد والجمع

﴿ وإذا كنت فيهم ﴾ أى وإذا كنت أيها الرسول فى جماعتك من المؤمنين ـ ومثله فى هذا كل إمام فى كل جماعة ﴿ فأقمت لهم الصلاة ﴾ إقامة الصلاة تطلق على الذكر الذى يدعى به إلى الدخول فيها وهو نصف ذكر الأذان وزيادة « قد قامت الصلاة » مرتين بعد كلمة « حى على الفلاح » كما ثبت فى السنة الصحيحة . وقيل هو كالأذان مع زيادة ما ذكر ـ وتطلق على الإتيان بها مقومة تامة الأركان والشرائط والآداب . والظاهر هنا المعنى الأول . فمعنى أقمت بهم الصلاة دعوتهم إلى أدائها جماعة أى والزمن زمن الحرب وفتنة الكفار مخوفة ﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ فى الصلاة يقتدون بك ، ويبقى الآخرون مراقبين للعدو يحرسون المصلين خوفاً من اعتدائه ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ أى وليحمل الذين يقومون معك فى الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة لئلا يضطروا إلى المكافحة عقبها مباشرة أو قبل إتمامها فيكونوا مستعدين لها . وقيل إن حمل السلاح للطائفة الأخرى لقيامها بالحراسة . وجوز بعضهم أن يكون للطائفتين جميعاً ـ والأسلحة جمع سلاح وهو كل ما يقاتل به . وانما يحمل منه فى حال إقامة الصلاة التامة الأركان ما يسهل حمله كالسيف والخنجر والنبال من أسلحة الزمن الماضى ، ومثل البندقية على الظهر والمسدس فى الحزام أو الجيب وغيرها من الأسلحة الخفيفة من أسلحة هذا العصر .

﴿ فاذا سجدوا ﴾ أى فاذا سجد الذين يقومون معك فى الصلاة ﴿ فليكونوا من ورائكم ﴾ أى فليكن الآخرون الذين يحرسونكم من خلفكم . وأحوج ما يكون المصلى للحراسة ساجداً لأنه لا يرى حينئذ من يهمّ به . أو عبر بالسجود عن

الصلاة أي اتمامها لأنها آخر صلاة الطائفة الأولى . ويجب حينئذ أن يكون الباقون مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبي ﷺ كما صلوا وهو قوله ﴿ ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ﴾ أي ولتأت الطائفة الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا معك كما صلت الطائفة الأولى ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ أي وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها كما فعل الذين من قبلهم . وزاد هنا الأمر بأخذ الحذر وهو التيقظ والاحتراس في المخاوف . وقد بين الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة بقوله :

﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ أي تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التي بها بلاغكم في سفركم بان تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم أي يحملون عليكم حملة واحدة فيصيبون منكم غرة فيقتلون من استطاعوا قتله وينتهبون منه ما استطاعوا نهبه ، فلا تغفلوا عنهم ولا تجعلوا لهم سبيلا عليكم . وقد يعرض لبعض المحاربين أعذار يشق فيها حمل السلاح ومن ثم رخص في تركه لصاحب العذر فقال : ـ

﴿ ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ﴾ أي ولا ضيق عليكم ولا إثم في وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه فيشق عليكم حمل السلاح مع ثقله في ثيابكم ، وربما أفسد الماء السلاح لأنه يسبب الصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجراح أو غير الجراح من العلل ، ولكن يجب عليكم حتى في هذه الحال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم فان عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم . والضرورة تقدر بقدرها

﴿ ان الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ . والظاهر أن العذاب ذا الأهانة هو

عذاب الغلب وانتصار المسلمين عليهم إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به من الأسباب النفسية والعملية ، وسيأتى ما يؤيد هذا المعنى فى هذا السياق ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ﴾ — وقال جمهور المفسرين ان المراد به عذاب الآخرة

روى عن النبى ﷺ يوم ذات الرقاع أن طائفة صفت مع النبى ﷺ وطائفة وجاه العدو (اتجاهه مراقبة له) فصلى بالتى معه ركعة ، ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو . وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته فأتموا فسلم بهم . وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأنها نقبت أقدامهم فلفوا على أرجلهم الرقاع والخرق

وقد قال بهذه الصلاة أفقه الصحابة عليهم الرضوان ـ على وابن عباس وابن مسعود وابن عمر وزيد بن ثابت وأبو هريرة وأبو موسى ـ ومن فقهاء الأمصار مالك والشافعى وغيرهما

﴿ فاذا قضيتم الصلاة ﴾ أى أديتموها وأتممتموها فى حال الخوف كما بينا لكم من القصر منها وهو كقوله ﴿ فاذا قضيت الصلاة ﴾ ، ﴿ فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ أى اذكروه فى أنفسكم بتذكر وعده بنصر من ينصرونه فى الدنيا وإعداد الثواب والرضوان لهم فى الآخرة ، اذكروه على كل حال تكونون عليها من قيام فى المسابقة والمقارعة ، وقعود للرمى أو المصارعة ، واضطجاع من الجراح أو المخادعة ، لتقوى قلوبكم وتعلو هممكم وتحتقروا متاعب الدنيا ومشاقها فى سبيله ، فهذا مما يرجى به الثبات والصبر . وما يعقبهما من الفلاح والنصر .

﴿ فاذا اطمأننتم ﴾ أى فاذا اطمأنت أنفسكم بالأمن وزوال خوفكم من العدو ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ أى ائتوا بها مقوّمة تامة الأركان والحدود والآداب ، لا تقصروا من هيئتها كما أذن لكم فى حال من أحوال الخوف . ولا من ركعاتها ونظام جماعتها كما أذن لكم فى حال أخرى . وقيل إن المراد بالاطمئنان الاستقرار فى دار الإقامة بعد انتهاء السفر لأنه مظنته

﴿ ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ هذا تذييل فى تعليل وجوب المحافظة على الصلاة حتى فى وقت الخوف ولو مع القصر منها ، أى أن الصلاة كانت فى حكم الله ومقتضى حكمته فى هداية عباده كتاباً أى فرضاً مؤكداً ثابتاً ثبوت الكتاب فى اللوح أو الطرس موقوتاً أى منجما فى أوقات محدودة لابد من أدائها فيها بقدر الامكان . وان أداءها فى أوقاتها مقصوراً منها بشرطه خير من تأخيرها بقضائها تامة — وجاء فى تفسير « موقوتاً » منجما كلما مضى نجم جاء نجم كما يقال كلما مضى وقت جاء وقت آخر إذ الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة لتكون مذكرة لجميع أفراد المؤمنين بربهم فى الأوقات المختلفة لئلا تحملهم الغفلة على الشر أو التقصير فى الخير ، ولمريدى الكمال فى النوافل وسائر الأذكار أن يختاروا الأوقات التى يرونها أوفق لحالهم

صلاة القصر فى السفر وشروطها

قال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن ولا نجد صلاة السفر فى القرآن (يعنى صلاة الرباعية ركعتين) فقال له ابن عمر : يا أخى إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمدا ﷺ يفعل . وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ وقد خاب من افترى ، وكان قد سأل النبى ﷺ : ما بالنا نقصر ؟ فقال له رسول الله ﷺ « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »

وشرط القصر فى الصلاة والافطار فى رمضان أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الاقدام بالاقتصاد فى البر وجرى السفينة والريح معتدلة فى البحر لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة « كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » رواه أحمد ومسلم وأبو داود . وقدره الشافعى بمسيرة يومين ، وحقق المرحوم أحمد الحسينى بك فى كتابه (دليل المسافرين) أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ كيلو متر عند الحنفية وبنحو ٨٩ كيلو متر لدى الشافعية والمالكية والحنابلة . وعلى هذا فالمسافر من

القاهرة إلى طنطا فما فوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ ك م وإلى المحطة التى تليها (شبرا النملة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ ك م

* * *

وَلا تَهِنُوا فى ابْتِغاءِ القَوْمِ ، إنْ تَكُونوا تَأْلَمُونَ فَإنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ ، وتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مالا يَرْجُونَ ، وكانَ اللهُ عَليماً حَكيما (١٠٤)

كان الكلام فيما سبق فى شأن الحرب وما يقع فيها ، وبيان كيفية الصلاة فى أثنائها ، وما يراعى فيها إذا كان العدو متأهباً للحرب من اليقظة وأخذ الحذر وحمل السلاح فى أثنائها . وبين للمؤمنين فى هذا السياق شدة عداوة الكفار لهم وتربصهم غفلتهم وإهمالهم ليوقعوا بهم . بعد هذا نهى عن الضعف فى لقائهم وأقام الحجة على كون المشركين أجدر بالخوف منهم لأن ما فى القتال والاستعداد له من الألم والمشقة يستوى فيه المؤمن والكافر ويمتاز المؤمن بأن عنده من الرجاء بالله ما ليس عند الكافر ، فهو يرجو منه النصر الذى وعد به ويعتقد أنه قادر على انجاز وعده ، يرجو ثواب الآخرة على جهاده لأنه فى سبيل الله . وقوة الرجاء تخفف كل ألم ، وربما تذهل الإنسان عنه وتنسيه إياه

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ﴾ أى عليكم بالعزيمة وعلو الهمة مع أخذ الحذر والاستعداد حتى لا يلم بكم الوهن — وهو الضعف مطلقاً — فى ابتغاء القوم الذين ناصبوكم العداوة ، أى طلبهم ، فهو أمر بالهجوم بعد الفراغ من الصلاة ، بعد الأمر بأخذ الحذر وحمل السلاح عند أدائها . وذلك أن الذى يلتزم الدفاع فى الحرب تضعف نفسه وتهن عزيمته . والذى يوطن نفسه على المهاجمة تعلو همته وتشتد عزيمته ، فالنهى عن الوهن نهى عن سببه وأمر بالأعمال التى تضاده فتحول دون عروضه ﴿ ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ﴾ لأنهم بشر مثلكم يعرض لهم من الوجع والألم مثل ما يعرض لكم ، لأن هذا من شأن الأجسام الحية المشترك بينكم وبينهم ﴿ وترجون من الله مالا يرجون ﴾ لأنكم تعدون من

الله مالا يعلمون ، وتخصونه بالعبادة والاستعانة وهم به مشركون . وقد وعدكم الله إحدى الحسنيين ـــ النصر أو الجنة بالشهادة ـــ إذا كنتم للحق تنصرون ، وعن الحقيقة تدافعون . فهذا التوحيد فى الإيمان والوعد من الرحمن هما مدعاة الأمل والرجاء ، فاذا استويتم معهم فى آلام الأبدان فقد فضلتموهم بقوة الوجـــدان ، وجرأة الجنان ، والثقة بحسن العاقبة ، فأنتم أجدر بالمهاجمة ، فلا تهنوا بالتزام خطة المدافعة

وإن هذا لهو فضل العقيدة فى الله فى كل كفاح . فهناك لحظات تعلو فيها المشقة على الطاقة فيحتاج القلب الإنسانى إلى مدد يستعلى به على ضعفه ، ويضاعف به قوته وطاقته على الاحتمال ، ولن يكون هذا المدد إلا من ذلك المعين الذى لا ينضب لحظة ولا يغيض ، وإلا من تلك القوة التى لا تضعف لحظة ولا تغيب . ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ يعلم كيف تحس المشاعر . ويصف للنفس ما يطب لها من الضعف وما يقويها فى لحظة الـكلال ـــ وقد ثبت فى علمه المحيط ، واقتضت حكمته البالغة ، ومضت سنته الثابتة بأن يكون النصر للمؤمنين على الـكافرين ما داموا بهديه عاملين ، وعلى سنته سائرين . لأن أقل شأن المؤمنين حينئذ أن يكونوا مساوين للكفار فى عدد القتال وأسبابه الظاهرة ، ويفضلونهم بالقوى والأسباب الباطنة . وإذا أقاموا الإسلام كما أمر الله تعالى أن يقام فأنهم يكونون أشد للقتال استعدادا ، وأحسن نظاماً وسلاحاً . وبذا يفوزون بالمطلوب وبحسن العاقبة

* * *

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، ولا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) ولا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

وَكِيلا (١٠٩) ومَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غفوراً رَحيما (١١٠) ومَنْ يَكْسِبْ إثْماً فإنَّما يَكْسِبُهُ علَى نفسِهِ ، وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيما (١١١) ومَنْ يَكْسِبْ خَطِيئةً أو إثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وإثْماً مُبِيناً (١١٢) ولولا فَضْلُ اللهِ عَلَيكَ ورَحْمتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنهمْ أنْ يُضِلُّوكَ وما يُضِلُّونَ إلاَّ أنفُسَهمْ ، وما يَضُرُّونَكَ مِنْ شيء ، وأنْزَلَ اللهُ عَلَيكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكَ عَظِيما (١١٣)

بعد أن حذر الله المؤمنين من المنافقين أعداء الحق وأمرهم أن يستعدوا لمجاهدتهم خوف أن يطمسوا معالم الحق ويهلكوا أهله - أمرهم هنا أن يقوموا بحفظ الحق وألا يحابوا فيه أحدا محافظة على ذلك المبدأ الأساسى فى الإسلام : مبدأ العدل المطلق لجميع الناس

«روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طعمة بن أبيرق - وكان رجلا من الأنصار ، ثم أحد بنى ظفر - سرق درعاً لعمه كانت وديعة عنده ، ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين ، فجاء اليهودى إلى نبى الله ﷺ يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبى الله ﷺ ليعذروا صاحبهم ، وكان نبى الله عليه السلام قد هم بقبول عذره حتى أنزل الله فى شأنه ﴿ ولا تجادل الخ ﴾ وكان طعمة قذف بها بريئاً . فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة ، فأنزل الله فيه ﴿ ومن يشاقق الرسول ﴾ الآية»

﴿ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ أى إنا أوحينا إليك هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام ، فاحكم به ﴿ ولا تكن للخائنين خصيما ﴾ تخاصم عنهم وتناضل دونهم ، وهم طعمة وقومه الذين سرقوا الدرع وأرادوا أن يلصقوا جرمهم باليهودى البرىء . فالحق هو المطلوب فى الحكم سواء كان المحكوم عليه يهودياً أو مجوسياً أو مسلماً حنيفياً . قال شيخ المفسرين ابن جرير ﴿ بما أراك الله ﴾ بما أنزل الله اليك فى كتابه ﴿ ولا تكن للخائنين خصيما ﴾ يقول : ولا تكن لمن خان مسلماً أو

معاهداً فى نفسه أو ماله خصيما تخاصم عنه وتدافع عنه من طالبه بحقه الذى خانه فيه » - والمعنى ولا تهاون بتحرى الحق اغتراراً بلحن الخائنين وقوة صلابتهم فى الخصومة لئلا تكون خصيما لهم وتقع فى ورطة الدفاع عنهم . وهذا الخطاب ليس خاصاً بالنبى ﷺ بل هو عام لكل من يحكم بين الناس بما أنزل الله كما أمر الله

ويؤيد هذا حديث أم سلمة المتفق عليه فى الصحيحين والسنن « إنما أنا بشر مثلكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فأنما أقطع له قطعة من النار »

﴿ واستغفر الله ﴾ مما يعرض لك من شئون البشر من نحو ميل إلى من تراه ألحن بحجته أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسيناً للظن به ، فان ذلك قد يوقع الاشتباه وتكون صورة صاحبه صورة من أتى الذنب الذى يوجب له الاستغفار . وان لم يكن متعمداً للزيغ عن العدل والتحيز إلى الخصم ، فهذا عن زيادة الحرص على الحق - كأن مجرد الالتفات إلى قول المخادع كاف فى وجوب الاحتراس منه . وناهيك بما فى ذلك من التشديد فيه . ظاهر الروايات أن النبى ﷺ مال إلى تصديق المسلمين وإدانة اليهودى لما كان يغلب على المسلمين فى ذلك العهد من الصدق والأمانة وعلى اليهودى من الكذب والخيانة . ولذلك قال العلماء فى القديم والحديث ان أولئك المسلمين لم يكونوا إلا منافقين لأن مثل عمل طعمة وتأييد من أيده فيه لا يصدر عمداً إلا من منافق - فعلمنا الله بهذه الآيات أن الاعتقاد الشخصى والميل الفطرى والدينى لا ينبغى أن يظهر لهما أثر فى مجلس القضاء . ولا أن يساعد القاضى من يظن أنه صاحب الحق ، بل عليه أن يساوى بين الخصمين فى كل شىء . وإذا كان هذا هو الواجب وكان ذلك الميل إلى تأييد من غلب على الظن صدقه يفضى إلى مساعدته فى الخصومة فيكون الحاكم خصيما عنه لو فعل . وإذا كان طلب الانتصار لهم من الخائنين فى الواقع ونفس الأمر فى هذه القضية - فقد وجب الاستغفار من هذا الاجتهاد وحسن الظن ، والنبى ﷺ لم يحكم فى هذه القضية قبل نزول الآيات بشىء ، ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق . ولكنه أحسن الظن فى أمر بين

له علام الغيوب حقيقة الواقع فيه وما ينبغى له فى معاملة ذويه ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ أى كان شأنه ذلك . أى إنه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة لمن استغفره

نهى تعالى عن المجادلة والدفع عن أهل الخيانة مؤكداً لما تقدم فقال : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ قيل الخطاب للنبى ﷺ حين هم أن يبرىء أبا طعمة لما أتاه قوم ينفون عنه السرقة ، أى لا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه ولا عن الذين يختانون أنفسهم ، أى يخونونها بل يتعملون ويتكلفون ما يخالف الفطرة من الخيانة التى تعود على أنفسهم بالضرر. وهذا النهى لم يكن موجهاً إلى النبى ﷺ خاصة وإنما هو تشريع وجه إلى المكلفين كافة . وفى جعله بصيغة الخطاب له ـوهو أعدل الناس وأكملهم ـ مبالغة فى التحذير من هذه الخلة المعهودة من الحكام وخلاصة المعنى : لا تدافع عن هؤلاء الخونة ولا تساعدهم عند التخاصم

﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما ﴾ أى من اعتاد الخيانة وألف الإثم فلم يعد ينفر منه ولا يخاف العقاب الإلهى عليه فيراقبه فيه . وإنما يحب الله أهل الأمانة والاستقامة

﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ أى أنهم يستترون من الناس عند ارتكاب خيانتهم واجتراحهم الإثم ولا يستترون من الله تعالى بتركه لأنهم لا ايمان لهم . لأن من يعلم أن الله تعالى يراه وراء الأستار فى حنادس الظلمات وهو المؤمن الصادق فلا بد أن يترك الذنب والخيانة حياء من الله وخوفاً من عقابه ﴿ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ أى وهو تعالى شاهدهم فى الوقت الذى يديرون فيه فى الليل ما لا يرضى من القول لأجل تبرئة أنفسهم ورمى غيرهم بخيانتهم وجريتهم ﴿ وكان الله بما يعملون محيطا ﴾ لا يفوته شىء منه فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه

﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ﴾ . هذه الآية تدل على أن الذين

أرادوا مساعدة الخصم وقومه على اليهودى جماعة ، وان النهى عن الجدل عنهم موجه إلى هؤلاء وحدهم وإن بدىء بخطاب النبى ﷺ وحده ، أى ها أنتم ياهؤلاء جادلتم عنه وحاولتم تبرئتهم فى الحياة الدنيا ﴿ فمن يجادل عنهم يوم القيامة ، أى من يكون عليهم وكيلا ﴾ يوم الخصم ، والحاكم هو الله المحيط علمه بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة ، أى لا يمكن أن يجادل هنالك أحد عنهم ولا أن يكون وكيلا بالخصومة لهم . فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى فى مثل ذلك . وفى هذا دليل على أن حكم الحاكم فى الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن يأخذ به إذا علم أنه حكم له بغير حقه

﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ﴾ هذه الآيات تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدم ركنها . وهذا الركن هو المقصود من الشرائع . وإنما يتمثل هذا التحذير بالاجتهاد وتحرى العدل وعدم الاغترار بظواهر الخصماء . والسوء ما يسوء به الإنسان غيره ، والظلم ما كان ضرره خاصاً بالعامل كترك الفريضة (أى هذا هو المراد بهما هنا) والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى ، ويتضمن ذلك لازمه وهو الشعور بقبح الذنب والتوبة منه . ولسيدنا على كرم الله وجهه خطبة فى تفسير الاستغفار بالتوبة التى تذيب الشحم وتفنى العظم . ومعنى وجد الله غفوراً رحيما أن الله أكرم من أن يرد توبة عبده إذا اطلع على قلبه وعرف منه الصدق والإخلاص

﴿ ومن يكسب إثماً فانما يكسبه على نفسه ﴾ أى ومن يعمل الإثم عن قصد ويرى أنه قد كسبه وانتفع به فانما كسبه هذا وبال على نفسه وضرر لا نفع له كما يتوهم لجهله بعواقب الآثام السيئة فى الدنيا والآخرة . ومن العواقب غير المأمونة فى الدنيا فضيحة الآثم ومهانته بظهور الأمر للناس وللحاكم العادل كما وقع لأصحاب القصة الذين نزلت بسببهم الآيات . وسترى تحديد معنى الآثم فى تفسير الآية التى بعد هذه ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ أى أنه تعالى قد حدد للناس بعلمه حدود الشرائع

التى يضرهم تجاوزها . وبحكمته جعل لها عقاباً يضر المتجاوز لها . فهو إذن يضر نفسه ولا يضر الله شيئاً

﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرمى به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ الخطيئة ما يصدر من الذنب عن العامل خطأ ، أى من غير ملاحظة أنه ذنب مخالف للشريعة . والإثم ما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب . والمقصود بالملاحظة تذكر ذلك وتصوره عند الفعل . وان عدم الملاحظة والشعور بالذنب عند فعله قد يكون سببه تمكن داعيته من النفس ووصولها إلى درجة الملكات الراسخة والأخلاق الثابتة التى تصدر عنها الأعمال بغير تكلف ولا تدبر . وهذا المعنى هو المراد هنا . والبهتان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه أى يحيره ويدهشه . والمعنى أن من يكسب خطيئة أو إثماً ثم يبرىء نفسه منه أى مما ذكر ويرم به بريئاً أى ينسبه اليه ويزعم أنه هو الذى كسبه فقد احتمل أى كلف نفسه أن يحمل وزر البهتان بافترائه على البرىء واتهامه إياه بوزر الاثم البين الذى كسبه وتنصل منه

﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ﴾ أى ولولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة ورحمته لك ببيان حقيقة الواقعة لهمت طائفة من الذين يختانون أنفسهم بالمعصية أو بمساعدة الخائن أن يضلوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية فى نفسها أى يضلوك بقول الزور وتزكية المجرم وبهت اليهودى البرىء . لعلمهم أن الحكم إنما يكون بالظواهر أو بمحاولة الميل إلى إدانة اليهودى توهماً منهم أن الإسلام يبيح ترجيح المسلم على غيره ونصره ظالماً أو مظلوماً كما يعهدون فى غيره من الملل . ولكنهم قبل أن يطمعوا فى ذلك ويهموا به جاءك الوحى ببيان الحق ، وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق . وقيل ان الآية نزلت فى وفد ثقيف إذ قدموا على النبى ﷺ وقالوا جئنا لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا وعلى أن نتمتع بالعزى سنة فردهم . ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ بانحرافهم عن الصراط المستقيم الذى هداهم اليه الإسلام واتباع الهوى والتعاون عليه . ﴿ وما يضرونك من شىء ﴾ وقد عصمك الله من الناس ومن

اتباع الهوى فى الحكم بينهم . وهـــذه الآية ناطقة بأنه ﷺ لم يجادل عنهم ولا أطمعهم فى التحيز لهم قبل نزول الوحى ولا بعده بالأولى

﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ . الكتاب القرآن ، والحكمة مقاصد الكتاب وأسراره ، ووجه موافقتها للفطرة وانطباقها على سنن الاجتماع البشرى ، واتحادها مع مصالح الناس فى كل زمان ومكان .

﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ هو فى معنى قوله تعالى ﴿ وما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ ولا دليل فيه على أن المراد تعليمه الغيب مطلقا بل هو الكتاب والشريعة وخصوصاً ما تضمنته هذه الآيات من العلم بحقيقة الواقعة التى تخاصم فيها بعض المسلمين مع اليهودى

﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ إذ اختصك بالنعم الكثيرة وأرسلك للناس كافة ، وجعلك خاتم النبيين . فيجب أن تكون أعظم الناس شكراً له ، ويجب على أمتك مثل ذلك ليكونوا لهذا الفضل خير أمة أخرجت للناس وقدوة لهم فى جميع الخيرات .

° ° °

لا خَيْرَ فى كثيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إِصْلَاحٍ بين النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيما (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرا (١١٥)

تقدم فى بيان سبب نزول الآيات التى قبل هذه أن (طعمة) الخائن لم يكد يفتضح أمره حتى فر إلى المشركين وأظهر الشرك والطعن فى النبى ﷺ كأنه كان قد أسلم ليتخذ من النبى ﷺ والمؤمنين أعواناً ونصراء يعينونه على اتباع الهوى والخيانة بالعصبية على المخالفين . وما علم أن الإسلام قد جاء ليبطل الخيانة

والضلال ويمحق الأباطيل ويؤيد الحق والفضيلة ويهدى إلى مكارم الأخلاق

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ ان الكلام هنا فى الذين يختانون أنفسهم ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله . ومعناه أن الغالب عليهم الشر ، فهو الذى يجرى فى نجواهم (وهى المسارة بالحديث) لأنه أكبرهمهم ـ إلا من أمر منهم بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . وهذه الثلاثة بجامع الخيرات التى يحتاج فيها إلى النجوى — أن النكتة فى ذكر الكثير هنا هو أن من النجوى ما يكون فى الشئون الخاصة كالزراعة والتجارة مثلا فلا توصف بالشر ولا هى مرادة من الخير ـ وإنما المراد بالنجوى الكثيرة المنفى الخير عنها النجوى فى شئون الناس ، ولذلك استثنى الأمور الثلاثة التى هى مجامع الخير للناس

وهناك أمور فى الخير تتوقف خيريتها أو كمال الخير فيها وخلوه من الشوائب على كتمانه وجعل التعاون عليه سراً والحديث فيه نجوى ، وهو ما ذكره الله تعالى فى هذه الأمور الثلاثة ، فما استثناها الله تعالى من النجوى التى لا خير فى أكثرها إلا لأنها يحتاج فيها إلى النجوى

أما الصدقة فهى من الخيرات التى لا مرية فيها وأن إظهارها قد يؤذى المتصدق عليه ويضع من كرامته . وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة له من اتيانه إياها جهراً ، ولو كان ذلك مع الاخلاص وابتغاء مرضاة الله تعالى ، ولهذا قال عز وجل ﴿ ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾

وأما المعروف — وهو فى اللغة ضد المنكر أى ما تعرفه وتقره النفوس وتتلقاه بالقبول لموافقته للصالح وانطباعه على الطباع والعقول . فالذى يؤمر بالمعروف على مسمع من الناس يستاء فى الغالب من الآمر لا سيما إذا كان من أقرانه حقيقة أو ادعاء لأنه يرى فى أمره إياه استعلاء عليه بالعلم والفضل ، واتهاماً له بالتقصير أو الجهل ، وإشرافاً عليه بالتعليم والتهذيب . من أجل هذا كانت النجوى به أبعد عن الإيذاء وأقرب إلى القبول والامضاء

وأما الاصلاح بين الناس فهو أيضاً من الخير الذى قد يترتب على إظهاره والتحدث به فى الملأ شر كبير ، فينقلب الإصلاح المطلوب إفساداً ، فان من المتخاصمين من إذا علم أن ما يطلب من الصلح كان بأمر زيد من الناس لا يستجيب ولا يقبل . ومنهم من يصده عن الرضا بذلك ذكره بين الناس وعلمهم بأنه كان بسعى وتواطؤ ، كما قد يتناول الصلح بعضاً من أسرار المتخاصمين يكرهون اطلاع الناس عليها ، فالاصلاح بين الناس يحتاج فيه إلى الكتمان ، وأن يكون الأمر به والسعى اليه بين من يتعاونون عليه بالنجوى فيما بينهم

﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ بغى الشىء طلبه بالفعل ، وابتغاه أبلغ من بغاه فى الدلالة على الطلب ، لأنه يدل على الاجتهاد فيه والاعتمال له وإنما تنال مرضاة الله تعالى بالشىء إذا فعل على الوجه الذى يحصل به الخير ويتم به النفع الذى شرع لأجله . ويكون الفاعل له مظهراً لرحمته تعالى وحكمته مع تذكر هذا عند العمل والشعور به . وبذلك يكون أهلا للجزاء الأوفى فى حياة أشرف من هذه الحياة وأرقى . وأن هذا الجزء هو المعبر عنه بالأجر العظيم

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ المشاقة مشتقة من شق العصا أو هى مفاعلة من الشق كأن كل واحد من المتعادين يكون فى شق غير الذى فيه الآخر كما قالوا

والمعنى : لما بين الله تعالى فى الآية التى قبل هذه وعده بالجزاء الحسن للذين يتناجون بالخير ، ويبتغون بنفع الناس مرضاة الله عز وجل : أراد أن يبين فى هذه الآية وعيده لأولئك الذين يتناجون بالشر ويبيتون ما يكيدون به للناس .فهو يقول إن أولئك القوم مشاقون للرسول إذا كانوا يفعلون ما يفعلون بعد أن ظهرت لهم الهداية على لسانه ﷺ وقامت عليهم الحجة بحقيقة ما جاء به . وأما من لم تتبين لهم الهداية فلا يستحقون هذا الوعيد ، وهم متفاوتون فمن نظر منهم فى الدليل فلم يظهر له الحق وبقى متوجها إلى طلبه بتكرار النظر والاستدلال مع الاخلاص فهو معذور غير مؤاخذ كالذى لم تبلغه الدعوة ، وعليه جمهور الأشاعرة . والمشاقة بعد تبين

الهدى إنما تكون عناداً وعصبية أو اتباعاً لشهوة تفوت بهذه الهداية ، فمن يشاقق الرسول فى حياته أو يعادى سنته من بعده ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ الذين هم أهل الهدى ، وإنما سبيلهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو الذى يقول الله تعالى فيه ﴿ نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ وهم أجدر الناس بدخول جهنم وصليها والاحتراق بها وسائر أنواع عذابها لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، وعاندوا الحق واتبعوا الهوى . إن إصلاء جهنم هو تابع لما يتولاه الإنسان من الضلالة فى اعتقاده ، وناهيك به إذا تولاها بعد أن ظهرت الهداية له . وذلك أن الجزاء أثر طبيعى لما تكون عليه النفس فى الدنيا من الطهارة والزكاة والكمال بحسب تزكية صاحبها له ، أو فى ضد ذلك بحسب تدسيته لها . ويدل على هذا وذاك قوله تعالى ﴿ نوله ما تولى ﴾ كأن يقول نوجهه إلى حيث توجه أو نجعله والياً لما اختار أن يتولاه — وحاصل المعنى أن من كان هذا شأنه فهو الجانى على نفسه ، لأن من سنة الله تعالى أن يكون حيث وضع نفسه واختار لها ، وأن مصيره إلى النار وبئس القرار

وفى هذا بيان لسنة الله فى عمل الإنسان وذكر لما أوتيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار . فالوجهة التى يتولاها ويختارها لنفسه يوليه الله إياها أى يجعله والياً لها وسائراً على طريقها . فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختاره لنفسه على حسب الاستعداد والادراك ، وعمل كل فرد ما يرى أنه خير له وأنفع فى عاجله وآجله أو فيهما معاً . ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب لأنه استحب العمى على الهدى وعاند الحق واتبع الهوى . وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر . وقد اشترط فى هذا الوعيد أن يتبين له الهدى ، أما من لم يتبين له فلم يدخل فيه — وهم أصناف : فنهم من نظر فى الدليل ولم يظهر له الحق وبقى متوجهاً إلى طلبه بتكرار النظر والاستدلال مع الاخلاص . وهذا معذور غير مؤاخذ . ومثل هذا مثل من لم تبلغه الدعوة الاسلامية ، أو بلغته مشوهة معكوسة ككثير من أهل أوروبا فى العصر الحاضر

* * *

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا
شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ
خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا
(١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ
مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

بين الله تعالى فى الآية التى قبل هذه الآية أن جهنم هى مصير من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين . وكلا هذين الأمرين كان يكون فى زمن الرسول ظاهراً جلياً بمثل ما فعل طعمة من ترك صحبة النبي والمؤمنين ، وموالاة أعدائهم من المشركين كما يظهر ذلك فى عصره وغير عصره فى كل من بلغته دعوته وتبين له الهدى فيها فتركها وعادى أهلها ووالى أعداءهم ، فان مشاقة ما جاء به الرسول ﷺ ، مشاقة له . وإن كل صنف من أصناف الضالين يوله الله ما تولى ويوجه حيث توجه بكسبه واجتهاده ، لأن الله تعالى وكل أمر النوع الإنسانى إلى نفسه إلا أن يختص من شاء من الناس برحمته من لدنه . وبقى علينا أن نعرف ما يجوز أن يغفر الله تعالى للناس من أنواع ضلالهم وخطاياهم وما لا يغفره البتة فان هذا مما يحتاج اليه فى هذا المقام فبينه تعالى بقوله :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ تقدم صدر هذه الآية فى هذه السورة ، وتتمتها هناك ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً مبيناً ﴾ وقد تقدمها إثبات ضلال أهل الكتاب وتحريفهم ، ودعوتهم إلى الإيمان

عما أنزل الله على نبيه مصدقاً لما معهم ، فقد بين لهم أن اتباع الرسول فيما جاء الرسول به له درجات . فمنها ما تغلب النفوس على مخالفته نزوات الشهوة وثورات الغضب ثم يعود صاحبه ويتوب فهذا مما قد تناله المغفرة . وأما التوحيد الذى هو أساس الدين فلا يغفر الميل عنه إلى ضرب من ضروب الشرك . والآيات تفيد أن السياق هنا كالسياق هناك ، فأعادها لذلك المقصد وهو بيان أن مشاقة الرسول ومخالفته إنما تكون بالخروج عن التوحيد والوقوع فى الشرك ، لأن التوحيد روح الدين وقوامه . فالمناسبة هنا تقتضى أن يعاد هذا المعنى . وهى إعادة تنادى البلاغة بتكرارها ولا تعد من التكرار الذى قالوا انه ينافى البلاغة ، فان هذا إنما يتحقق إذا كان المخاطبون قد فهموا منك معنى تمام الفهم كما تريد ثم ذكرته لهم بعبارة لا تزيدهم فائدة ولا تأثيراً جديداً ولا تمكيناً للمعنى . وأما ما يفيد شيئاً من هذا الذى ذكرناه فهو الذى تقتضيه البلاغة ﴿ ومن يشرك بالله ﴾ أى ومن يشرك بالله أحداً أو شيئاً فيدعوه معه ويذكر اسمه مع اسمه أو يدعوه من دونه ملاحظاً فى دعائه أنه يقربه إليه زلفى ـ وهذا النوع من الشرك فى العبادة الذى يتجلى فى الدعاء هو أقواها ـ وكذلك من يشرك فى ربوبية الله تعالى باتخاذ بعض المخلوقين شارعين يحلون ما يرون تحليله ويحرمون عليه ما يرون تحريمه فيتبعهم فى ذلك ـ من يشرك بالله أى نوع من أنواع الشرك ﴿ فقد ضل ﴾ عن القصد وتنكب سبيل الرشد ﴿ ضلالا بعيداً ﴾ عن صراط الهداية . وعلا فى مهامه الغواية ، لأنه ضلال يفسد العقل ويدسى النفس ، فيخضع صاحبه ويستخذى لعبد مثله ، ويضرع أمام مخلوق يحاكيه أو يزيد عليه فى عجزه ، فيطيع من لا يطاع ، ويرجو ولا موضع للرجاء . ويخاف ولا موطن للخوف . ويكون عبداً للأوهام لا استقلال لعقله فى إدراكه ولا لإرادته فى عمله ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ فهذا أعلى وأعظم ما أعطاه الله تعالى للمصطفين الأخيار من عباده ، وميزهم به على سائر عباده وهو تبليغ رسالته ، والدعوة إلى دينه ، من غير أن يكونوا مسيطرين ولا جبارين ولا آلهة أو أرباباً معبودين ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما

إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾

لما ذكر فى الآية المتقدمة أهل الشرك وضلالهم ذكر فى هذه الآية حالهم وفعالهم فقال :

﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ﴾ أى إنهم « وهم المشركون » لا يدعون من دون الله لقضاء حاجتهم وتفريج كروبهم إلا إناثاً كاللات والعزى . وكان لكل قبيلة صنم يسمونه أنثى بنى فلان . والمراد معبودات ضعيفة أو عاجزة كالإناث لا تدافع عدواً ولا تدرك ثأراً . وكانت العرب تصف الضعيف بالأنوثة . وقيل إن المراد بالإناث هنا الموتى ، لإن العرب تطلق عليهم لفظ الإناث لضعفهم أو يقال لعجزهم . ومع ذلك كانوا يعظمون بعض الموتى ويدعونها كما يفعل كثير من أهل الكتاب ومسلى هذا القرن - ان المراد بالدعاء ذلك التوجه المخصوص بطلب المعونة لهيبة غيبية لا يعقل الإنسان معناها . ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريدا ﴾ أى وما يدعون بدعوتها إلا شيطاناً مريداً . قالوا الشيطان يطلق على العارم « الفاسد والمؤذى والشرير » والخبيث من الجن والإنس - ومرد الشىء إذا مرن عليه حتى صار يأتيه بغير تكلف - أى شيطاناً مرد على الاغواء والإضلال . أو تمرد واستكبر عن الطاعة . ثم وصفه وصفاً آخر فقال ﴿ لعنه الله ﴾ واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة والخزى - أى أبعده الله عن مواقع فضله وتوفيقه وموجبات رحمته . أى أنهم ما يدعون إلا ذلك الشيطان المريد الملعون الذى هو داعية الباطل والشر فى نفس الإنسان بما يوسوس فى صدره ويعده ويمنيه

وقال - يعنى الشيطان - لما لعنه الله ﴿ لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ النصيب : الحصة والسهم من الشىء - والمفروض : المعين - والنصيب المفروض هو ما للشيطان فى نفس كل أحد من الاستعداد للشر الذى هو أحد النجدين فى قوله تعالى ﴿ فهديناه النجدين ﴾ فهذا عون الشيطان على الإنسان ، وهو عام فى الناس حتى المعصومين . ولكن أخبرنا الله تعالى أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين ،

فاذا هو زين لهم شيئاً لا يغلبهم على عمله . فما من إنسان إلا ويشعر من نفسه بوسوسة الشيطان . فان لم يكن بالشرك ، فبالمعصية والاصرار عليها أو الرياء فى العبادة - وقد ورد فى القرآن والحديث الصحيح ما يؤيد هـــذا ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى

والشيطان خلق هكذا ، فدعاؤه دعاء متمرد على الحق بعيد عن الخير يغرى بإغواء البشر وإضلالهم كما عبر عن طبعه وسجيته بصيغة القسم فقال :

﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ﴾ أى لأتخذن منهم نصيباً ، ولأضلنهم عن الحق ، ولأشغلنهم بالأمانى الباطلة . أى هذا شأنه ومقتضى طبعه - والأمانى جمع أمنية ، وهى الصورة الحاصلة فى تمنى الشىء إذا أحب أن يكون له . وإضلال الشيطان لمن يضلهم هو عبارة عن صرفهم عن العقائد الصحيحة بمعنى أن يشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى . وأما التمنية فهى فى الأعمال بأن يزين لهم الاستعجال باللذات الحاضرة والتسويف بالتوبة وبالعمل الصالح ، بل هذا اسم جامع لأنواع وحى الشيطان كلها ، وتغريره للناس بعفو الله ورحمته ومغفرته

﴿ ولآمرنهن فليبتكن آذان الأنعام ﴾ البتك يقال فى قطع الأعضاء والشعر ونتف الريش . والمراد ماكانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم كالبحائر التى كانوا يقطعون أو يشقون آذانها شقاً واسعاً ويتركون الحمل عليها . وكان هذا من أخف أعمالهم الوثنية . ولهذا خصه بالذكر وان كان داخلا فيما قبله

﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ تغيير خلق الله وسوء التصرف فيه عام يشمل التغيير الحسى كالخصاء . وقد رووا تفسيره بالخصاء عن ابن عباس وأنس ابن مالك . وجرى كثير من المفسرين على أن المراد بتغيير خلق الله تغيير دينه . وذهب بعضهم إلى التغيير الحسى وبعضهم إلى أنه التغيير المعنوى وبعضهم إلى ما يشملهما . وقال كثير منهم : ان المراد تغيير الفطرة الانسانية بتحويل النفس عما فطرت عليه من الميل إلى النظر والاستدلال وطلب الحق وتربيتها على الأباطيل

والرذائل والمنكرات . فالله سبحانه قد أحسن كل شيء خلقه . وهؤلاء يفسدون ما خلق الله ويطمسون عقول الناس

﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أى من يتخذ الشيطان ولياً له وتلك حاله فى التمرد والبعد من أسباب رحمة الله وفضله وإغوائه للناس وتزيينه لهم الشرور وسوء التصرف فى فطرة الله وتشويه خلقه بأن يواليه ويتبع وسوسته فقد خسر خسراناً بيناً ظاهراً فى معاشه ومعاده ، إذ يكون أسير الأوهام والخرافات يتخبط فى عمله على غير هدى فيفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل وسائر القوى والمواهب الكسبية التى أوتيها الإنسان وميز بها من بين أصناف الحيوان . ﴿ يعدهم ويمنيهم ﴾ أى يعد الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئاً من أموالهم فى سبيل الله ، ويعدهم الغنى والثروة حين الاغراء بالقمار ، ويؤيد وعوده الباطلة بالأمانى الباطلة . ويدخل فى وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس – وهم قرناء السوء – الذين يزينون للناس الضلال والمعاصى ويعدونهم بالمال والجاه ويمدونهم فى الطغيان — ولولا وعود الشيطان لما عنى أولياؤه بنشر مذاهبهم الفاسدة وآرائهم الباطلة التى يبتغون بها الرفعة والجاه والمال . وهؤلاء موجودون فى كل زمان ويعرفون بمقاصدهم . وقد دل على هذا ما قبله . ولكنه ذكره ليصل به قوله ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ أى إلا باطلا يغترون به ولا يملكون منه ما يحبون . وفسر بعضهم الغرور بأنه إظهار النفع فيما هو ضار أى فى الحال أو المآل كشرب الخمر والقمار والزنا وغير ذلك ، فالزانى أو المقامر أو شارب الخمر يخيل اليه أنه يتمتع باللذات بينما هو فى الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى وخيمة العواقب ، إلى عذاب أخروى لا يعلم كنهه إلا من أحاط بكل شيء علما

﴿ أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ أى أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته أو بإغواء دعاة الباطل والشر من أوليائه مأواهم جهنم لا يجدون

معدلا ولا مخلصاً ولا مهرباً عنها يفرون اليه لأنهم منجذبون اليها بطبعهم يتهافتون فيها كما يتهافت الفراش على النار

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ هؤلاء عباد الله الذين ليس للشيطان ولا لأوليائه عليهم من سبيل ، ذكرهم فى مقابلة أولئك الذين يتولون الشيطان ويتبعون إغواءه ، على سنة القرآن فى قرن الوعد بالوعيد ﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ﴾ أى لا قيل أصدق من قيله ، ولا وعد أحق من وعده ، لأنه هو القادر على أن يعطى كل ما وعد به ، وأما وعد الشيطان فهو باطل حقه ألا يستجاب له أمر ولا نهى ولا تتبع له نصيحة ، فوساوسه أباطيل وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا ما جاءه لم يجده شيئاً . وقد جعل الله تعالى وعده الكريم بالجنات والخلود فى النعيم لمن يؤمن به ولا يشرك به شيئاً ويعمل الصالحات التى تغذى الإيمان وترفع النفس عن دنس الشرك فلم تجعل لله نداً ، ولم تحط بها الخطيئة فى صباحها ومسائها ، وفى غدوها ورواحها

٭ ٭ ٭

لَيسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهلِ الكِتٰبِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيرا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰلِحٰتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرٰهِيمَ خَلِيلا (١٢٥) وَلِلهِ ما فى السَّمٰوٰتِ وَما فى الأَرْضِ ، وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطا (١٢٦)

هذه الآيات بيان لقاعدة الإسلام الكبرى فى العمل والجزاء . . إن ميراث الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأمانى . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة

لا تتخلف ، وقانون لا يحابى : قانون يستوى أمامه المسلمون وأهل الكتاب ، وسنة تجرى على هؤلاء وهؤلاء ، ولا تقف أمام أمنية لهؤلاء أو لهؤلاء . إن صاحب السوء مجزى بالسوء ، وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ، ولا محاباة فى هذا ولا مماراة

﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ يقال فى سبب النزول أنه اجتمع نفر من المسلمين واليهود والنصارى ، وتكلم كل فى تفضيل دينه ، فنزلت الآية . والمعنى بناء على ذلك ليس شرف الدين وفضله ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم : أن دينى أفضل وأكمل وأحق وأثبت ، وإنما عليه إذا كان موقناً به أن يعمل بما يهديه اليه ، فان الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمنى والغرور . فلا أمر نجاتكم أيها المسلمون منوطاً بأمانيكم فى دينكم ، ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بأمانيهم فى دينهم . فأن الأديان ما شرعت للتفاخر والتباهى ، ولا تحصل فائدتها بمجرد الانتماء اليها والتمدح بها بلوك الألسن والتشدق فى الكلام ، بل شرعت للعمل - والآية مرتبطة بما قبلها سواء صح ما روى فى سبب نزولها أم لم يصح ، لأن قوله تعالى « يعدهم ويمنيهم » فى الآيات التى قبلها يدخل فيه الأمانى التى كان يتمناها أهل الكتاب غروراً بدينهم ، إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص . وسرى هذا الغرور إلى أهل الأديان من اتكالهم على الشفاعات ، وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء لذاتهم فهم بكرامتهم يدخلون الجنة وينجون من العذاب لا بأعمالهم ، فحذرنا الله أن نكون مثلهم ، وفى الحديث الصحيح « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » . وقال الحسن : ان قوماً غرتهم المغفرة ، فخرجوا من الدنيا وهم مملوءون بالذنوب . ولو صدقوا لأحسنوا العمل »

﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ هذا بيان من الله لحقيقة الأمر فى المسألة ، فأنه نفى أن يكون الأمر منوطاً بالأمانى والتشهيات وغرور الناس بدينهم . والمعنى أن كل من يعمل سوءاً يلق جزاءه ، لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعى للعمل لا يتخلف فى أتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم - كما يتوهم أصحاب الأمانى

والظنون - فعلى الصادق فى دينه المخلص لربه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه اليه كتابه ورسوله ويجعله معيار سعادته . ومن كان دينه أكمل تكون الحجة عليه فى التقصير أقوى . ﴿ ولا يجد من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ لا يجد له ولياً غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيراً ينصره وينقذه مما يحل به ، لا من الأنبياء الذين تفاخر ويتفاخر أصحاب الأمانى بالانتساب اليهم ولا من غيرهم من المخلوقات التى اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً ، لا على معنى أنها هى الخالقة بل على معنى أنها شافعة وواسطة ، فكل تلك الأمانى كأضغاث أحلام ، برق خلب ، وسحاب جهام . وإنما المدار فى النجاة على الإيمان والأعمال كما صرح به فقال ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ أى من يعمل ما يستطيع عمله من الصالحات - أى الأعمال التى تصلح النفوس فى أخلاقها وآدابها وأحوالها الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والمالية والسياسية ، سواء كان ذلك العامل ذكراً أو أنثى ، وهو متلبس بالإيمان مطمئن به فأولئك العاملون المؤمنـــون بالله واليوم والآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ، ويكونون مظهر فضل الله تعالى وكرمه ، ومحل إحسانه ورضوانه ، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئاً ما ، وان كان بقدر النقير - وهى النكتة التى تكون فى ظهر النواة ، وهى ثقبة صغيرة وتسمى نقرة كأنها حصلت بنقر منقار صغير ويضرب بها المثل فى القلة

ولما بين تعالى أمر النجاة بل السعادة وأنها منوطة بالعمل والإيمان معاً أتبع ذلك ببيان درجة الكمال فى ذلك وهو الدين القيم فقال ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ أى لا أحد أحسن ديناً ممن جعل قلبه خالصـــاً لله وحده لا يتوجه إلى غيره فى دعاء ولا رجاء ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسطاء والحجاب ، بل يكون موحداً صرفاً لا يرى فى الوجود إلا الله وآثار صفاته وسننه فى ربط الأسباب بالمسببات ، فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتى بيوت هذه الخزائن إلا من أبوابها وهى السنن والأسباب ، ولا يدعو معه ولا

من دونه أحداً فى تيسير هذه الأسباب ، وتسهيل الطرق وتذليل الصعاب . وهو مع هذا الإيمان الخالص ، والتوحيد الكامل ، محسن فى عمله متقن لكل ما يأخذ به ، متخلق بأخلاق الله الذى أحسن كل شىء خلقه وأتقن كل شىء صنعه . وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه ، لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من اقبال أو اعراض وسرور أو كآبة . وما فيه هو الذى يدل على ما فى السريرة ﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ بين تعالى بهذه الآية أن اتباع ملة إبراهيم يراد به فيما يظهر ما أشار اليه فى قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فإقامة الدين مرتبة فوق مرتبة التدين المطلق وهى العمل به على وجه الكمال بحيث يقوم بناؤه ويثبت ، وعدم التفرق فيه والتعادى بين أهله ، وكان سيدنا ابراهيم عليه السلام مثلا عالياً فى إخلاص التوحيد وإحسان العمل ، ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلا ﴾ أى اصطفاه لتوحيده وإقامة دينه ، فى زمن وبلاد غلبت عليها الوثنية وقوم أفسد الشرك عقولهم ودنس فطرتهم ، فكان ابراهيم خالصاً مخلصاً لله وبهذا المعنى سماه الله خليلا . والخلة هى المحبة والمودة التى تتخلل النفس وتمازجها . وقد كان ابراهيم كامل الحب لله ، ولذلك عادى أباه وقومه وجميع الناس فى حبه تعالى والاخلاص له . وقيل إن الخليل هنا مشتقة من الخَلة بفتح الخاء وهى الحاجة ، لأن ابراهيم ماكان يشعر بحاجة إلى أحد غير الله عز وجل . والأولى أظهر وأكمل . والمعنى أن ابراهيم قد اتخذه الله خليلا لما كان عليه من سلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة بالوحى والفناء فى التوحيد ، فأين أنتم من ذلك ؟ ﴿ ولله مافى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطاً ﴾ ختم هذا السياق بهذه الآية لفوائد : إحداها ـ التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده فى الآيات التى قبلها ، فان له مافى السموات والأرض خلقا وملكا وهو أكرم من وعد وأقدر من أوعد . ثانيها ـ بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه اليه فى كل حال ، وهذا هو روح الدين وجوهره ، لأنه هو المالك لكل شىء ، وغيره لا يملك بنفسه شيئاً . ثالثها ـ نفى ما ربما يسبق

إلى بعض الأذهان من اللوازم العادية فى اتخاذ ابراهيم خليلا ، كأن يتوهم أحد أن هنالك شيئاً من المناسبة أو المقارنة فى حقيقة الذات أو الصفات ، فبين تعالى أن كل ما فى السموات والأرض ملك له ومن خلقه ، مهما اختلفت صفات تلك المخلوقات ومراتبها فى أنفسها ، وبنسبة بعضها إلى بعض ، فاذا نسبت اليه فهو الخالق المالك المعبود ، وهى مخلوقات مملوكة عابدة له خاضعة لأمره . ﴿ وكان الله بكل شىء محيطاً ﴾ إحاطة قهر وتصرف وتسخير ، وإحاطة علم وتدبير ، ويصح أن تكون إحاطة وجود ، لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ، ولا هى ابتدعت نفسها وإنما وجودها مستمد من ذلك الوجود الواجب الأعلى ، فالوجود الإلهى هو المحيط بكل موجود ، فوجب أن يخلص الخلق له ، ويتوجه العباد اليه وحده ، ولا يشركوا به أحداً من خلقه

فلمن يتوجه الناس غيره ، ومن ذا الذى يعصمهم من الله فى هذه الأرض وفى تلك السموات سواه ؟ !

° ° °

وَيَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَاءِ ، قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى الكِتَٰبِ فى يَتَٰمَى النِّسَاءِ الَّتِى لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لهنَّ وتَرْغَبُونَ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَٰنِ وأنْ تَقُومُوا لِليَتَٰمَى بالقِسْطِ ، وما تفعلوا مِنْ خَيْرٍ فانَّ اللهَ كانَ بهِ عليما (١٢٧) وإنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أو إعْراضاً فلا جُناحَ عَلَيْهِما أنْ يُصْلِحا بَيْنَهما صُلْحاً ، والصُّلْحُ خَيْرٌ ، وأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وإنْ تُحْسِنُوا وتَتَّقُوا فانَّ اللهَ كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبيرا (١٢٨) ولَنْ تَسْتَطِيعُوا أنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ ، فلا تَمِيلوا كُلَّ المَيْلِ فتَذَرُوها كالمُعَلَّقَةِ ، وإنْ تُصْلِحوا وتَتَّقُوا فانَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيما (١٢٩) وإنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ، وكانَ اللهُ وٰسِعاً حَكِيما (١٣٠) ولله

ما فى السموات وما فى الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم
وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فان لله ما فى السموات وما فى الأرض
وكان الله غنيا حميدا (١٣١) ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا
(١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك
قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ،
وكان الله سميعا بصيرا (١٣٤)

كان الكلام أول السورة فى الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقرابة . ومن قوله ﴿ واعبدوا الله ﴾ إلى هنا فى أحكام عامة فى أسس الدين وأصوله ، وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال . ثم عاد الكلام هنا إلى أحكام النساء لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان فى تلك الأحكام ، فالآيات السالفة أوجبت مراعاة حقوق الضعيفين : المرأة واليتيم . وجعلت للنساء حقوقاً مؤكدة فى المهر والإرث . وحرمت ظلمهن ، وأباحت تعدد الزوجات ، وحددت العدد الذى يحل منهن حين الخوف من عدم الظلم . ولكن يحدث بهم الاشتباه فى بعض الوقائع المتعلقة بها كأن يقع الاشتباه فى حقيقة العدل الواجب بين النساء ، هل يدخل العدل فى الحب أو فى لوازمه من زيادة الاقبال على المحبوبة والتبسط فى الاستمتاع بها أولا ، وهل يحل للرجل أن يمنع اليتيمة ما كتب الله لها من الإرث حين يرغب فى نكاحها ؟ وبماذا يصالح امرأته إذا أرادت أن تفتدى منه ـ كل هذا مما تشتد الحاجة إلى معرفته بعد العمل بتلك الأحكام ، فمن ثم جاءت هذه الآيات مبينة أتم البيان لذلك

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً . فلما نزلت آيات المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هى كذلك فيرثان كما يرث الرجل ؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء ، فانتظروا . فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا : لئن تم هذا انه لواجب ما عنه بدّ . ثم قالوا : سلوا ، فسألوا النبى ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية

﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ فعناه : يطلبون منك أيها الرسول الفتيا فى شأنهن ، وبيان المشكل والغامض عليهم فى أحكامهن من حيث الحقوق المالية والزواج لأجلها والنشوز والخصام والصلح والعدل والعشرة والفراق . ويدل على ذلك كله الجواب فى الآيات الأربع ، وهو من إيجاز القرآن البديع . ﴿ قل الله يفتيكم فيهن ﴾ بما ينزله من الآيات فى أحكامهن بعد هذا الاستفتاء ، ﴿ وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان ﴾ أى ويفتيكم أيضاً فيما يتلى عليكم من الآيات التى نزلت فى الأحكام التى تستفتون عنها الآن فيبين لكم أنها أحكام محكمة لا هوادة فيها ، فلا يحل لكم بحال من الأحوال أن تظلموا النساء وأمثالهن من المستضعفين لصغرهم فلا ترغبوا عن أن تنكحوهن لترثوا أموالهن وأن تؤتوا المستضعفين حقوقهم من الميراث لأنهم كانوا لا يورثون الصغار من أولاد الميت ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ أى ويفتيكم أن تقوموا لليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين بالقسط ، أى أن تعنوا عناية خاصة بتحرى العدل فى معاملتهم والإقساط اليهم على أتم الوجوه وأكملها . ولما كان هذا هو الواجب الذى لا هوادة فيه وكان من الكمال أن يعامل اليتيم بالفضل لا بمجرد العدل قال تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير فأن الله كان به عليما ﴾ أى وما تفعلوه من الخير لليتامى بترجيح منفعتهم والزيادة فى قسطهم فهو مما لا يغرب عن علمه تعالى ولا ينسى الإثابة عليه كسائر أفعال الخير . وهذا ترغيب فى الإحسان إلى اليتامى

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ الخوف توقع ما يكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته . والنشوز الترفع والكبر وما يترتب عليهما من سوء المعاملة . والإعراض الميل والانحراف عن الشيء . أى وإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً وترفعاً عليها أو إعراضاً عنها بأن ثبت لها ذلك وتحقق ولم

يكن وهماً أو وسواساً عارضاً إن ظهر لها أن ذلك لكراهته إياها ورغبته عنها

﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ فلا جناح عليها ولا عليه فى الصلح الذى يتفقان عليه بينهما كأن تسمح له ببعض حقها عليه فى النفقة أو المبيت معها أو بحقها كله فيهما أو فى أحدهما لتبقى فى عصمته مكرمة أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق أو بكل ذلك ليطلقها . وإنما يحل الرجل ما تعطيه من حقها إذا كان برضاها ، لاعتقادها أنه خير لها ، من غير أن يكون ملجئاً إليها بما لا يحل له

من ظلمها وإهانتها ﴿ والصلح خير ﴾ من التسريح والفراق ، لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ ، وقيل إن كلمة « خير » ليست للتفضيل وإنما هى لبيان خيرية الصلح فى نفسه . وعروض الخلاف بين الزوجين وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء معاشرة من الأمور الطبيعية التى لا يمكن زوالها من البشر . وأجمل ما جاء فى الإسلام لمنعه هو المساواة بينهما فى كل شىء ، إلا القيام برياسة الأسرة لأنه أقوى من المرأة بدناً وعقلا وأقدر على الكسب ، وعليه النفقة كما جاء فى قوله : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾

﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح أنها عرضة له ، فاذا جاء مقتضى البذل ألمّ بها ونهاها أن تبذل ما ينبغى لها بذله لأجل الصلح وإقامة المصلحة ، فالنساء حريصات على حقوقهن ، والرجال حريصون على أموالهم أشحة بها ، فينبغى أن يكون التسامح بينهما أوسع من ذلك وهو ما تشير اليه الجملة الآتية :

﴿ وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أى وإن تحسنوا العشرة فيما بينكم فتتراحموا وتتعاطفوا ويعذر بعضكم بعضاً وتتقوا النشوز والاعراض وما يترتب عليهما من منع الحقوق أو الشقاق ، فان الله كان بما تعملونه من ذلك خبيراً لا يخفى عليه شىء من دقائقه ولا من خفاياه ولا من قصدكم فيه ، فيجزى الذين أحسنوا منكم بالحسنى والذين اتقوا بالعاقبة الفضلى . قال بعض المفسرين : المراد بهذه الجملة حث الرجال على الحرص على نسائهم وعدم النشوز والإعراض عنهن وإن كرهوهن لكبرهن أو دمامتهن كما قال فى آية أخرى ﴿ فان كرهتموهن فعسى

أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ . ﴿ وان تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ هذه فتوى أخرى ، والمستفتون عنها هم الذين كان عندهم زوجتان أو أكثر من قبل نزول ﴿ فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ﴾ ومثلهم من عدّد بعد ذلك نادباً إلى العدل حريصاً عليه ثم ظهر له وعورة مسلكه ، فبين الله تعالى أن العدل الكامل بين النساء غير مستطاع ولا يتعلق به التكليف كأنه يقول : مهما حرصتم على أن تجعلوا المرأتين كالغرارتين المتساويتين فى الوزن - وهو حقيقة معنى العدل - فلن تستطيعوا ذلك بحرصكم عليه . ولو قدرتم عليه لما قدرتم على إرضائهما به . وإذا كان الأمر كذلك فى الواقع ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ إلى المحبوبة منهن المالكة لما لا تملكه الأخرى من القلب ، فتعرضوا بذلك عن الأخرى ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ كأنها غير متزوجة ، وغير مطلقة - فعليكم أن تقوموا بحقوق الزوجية الاختيارية كلها ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فأن الله كان غفوراً رحيما ﴾ أى وإن تصلحوا فى معاملة النساء وتتقوا ظلمهن وتفضيل بعضهن على بعض فى المعاملات الخيرية كالقسم والنفقة فأن الله يغفر لكم ما دون ذلك مما لا ينضبط بالاختيار كالحب ولوازمه الطبيعية من زيادة الاقبال وغير ذلك لأن شأنه سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة لمستحقها

﴿ وان يتفرقا ﴾ أى وان يتفرق الزوجان اللذان يخافان - كلاهما أو أحدهما - أن لا يقيما حدود الله . كالذى يكره امرأته لدمامتها أو كبرها ويريد أن يتزوج غيرها ولم يتصالح معها على شىء يرضيان به ، أو كالذى عنده زوجتان لا يقدر أن يعدل بينهما ولا تسمح المرغوب عنها بشىء من حقوقها بمقابل ولا غير مقابل - أن يتفرق هذا على ترجيح الطلاق وهذا على دوام الزوجية (كما يدل عليه اسناد الفعل اليهما) وعدم حرص أحد منهما على استرضاء الآخر وصلحه ﴿ يغن الله كلا من سعته ﴾ يغنى كلا منهما عن صاحبه بسعة فضله ، فقد يسخر للمرأة رجلا

خيراً منه يقوم لها بحقوقها ، كما يهيء له امرأة أخرى تحصنه وترضيه فيستقيم أمر بيته وتربية أولاده - ولن يكون كل منهما جديراً بعناية الله وإغنائه عن الآخر إلا إذا التزما حدود الله بأن اجتهدا فى الوفاق والصلح وظهر لهما بعد التفكير والتروى والأسباب أنه غير مستطاع فافترقا وهما حافظان لكرامتهما ﴿ وكان الله واسعاً حكيما ﴾ أى كان ولا يزال واسع الفضل والرحمة يوفق بين الأقدار ويؤلف بين الأسباب والمسببات ، حكيما فيما شرعه من الأحكام ، جاعلا لها على وفق مصالح الناس

بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين — بين أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد لأن كل ما فى السموات والأرض ملكه فهو مستغن عنهم وقادر على إثابتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصلحتهم بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العمل بها والوقوف عند حدودها

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ ملكا وخلقاً وعبيداً فبأمره وحده قام نظام الأكوان وله وحده التدبير الذى ينتظم به أمر الإنسان . أى من يملك ما فى السموات والأرض لا يتعذر عليه الاغناء بعد التفرقة والإيناس بعد الوحشة إلى نحو هذا مما ينبيء بعظيم القدرة وكمال الجود والاحسان . ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ وإياكم ﴾ أى أوصيناكم أيها المسلمون فى كتابكم ﴿ أن اتقوا الله ﴾ فى إقامة سننه وإقامة دينه وشريعته فبإقامة السنن تعلو معارفكم الإلهية وترتقى مرافقكم الدنيوية ، وبإقامة الأحكام والآداب الدينية تزكى أنفسكم ، وتنتظم مصالحكم المدنية والاجتماعية ، ﴿ وان تكفروا ﴾ نعمه عليكم ، وتتركوا تقواه بإتيان معاصيه ومخالفة أمره ونهيه ﴿ فإن لله ما فى السموات والأرض ﴾ لا ينقص كفركم من ملكه شيئاً ، وإنما ضرره عليكم ، كما أن منفعة الشكر خاصة بكم ﴿ وكان الله غنياً حميداً ﴾ غنياً عن كل شيء بذاته لذاته

ولأن كل شي له ومنه محمودا بذاته لذاته وكمال صفاته ومحموداً على جميع أفعاله لأنه أحسن كل شيء خلقه ، فهو لا يحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه ، ولا إلى حمدكم لتحقيق حمده ﴿ وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ أعاد تذكيرهم بكونه مالك السموات والأرض ، أى العوالم كلها ، ليتمثلوا عظمته . قادر على إنجاز كل ما وعد وأوعد به ، فيجب أن يكتفوا به فى التوكل لهم . ويستعمل الوكيل بمعنى المهيمن والمسيطر والرقيب ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ﴾ إن يشأ يذهبكم بعذاب ينزله بكم أو أمة قوية يسلطها عليكم فتسلب استقلالكم حتى تجعلكم عبيداً لها لا تستطيعون أن تقوموا بمصالحكم ومنافعكم التى بها وحدتكم ، فأنه يذهبكم ﴿ ويأت بآخرين ﴾ يحلون محلكم فى الوجود أو الحكم والتصرف . والظاهر أن هـذه الآية تنبيه للناس وتوجيه لأفكارهم إلى التأمل فى سننه تعالى بحياة الأمم وموتها ، وكون هذه السنن إذا تعلقت بها المشيئة لا مرد لها ﴿ وكان الله على ذلك قديراً ﴾ لأن بيده ملكوت كل شيء ﴿ من كان يريد ﴾ منكم بسعيه وكدحه وجهاده فى حياته ﴿ ثواب الدنيا ﴾ ونعيمها بالمال والجاه ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ جميعاً ، وقد وهبكم من القوى والجوارح وهداية الحواس والعقل والوجدان والدين ما يمكنكم به نيل ذلك ، فعليكم أن تطلبوا الثوابين جميعاً . والآية تدل على أن الإسلام يهدى أهله إلى سعـادة الدارين ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ : سميعاً لأقوال العباد فى مخاطباتهم ومناجاتهم ، بصيراً بجميع أمورهم فى جميع حالاتهم . فيجب عليهم أن يراقبوه فى أقوالهم وأفعالهم ، فذلك الذى يعينهم على تزكية نفوسهم والوقوف على حدود العدل والفضيلة التى يستقيم بها أمر دنياهم . ويستعدون به للحياة الأبدية فى آخرتهم التى يكون فيها نعيمهم وثوابهم

° ° °

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ
الْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا
الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ، وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا
(١٣٥) يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَـٰبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ
رَسُولِهِ وَالْكِتَـٰبِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ، وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَـٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا (١٣٦)

اقتضت حكمة الله فى ترتيب كتابه أن يجىء بعد تلك الأحكام العملية فى شئون النساء واليتامى أو بعدها وبعد ما قبلها من الأحكام المتعلقة بأهل الكتاب أيضاً أن يعقب عليها بآيات فى العلم الإلهى تذكر المخاطبين بتلك الأحكام بعظمته وسعة ملكه واستغنائه عن خلقه وقدرته على ما يشاء من التصرف فيهم أو إثابتهم على طاعته فيما شرعه لهم لخيرهم ومصلحتهم — تذكرهم بذلك ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العمل به والوقوف عند حدودها وهى هذه الآيات :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ . سبب نزول هذه الآية : كان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابنه أو ابن عمه أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه ويكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضى له ، فنزلت ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ﴾ القوامون بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالاتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها ، فان « قوامين » وهو المبالغ فى القيام بالشىء وهو الاتيان به مستوياً تاماً لا نقص فيه ولا عوج . أى تحروا العدل بالدقة التامة حتى يكون ملكة راسخة فى نفوسكم . والقسط يكون فى العمل كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد ويكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم ﴿ شهداء لله ﴾ ومعنى كون الشهادة لله أن يتحرى فيها الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة ولا محاباة لأحـــد . ﴿ ولو على أنفسكم أو الوالدين أو

الأقربين ﴾ أى كونوا شهداء بالحق لوجه الله وامتثال امره واتباع شرعه الذى الذى تنال به مرضاته ومثوبته ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم ـ ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها ، لأن الشهادة إظهار الحق ، أو على والديكم وأقرب الناس اليكم كأولادكم وإخوتكم ، فأنه ليس من بر الوالدين ولا من صلة رحم الأقربين أن يعانوا على ما ليس لهم بحق بالاعراض عن الشهادة عليهم أو ليها . وأنما البر والصلة فى الحق والمعروف ـ والحق أحق أن يتبع ـ والذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم فتكون المحاباة فى الشهادة من أسباب فشو الظلم والعدوان ، قال عز وجل

﴿ ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ أى إن يكن المشهود عليه من الأقربين أو غيرهم غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، وشرعه أن يتبع فيهما ، فلا تحابوا الغنى طمعاً فى بره ولا خوفاً من شره ، ولا الفقير عطفاً عليه ورحمة به ، فرضاة الفقير ليست خيراً لكم ولا له من مرضاة الله تعالى ، ولا أنتم بأرحم بالفقير وأعلم بمصلحته من ربه عز وجل . ولولا أنه تعالى يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق هى خير للشاهد والمشهود عليه سواء كان غنياً أو فقيراً لما شرع الله ذلك وأوجبه ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أى فلا تتبعوا الهوى وميل النفس إلى أحد ممن كلفتم العدل فيهم أو الشهادة لهم أو عليهم كراهة أن تعدلوا ، بل آثروا العدل على الهوى فبذلك يستقيم الأمر فى الورى ، أو لا تتبعوا الهوى لئلا

تعدلوا عن الحق إلى الباطل فالهوى مزلة الأقدام ﴿ وان تلووا أو تعرضوا فأن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ وهناك قراءتان « تلوا » بضم اللام وإسكان الواو من الولاية ، وقراءة الباقين تلووا بسكون اللام وضم الواو من اللى . والمعنى على الأول وان تلوا أمر الشهادة وتؤدوها أو تعرضوا عن تأديتها وتكتموها فان الله كان خبيراً بعملكم لا يخفى عليه قصدكم ونيتكم فيه ، وعلى الثانى وان تلووا ألسنتكم بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها ، فإن الله كان بعملكم هذا خبيراً فيجازيكم عليه

﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ قال جمهور المفسرين : ان الخطاب فيها للمؤمنين كافة ، أمرهم الله أن يجمعوا بين الإيمان به وبرسوله الأعظم خاتم النبيين والقرآن الذى نزل عليه وبين الإيمان بجنس الكتب التى نزلها على رسله من قبل بعثة خاتم النبيين ، بأن يعلموا أن الله قد بعث قبله رسلا وأنزل عليهم كتبا وأنه لم يترك عباده فى الزمن الماضى سدى محرومين من البينات . ولا يقتضى ذلك أن يعرفوا أعيان تلك الكتب ، ولا أن تكون موجودة

ولما أمر بالإيمان بكل ما ذكر توعد على الكفر بأى شىء منه ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾ فمن يكفر بالله أو بملائكته أو ببعض كتبه أو رسله أو اليوم الآخر فقد ضل عن صراط الحق الصحيح الذى ينجى صاحبه فى الآخرة من العذاب الأليم . ويبعده عن النعيم المقيم ، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طريق الهداية ومحجة السلامة

ومن فرق بين كتب الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى فلا يعتد بإيمانه لأنه إما يتبع الهوى أو يقلد عن جهل وعمى ، ذاك أن سر الرسالة هى الهداية ، ولم يكن بعض النبيين فيها بأكمل من بعض ، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل كان كفره بها دليلا على أنه لم يؤمن بشىء منها إيماناً صحيحاً مبنياً على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها . وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية

* * *

إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءامَنوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَليما (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِياء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فى الْكِتٰبِ أَنْ

إذا سمعتم ءايت الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم ، إن الله جامع المنفقين والكفرين فى جهنم جميعاً (١٤٠) الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكفرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيمة ، ولن يجعل الله للكفرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنفقين يخدعون الله وهو خدعهم وإذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)

بين الله لنا فى هذه الآيات حال أناس من أصحاب الضلال البعيد ـ الذى ذكره فى الآية التى قبلهن ـ آمنوا فى الظاهر نفاقاً أو تقليداً وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم فلم يدع فيها استعداداً لفهم الإيمان ، فلذلك لم يعصمهم من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى ، لأنهم لم يعرفوا حقيقته ولا ذاقوا حلاوته ، ثم وعيد المنافقين كافة وبيان موالاتهم للكافرين ، وما بينهم من التناسب الذى يقتضى اشتراكهم فى الوعيد وتحذير المؤمنين منهم فقال :

﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله

ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ بين تعالى فى هذا الآية وما بعدها حال أناس من أصحاب الضلال البعيد الذى ذكره فى الآية التى قبلهن . وقد روى عن قتادة أن المراد بالآية أهل الكتاب . آمن اليهود بالتوراة ثم كفروا ، وآمن النصارى بالإنجيل ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً بمحمد . وعن ابن زيد ومجاهد أنها نزلت فى المنافقين ـ والمعنى : قد تبين من ذبذبتهم بين الإيمان والكفر أنه قد طبع على

قلوبهم حتى فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وحقيقة مزاياه ، فهم بحسب سنة الله فى خلقه لا يرجى لهم أن يهدوا إلى سبيل من سبله ، ولا أن يغفر لهم ما دنس من أرواحهم من ذنوبه

قضت حكمته تعالى الأزلية أن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثراً فى نفوسهم ، فمن طال عليه أمد التقليد حجب عقله عن نور الدليل حتى لا يجد اليه من سبيل ، ومن طال عليه عهد الفسوق والعصيان حجب عن أسباب الغفران التى ذكرها سبحانه فى قوله ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ ولا شك أن المغفرة وهى محو أثر الذنب من النفس إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح الذى يزيل ما علق فى النفس من تلك الآثام . كما قال تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ قيل إن البشارة تستعمل فيما يسر وفيما يسوء استعمالا حقيقياً ، لأن أصلها الإخبار فيما يظهر أثره فى بشرة الوجه من الانبساط والتمدد أو الانقباض والتغضن . والأليم الشديد الألم . أى بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذى لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب

ثم وصف هؤلاء المبشرين بقوله ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ أى الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء أو أنصاراً متجافين ولاية المؤمنين وتاركيها إلى ولايتهم وممالأتهم عليهم لاعتقادهم أن الدولة ستكون لهم فيجعلون لهم يداً عندهم ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ استفهام تقريع وتوبيخ ان كانوا يبتغون عندهم العزة وهى المنعة والغلبة ورفعة القدر ﴿ فان العزة لله جميعاً ﴾ فهو يؤتيها من يشاء ، فكان عليهم أن يطلبوها منهم بصدق الإيمان والسير على سننه تعالى واتباع هدايته التى ترشدهم إلى طريقها وتبين أسبابها ، وقد آتاها الله نبيه والمؤمنين باهتدائهم بكتابه ، وسيرهم على سننه . ولما أعرض المسلمون عن هذه الهداية التى اعتز بها سلفهم ذلوا وساءت حالهم وصار فيهم منافقون يوالون

الكفار دونهم يبتغون عندهم العزة والشرف وما هم لها بمدركين ، فعسى الله أن يوفق المسلمين إلى الرجوع إلى تلك الهداية فيعودوا إلى حظيرة ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾

﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ ومعنى ﴿ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ﴾ : إذا سمعتم الكلام الذى موضوعه جعل الآيات موضع السخرية والاستهزاء الذى يراد به التحقير والتنفير بمجرد السفه وقول الزور ، فيجب الاعراض عنهم وعدم الجلوس اليهم فى هذه الحال حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ هذا تعليل للنهى ، أى إنكم إن قعدتم معهم تكونون مثلهم وشركاء لهم فى كفرهم ، لأنكم اقررتموهم عليه ورضيتموه لهم ، ولا يجتمع الإيمان بالشىء وإقرار الكفر والاستهزاء به . ويؤخذ من الآية أن إقرار الكفر بالاختيار كفر . ويؤخذ منه أن إقرار المنكر والسكوت عليه منكر . وأن إنكار الشىء يمنع فشوه بين من ينكرونه حتما ، فليعتبر بهذا أهل هذا الزمان ويتأملوا كيف يمكن الجمع بين الكفر والإيمان ، وبين الطاعة والعصيان

﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً ﴾ هذا وعيد للفريقين المستهزئين من الكفار ولمقربيهم من المنافقين بأنهم سيجتمعون فى العقاب كما اجتمعوا على الإثم ، وكذا غيرهم من الفريقين

﴿ الذين يتربصون بكم ﴾ أى الذين ينتظرون بكم أيها المؤمنون ما يحدث من كسر أو نصر أو خير أو شر . وهذا وصف للمنافقين ﴿ فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ﴾ هذا تفصيل للتربص ، أى فإن نصركم الله أو فتح عليكم ادعوا أنهم كانوا معكم وأنهم منكم يستحقون مشاركتكم فى نعمتكم ﴿ وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ أى وإن كان

للكافرين نصيب من الظفر — لأن الحرب سجال — مشوا اليهم ومنوا عليهم بأنهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين بتخذيلهم والتوانى فى الحرب معهم — والاستحواذ يفسرونه بالاستيلاء على الشيء — فهم يقولون للكفار إننا قد استولينا عليكم وتمكنا من الايقاع بكم ولم نفعل بل منعناكم أى جمعناكم وحفظناكم من المؤمنين

﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أى يحكم بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، فهنالك لا تروج دعواهم التى يدعونها عند النصر والفتح وأنهم منكم . ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ أى أن الكافرين لا يكون لهم من حيث هم كافرون سبيل على المؤمنين من حيث هم مؤمنون يقومون بحقوق الإيمان ويتبعون هديه وحكمه . وما غلب الكافرون المسلمين فى الحروب والسياسة وأسبابها العلمية والعملية من حيث هم كافرون ، بل من حيث أنهم صاروا أعلم بسنن الله فى خلقه وأحكم عملا بها ، والمسلمون تركوا ذلك . فليعتبر بذلك المعتبرون . والمسلمون اليوم لا يحملون من الإسلام إلا اسمه وأما ما أمروا به وما نهوا عنه فهم منه فى واد آخر . فكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام حجة عليهم لا لهم . نسأل الله الهداية والتوفيق

لا يزال الحديث فى المنافقين وبيان أحوالهم بعد أن ذكر طرفاً منها قبل ذلك

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ — الخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه ، قال تعالى ﴿ يخادعون الله ﴾ أى يخادعون رسوله وأولياءه ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته . والمنافقون يخادعون الرسول والمؤمنين فيما يقيمون به دين الله ويعملون بما أنزل اليهم أى فهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وأما قوله تعالى ﴿ وهو خادعهم ﴾ فقد قيل إن معناه يجازيهم على خداعهم ، وأنه عبر عن ذلك بالمخادعة للمشاكلة فجعل الجزاء من جنس العمل

﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ أى متثاقلين لا رغبة تبعثهم ولا نشاط

لأنهم لعدم إيمانهم لا يرجون فيها ثواباً فى الآخرة ، فهى عندهم كلفة مستثقلة ، فإذا كانوا بمعزل عن المؤمنين تركوها ، وإذا كانوا معهم سايروهم بالقيام اليها ، ﴿ يراءون الناس ﴾ بها أى يبتغون بذلك أن يراهم الناس المؤمنون فيعدوهم منهم - والمراءاة أن يكون المرء الذى يرائيك بحيث تراه كما يراك فهو فعل مشاركة فى الرؤية ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ قيل معناه أنهم لا ينطقون إلا بالأذكار الجهرية التى يسمعها الناس كالتكبيرات . وقيل إن المراد بالذكر هنا ذكر النفس ، وقيل إن المراد به الصلاة أى لا يصلون إلا قليلا ، وذلك إذا أدركتهم الصلاة وهم مع المؤمنين وكل هذه الأقوال قريبة ، ويجوز أن تراد كلها من اللفظ عند بعض العلماء ، ولعل القول الثانى أقواها

﴿ مذبذبين بين ذلك ﴾ قال الراغب (الذبذبة حكاية صوت الحركة للشىء المعلق ، ثم استعير لكل اضطراب وحركة) والمعنى أى مضطربين مائلين تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين . وقيل بين الكفر والإيمان . ويقوى الأول ﴿ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ فهم يميلون إلى اليمين تارة وإلى الشمال تارة أخرى ، فتى ظهرت الغلبة التامة لأحد الفريقين ادعوا أنهم منه ، كما بينه تعالى فى الآية التى قبل هاتين الآيتين ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ أى ومن قضت سنة الله فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يكون ضالا عن الحق موغلا فى الباطل فلن تجد له أيها الرسول أو أيها السامع سبيلا للهداية برأيك واجتهادك ، فإن سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتحول

هذا هو معنى إضلال الله تعالى الذى يتفق به نصوص كتابه بعضها مع بعض ، وتظهر به حكمته فى التكليف والجزاء . وليس معناه أنه ينشىء فطرة بعض الناس على الكفر والضلال فيكون مجبوراً على ذلك لا عمل له ولا اختيار فيه كعمل المعدة فى الهضم والقلب فى دورة الدم كما توهم من لا عقل له ولا علم . . . لأنهم بهذه الذبذبة التى لا تستقر على حال ، وبذلك الرياء والنفاق ، وبذلك الخداع الذى

يحاولونه مع الله قد اختاروا طريق الضلال . وقد حقت عليهم سنة الله فى أن يضلوا متى سلكوا هذا الطريق وأبعدوا فيه ، وسنة الله لا تتخلف ، ومن حقت عليه سنة الله فلن يؤوب من هذا الضلال

* * *

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْـكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجعلوا لِلهِ عَلَيْـكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءامَنْتُمْ ، وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

بعد أن ذم الله تعالى المنافقين بأنهم مذبذبون لا يستقر لهم قرار ، فهم تارة مع المؤمنين وأخرى مع الكافرين ، حذر المؤمنين أن يفعلوا فعلهم وأن يوالى بعض ضعفائهم الكافرين دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة ويرجون منهم المنفعة

كما فعل حاطب بن أبى بلتعة إذ كتب إلى كفار قريش يخبرهم بما عزم عليه النبي ﷺ فى شأنهم لأنه كان له عندهم أهل ومال

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ إن الولاية معناها النصرة والمراد هنا ولاية النصرة بالقول أو بالفعل بالنسبة لليهود والنصارى الذين كانوا حرباً للنبي ﷺ وللمؤمنين ، فهو لا يشمل من ليسوا كذلك كالذميين إذا استخدمتهم الدولة فى أعمالها الحربية أو الإدارية ، بل لهؤلاء حكم آخر . ﴿ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أى أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على استحقاقكم لعذابه إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين ، لأن هذا من عمل المنافقين . فالسلطان بمعنى الحجة والبرهان ، والمبين بمعنى البين فى نفسه ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ الدرك عبارة عن الطبقة أو

الدرجة من الجانب الأسفل ، لأن هذه الطبقات متداركة متتابعة ، ودل هذا على أن دار العذاب فى الآخرة ذات دركات بعضها أسفل من بعض . وإنما كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار لأنهم شر أهلها بما جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ، وأنفسهم أخس الأنفس . ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ ينقذهم من عذابها أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها . ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ استثنى الله تعالى من ذلك الجزاء الشديد الذى أعده للمنافقين من تابوا من النفاق والكفر بالندم على ما كان منهم مع تركه والعزم على عدم مفارقته ، وعززوا هذه التوبة بثلاثة أمور - أحدها الاصلاح ، وهو إنما يكون بالاجتهاد فى أعمال الإيمان التى تغسل ما تلوثت به النفس من أعمال النفاق . كالتزام الصدق والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . والأمانة التامة والوفاء وإقامة الصلاة بالخشوع والخضوع ومراقبة الله تعالى وما أشبه ذلك . (ثانيها) الاعتصام بالله ، وهو إنما يكون بالتمسك بكتابه تخلقاً بأخلاقه وتأدباً بآدابه واعتباراً بمواعظه وانتهاء عن منهياته وائتماراً بأوامره بحسب الاستطاعة . (ثالثها) إخلاص الدين لله عز وجل بأن يتوجه اليه وحده فلا يدعو من دونه أحداً ولا يدعو معه أحدا ، لا لكشف ضر ولا لجلب نفع ، ولا يتخذ من دونه أولياء يجعلون وسطاء عنده ، وأن يكون قوله وعمله خالصاً لله وحده ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ أى فأولئك التائبون الذين هم لتلك الأعمال عاملون يكونون مع المؤمنين لأنهم منهم يؤمنون إيمانهم ويعملون عملهم ثم يجزون جزاءهم وما عظم الله تعالى شأنه بقوله ﴿ وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ أى سوف يعطى الله المؤمنين فى الآخرة أجراً لا يعرف أحد كنهه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾

﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ استفهام انكارى بين الله لنا به

أنه سبحانه لا يعذب أحداً من عباده تشفياً منه ولا انتقاماً بالمعنى الذى يفهمه الناس من الانتقام بحسب استعمالهم إياه فيما بينهم ، وإنما ذلك جزاء كفرهم بنعم الله عليهم بالحواس والعقل والوجدان والجوارح باستعمالها فى غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها إلى تكميل نفوسهم بالعلوم والفضائل والأعمال النافعة وكفرهم بالله تعالى باتخاذهم شركاء . فبكفرهم بالله تعالى وبنعمه عليهم فى الآفاق وفى أنفسهم تفسد فطرتهم وتتدنس أرواحهم فتهبط بهم فى دركات الهاوية ويكونون هم الجانين على أنفسهم . ولو شكروا وآمنوا فطهرت أرواحهم من دنس الشرك والوثنية ، وظهرت آثار عقولهم وسائر قواهم بالأعمال الصالحة لمعاشهم ومعادهم ، اعرجت بهم تلك الأرواح القدسية إلى المقام الكريم والرضوان الكبير فى دار النعيم . وقدم الشكر هنا على الإيمان لأن معرفة النعم والشكر عليها طريق إلى معرفة المنعم والإيمان به ﴿ وكان الله شاكراً عليما ﴾ يثيب المؤمنين الصالحين المصلحين على حسب علمه بحالهم . قال عز وجل ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم . ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾

سمى ثباتهم على الشكر شكراً وهم إنما يحسنون بشكره إلى أنفسهم ، وهو غنى عنهم وعن شكرهم وإيمانهم ، ولكن قضت حكمته ، ومضت سنته بأن يكون للإيمان الصحيح والأعمال الصالحة أثر صالح فى النفس يترتب عليه الجزاء الحسن والعكس وبالعكس . وهو الخالق الرازق المنعم المتفضل ، ولكنه يشكر لعبده الصالح عمله الطيب ـ شكراً يناسب ألوهيته فيثيب وينعم ـ فما بال العبد لا يشكر وهو مغمور بآلاء الواهب الكريم ، العليم بكل خالجة فى نفسه ، وبكل هاتف فى حناياه ؟ والله نسأل الهداية والتوفيق وتمام الرضا

(تم الجزء الخامس ـ بعون الله وفضله)

الجزء السادس — من سورة النساء

لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلاّ مَنْ ظُلِمَ ، وكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيما (١٤٨) إنْ تُبْدُوا خَيْراً أوْ تُخْفُوه أو تعفُوا عَنْ سُوء فإنَّ اللهَ كانَ عَفُوّاً قَدِيرا (١٤٩)

بعد أن بين سبحانه كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحجة عليهم ، وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم كما قال ﴿ ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول وإبداء الخير وإخفائه حتى لا يستدل المؤمنون بذكر عيوب المنافقين والكافرين فى القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول أو مشروعيته إذا كان حقاً على الإطلاق فيفشو ذلك . وفى هذا من الضرر ماستذكره . ثم بين سبحانه أن للإيمان ركنين يبنى عليهما ما عداهما ولا يقبل الإيمان بدونهما ، وهما الإيمان بالله وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ ولا الإسرار به كما يعلم من نهيه تعالى عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وأمره بالتناجى بالبر والتقوى فقط ، وإنما خص الجهر هنا بالذكر لمناسبة بيان مفاسد الكفار والمنافقين فى هذا السياق كما علمت . والجهر بالسوء أشد ضرراً من الإسرار به ، لأن ضرره وفساده يفشو إلى جمهور الناس حتى لا يكاد يسلم منه أحد . فالجهر بذكر العيوب والسيئات ومن ينسب اليهم هذا السوء قد يفضى إلى العداوة وهضم الحقوق وسفك الدماء وقد يفضى أيضا إلى القدوة السيئة ، فمن سمع إنساناً يذكر آخر بالسوء لكرهه إياه أو استيائه منه يقلده فى ذلك القول إذا كان لم يسبق له مثله — وحب الله لشىء هو الرضا به والإثابة عليه — والجهر يقابل السر والاخفاء — والسوء من القول ما يسوء من يقال فيه كذكر عيوبه ومساوئه التى تؤذى كرامته

لايحب الله الجهر بالسوء من القول ﴿ إلا من ظلم ﴾ أى لايحب الله الجاهرين

بالسوء إلا المظلومين منهم إذا هبوا لمقاومة الظلم ولو بالقول إذا تعذر الفعل، لأن الله تعالى لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم ويخضعوا للضيم، بل يحب لهم أن يكونوا أعزاء أباة — ﴿ وكان الله سميعاً عليما ﴾ أى كان السمع والعلم لا يزالان من صفاته الثابتة، فهو لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ولا نياتهم فيهما، فمن كان معذوراً فى الجهر بالسوء الذى لا يحبه الله تعالى لعباده لضرره ومفسدته فيهم بسبب الظلم فأنه تعالى لا يؤاخذه ولا يعاقبه على جهره وربما أثابه على ما يقصد من رفع الضيم عن نفسه وإرجاع الظالم إلى رشده وإراحة الناس من شره لأنه إذا لم يؤاخذ على ظلمه إياه يزداد ضراوة فيه وإصراراً عليه إلا أن يكون من كرام الناس وأتقيائهم الذين لا يقع الظلم منهم إلا هفوات

﴿ ان تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ أى ان فاعلى الخيرات جهراً أو سراً والعافين عن الناس الذين يسيئون اليهم يجزيهم سبحانه وتعالى من جنس عملهم، فيعفو عن سيئاتهم ويجزل مثوبتهم، وكان شأنه العفو وهو القدير الذى لا يعجزه اثواب الكثير على العمل القليل، وإذا عفا فأنما يعفو عن قدرة كاملة على العقاب، فصيغة المبالغة من القدرة وهى كلمة « قدير » هى التى تدل على إجزال المثوبة وعلى الترغيب فى العفو مع القدرة على المؤاخذة

° ° °

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

بين الله تعالى لنا فى هذه الآيات أصلى الإيمان الأولين اللذين يبنى عليهما

ما عداهما وكونهما لا يقبل الأول فيهما بدون الثانى، فمن ادعاه فدعواه مردودة، وهما الإيمان بالله وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر — قال تعالى :

﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴾ هذا القول منهم تفسير لتفرقتهم بين الله ورسله، أى يؤمنون بالله ولا يؤمنون برسله، وهم فريقان: منهم من لا يؤمن بأحد من الرسل لإنكارهم الوحى وزعمهم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أتوا بما أتوا به من الهدى والشرائع من عند أنفسهم، وأكثر كفار هذا العصر من هذا الفريق. ومنهم من يؤمن ببعض الرسل دون البعض بل يقولون ذلك بأفواههم ويدسونه بألسنتهم، كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد، وإن لم يسموهما رسولين ﴿ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ﴾ طريقاً بين الإيمان بالله ورسله بفصل أحدهما عن الآخر

﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أى أولئك المفرّقون هم الكافرون الكاملون فى الكفر الراسخون فيه. وأكد هذا الحكم بالجملة المعرفة الجزئية المشتملة على ضمير الفصل بينهما بقوله « حقا ». وأى حق يكون أثبت وأصح مما يحقه الله تعالى حقاً ﴿ وأعتدنا للكافرين ﴾ منهم ومن غيرهم إذ قال « للكافرين » ولم يقل لهم ﴿ عذاباً مهيناً ﴾ أى ذا إهانة تشملهم فيه المذلة والضعة جزاء كفرهم الذى ظنوا فيه العزة والكرامة. ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحاً، ولا يهتدى إلى ما يجب له من الشكر، ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذى يرضيه

ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لا تهمهم إلا شهواتهم، كما أن من يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض كأهل الكتاب لا يعتد بقولهم، لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم

ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل ظهرت بأكملها فى محمد ﷺ فهو قد جاء بكتاب حوى ما لم يحوه كتاب آخر، مع أنه نشأ بين قوم أميين، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعى والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفى الذكر ذكر حال فريق ثالث فقال :

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ فى الإيمان وإن كانوا لا يلتزمون العمل إلا بشريعة الأخير منهم لعلمهم بأنهم كلهم مرسلون من عند الله عز وجل . فالمؤمنون الذين يعتدّ بإيمانهم هم الذين يعرفون حقيقة الرسالة وبها يعرفون الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ لأنهم وقد صح إيمانهم بالله ورسله وكانوا على بصيرة فيه «يهديهم ربهم بإيمانهم» الصحيح إلى العمل الصالح الذى هو أثره ولازمه، فيعطيهم أجورهم بحسب حالهم فى العمل ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ غفوراً لهفوات من صح إيمانه فلم يشرك بربه شيئاً ولم يفرق بين أحد من رسله، رحيما بهم يعاملهم بالإحسان لا بمحض العدل . وقد يخص من شاء بضروب من رحمته التى وسعت كل شىء فلا يشاركهم فيها غيرهم

* * *

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰباً مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ، وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰناً مُبِيناً (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَٰقاً غَلِيظاً (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰناً عَظِيماً (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا

قَتَلُوهُ وما صَلَبُوهُ ولَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وما قَتَلُوه يقيناً (١٥٧) بلْ رَفَعَهُ اللهُ إليهِ، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨) وإنْ مِنْ أهْلِ الْكِتَٰبِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويَوْمَ القِيٰمَةِ يكونُ عليهِمْ شَهِيدا (١٥٩)

بعد أن بين سبحانه حال الذين يكفرون بالله ورسله ويفرقون بين الله ورسله فيقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب ، بين فى هذه الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ بأن ينزل عليهم منها محرراً بخط سماوى يشهد أنك رسول الله اليهم - وقيل أرادوا أن ينزل عليهم كتاب شريعة هذا النبى جملة واحدة كالألواح التى جاء بها موسى ، وكذلك نزل الإنجيل - يقول الله تعالى يسألك أهل الكتاب هذا على سبيل التعنت والتعجيز ، لا بقصد طلب الحجة لأجل الاقتناع . وان تعجب أيها الرسول من سؤالهم وتستنكره وتستكبره عليهم ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ ان سؤال هؤلاء القوم رؤية الله تعالى جهرة أى عياناً كما يرى بعضهم بعضاً أكبر وأعظم من سؤالهم النبى ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وهذا مما يدل على جهلهم وكفرهم بالله تعالى ، لأنهم ظنوا أنه جسم محدود تدركه الأبصار وتحيط به أشعة الاحداق ، وقد عوقبوا على جهلهم هذا ﴿ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ إذ شبهوا ربهم بأنفسهم فرفعوا أنفسهم إلى ما فوق قدرها ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ . والصاعقة نار جوية تشتعل باتحاد الكهربائية الإيجابية بالسلبية . والقرآن بين لنا أنها من الصواعق المعتادة أرسلها الله عليهم عند ظلمهم هذا . ولا يمنع ذلك أن تكون حدثت بأسبابها . والله تعالى يوفق أقدارا لأقدار ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ المثبتة للتوحيد النافية للشرك على يد موسى عليه السلام ، وتقدم بيان هذا فى تفسير سورة البقرة ﴿ فعفونا عن ذلك ﴾ الذنب الذى هو اتخاذ العجل حين تابوا منه تلك التوبة النصوح التى قتلوا بها أنفسهم كما بين الله لنا ذلك فى سورة البقرة ،

﴿ وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴾ أي سلطة ظاهرة بما أخضعناهم له على تمردهم وعصيانهم حتى فى قتل أنفسهم ، ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ أى بسبب ميثاقهم ليأخذوا ما أنزل اليهم بقوة ويعملوا به مخلصين . وقد تقدم هذا فى الجزء الأول - ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً ﴾ أى ادخلوا باب القرية أى المدينة خاضعين لله أو مطأطئى الرءوس مائلى الأعناق ذلة وانكساراً لعظمة الله ، كما يقال سجد البعير إذا طامن رأسه لراكبه . والسفينة تسجد للرياح أى تطيعها ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت ﴾ أى لا تتجاوزوا حدود الله فيه بالعمل الدنيوى . وقد بين لنا تعالى فى سورة البقرة أن بعضهم اعتدى فى السبت ، فهم قد خالفوا فى السبت وخالفوا فى دخول الباب سجداً ، فلا نستغرب بعد هـذا مشاغبتهم للنبى ﷺ ومعاندتهم له . ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أى عهداً مؤكداً ، والظاهر أن المراد بهذا الميثاق الغليظ ما ذكرناه من العمل بالتوراة كلها بقوة واجتهاد وما يتبع ذلك من البشارة بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ﴾ أى فبسبب نقض أهل الكتاب لميثاقهم الذى واثقهم الله به إذ نكثوا فتله ، وأحلوا ما حرمه وحرموا ما أحله ، وكفرهم بآيات الله التى أراهم منها ما لم يره سواهم ، وقتلهم الأنبياء الذين بعثوا لهدايتهم كزكريا ويحيى عليهما السلام ، وقولهم قلوبنا غلف ، وغير ذلك من سيئاتهم التى يذكر أهم كبائرها فى الآيات الآتية - أى بسبب هذا كله فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والغضب وضرب الذلة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال . لأن هذه الذنوب قد مزقت نسيج وحدتهم ، وفرقت شمل أمتهم ، وذهبت بريحهم وقوتهم وأفسدت جميع أخلاقهم ، فكل ما حل بهم من البلاء هو أثر ذلك النقض والكفر والعصيان . ومعنى غلف جمع أغلف وهو الذى عليه غلاف يمنع نفوذ الشىء اليه ، أى أن قلوبهم لا ينفذ اليها شىء مما جاء به الرسول فهى لا تدركه وهو لا يؤثر فيها ﴿ بل طبع الله عليهم بكفرهم ﴾ أى ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق

الواقع ، بل طبع الله عليها بكفرهم ، أى كان كفرهم الشديد وما له من الأثر القبيح فى أخلاقهم وأعمالهم سبباً للطبع على قلوبهم ، أى جعلها كالسكة المطبوعة (الدراهم مثلا) فى قساوتها وتكيفها بطبعة خاصة لا تقبل غيرها من النقوش ، فهم لا يختارون إلا ما ألفوا أو تعودوا ، ومن لم يبصر لم يؤمن . ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ من الإيمان كإيمانهم بموسى والتوراة وهو إيمان لا يعتد به لأنه - على ضعفه فى نفسه - تفريق بين الله ورسله (وتقدم بيان هذا) أو إلا قليلا منهم - كعبد الله ابن سلام وأصحابه - وكذلك كان ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم الخ ﴾ والمراد بالكفر هنا كما يظهر من القرينة الكفر بعيسى ، ولذلك عطف عليه بهت أمه (عليهما السلام) وهو قذفها بالفاحشة . والبهتان الكذب والزور ، فهذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله ولعنته

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴾ أى وبسبب قولهم هذا القول المؤذن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله ورسله . ووصفه هنا بصفة الرسالة للإيذان بتهكمهم به عليه السلام واستهزائهم بدعوته . وهو مبنى على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية كما تزعم النصارى ، إذ جاء فى رواية إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيق وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » .

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ أى والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحاً بالجريمة ، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس ﴿ ولكن شبه لهم ﴾ أى وقع لهم الشبهة أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى ، وإنما صلبوا غيره . ومثل هـــذا الشبه أو الاشتباه يقع فى كل زمان ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ أى وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب فى شك

من حقيقة أمره أى فى حيرة وتردد ما لهم به من علم ثابت قطعى . لكنهم يتبعون الظن أى القرائن التى ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض

قال فى لسان العرب : الشك ضد اليقين . فالشك فى صلب المسيح هو التردد فيه أهو المصلوب أم غيره ؟

﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ أى وما قتلوا عيسى بن مريم قتلا يقيناً أو متيقنين أنه هو بعينه ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة

إن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدى قتله ، فقتلوا آخر ظنا منهم أنه هو

﴿ بل رفعه الله اليه ﴾ هذه الآية كآية آل عمران ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ وقد روى عن ابن عباس تفسير التوفى هنا بالإماتة كما هو الظاهر المتبادر ، وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها وهو الأخذ والقبض . والمراد منه ومن الرفع انقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذى اصطفاه وقربه اليه . قال ابن جرير بسنده عن ابن جريج فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا ،

﴿ وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ فبعزته وهى كونه يَقهر ولا يُقهر ، ويَغلب ولا يُغلب ، أنقذ عبده ورسوله عيسى عليه السلام من اليهود الماكرين ، والروم الحاكمين . وبحكمته جزى كل عامل بعمله ، فأحل باليهود ما أحل بهم ، وسيوفيهم جزاءهم فى الآخرة

﴿ وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ﴾ أى إن كل أحد من أهل الكتاب عند ما يدركه الموت ينكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين ، فيؤمن بعيسى إيماناً حقاً لا زيغ فيه ولا ضلال . فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته ليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله وليس بإله وليس هو بابن لله

وفائدة إخبارهم بذلك — أنه لا ينفعهم حينئذ، فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة

﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ يشهد عليهم بما تظهر به حقيقة أمره معهم، ومنه ما حكاه الله عنه فى آخر سورة المائدة ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ وقد يشهد للمؤمن منهم فى حال الاختيار والتكليف بإيمانه، وعلى الكافر بكفره لأنه مبعوث إليهم، وكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾

° ° °

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ، وَأَعْتَدْنا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

بين الله لنا فى الآيات السابقة ما كان من اليهود من نقض العهد والكفر وقتل الأنبياء . . . ثم بين فى هذه الآيات جزاءهم على ما دون ذلك من سيئاتهم فقال :

﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ أى فبسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولمن قبلهم عقوبة وتربية لهم، لعلهم يرجعون عن ظلمهم . وكانوا كلما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات . وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب . ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم، فكذبهم الله فى مواضع كثيرة كقوله ﴿ كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾

أما الطيبات التى حرمها عليهم فهى فى قوله عز اسمه ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ﴾ الآية . وقد أبهمها الله هنا لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة ، لا بيانها فى نفسها ، كما أبهم الظلم الذى كان سبباً فى العقوبة ليعلم أن أى نوع منه يكون سبباً للعقاب فى الدنيا قبل الآخرة

والعقاب إما دنيوى كالتكاليف الشاقة زمن التشريع والجزاء الوارد فى الكتب على الجرائم كالحد والتعزير وما اقتضته السنن التى سنها الله فى نظم الاجتماع من كون الظلم سبباً لضعف الأمم وفساد عمرانها واستيلاء الأمم الأخرى عليها ، وإما أخروى وهو ما بينه فى الكتاب الكريم من العذاب فى النار

﴿ وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ الصد والصدود المنع ، وهو يشمل صدهم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى ويعاندونه مراراً ، وصدهم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة أو بالأمر بالمنكر والنهى عن المعروف . وهو من البيان والتفصيل للظلم بعد إجماله وإبهامه . وهو أوقع فى النفس وأبلغ فى الموعظة

﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ أى وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على ألسنة أنبيائهم - وهو أخذهم ما أفضلوا على رءوس أموالهم لفضل تأخير فى الأجل بعد محلها - وقد نهوا عنه يعنى عن أخذ الربا

﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ كالرشوة والخيانة ونحوهما مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ : والسحت الكسب الحرام ، فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها بين جزاءهم

عليها فى الآخرة فقال : ﴿ واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ يعنى وجعلنا للكافرين بالله وبرسوله محمد من هؤلاء اليهود الموجع من عذاب جهنم عدة يصلونها فى الآخرة إذا وردوا على ربهم فيعاقبهم بها

ولما أطلق القول فى هذا السياق فى بيان سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم ، وكان ذلك يوهم أن ما ذكر عنهم عام مستغرق لجميع أفرادهم ، جاء الاستدراك عقبه فى بيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد ببصيرتهم وهو ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم ﴾ أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين من اليهود الآخذين فيه بالدليل دون التقليد . الراسخون أى الثابتون فيه ثبات الأطواد بحيث لا يشترون به ثمناً قليلا من المال والجاه ﴿ والمؤمنون ﴾ من عامتهم أو من أمتك أيها الرسول إيمان إذعان يبعث على العمل ، لا إيمان دعوى وعصبية وجدل كما هو المعروف عن المقلدة فى كل الملل ، كل منهم ﴿ يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ أيها الرسول من البينات والهدى فى القرآن ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل عليهم السلام ، لا يفرقون بين الله ورسله بالهوى والعصبية

روى ابن اسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام وأسيد بن سَعْيه وثعلبه بن سَعيه حين فارقوا يهود وأسلموا

﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان

﴿ والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أى والذين يعطون زكاة أموالهم من جعلها الله له وصرفها اليه والمصدّقون بوحدانية الله وألوهيته والبعث بعد الممات والثواب والعقاب ﴿ أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما ﴾ أى هؤلاء الذين هذه صفتهم سنعطيهم جزاء على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره ثواباً عظيما لا يدرك وصفه إلا علام الغيوب

* * *

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

ورُسُلاً لم نقصُصْهُمْ عليكَ ، وكلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تكليما (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرينَ ومُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وكانَ اللهُ عزيزاً حَكِيما (١٦٥) لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والمَلٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وكَفىٰ باللهِ شَهِيدا (١٦٦)

لا يزال الحديث مع أهل الكتاب . فإنه ذكر عنهم أولا أنهم يفرقون بين الله ورسله فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض . ثم انتقل إلى ذكر شىء من عنادهم وإعناتهم للنبى ﷺ وطلبهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وبين أنه لا غرابة فى ذلك فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك وقالوا « أرنا الله جهرة » . ثم ذكر كفرهم بعيسى عليه السلام وبهتهم أمه ومحاولتهم قتله وصلبه . وفى هذا دليل على تأصل العناد فيهم ، ولولا ذلك لما شاغبوك . فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله ممن قبلك - وهنا ختم الكلام فى محاجتهم ببيان أن الوحى جنس واحد ولو كان إيمانهم بالرسل السابقين صحيحاً لما كفروا بمحمد ﷺ .

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ أى إنا بما لنا من العظمة والإرادة المطلقة بمقام الألوهية والرحمة الواسعة التى هى من شأن الربوبية ، قد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن . كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده الذين يدعى الإيمان بهم هؤلاء الناس ، ولم نتزل على أحد من أممهم ولا منهم كتاباً من السماء كما سألوك للتعجيز والعناد . لأن الوحى ضرب من الإعلام السريع الخفى ، وما هو بالأمر المشاهد الحسى ، بل هو أمر روحى ، يُعِدّ الله له النبى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾

الوحى لغة الإيماء والإشارة كما قال تعالى : ﴿ فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ والإلهام الذى يقع فى النفس كما قال : ﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه ﴾ وما يكون غريزة دائمة كما قال : ﴿ وأوحى ربُّك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيُوتاً ومن الشجر ومما يَعرشون ﴾ والإعلام فى خفاء بأن

تعلم إنساناً بأمر تخفيه على غيره كما قال ﴿ شياطينَ الإنس والجن يوحى بعضهُم إلى بعض ﴾ ووحى الله إلى أنبيائه هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت - ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

بدأ الله تعالى بذكر نوح لأنه أقدم نبي مرسل ذكر فى كتب القوم - ثم خص بعض النبيين الذين جاءوا من بعد نوح بالذكر لشهرتهم وعلو مقامهم عند أهل الكتاب فقال ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ﴾ أى وكما أوحينا إلى ابراهيم ومن بعده . فاما ابراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام فجمع على فضله ونبوته عند أهل الكتاب كلهم وعند العرب أيضاً . وكل أولئك الأنبياء الذين ذكروا من بعده من ذريته ، ويعقوب هو ابن اسحاق بن ابراهيم واشتهر بلقب (إسرائيل) ، فسائر أنبياء أهل الكتاب من ذريته ويسمون أنبياء بنى إسرائيل . وأما محمد خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين فهو من نسل أخيه الأكبر اسماعيل الذبيح عليه الصلاة والسلام

وأما الأسباط فجمع سبط فهو يطلق على ولد الولد — وأسباط بنى إسرائيل إثنا عشر سبطا ، وهم أبناء يعقوب العشرة وولدا ابنه يوسف . والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى ولد اسماعيل

﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ أى وكما أعطينا داود كتاباً خاصاً - الزبور الكتاب ، وكل كتاب زبور . وهو هنا اسم للكتاب المنزل على داود ، وقد أفرد بالذكر لأن له شأناً خاصاً عند أهل الكتاب

﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ﴾ أى وأرسلنا غير هؤلاء رسلا قد قصصناهم عليك من قبل تنزيل هذه السورة أوحينا اليهم كما أوحينا إلى هؤلاء ،

وهم المسرودة أسماؤهم أو المبينة قصصهم فى السور المكية . وأجمع الآيات لأسماء الأنبياء قوله تعالى فى سورة الأنعام فى سياق الكلام عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا . ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين - وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس كل من الصالحين - وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين ﴾ وأجمع السور لقصصهم هود وطسم والشعراء . ومنهم هود وصالح وشعيب وهم من العرب

﴿ ورسلا لم نقصصهم عليك ﴾ أى كالمرسلين إلى الأمم المجهول علمها وتاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك كأمم الشرق : الصين واليابان والهند وأمم بلاد الشمال (أوربا) وأمم القسم الآخر من الأرض « أمريكا » . وإنما لم يقص الله تعالى عليه خبر الرسل الذين أرسلهم إلى أولئك الأقوام لأن حكمة ذكر الرسل وفوئد بيان قصصهم له ﷺ لا تتحقق بقصص أولئك المجهول حالهم وحال أممهم عند قومه وجيران بلاده من أهل الكتاب . وهذه الحكم والفوائد هى المشار اليها فى مثل قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ وقوله : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾

وعلينا أن نعلم أن الله أرسل رسلا فى كل الأمم ، فكانت رحمته بهم عامة لا مختصة بشعب معين كما يزعم أهل الكتاب ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ . وهذه حقيقة من حقيقة العلم الإلهى والدين السماوى لم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعم مشاغبوهم أن القرآن مقتبس من كتبهم . وكم فيه من هذه الحقائق ، ولكن طبع على قلوبهم فهم لا يعقلون ، ولا نخوض فى إحصاء الأنبياء والرسل فإنه لا يعلم الا بوحى من الله تعالى ، ولم يبين الله ذلك فى كتابه ولا رسوله فيما صح من الخبر عنه

﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ خاصاً له ميزة عن غيره من ضروب الوحى العام

لأولئك النبيين وليس لنا أن نخوض فى معرفة حقيقته لأنا لم نكن من أهله، فنحن لا نعرف حقيقة كلام بعضنا بعضاً، وكيف تحمل ذرات الهواء الأصوات إلى الآذان، فضلا عن تعرف حقيقة كلام البارى

والوحى إلى الأنبياء يسمى تكليما، والتكليم لهم يسمى وحياً كما قال تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه حكيم عليم ﴾

والحكمة فى الحجاب الاستعداد بالتوجه إلى شىء واحد تتحد فيه هموم النفس وأهواؤها المتفرقة كما كان شأن موسى إذ رأى النار فى الشجرة

والرسول الذى يرسله الله فيوحى بإذنه ما يشاء هو ملك الوحى المعبر عنه بالروح الأمين

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ أى أرسلنا أولئك الرسل الذين منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ـ رسلا مبشرين من آمن وعمل صالحاً بالأجر العظيم، ومنذرين من كفر وأجرم بالعذاب الأليم

﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ بأن يدعوا أنهم ما كفروا وأجرموا إلا لجهلهم ما يجب عليهم من الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ وقال ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾

والخلاصة ـ إن من حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند ما يحاسبهم الله ويقضى بعقابهم، فلولا إرسالهم لكان لهم أن يحتجوا فى الآخرة على عذابهم فيها وعلى عذاب الدنيا الذى كان قد أصابهم بظلمهم

والدين وضع إلهى لا يستقل العقل بالوصول اليه، ولا يعرف إلا بالوحى، وهو موافق لسنن الفطرة فى تزكية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية فى عالم القدس، ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله فى الدنيا والآخرة. ولن يكون هذا

الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح . ﴿ وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ أى وكان الله عزيزاً لا يغالب فى أمر يريده ، ومن عزته ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه . حكيما فى جميع أفعاله ، وحكمته تقضى بهذا الامتناع ، لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجاجهم كما فعلوا مع موسى بعد أن جاءهم بما طلبوا

﴿ لكن الله يشهد بما أنزل اليك ﴾ هذا استدراك على ما علم من السياق من إنكارهم نبوته ﷺ وعدم شهادتهم بها وهى عندهم فى مرتبة المشهود به لوضوحها . فكأنه تعالى يقول لرسوله ﷺ إنهم مع وضوح أمر نبوتك فى نفسه لا يشهدون بما أنزل اليك وإنما كانوا يشهدون لما هو من جنسه ، ولكن الله يشهد لك به فإنه ﴿ انزله بعلمه ﴾ أى متلبساً بعلمه الخاص الذى لم تكن تعلمه أنت ولا قومك من قبل إنزاله إليك ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا - ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ فهو بما فيه من العلوم الإلهية والأدبية والسياسية والاجتماعية ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم ، وبما له من السلطان على الأرواح بهدايته ، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به وأنه وحى من عنده - فكأنه تعالى يقول لنبيه : ماذا يضرك جحود اليهود وعدم شهادتهم لك ، والله يشهد بما أنزله اليك وأنت على يقين من ذلك بالوحى ، وقد أيد شهادته لك بعلمه الذى أودعه هذا القرآن فكان بذلك مثبتاً لحقيقة نفسه وكونه أنزل عليك من ربك بأقوى من إثبات الدعاوى بالبينات والشهادات التى تحتمل النقض . ويؤيدها كذلك يوماً بعد يوم بتصديق ما أنزله فى القرآن من الوعد لك بالفلاح والنصر ، ووعيد من عادوك بالخذلان والخسران

﴿ والملائكة يشهدون ﴾ أيضاً بذلك لأن الذى نزل اليك هو الروح الأمين منهم ، وأنت تراه وتتلقى عنه لا ريب عندك فى ذلك . والله يؤيدك بجند منهم ينفخون روح التثبيت والسكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا

الرعب ﴾ . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ فشهادته أصدق وقوله الحق ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾

* * *

إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قد ضَلُّوا ضَلٰلاً بَعِيداً (١٦٧)
إنّ الَّذين كفَرُوا وظَلَمُوا لم يَكُنِ اللهُ ليغفِرَ لهم ولا ليَهْدِيَهُم طَرِيقاً (١٦٨)
إلاّ طريقَ جهنّمَ خٰلِدِينَ فيها أبداً ، وكانَ ذلكَ عَلَى اللهِ يسيرا (١٦٩)
يٰأيُّها النّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرّسولُ بالحَقّ من ربّكُمْ فآمِنُوا خيْراً لكُمْ ، وإنْ تَكْفُرُوا فإنّ للهِ ما فى السّمٰوٰتِ والأرْضِ ، وكَانَ اللهُ عَليماً حَكِيماً (١٧٠)
يٰأهْلَ الكِتٰبِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا على اللهِ إلاّ الحَقّ ، إنّما المَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمتُهُ ألقٰها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منهُ ، فآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ ، ولا تَقُولُوا ثَلٰثَةٌ ، انتَهُوا خيْراً لَكُمْ ، إنّما اللهُ إلٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحٰنَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لهُ ما فى السّمٰوٰتِ وَما فى الأرضِ ، وَكَفَى باللهِ وَكِيلا (١٧١) لَنْ يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ ولا المَلٰئِكَةُ المُقرّبونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جَمِيعا (١٧٢) فَأمّا الّذينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفّيهِم أجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأمّا الّذينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذّبُهُمْ عَذَاباً ألِيما وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيرا (١٧٣)

بعد أن أوضح سبحانه فى الآيات السالفة الحجة ، وأزال ماكان لليهود من شبهة ، وأثبت نبوة محمد ﷺ بشهادة الله بما أنزل عليه مما لا يستطيع البشر أن يأتوا

بمثله — أنذر فى هذه الآيات من يصر منهم على الكفر ويستمر على الإعراض والظلم وبين لهم سوء العاقبة

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ أى أعرضوا عن طريق الحق والخير الموصلة إلى رضوان الله تعالى ، وحملوا غيرهم على الاعراض عنها بسوء القدوة وتمويه الشبهة ﴿ قد ضلوا ضلالا بعيداً ﴾ بسيرهم فى سبيل الشيطان سيراً حثيثاً بعدوا به عن سبيل الله بعداً شاسعاً حتى لم يعودوا يبصرون ما اتصفت به من الوضوح والاستقامة ، ولا يفقهون أنها هى الموصلة إلى خير العاقبة ومرسى السلامة — ﴿ ان الذين كفروا وظلموا ﴾ أنفسهم بكفرهم وجحودهم للحق وإيثارهم للباطل عليه وقبح عملهم ، وظلموا غيرهم بأغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم التى اختاروها لأنفسهم ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ﴾ أى ليس من شأنه ولا من مقتضى سنته فى خلقه أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء ، لأنهم ارتضوهما فى الدنيا طواعية واختياراً ، والمرء يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ، والكفر والظلم يؤثران فى النفس ويكيفانها بكيفية خاصة من الظلمة وفساد الفطرة لا يزولان بمقتضى سنته تعالى فى النفوس البشرية ، وتأثير عقائدها وأعمالها فيها إلا بما يضاد ذلك الكفر والظلم فى الدنيا من الإيمان الصحيح والعمل الصالح الذى يزكى النفس ويطهرها فتنشأ خلقاً جديداً ، ولا سبيل إلى ذلك يوم الحساب وما يتلوه من الجزاء المشار اليه بقوله ﴿ ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم ﴾ أى ليس من شأنه ولا من مقتضى سنته أن يهديهم طريقاً أى يوصلهم الى طريق من طريق الجزاء على عملهم إلا طريق جهنم ، وهى تلك الهاوية التى ينتهى اليها كل من يدنس نفسه بالكفر والظلم ، وهى التى اختاروها لأنفسهم وأوغلوا فى السير فيها طول عمرهم ، كالذى يهبط الوادى يكون منتهى شوطه قرارة ذلك الوادى لا قمة الجبل الذى هو فيه . فانتظار المغفرة ودخول الجنة لهؤلاء كانتظار الضد من الضد ، والنقيض من النقيض ، أو انتظار إبطال نظام العالم

ونقض سنن الله تعالى وحكمته فى خلق الانسان - ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أى يدخلونها ويذوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبدا . قيل ان لفظ « أبداً » ينفى أن يراد بالخلود طول المكث فيكون معنى العبارة الخلود الدائم الذى لا نهاية له . والصواب أن هذا معنى اصطلاحى لا لغوى . أما معنى الخلود فى اللغة فهو كما يؤخذ من مفردات الراغب بقاء الشىء مدة طويلة على حال واحدة لا يطرأ عليه فيها تغير ولا فساد . وقالوا فى المثل « طال الأبد على لبد » يضرب ذلك لكل ما قدم . وقالوا أبد بالمكان أبودا أقام به ولم يبرحه . ولم يكن عندهم شىء بمعنى اللانهاية يدور فى كلامهم - ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أى وكان ذلك الجزاء سهلا على الله دون غيره . لأنه مقتضى سنته ولا يعصى على قدرته ، فعلى العاقل أن يتدبر ويفكر ليعلم أنه لا ملجأ له من الله ولا مفر ، ولكل نبأ مستقر ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ نادى الله تعالى بهذه الآية جميع الناس فى سياق خطاب أهل الكتاب ، لأن الحجة إذا قامت عليهم بشهادة الله تعالى بنبوة محمد ﷺ ووجب الإيمان به فبالأولى تقوم على غيرهم ممن ليس لهم كتاب ككتابهم . وذكر الرسول ههنا معرفاً لأن أهل الكتاب قد بشروا به ، وكانوا ينتظرون بعثه بعنوان أنه الرسول الكامل الذى هو المتمم الخاتم . ومعنى كونه جاء الناس بالحق من ربهم أنه جاءهم بالقرآن الذى هو أبلغ بيان للحق وأظهر الآيات المؤيدة له ، واختيار لفظ الرب هنا للاشعار بأن هذا الحق جاء به بقصد تربية المؤمنين وتكميل فطرتهم وتزكية نفوسهم ، ولهذا قال ﴿ فآمنوا خيراً لكم ﴾ ، أى إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ، فان تؤمنوا يكن الإيمان خيراً لكم ، لأنه يزكيكم ويطهركم من الأدناس الحسية والمعنوية ، ويؤهلكم للسعادة الأبدية ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض ﴾ أى وإن تكفروا فإن الله غنى عن إيمانكم وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وما يترتب عليه من سوء عملكم ، لأن له ما فى السموات وما فى الأرض خلقاً وعبيداً . وكل يعبده طوعاً أو كرهاً - أما عبادة الكره وعدم الاختيار فبالخضوع للسنن والأقدار ، وهى عامة فى جميع

الخلق . حتى ما ليس له إدراك ولا عقل . وأما عبادة الاختيار فخاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار . وأمثالهم من جنود الله ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ أى وكان شأنه العلم المحيط والحكمة الكاملة كما يظهر ذلك فى جميع أفعاله وأحكامه وسننه ، فلا يخفى عليه شىء من أمركم فى إيمانكم وكفركم . و لا يعدو حكمته أمر جزائكم . وحاشا علمه وحكمته أن يخلقكم عبثاً وأن يترككم بعد ذلك سدى ، كلا إنه يجزى كل نفس بما تسعى . فطوبى لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . وويل لمن أعرض عن ذكر ربه ولم يرد إلا الحياة الدنيا

بعد أن انتهى من محاجة اليهود وإقامة الحجة عليهم ، وهم قد غلوا فى تحقير عيسى وإهانته وكفروا به - ذكر هنا محاجة النصارى خاصة وأدحض شبهاتهم ، وهم قد غلوا فى تعظيم عيسى وتقديسه كما أدحض اليهود فيما سلف

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ﴾ فتتجاوزوا الحدود التى حدها لكم . فان الزيادة فى الدين كالنقص منه فكلاهما مخرج له عن وضعه ، ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أى الثابت المتحقق فى نفسه ، إما بنص دينى متواتر ، وإما ببرهان عقلى قاطع . وليس لكم على مزاعمكم فى المسيح شىء منها - ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ إلى بنى إسرائيل أمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً وأن يرجعوا عن الإيمان بالجبت والطاغوت . وأمرهم بالتقوى ، وبشرهم بالنبى الخاتم الذى يبين لهم كل شىء ويقيمهم على صراط الاعتدال ويهديهم الى الجمع بين حقوق الأرواح وحقوق الأجساد ، ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ أى وهو تحقيق كلمته التى ألقاها إلى أمه مريم ومصداقها . والمراد كلمة التكوين أو البشارة ، فانه لما أرسل اليها الروح الأمين جبريل عليه السلام بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاما زكياً ، فاستنكرت أن يكون لها ولد وهى عذراء ولم تتزوج ، فقال لها ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له « كن » فيكون ﴾ فكلمة « كن » هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خلق

الشيء وإيجاده ، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة ، ﴿ وروح منه ﴾ أي أنه مؤيد بروح منه تعالى . ويوضحه قوله فيه ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ ، أو أن معناه انه خلق من روح الله ، وهو جبريل عليه السلام . ويوضحه قوله تعالى فى أمه ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾ . وقال تعالى فيها ﴿ فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ وقال بعضهم : ان المراد بالروح هنا النفخ ، أى نفخ الملك بأمر الله فى مريم . ويجوز أن يراد بقوله ﴿ وروح منه ﴾ الأمران معاً ـ وقد سمى الله الوحى روحاً فقال لخاتم رسله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ ـ ﴿ فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أى إذا كان الأمر كذلك فآمنوا بالله إيماناً يليق به وهو أنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وآمنوا برسله كما يليق بهم وهو أنهم عبيد له خصهم بضرب من العلم والهداية (الوحى) ليهدوا الناس إلى الطريق المستقيم إلى ما أمر الله به وما نهى عنه . ولا تقولوا الآلهة ثلاثة أو الله ثلاثة أقانيم كل منها غير الآخر ، ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أى انتهوا عن هذا القول يكن هذا الانتهاء خيراً لكم ، أو انتهوا عنه واتبعوا قول جميع النبيين والمرسلين بتوحيد الله وتنزيهه ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ ليس له أجزاء ولا أقانيم ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات ، ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أى تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد كما تقولون فى المسيح انه ابنه وانه هو عينه . فانه تبارك وتعالى ليس له جنس فيكون له منه زوج يقترن بها فتلد له ابناً

﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى ليس له ولد خاص مولود منه يصح أن يسمى ابنه حقيقة ، بل له كل ما فى السموات وما فى الأرض ـ والمسيح من جملتها ـ خلق كل ذلك خلقا ، وكل ذى عقل منها وإدراك يفتخر بأن يكون له عبداً ﴿ إن كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ لا فرق فى هذا بين الملائكة المقربين ، والنبيين الصالحين ، كما صرحت به الآية التالية لهذه

الآية ولا خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم ، ومن خلق من أصل واحد كحواء وعيسى ، ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى ، كلهم بالنسبة اليه تعالى سواء ، عبيد له من خلقه ، محتاجون دائماً إلى فضله ، يتصرف فيهم كما يشاء

﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ أى به الكفاية لمن عرفه وعرف سننه فى خلقه إذا وكلوا إليه أمورهم ، ولم يحاولوا الخروج عن سننه وشرائعه بسوء اختيارهم . وقيل أى حسب ما فى السموات وما فى الأرض بالله قيما ومدبراً ورازقاً . وقيل معناه وكفى بالله حافظاً لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها . فهو تسلية للرسول ﷺ ووعيد للقائلين فيه سبحانه بما لا يليق به

﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾ ـ الاستنكاف الامتناع عن الشيء أنفة وانقباضاً منه . والمعنى لن يأنف المسيح ولا يتبرأ من أن يكون عبداً لله ، ولا هو بالذى يترفع عن ذلك ، لأنه أعلم خلق الله بعظمة الله وما يجب له على العقلاء من خلقه من العبودية والشكر . وأن هذه العبودية أفضل ما يتفاضلون به

﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ يستنكفون عن أن يكونوا عبيداً لله أو عن عبادته ، أو لا يستنكف أحد منهم أن يكون عبداً لله ـ ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ﴾ والمعنى ومن يترفع عن عبادته أنفة ويتبرأ منها ، ويجعل نفسه كبيرة فيرى أنه لا يليق بها التلبس بها ﴿ فسيحشرهم اليه جميعاً ﴾ أى فسيحشر هؤلاء المستنكفين والمستكبرين للجزاء مجتمعين مع غير المستنكفين الذين ذكر بعضهم فى أول الآية . فان الله يحشر الخلق كلهم فى صعيد واحد كما ورد ، ثم يحاسبهم ويجزيهم بعملهم كما يجزى غيرهم على النحو المبين فى قوله : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أى يعطيهم أجورهم على إيمانهم وعملهم الصالح وافية تامة كما يستحقون بحسب سننه تعالى فى ترتيب الجزاء على تأثير الإيمان والعمل فى النفس . ويزيدهم عليه من محض فضله وجوده

﴿ أما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ﴾ أى فيعذبهم عذاباً

مؤلماً كما يستحقون بحسب سننه تعالى أيضاً ، ولكن لا يزيدهم على ما يستحقون شيئاً ، لأن الرحمة سبقت الغضب ، فهو تعالى يجازى المحسن بالعدل والفضل ، ويجازى المسىء بالعدل فقط ﴿ ولا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أى ولا يجدون لهم من غير الله تعالى ولياً يتولى شيئا من أمرهم يوم الجزاء والحساب . ولا نصيراً ينصرهم فيدفع عنهم العذاب ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله ﴾

° ° °

يَـٰأَيها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهَٰنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (١٧٥) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَـٰلَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ ما تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ ، فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُما الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَنِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

لما قامت الحجة فى الآيات الأخيرة على النصارى وفيما قبلها على اليهود ، وهم أهل الكتاب والمعرفة بالنبوات والشرائع ، وقامت الحجة قبل ذلك على المنافقين فى أثناء السورة كما قامت على المشركين فيها وفى سور كثيرة ، وظهرت نبوة النبى الخاتم ظهور الشمس ليس دونها سحاب ، لأن سحب الشبهات قد انقشعت بالحجج المشار اليها كل الانقشاع — نادى الله تعالى الناس كافة ودعاهم إلى اتباع برهانه ، والاهتداء بالنور الذى جاء به

فهذه الدعوة للإنسانية عامة ولم تكن لطائفة دون طائفة أو شعب دون شعب أو أمة دون أمة أو جنس دون جنس ، بل للبشرية التى يمثلها الناس . وهذه الدعوة

قائمة على الحجة والبرهان لا على القهر والاذعان قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ أى قد جاءكم من قبل ربكم برهان عظيم أو جلى يبين لكم حقيقة الإيمان الصحيح بالله عز وجل وجميع ماتحتاجون اليه من أمر دينكم ، مؤيداً لكم ذلك بالدلائل والبينات والحكم ، وهو النبى العربى الأمى الذى يظهر لكل من عرف سيرته فى نشأته وتربيته ، وحاله فى بعثته وسنته ، أنه هو نفسه برهان على حقيقة ما جاء به : أمى لم يتعلم شيئاً من الكتب قط ، قام فى كهولته يعلم الأميين والمتعلمين حقائق العلوم الإلهية وصفات الربوبية ، وما يجب لتلك الذات العلية ، وما تزكى به النفس البشرية ، وتصلح به الحياة الاجتماعية ، ويرفع قواعد الإيمان على أساس الحجج الكونية العقلية ، ويسلك هذا المسلك فى بيان الشرائع العملية والحكمة الأدبية والسياسية والحربية والاجتماعية ، كل ذلك كان عن طريق الحجة والبرهان ، فلا غرو أن يسمى هو نفسه برهاناً وهو برهان بسيرته العملية ، كما أنه برهان فى دعوته العلمية الشرعية ، فقد نشأ يتيما لم يعن بتربيته عالم ولا حكيم ولا سياسى ولا كاهن ، بل ترك كما كان ولدان المشركين يتركون وشأنهم فى سن التعليم وتكوُّن الأخلاق والملكات ، يرعى الغنم نهاراً وينام من أول الليل ، فلا يحضر سمار قومه (مواضع السمر فى الليل) ولا معاهد لهوهم . واتجر قليلا فى شبابه مع قومه من أبناء الجاهلية وأترابه - فهو لم يصادف من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعى فى أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذى تصدى له فى كهولته . وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية حربية ، ولكنه قام بهذه التربية أكمل قيام . وما زال يعجز عن مثل ما قام به من يستعدون له بالعلوم والأعمال ، فكان بهذا برهاناً على عناية الله به ، وتأييده إياه بوحيه وتوفيقه ، وذلك قوله عز وجل :

﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أى وأنزلنا إليكم أيها الناس بما أوحينا اليه كتاباً من لدنا هو كالنور بين فى نفسه مبين لكل ما أنزل لبيانه . تنجلى لكم الحقائق ببلاغته وأساليب بيانه ، بحيث لا يشتبه فيها من تدبره وعقل معانيه بل تثبت فى عقله ، وتؤثر فى قلبه ، وتكون هى الحاكمة على نفسه ، والمصلحة له فى عمله

فلما كانت الوثنية تغلغلت فى جميع الأديان المأثورة وأفسدتها على أهلها فقلد بعضهم بعضاً فيما ورثوه منها أنزل الله الهداية البشرية هذا النور المبين (القرآن) فكان أشد إبانة لدقائق مسائل التوحيد وخفاياها من نور الكهرباء المتألق فى هذا العصر فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية والعقلية ، وضرب الأمثال المادية والمعنوية ، والقصص والمواعظ والهداية إلى النظر والتجارب ، وكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضلين ، وأوهام الضالين التى مزجتها بالشرك مزجاً جمع بين الضدين بل النقيضين جميعاً ، ولوّن أساليب الكلام فيها ونوعه لتتقبل النفس تكراره بقبول حسن . ولا يعرض لها من ترتيل آياته شىء من الملل . فكان بيانه فى تشييد صرح الوحدانية وتقويض بناء الوثنية بياناً لم يعهد مثله فى كماله وتأثيره فى كتاب بشرى ولا إلهى . لهذا تعين أن يكون الله تعالى هو المنزل لهذا النور المبين ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾

﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾ الاعتصام الأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ ، مأخوذ من العصام وهو الحبل الذى تشد به القربة والاداوة لتحمل به ، فالذين يعتصمون بهذا القرآن يدخلهم الله تعالى رحمة خاصة منه لا يدخل فيها سواهم ، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم — وقد فسرت الرحمة هنا بالجنة والفضل بما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء ، ويمكن أن يفسرا بما هو أعم من نعيم الآخرة جزاء وزيادة فيشملان ما يكون لأهل الاعتصام بالقرآن الذى هو حبل الله المتين من الخصوصية فى الدنيا إذ يكونون رحمة للناس بعلومهم وأعمالهم وفضائلهم واجتماعهم وتعاونهم وتراحمهم يرحم الناس بالاقتداء بهم والاقتباس منهم . ومن ذلك أنهم يكونون رحماء للناس تحملهم رحمتهم على السعى لخير الناس وبذل فضلهم من علم وعمل ومال ، فيكونون

أئمة الناس برحمتهم وفضلهم ﴿ ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ﴾ أى ويهديهم تعالى هداية خاصة موصلة اليه . صراطاً مستقيماً أى طريقاً قويماً يبلغون به الغاية من القرآن ، أما فى الدنيا فبالسيادة والعز والكمال . وأما فى الآخرة فبالجنة

والرضوان . فهذا الصراط المستقيم لا يهتدى اليه إلا بالاعتصام بالقرآن الكريم . فياخسارة المعرضين . ويا طوبى للمعتصمين

بعد أن تكلم فى أول السورة فى أحكام الأموال ختم آخرها بذلك ليكون الآخر مشاكلا للأول . والوسط يشتمل على المناظرة مع فرق المخالفين للدين :

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ أى يطلبون منك أيها الرسول الفتيا فيمن يورث كلالة : وهو من ليس له والد ولا ولد وله أخوات من عصبته ، وهؤلاء لم يفرض لهم شىء فى التركة من قبل ، وإنما فرض للإخوة من الأم السدس للواحد منهم والثلث لما زاد عن الواحد شركاء فيه مهما كثروا لأنه سهم أمهم ليس لها سواه . فقل لهم : إن الله يفتيكم فى الكلالة التى سألتم عنها بقوله ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ والمعنى : إن هلك أى مات امرؤ عادم للولد أو غير ذى ولد والحال أن له أختاً من أبويه معاً أو من أبيه فقط فلها نصف ما ترك ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أى والمرء يرث أخته إذا ماتت إن لم يكن لها ولد ذكر ولا أنثى ، ولا والد يحجبه عن إرثها كما علم من معنى الكلالة ومن الآيات والقواعد التى سبق أن تكلمنا عنها فى المواريث ، ويرجع فى ذلك إلى كتب الفقه . ﴿ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ﴾ أى فإن كان لمن يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوهما كلالة ، وكذا إن كن أكثر من اثنتين بالأولى ، والباقى لمن يوجد من العصبة إن لم يكن هنالك أحد من أصحاب الفروض كالزوجة ، وإلا أخذ كل ذى فرض فرضه أولا كما هو مقرر . وعبر بالعدد فقال اثنتين دون أختين لأن الكلام فى الأخوة والعبرة فى الفرض بالعدد . ﴿ وإن كانوا إخوة رجالا ونساء ﴾ أى وإن كان من يرثون بالأخوة كلالة ذكوراً وإناثاً ﴿ فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ منهم على القاعدة فى كل صنف اجتمع منه أفراد فى درجة واحدة إلا أولاد الأم فإنهم شركاء فى سدس أمهم لحلولهم محلها ولولا ذلك لم يرثوا لأنهم ليسوا من عصبة الميت . وفى العبارة

تغليب الذكور على الإناث وهو معروف فى اللغة ، ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ أى يبين لكم أمور دينكم ومن أهمها هذه الفرائض وأحكامها كراهة أن تضلوا ، والمراد لتتقوا بمعرفتها والإذعان لها الضلال فى قسمة التركات وغيرها

﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ فما شرع لكم هذه الأحكام وسواها إلا عن علم بأن فيها الخير لكم وحفظ مصالحكم وصلاح ذات بينكم ، كما هو شأنه فى جميع أحكامه . وأفعاله كلها موافقة للحكمة الدالة على إحاطة العلم وسعة الرحمة

وقد تضمنت الآية التى أنزلها الله فى أول هذه السورة بيان ميراث الولد والوالد ، والآية التى بعدها بيان ميراث الأزواج والزوجات والإخوة والأخوات من قبل الأم ، وتضمنت هـــذه الآية التى ختم بها السورة بيان ميراث الإخوة والأخوات من الأب والأم ، والإخوة والأخوات من قبل الاب عند عدم الإخوة والأخوات من الأب والأم ، وتضمن قوله سبحانه ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ أن تدانى القربى سبب فى استحقاق الميراث ، فمن كان أقرب رحماً وأدنى قرابة كان أولى بالميراث من الأبعد ، والخلاف بين الفقهاء فى هذه المسائل وفروعها مذكور فى كتب الفقه

فهرس المجلد الثانى من موجز منتخب لتفسير القرآن

صفحة

٣ ﴿ سورة آل عمران ﴾

٤ الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم — إلى قوله فى الأرض ولا فى السماء

٦ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء

٨ هو الذى أنزل عليك الكتاب

١١ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا

١٢ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم

١٣ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم

١٣ قل للذين كفروا ستغلبون

١٤ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا

١٦ زين للناس حب الشهوات

١٧ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم

١٨ الذين يقولون ربنا آمنا — إلى قوله — والمستغفرين بالأسحار

٢٠ شهد الله أنه لا إله إلا هو — إلى قوله — إن الله سريع الحساب

٢٢ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله

صفحة

٢٣ إن الذين يكفرون بآيات الله — إلى قوله — وما لهم من ناصرين

٢٥ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب — إلى قوله — ما كانوا يفترون

٢٦ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه

٢٧ قل اللهم مالك الملك — إلى قوله — وترزق من تشاء بغير حساب

٣٢ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء

٣٣ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله

٣٣ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً

٣٤ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى — الى قوله — إن الله لا يحب الكافرين

٣٥ إن الله اصطفى آدم ونوحاً — الى قوله — والله سميع عليم

٣٦ إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً — إلى قوله — وإنى أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم

صفحة

٣٧ فتقبلها ربها بقبول حسن

٣٩ هنالك دعا زكريا ربه ـ الى قوله ـ ونبياً من الصالحين

٤٠ قال رب أنى يكون لى غلام

٤٠ قال رب اجعل لى آية

٤١ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك

٤٢ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك

٤٣ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه

٤٤ قالت رب أنى يكون لى ولد

٤٥ ويعلمه الكتاب والحكمة ـ الى ـ إن كنتم مؤمنين

٤٦ ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ـ الى قوله ـ هذا صراط مستقيم

٤٨ اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك

٤٩ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً ـ الى قوله ـ والذكر الحكيم

٥٠ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ـ الى قوله ـ فنجعل لعنة الله على الكاذبين

٥٣ ان هذا لهو القصص الحق ـ الى قوله ـ فان الله عليم بالمفسدين

صفحة

٥٤ قل يا أهل الكتاب

٥٦ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم ـ الى قوله ـ والله يعلم وأنتم لا تعلمون

٥٧ ماكان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً ـ الى قوله ـ والله ولى المؤمنين

٥٨ ودت طائفة من أهل الكتاب

٥٩ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ـ الى قوله ـ وأنتم تعلمون

٦٠ وقالت طائفة من أهل الكتاب ـ الى قوله ـ والله ذو الفضل العظيم

٦١ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ـ الى قوله ـ فان الله يحب المتقين

٦٣ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا

٦٥ وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب

٦٦ ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ـ الى قوله ـ بعد إذ أنتم مسلمون

٦٨ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ـ الى

صفحة

قوله ـ فأولئك هم الفاسقون

٧٠ أفغير دين الله يبغون ـ الى قوله ـ وهو فى الآخرة من الخاسرين

٧٤ كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ـ الى قوله ـ فان الله غفور رحيم

٧٧ إن الذين كفروا بعد ايمانهم

٧٨ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار

٧٩ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

٨٣ كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل ـ الى قوله ـ فاولئك هم الظالمون

٨٣ قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا

٨٤ إن أول بيت وضع للناس ـ الى قوله ـ ان الله غنى عن العالمين

٨٧ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ـ الى قوله ـ وما الله بغافل عما تعملون

٨٨ يا أيها الذين آمنوا ـ الى قوله ـ فقد هدى الى صراط مستقيم

٩٠ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ـ الى قوله ـ لعلكم تهتدون

صفحة

٩٢ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ـ الى قوله ـ وأولئك لهم عذاب عظيم

٩٥ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ـ الى قوله ـ هم فيها خالدون

٩٧ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ـ الى قوله ـ وإلى الله ترجع الأمور

٩٩ كنتم خير أمة أخرجت للناس

١٠١ لن يضروكم إلا أذى ـ الى قوله ـ وكانوا يعتدون

١٠٣ ليسوا سواء من أهل الكتاب ـ الى قوله ـ وأولئك من الصالحين

١٠٤ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه

١٠٥ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ـ الى قوله ـ ولكن أنفسهم يظلمون

١٠٧ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم

١٠٨ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم

١٠٩ ان تمسسكم حسنة تسؤهم

صفحة

١١٤ واذ غدوت من أهلك ـ الى قوله ـ وعلى الله فليتوكل المؤمنون

١١٥ ولقد نصركم الله ببدر ـ الى قوله ـ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم

١١٧ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ـ الى قوله ـ فانهم ظالمون

١١٨ ولله ما فى السموات وما فى الأرض

١١٩ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ـ الى قوله ـ لعلكم ترحمون

١٢١ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ـ الى قوله ـ والله يحب المحسنين

١٢٣ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ـ الى قوله ـ ونعم أجر العاملين

١٢٦ قد خلت من قبلكم سنن ـ الى قوله ـ وموعظة للمتقين

١٢٨ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ـ الى قوله ـ والله لايحب الظالمين

١٣٠ وليمحص الله الذين آمنوا

١٣٢ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ـ الى قوله ـ وأنتم تنظرون

صفحة

١٣٣ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل

١٣٤ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله

١٣٥ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ـ الى قوله ـ والله يحب الصابرين

١٣٨ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ـ الى قوله ـ والله خير الناصرين

١٤١ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب

١٤٣ ولقد صدقكم الله وعده

١٤٥ اذ تصعدون ولا تلوون على أحد ـ الى قوله ـ والله عليم بذات الصدور

١٤٧ ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان

١٤٨ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ـ الى قوله ـ لالى الله تحشرون

١٥١ فبما رحمة من الله لنت لهم

صفحة

١٥٣ إن ينصركم الله فلا غالب لكم

١٥٤ وما كان لنبى أن يغل

١٥٥ أفمن اتبع رضوان الله

١٥٧ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم

١٥٨ أو لما أصابتهم مصيبة قد أصبتم مثليها

١٥٩ وما أصابكم يوم التقى الجمعان - الى قوله - والله أعلم بما يكتمون

١٦١ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا

١٦٢ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا - الى قوله - إن الله لا يضيع أجر المؤمنين

١٦٣ الذين استجابوا لله والرسول - الى قوله - والله ذو فضل عظيم

١٦٦ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه

١٦٨ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر - الى قوله - ولهم عذاب أليم

١٦٨ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم

١٦٩ ماكان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه

صفحة

١٧١ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم

١٧٢ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء - الى قوله - وان الله ليس بظلام للعبيد

١٧٣ الذين قالوا إن الله عهد الينا - الى قوله - والكتاب المنير

١٧٥ كل نفس ذائقة الموت

١٧٨ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

١٨٠ لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا

١٨٠ ولله ملك السموات والأرض

١٨٢ ان فى خلق السموات والأرض - الى قوله - إنك لاتخلف الميعاد

١٨٥ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم

١٨٨ لا يغرنك تقلب الذين كفروا - الى قوله - وما عند الله خير للأبرار

صفحة

١٨٩ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله
١٨٩ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
١٩١ ﴿ سورة النساء ﴾
١٩٣ يا أيها الناس اتقوا ربكم
١٩٤ وآتوا اليتامى أموالهم
١٩٥ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى
١٩٦ وآتوا النساء صدقاتهن
١٩٨ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم
٢٠١ وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح
٢٠٣ للرجال نصيب مما ترك الوالدان
٢٠٤ واذا حضر القسمة أولو القربى
٢٠٥ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا
٢٠٦ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً
٢٠٨ يوصيكم الله فى أولادكم
٢١١ ولكم نصف ما ترك أزواجكم
٢١٤ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله

صفحة

٢١٩ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم
٢٢٠ واللذان يأتيانها منكم
٢٢١ انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة
٢٢٢ وليست التوبة للذين يعملون السيئات
٢٢٣ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً
٢٢٤ واذا أردتم استبدال زوج مكان زوج
٢٢٥ وكيف تأخذونه
٢٢٦ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء
٢٢٧ حرمت عليكم أمهاتكم
٢٣١ والمحصنات من النساء
٢٣٤ ومن لم يستطع منكم طولا
٢٣٦ يريد الله ليبين لكم
٢٣٧ والله يريد أن يتوب عليكم
٢٣٨ يريد الله أن يخفف عنكم
٢٣٩ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل

صفحة

٢٤١ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً
٢٤٢ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه
٢٤٣ ولا تتمنوا ما فضل الله بعضكم على بعض
٢٤٥ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان
٢٤٧ الرجال قوامون على النساء
٢٥٠ وان خفتم شقاق بينهما
٢٥١ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً
٢٥٤ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل
٢٥٥ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس . وماذا عليهم لو آمنوا بالله
٢٥٦ ان الله لا يظلم مثقال ذرة
٢٥٧ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد
٢٥٧ يومئذ يود الذين كفروا
٢٥٨ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى
٢٦٢ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب

صفحة

٢٦٣ والله أعلم بأعدائكم
٢٦٣ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه
٢٦٥ يا أيها الذين أوتوا الكتاب
٢٦٦ ان الله لا يغفر أن يشرك به
٢٦٧ الم تر إلى الذين يزكون أنفسهم
٢٦٧ انظر كيف يفترون على الله الكذب
٢٦٩ الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب
٢٦٩ أولئك الذين لعنهم الله
٢٧٠ أم لهم نصيب من الملك
٢٧٠ أم يحسدون الناس على ما آتاهم
٢٧١ فنهم من آمن به
٢٧٢ ان الذين كفروا بآياتنا
٢٧٢ والذين آمنوا وعملوا الصالحات
٢٧٣ ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها
٢٧٧ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله
٢٧٩ الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا

صفحة

٢٨٠ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله
٢٨٠ فكيف إذا أصابتهم مصيبة
٢٨١ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم
٢٨٢ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع
٢٨٣ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك
٢٨٤ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم
٢٨٥ وإذا لآتيناهم
٢٨٥ ولهديناهم
٢٨٥ ومن يطع الله والرسول
٢٨٧ ذلك الفضل من الله
٢٨٨ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم
٢٩٠ وإن منكم لمن ليبطئن .
٢٩٠ ولئن أصابكم فضل من الله
٢٩٠ فليقاتل فى سبيل الله
٢٩١ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله
٢٩٢ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله
٢٩٤ ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم
٢٩٥ أينما تكونوا يدرككم الموت
٢٩٦ ما أصابك من حسنة فمن الله
٢٩٩ أفلا يتدبرون القرآن

صفحة

٣٠٠ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به
٣٠١ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك
٣٠٢ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها
٣٠٤ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها
٣٠٥ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم
٣٠٦ فما لكم فى المنافقين فئتين
٣٠٨ ودوا لو تكفرون كما كفروا
٣٠٩ إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق
٣٠٩ ستجدون آخرين يريدون أن يامنوكم
٣١١ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ
٣١٣ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم
٣١٤ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا
٣١٦ لا يستوى القاعدون من المؤمنين
٣١٧ درجات منه ومغفرة

صفحة
٣١٧ ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم
٣١٨ الا المستضعفين .
٣١٩ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم
٣١٩ ومن يهاجر فى سبيل الله
٣٢١ واذا ضربتم فى الأرض
٣٢٢ واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة
٣٢٤ فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله
٣٢٦ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم
٣٢٨ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق
٣٢٩ واستغفر الله
٣٣٠ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم
٣٣٠ يستخفون من الناس
٣٣٠ ها أنتم هؤلاء جادلتم
٣٣١ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه - الى قوله - بهتاناً وإثماً مبيناً
٣٣٢ ولولا فضل الله عليك ورحمته - الى قوله - فسوف نؤتيه أجراً عظيما
٣٣٤ لا خير فى كثير من نجواهم
٣٣٥ ومن يشاقق الرسول
٣٣٧ ان الله لا يغفر أن يشرك به

صفحة
٣٣٩ ان يدعون من دونه إلا اناثاً - الى قوله - ولا يجدون عنها محيصا
٣٤٢ والذين آمنوا وعملوا الصالحات
٣٤٣ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل أهل الكتاب - إلى قوله ولا يظلمون نقيراً
٣٤٤ ومن أحسن ديناً - الى قوله - وكان الله بكل شىء محيطا
٣٤٨ ويستفتونك فى النساء
٣٤٨ وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً
٣٥٠ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء - الى قوله - وكان الله واسعاً حكيما
٣٥١ ولله ما فى السموات وما فى الأرض - الى قوله - وكفى بالله وكيلا
٣٥٢ ان يشأ يذهبكم أيها الناس - الى قوله - فان الله كان بما تعملون خبيراً
٣٥٥ يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله
٣٥٦ ان الذين آمنوا ثم كفروا - الى قوله - فان العزة لله جميعاً

صفحة

٣٥٨ وقد نزل عليكم فى الكتاب

٣٥٨ الذين يتربصون بكم

٣٥٩ ان المنافقين يخادعون الله ـ الى قوله ـ فلن تجد له سبيلا

٣٦١ يا أيها الذين آمنوا ـ الى قوله ـ أجراً عظيما

٣٦٢ ما يفعل الله بعذابكم

٣٦٤ لا يحب الله الجهر بالسوء ـ إلى قوله ـ فان الله كان عفواً قديراً

٣٦٦ ان الذين يكفرون بالله ورسوله ـ الى قوله ـ وآتينا موسى سلطاناً مبيناً

٣٦٩ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم

٣٦٩ فبما نقضهم ميثاقهم ـ الى قوله ـ وكان الله عزيزاً حكيما

٣٧١ وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنن

٣٧٢ فبظلم من الذين هادوا ـ الى قوله ـ واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً

صفحة

٣٧٤ لكن الراسخون فى العلم منهم

٣٧٥ انا أوحينا اليك

٣٧٦ ورسلا قد قصصناهم عليك ـ الى قوله ـ وكان الله عليما حكيما

٣٧٩ لكن الله يشهد بما أنزل اليك ـ الى قوله ـ وكان ذلك على الله يسيراً

٣٨٢ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق

٣٨٣ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم

٣٨٥ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ـ الى قوله ـ ولياً ولا نصيراً

٣٨٧ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ـ الى قوله ـ ويهديكم اليه صراطاً مستقيما

٣٨٩ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة

تصويب

نرجو تصحيح ما يأتى قبل الشروع فى قراءة هذا المجلد :

صفحة	سطر	
٦	٧	والسلطة
١٠	١٧	يؤمنون بهذا
١٤	٣	كان لكم
١٥	١٥	اتقوا عند ربهم
٢٠	٧	بالقسط من الناس
٢٠	١٣	علم بالمشاهدة الحسية
٢١	٤	والحكمة إيماء
٢٦	٢٣	دون الانتماء
٢٨	١٤	فانظروا
٤١	٢	وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون
٤٢	١	فقول الملائكة
٤٤	١١	﴿ وكهلا ﴾
٤٤	١٥	والاستفهام عن حقيقته
٤٥	١١	بآية أى متلبساً
٤٥	١٥	يرد عن المعصوم
٤٨	٤	﴿ آمنا بالله ﴾

صفحة	سطر	
٥٥	٤	عزير
٥٦	١٦	لهم جميعا أن
٥٧	آخر ١	انه إله . ومنكم من غلا بالتفريط اذ قال دعى
٥٨	٢٢	وقد قال
٦٧	٤	عزيرا
٦٨	٢٢	تفهم معنى تصديق
٧٠	٤	دين الله واحد
٧٣	١٠	الآية بذكر الإيمان
٧٨	٩	﴿ ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار
٨٣	١٥	سورتى المائدة والانعام
٩٩	١٢	قويا ، ولا يهاب صغير كبيرا ،
١٠١	١١	عندهم منه إلا
١٠٢	٩	أو أقاموا
١٠٣	١٤	الله أى القرآن كتاب الله فى ساعات بالليل

صفحة	سطر	
١٠٤	٦	وما يفعلوا من
١٠٥	١٤	لا يصغى إلى الداعى
١٠٨	٧	وهذا النهى خاص
١٠٩	٥	اليهود الخ ﴾
١٠٩	١٢	بكتابهم وكتابكم فكيف لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم
١١١	٢	أو يكتبهم
١٢١	١٧	لازم له كما
١٢٤	٦	تأكيد للوعد وتفصيل
١٢٧	٩	التعليم بالقول وحده
١٣٥	٩	تعالى لهم المثل
١٣٦	٥	الثبات والصبر
١٣٩	١	حالكم معهم كحال
١٣٩	١٧	عن عقيدته
١٦٢	٩	خير منه للشهداء
١٦٩	١٤	﴿ما كان
١٨٠	١	شورى
٢١٨	٩	بالنعيم المقيم
٢٤٢	١٩	حين قيل له
٢٥١	١٠	جوار الوالدين ،
٢٦٠	١٩	الواجد للماء فى
٢٦١	١٠	تضرب بكفيك التراب

صفحة	سطر	
٢٧٠	٣	والتوبيخ
٢٧٠	١٩	لا يعدو هذه الأمور
٢٨٢	٦	إنا أرسلنا هذا
٢٨٧	١٩	أو انفروا
٢٩٦	١٣	عليه والغاية له
٢٩٨	١٠	قوة الإيمان وضعفه
٣٠٥	١٠	بقتال المشركين عقبه
٣١٩	٤	والولدان فيها يشعر
٣٣١	٣	يجادل الله عنهم
«	«	القيامة ، أم
٣٣٤	٢١	وانطباقه على الطباع
٣٤٤	٣	ولا يجد له من
٣٥٤	١٠	وشرعه أحق ان يتبع
٣٧٣	١	فهى ما بين فى قوله
٣٧٣	٢١	وأعتدنا للكافرين
٣٧٧	٢٠	من حقائق العلم
٣٧٩	٨	اليك وان كانوا
٣٧٩	٢١	نزل به اليك
٣٨١	١٩	طريق من طرق الجزاء
٣٨١	٢٠	وهى الطريق التى اختاروها
٣٨٥	١	الآية ولا من خلقه

297.207:D21hA:v.2:c.1
الدرديري ،يحيي احمد
هداية القرآن لبني الانسان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01009192

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

297.207
D21 h A
V. 2 : c.1